

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE D'ÉTUDES HISTORIQUES

المجلة
التاريخية
المصرية

المراسلات باسم
الأستاذ الدكتور إبراهيم نصحي
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

٢ شارع ناصر الدين المتفرع من شارع عبد السلام عارف (البستان سابقاً)
القاهرة تليفون ٩٧١٩٧٢

مطبعة الجبلاوى
٢٠٢ شارع الترمز البولاقية

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٧٧/٤٠٥

المحتويات

بجوت :

من	الى	
٣	٣٢	التعريب فى العصرين الاموى والعباسى للدكتور توفيق سلطان اليوزبكى
٣٣	٣٨	امراة مصرية ، تنزعم مظاهره للدكتور عبد المنعم ماجد
٣٩	٥٤	صلاح الدين واليهود للدكتور عطية القوصى
٥٥	٨٤	دراسات فى عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى للدكتور صابر دياب
٨٥	١٠٢	دعوة الى احياء تراثنا العلمى للدكتور جلال شوقى
١٠٣	١٥٤	الغزو الهلالى للمغرب للدكتور حسن على حسن
١٥٥	١٦٨	تاريخ البحث فى تاريخ افريقيا للدكتور فوزى مكوى
١٦٩	١٩٢	دور الوحدات العسكرية السودانية للدكتور أحمد ابراهيم دياب

من الى

- بدء إنهاء نظام الإمتيازات الأجنبية في مصر
للدكتور رأفت غنيمى الشيخ . . . ١٩٣ - ٢٢٤
أضواء على موقف وزارة على ماهر
للدكتور عبد الخالق لاشين . . . ٢٢٥ - ٢٦٤

وثائق ونصوص:

- دراسات في مصادر تاريخ مصر في العصر العثمانى
٣ - بلوغ الأرب برفع الطلب
للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . ٢٦٧ - ٣٤٠

Two texts dealing with the mythical ancestors

By

Mohiy Eldin Ibrahim

٣ - ٢٦

Quelques perssonages célèbres au temps pharonique
dans les provinces de Basse Egypte

PAR

Ramadan el Sayed Minieh

٣٧ - ٦٠

بِحُسُوت

التعريب في العصرين الأموي والعباسي

الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

كلية الآداب — قسم التاريخ

لقد أثرت حركة الفتح الإسلامي للعراق وفارس والشام ومصر تأثيراً كبيراً في حياة المجتمع الإسلامي ؛ لأن التوسع الإسلامي بمظاهره العسكرية والبشرية والفكرية أحدث توسعاً ثقافياً وحركة علمية كبرى نابعة من الإسلام وهدفها الدعوة إلى العقيدة الإسلامية ، فأقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم العربية وآدابها وعلى دراسة المصادر الإسلامية للقرآن ، الحديث ، الفقه ، فبرز فيهم الكثير من العلماء الذين أصبح لهم أثر في الثقافة العربية ونشر الحركة الفكرية فدلح أسماء كثير منهم في كتب التاريخ والتراجم والطبقات^(١) . كما أن ظهور الفرق الإسلامية ومذاهبها كان لها أثر أيضاً في توسع الثقافة في البلاد المفتوحة حيث التقت الثقافة العربية بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، ولكل منها صفاتها وميزاتها ، ثم لم تلبث أن اندمجت وانصهرت في بوتقة عربية إسلامية مكونة الحضارة العربية الإسلامية .

(أثر الثقافات الأجنبية ومدارسها في التعريب)

لقد أقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها — كما أشرنا قبلاً — وأخذوا يصوغون أفكارهم وعلمهم وآدابهم بما ينسجم والدين الإسلامي والتقاليد العربية ، فأصبحت اللغة السياسية والثقافية السائدة هي العربية ، لذلك فإن الشعوب (غير العربية) فقدت ذاتيتها اللغوية^(٢)

يمرور الزمن للتقرب من الفاتحين وقد أدى انتشارها إلى شعور شعوب هذه البلدان بالانسجام والتجانس رغم اختلاف قومياتهم وحتى أديانهم . فوحدت اللغة العربية اهتمامهم وشعورهم وأهدافهم وكان لها أثر في إقبال الكثير من غير المسلمين على الدخول في الإسلام^(٣) . ولم يكن لإقبال الشعوب غير العربية على تعلم العربية وترك لغتها الأصلية بسبب الإكراه أو الإكراه وإنما كما يقول المستشرق بارتولد^(٤) : أن غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بإسقاط الحكومة وأن تسامح العرب أدى إلى انتشار العربية فدرس حنين ابن إسحق الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيدويه حتى أصبح حجة في العربية^(٥) . وبعد أن قطع الموالى وأهل الذمة مرحلة كبيرة في تعلم العربية وآدابها أخذوا ينقلون إليها علومهم فاستطاعوا بذلك إضافة علومهم وأفكارهم إلى ذخيرة العرب المسلمين فتكونت من مزيج تلك الحضارات حضارة مطبوعة بالطابع العربي والأسلوب الإسلامي وأخذت تنمو وتزدهر منذ العصور الإسلامية الأولى (الراشدي والاموي) وأنت ثمارها في العصر العباسي حيث أصبحت بغداد حاضرة العالم الإسلامي يتهافت عليها رجال العلم والثقافة والأدب والاقتصاد والمال لما أصبحت تتمتع به من مركز سياسي واقتصادي وثقافي فنبغت أعداد كبيرة من العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ينحدرون من عناصر ذمية وغير عربية ومن أخصهم النصارى والفرس والصابئة . وأهم ما برزوا فيه الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية والبريانية وأقامهم تأثيراً في الحضارة وتأثروا بها اليهود . يقول المستشرق ديورانت^(٦) : ولم يكن لليهود القابلية الفكرية والعلمية على الإبداع الفكري حتى التصوف اليهودي تأثر بالزرادشتية وبالأفلاطونية الحديثة باستبدال الفيض الإلهي بعمالية الخلق وتأثروا بالكتب المسيحية والمتصوفة الهنود والمصريين . ويؤكد ذلك ما جاء في دائرة المعارف اليهودية^(٧) : أن الفلسفة العبرية جاءت عن طريق كتبهم المقدسة وعن طريق تأثرهم بالفلاسفة العرب .

وقد استفاد اليهود من العلوم العربية التي كانت سائدة في البلاد الإسلامية فترجموا البعض من المؤلفات العربية إلى العبرية ، وأتقن بعضهم اللغة العربية وآدابها ، واهتموا بقواعد النحو ومن أولئك مروان بن موسى اليهودي البصري الذي اشتغل بالأدب وضبط النحو ولكنه لم يؤلف فيه^(٨) .

ويبدو أن بروز هؤلاء اليهود في بعض الميادين العلمية يعود إلى اتصالهم بالحضارة العربية الإسلامية فاستقوا من مناهلها علومهم المختلفة .

أما النصارى في العراق فقد نعموا بعد الفتح الإسلامي بالحرية الدينية ولما كان أغلبهم عرباً فقد التفوا حول المسلمين للرباط القومية واللغوية التي تربطهم بإخوانهم العرب فأقبلوا على العناية باللغة العربية وآدابها فأخذوا ينقلون من السريانية إلى العربية لأن اللغة العربية أوسع من السريانية بدليل أن فيها أسماء كثيرة لم تكن موجودة عند السريانيين ولا عند غيرهم بخلاف اسم واحد فقط^(٩) . وأن قبائل الغساسنة في الشام منذ خضوعهم لكنيسة رومة وهم يستخدمون اللغة العربية في طقوسهم الدينية^(١٠) .

وقد برز الصابئة بالفلك والتنجيم واعتبروه عنصراً مهماً من العناصر التي يعتمد عليها دينهم ومستقبلهم فهم يعتقدون أن كل كوكب يحكم في يوم من الأيام ويتحكم ملائكة معينون بالأيام ومن هنا تكون لهم صفات فلكية^(١١) .

ويمزوا أيضاً اهتمام الصابئة بدراسة الفلك والتنجيم إلى اعتقادهم بالنبؤات، وبأثر النجوم على مستقبل الإنسان وعملوا الطلسمات والسحر والكهانة والتنجيم والتقويم والخواتيم^(١٢) .

ولما اتصل الصابئة بالخلافة العباسية صار لهم شأن كبير في نقل هذه العلوم إلى العربية .

ولعل ازدهار الحضارة وتطور العلوم في العصرين الأموي والعباسي يعود إلى رغبة العرب المسلمين في الاطلاع على ما عند الأمم الأخرى من علوم ومعارف حتى قال المستشرق سيديو^(١٢) عنهم : كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة في القرون الوسطى وقد حرروا بربرية أوروبا وسار العرب إلى منافع فلسفة اليونان ولم يقتصروا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبواباً جديدة في مختلف العلوم وإذا ما بحث في الوجه الذي أيقظ الحضارة في الشرق هو حب العرب للعلم وشوقهم إلى تعجيل رقيه بأنفسهم . ولعل تشوق العرب للاطلاع على علوم وثقافات الأمم الأخرى واهتمامهم الباطن بالعلم دفعهم إلى الإبقاء على المؤسسات العلمية التي كانت لأهل النعمة في البلاد المفتوحة ولعل ما ذكره ديورانت^(١٤) يؤيد ذلك كان بنو أمية حكماء إذا تركوا المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية قائمة خاصة في حران ونصيبين وجنديسابور وغيرها ولم يمسوها بأذى . وقد حفظت هذه المدارس أمهات الكتب الفلسفية والعلمية معظمها ترجمت إلى العربية على أيدي الفساطرة المسيحيين . وقد بقيت هذه المدارس تؤدي عملها في العصور الإسلامية وزاد اتصالها بالمسلمين في العصر العباسي . ولا بد من الإشارة إلى دور هذه المدارس في نشر الثقافة .

مدرسة حران :

وحران مدينة تقع في الجزيرة شمال العراق بين الرها ورأس العين وهي مدينة قديمة عاصرت الرومان واليونان والنصرانية والإسلام سكانها من العرب والسريان والآرمن والمقدونيون وقد تأثرت حران بالثقافة المقدونية لدرجة أن الآلهة المعبودة في حران كانت أسماء بعضها يونانية^(١٥) وأصبحت حران منبعاً من منابع الثقافة اليونانية في العهد الإسلامي واتصلت مدرستهم بالخلفاء العباسيين وكان لها شأن كبير في نشر الثقافة اليونانية وفي ترجمة كثير من الكتب عن اليونانية^(١٦) .

وقد برز نخبة من أسانذتها وخريجها لعبوا دوراً كبيراً في تعريب علوم اليونان في الفلك والرياضيات والطب منهم أبو عبد الله البتاني وهو أحد المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحساب النجوم وله كتاب في الزيج والبروج وغيرها^(١٧). ويعتبر ثابت ابن قرة (ت ٢٨١ هـ) أعظم من عرف في مدرسة حران كان يعيد اليونانية والسريانية والعبرية ترجم في المنطق والرياضيات والتنجيم والطب ونقح كتاب أفليدس الذي عربه حنين بن إسحق رحل إلى بغداد وأقام فيها ومن أولاده وأحفاده إبراهيم بن ثابت وأبو الحسن ثابت وإسحاق أبو الفرج وكل هؤلاء نبغوا في الرياضيات والفلك^(١٨) واشتهر ابنه سنان بالطب وكان عالماً بالظواهر الحيوية^(١٩). وكان حفيده إبراهيم بن سنان عالماً بالحكمة والهندسة وله ثلاثة كتب في علم النجوم وله مقالة فيها إحدى وأربعون مسألة هندسية^(٢٠) واشتهر هلال بن إبراهيم بالطب كما اشتهر إبراهيم بن هلال بالأدب وقد رثاه الشريف الرضي^(٢١) لمنزله في الأدب.

أما مدرسة نصيبين :

ونصيبين مدينة تقع بين أعالي بلاد ما بين النهرين ودمشق حصنها الرومان تحصيناً قوياً وأصبحت مركز كرمى الأسقفية لوجود نصارى فيها وأسس مطران نصيبين مدرسة تحاكي مدرسة الإسكندرية في الفلسفة . وكانت الغاية منها نشر اللاهوت الاغريقي بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية^(٢٢) ومزج النصرانية بالأفلاطونية ، وأغلقت مدرسة نصيبين فانتقلت إلى الرها وهكذا انتقلت فكرة مزج النصرانية بالفلسفة في أنحاء الشرق^(٢٣) . وساعد بذلك على نشر كتب الفلسفة اليونانية التي ترجمها النصارى الفساطرة .

وأما مدرسة جند يسابور :

جند يسابور : ومدينة جند يسابور تقع في خوزستان ، أسسها يسابور

الأول، وإليه تنسب وأسكنها الأسرى الذين أسرم من جيش الروم وخاصة الذين كانوا على جانب كبير من الثقافة والخبرة الفنية وكان يؤمل استخدامهم مهندسين ومعماريين وأطباء وسمح لهم باستعمال لغتهم واتباع ديانتهم كما سمح لهم ببناء الكنائس فتعمتوا بالحرية الدينية أكثر مما كان يسمح لهم تحت حكم الامبراطورية الرومانية^(٢٤) وأسس فيها كبرى انوشروان مدرسة للطب كما أنشأ فيها بيمارستان وأول من علم بها الطب من اليونان والهنود فالتقت في هذه المدرسة الثقافة اليونانية والهندية والفارسية^(٢٥) وقد واصلت هذه المدرسة نشاطها العلمي بعد الفتح الإسلامي وزاد إتصالها بالمسلمين في العصر العباسي واشتهر من أساتذتها وطلابها في العصر العباسي جرجيس بن بختيشوع (ت ٧٧١ م) وهو من أطباء المنصور وأقدم مثل لطيفة الأطباء الذائعى الشهرة من أسرته ومنهم حفيده جبريل بن بختيشوع (ت ٨٠٠ م) . ويحيى بن البطريق (ت ٨٠٠ م) الذي اختصه المنصور للقيام بالترجمة . وكذلك زكريا بن يحيى بن البطريق . وعن أشهر في الترجمة والتأليف في الطب ، أبو زكريا يوحنا بن ماسويه (ت ٨٥٧ م)^(٢٦) فكان لهم جيش وشأن كبير في الحركة العلمية في العصر العباسي بفضل هذه المدرسة .

وكانت هذه المدارس لا تقوم فقط بمهمة تعليم مختلف صنوف العلم المعروفة وإنما قامت بدور التعريب والتأليف . وتعتبر الفترة الواقعة بين ظهور الفرق المسيحية وبين الفتح الإسلامي للعراق غنية بالترجمة من اليونانية إلى السريانية وذلك لأن الفرق المسيحية استخدمت الفلسفة اليونانية لتأييد معتقداتها وكانت الترجمة منصبه على علم اللاهوت والدراسات الدينية وبعد الفتح ابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية وذلك منذ العصر الأموي . وشجع الأمويون حركة الترجمة إلى العربية وأول كتاب طبع ترجم إليها كان في خلافة مروان بن الحكم ٦٤ هـ ، وهو كتاب^(٢٧) هرون القس بن اعين

وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها من الأرامية إلى العربية ما سرجويه
الطبيب البصري وزاد عليها مقالتين (٢٨) .

دوافع حركة التعريب :

إن حركة التعريب قديمة ترجع جذورها إلى عصر الراشدين ولكن
هذه الحركة نشطت في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حين جعلوا
اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الدولة ومراسلاتها ، فالبثت أن
اكتسحت لغات الشعوب المفتوحة من فارسية ورومية وقبطية وبربرية
ويونانية وسريانية وعبرية وأصبحت وحدها شائعة في دار الإسلام لأنها
لغة الفاتح ولغة الدين .

إن اقبال أهل الذمة بأعداد كبيرة على الدخول في الإسلام ساعد كثيرا
على إنتشار اللغة العربية بينهم لإتقان القرآن وفرائض الإسلام واقتضت
الحاجة بالنسبة لهؤلاء إلى تنقيط الحروف العربية وإلى إيجاد قواعد اللغة
العربية وهو ما اصطلاح على تسميته فيما بعد بعلم النحو^(٢٩) ، ولعل من أقوى
الشواهد على المكانة التي أصبحت للغة العربية في الحياة الفكرية اهتمام
المثقفين آنذاك بفهمها وتاريخها والاهتمام بفقه اللغة قوى الصلة بالقرآن فكان
من الضرورة الماسة أن يفهم هذا العدد الغفير من الداخلين الحديث بالعربية
التي هي لغة التعبد الإسلامي، وقد دعت الحاجة إلى تمهيد السبل أمام هؤلاء
الاعاجم إلى إمتلاك ناصيته الدقائق المعنوية في العربية والتضلع في متنها
الزائجر بالمفردات وهذا هو السبب الذي جعل معجم الخليل بن أحمد
الفراميدي البصري أساساً لنشأة فقه اللغة العربية وتطوره ، ثم أن سيويوه
الفارسي أحد تلاميذ الخليل قام بخدمة جليلة عندما وضع علم النحو في
صورة نظامية جرت عليها الأجيال المقبلة وكان ينافس سيويوه في هذا العلم
السكسائي الكوفي^(٣٠) . ولذا كان على سكان البلاد المفتوحة أن يتعلموا العربية

وأن يقرأوا ويكتبوا بها ليستفيدوا منها لدينهم ودنياهم حتى اضطروا أن يتعلموا النحو لإصلاح لغتهم^(٢١). وأقبلوا على تعلمها فعلا ونقلوا إليها علومهم وحتى كتبهم المقدسة كالطورا والإنجيل والزبور^(٢٢) وذلك لإظهار تراثهم الحضارى والثقافى للفاتحين ونتيجة لشعورهم برغبة المسلمين للاطلاع على ما عند الأمم الأخرى من علوم ومعارف كما إن إقبال البعض من أهل البلاد المفتوحة على ذلك تحقيقا لمكاسب مادية ومعنوية^(٢٣).

ويبدو أن إقبال المسلمين على تشجيع حركة التعريب يعود أيضا إلى ظهور الفرق الإسلامية وبرز فكرة الاعتزال ، والقول فى القضاء والقدر واحتدام الجدل بين هذه الفرق الإسلامية ، ثم اتساع نطاق الجدل الدينى بين المسلمين وأهل الذمة ولاسيما النصارى واليهود وقد وجد المسلمون أن هؤلاء يقارعونهم الحجج للدفاع عن آرائهم ومعتقداتهم بالمنطق والفلسفة فأقبل المعتزلة على دراسة كتب الفلسفة اليونانية المعربة للاستفادة منها فى الدفاع عن الاسلام تجاه أقراءه من الذميين^(٢٤).

وقد لعبت الفتوحات الإسلامية والفكر الإسلامى دوراً كبيراً فى عملية التعريب ، حيث أقبل العرب تحت شعار المساواة بين مختلف الشعوب على الزواج بالأجنبيات من البلاد المفتوحة هذا الإقبال الشديد كان له أثره فى إقبالهم على تعلم العربية واتقانها . وتبع ذلك نشاط تجارة الرقيق وأخذ النخاسون يقيمون المدارس لتعليم الجوارى الفارسيات والروميات والتركيات اللغة العربية وفنون الغناء واستخدام آلات الطرب ولم يلبث الخلفاء أن أنشأوا فى جميع المدن المهمة مراكز للتعليم وجمعوا حو لهم كل عالم قادر على ترجمة علوم اليونان وكتبهم ولا سيما كتب أرسطو وجالينوس وغيرهم ونقلها من السريانية إلى العربية . ولم يدم اكتفاء العرب بما نقل إلى لغتهم طويلا فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ليستقوا منها مباشرة ثم تعلموا اللغة اللاتينية واللغة القشتالية فى أسبانيا كما يشهد بذلك ما فى مكتبة الاسكوريال

من المعجمات العربية اليونانية والعربية اللاتينية والعربية الأسبانية التي أراها علماء من المسلمين (٣٥). وأصبحت مهنة الترجمة حرفة فصارت عملا وراثيا يتولى عليه من الأسرة الواحد قلو الآخر .

وقد بدأت أولى المحاولات للتعريب في العهود الإسلامية الأولى بـ (تعريب النقود) وذلك منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد ضرب الدراهم على نقش الكسروية وجعل نقش بعضها (الحمد لله) ونقش بعضها الآخر (محمد رسول الله) أو (لا اله إلا الله وحده) (٣٦) وثبت معيارها وأوزانها وضرب عثمان بن عفان دراهم عربية بنقش (الله أكبر) (٣٧) أما على بن أبي طالب فقد شغلته الفتنة عن ضرب عملة جديدة ، ولما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة كتب إلى زياد بن أبيه وإلى العراق ليضرب عملة جديدة غير عملة عمر بنقش عليها اسمه (٣٨) . ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في الحجاز ضرب دراهم ونقش على أحد وجهي الدرهم (محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (أمر الله بالوفا والعدل) (٣٩) وضرب أخوه مصعب سنة ٧٠ هـ دراهم في العراق أعطاها للناس في العطاء (٤٠) . نقش على أحد وجهي الدرهم (بركة) وعلى الوجه الآخر كلمة : (الله) (٤١) .

ولم يكن في الأمصار الإسلامية في بداية العهد الأموي سكة عربية إسلامية معترف بها قبل مجيء عبد الملك بن مروان ، بل كان لأمراء الولايات دورسك خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم ولهذا كانت قيم النقد غير مستقرة الأمر الذي شجع على التزييف والتلاعب (٤٢) . وإن ما فعله عبد الملك والحجاج من تعريب للنقود إنما جاء مبنيا على ما صنعه عمر بن الخطاب حين نظر إلى الدراهم الفارسية التي اختلفت أوزانها صغارا وكبارا فوجد أوزانها عشرة قرايط ، أو اثني عشر قراطا ، أو عشرين قراطا فجمع ذلك فبلغ اثنين وأربعين فأخذ ثلثه أو (معدله) فكان أربعة عشر قراطا فجعله الوزن الشرعي (٤٣) . الذي حدده عمر كاملا غير منقوش (٤٤) وروى البلاذري (٤٥)

أن سعيد بن المسيب سأل : عن أول من ضرب الدنانير المنقوشة ؟ فأجاب :
عبد الملك بن مروان عام الجماعة سنة ٧٤ هـ ، وأن ضرب الدراهم بدأ في سنة
٧٥ هـ ، ثم أمر بتعميمه في جميع النواحي سنة ٧٦ هـ .

وقال ابن الأثير^(٤٦) : أنه لما صارت الخلافة إلى ملوك بني أمية وقد
اغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به عن أمور نفوسهم تفاحش الغش في التجارة
وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولأن ضرب الناس فيها
ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر ، فعنى عبد الملك بتمييز المنقوش
من الدنانير والدراهم فضرب السكة في دمشق . ويرى البعض من المؤرخين
أن هناك صلة من سوء العلاقات بين دولتي الإسلام والروم وبين تفكير
المسلمين في وضع عملة مستقلة لهم^(٤٧) ، ويعلل Gibbon^(٤٨) هذا الإجراء
بسبب أن الحرب أدت إلى انقطاع التجارة وقلة النقد مما دعا عبد الملك إلى
الشروع في إصدار عملة خاصة ليحقق للدولة استقلالها الاقتصادي فأنشأ
داراً للضرب .

وقيل : أن قيام الحرب اقترنت بمسألة خطيرة وأدت من سوء العلاقات
لأساسها بالدين والمصلحة الاقتصادية وهي مسألة (القراطيس) (ورق الكتابة)
التي ذكرتها المصادر العربية ، وخلاصة هذه المسألة كما ذكرها البلاذري^(٤٩)
أن القراطيس كانت تؤخذ من مصر إلى بلاد الروم التي تضرب فيها الدنانير
وكانت الأقباط تكتب في رؤوس الطوامير (الصحف) عبارات تنسب
الربوبية إلى المسيح كما ترسم في صدرها الصليب ، فأمر عبد الملك أن يكتب
في مكانها آية (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله ، ففكره ذلك ملك
الروم واشتد عليه ، وكتب إلى الخليفة : (إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً
ففكره فإن تركتموه ، وإلا آتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تنكرونه) ،
قال : فكبر ذلك في صدر عبد الملك لأنه كره أن يدع سنة حسنة سنّها ،
لإزاء هذا التهديد انتشر من حوله ، فأشار عليه خالد بن يزيد بن معاوية بأن

يحرم دنائيرهم ويمنع التعامل بها ويضرب للناس سككا ويمنع أن يدخل بلاد الروم شيء من القراطيس (فككت حيناً لا تحمل إليهم) . فانقطعت التجارة التي كان بها يقيم التبادل بالأوراق والدنائير ، ويبدو أن السبب المباشر الذي دفع عبد الملك إلى تعريب النقود يعود إلى توقف التجارة وانقطاع النقد ورغبة في تحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة فأنشأ داراً للضرب^(٥٠) كما أشرنا سابقاً وضرب دنائير ذهبية عرفت بالدمشقية^(٥١) .

ويعمل أمير على^(٥٢) هذا الإجراء بقوله : ان الدولة الإسلامية التي مضى عليها أكثر من نصف قرن منذ أيام الفتح الأولى لا يمكنها أن تظل معتمدة في نشاطها الاقتصادي المتزايد على النقد الأجنبي . كما أن العملة الفارسية كانت مغشوشة ومضطربة لفساد الوضع في الدولة الفارسية ، ويؤيد ذلك ما رواه الماوردي^(٥٣) بقوله : وقد كان الفرس عند فساد أمورهم فسدت نقودهم فجاء الإسلام ونقودهم من العين والورق والفضة والذهب غير خالصة إلا أنها كانت تقوم في المعاملات مقام الخالصة إلى أن ضربت الدراهم الإسلامية فتعيز المغشوش من الخالص .

ورغم أن العملة البيزنطية والفارسية كانت متداولة بجانب العملة المحلية إلا أن اتساع أطراف الدولة العربية وتقدم التجارة أدى إلى وضع نظام ثابت للنقد^(٥٤) بما دفع عبد الملك بن مروان إلى ضرب سكة إسلامية جديدة وأصبحت النقود عربية صرفة^(٥٥) . وبعث بها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي وإلى العراق حتى إذا فرغ من ضرب الدراهم بعث بالسكة إلى سائر الأمصار لتضرب الدراهم بها ، وكان قد ضرب في دمشق دنائير من الذهب سنة ٧٣ هـ بعد أن كانت كلها حتى ذلك التاريخ رومية^(٥٦) وبعد أن فرغ عبد الملك من الدنائير والدراهم كتب إلى عماله بالأمصار يأمرهم بأن يقسروا الناس على التعامل بالسكة الجديدة وأن يتهددوا بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة المتداولة حتى يحولها إلى سكة إسلامية^(٥٧) ، وفي عهده أيضاً بدأ

بتعريب الدواوين ولا سيما تلك التي وجدت في البلاد المفتوحة ، أما الدواوين الأولى (الجند وبيت المال) فقد كانت باللغة العربية منذ نشأتها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (٥٨) ، أما التي وجدت في البلاد المفتوحة فقد أبقاها العرب على حالها وهي المختصة بالجباية وحساباتها نظمت على ما كانت عليه في العراق وصائر بلاد الشرق كان بالفارسية وفي الشام كانت بالرومية (٥٩) (اليونانية) وفي مصر بالقبطية (٦٠) . ويبدو أن دوافع تعريب الدواوين المالية كان يقصد منه ضبط أعمالها والإشراف عليها منعاً من الغش والتزوير (٦١) . وأدى هذا الإجراء (التعريب) إلى إيجاد طبقة جديدة من الكتاب وإلى نهضة لغوية أدبية رائعة (٦٢) .

بدأ عبد الملك بعمله الجليل هذا بتعريب دواوين الشام ، وأمر كاتبه على الرسائل سليمان بن سعد الخشني أن يحول الديوان من الروسية إلى العربية (٦٣) وكان ذلك سنة ٨١ هـ . وقد طلب من عبد الملك أن يجعل له خراج الأردن في مقابل العمل والذي بلغ يومئذ ١٨٠ ألف دينار (٦٤) .

أما دواوين العراق فقد عربت أيام ولاية الحجاج بن يوسف على العراق ، فقد عهد إلى صالح بن عبد الرحمن بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية ، وقد كان صالح يحذف الفارسية والعربية معاً وجعل له أجلاً لذلك فأتم صالح مهمته بنجاح وقيل : أن (مراد نشاء) بن (زازان فروخ) كاتب الحجاج بذل له مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن هذا العمل ويمسك عنه فأبى فدعا عليه إذ أنه قطع أصل الفارسية (٦٥) .

وقد عربت الدواوين المصرية في ولاية عبد الله بن عبد الملك في خلافة الوليد سنة ٨٧ هـ وصرف (انشئاس) عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص (٦٦) ، غير أن الدواوين المالية في خراسان لم تعرب وبقيت بالفارسية وكان أكثر كتابها من المجوس حتى كتب يوسف بن عمر

في سنة ١٢٤ هـ إلى نصر بن سيار حامله على خراسان يأمر بنقله إلى العربية ولا يستعان فيه من الكتاب بغير المسلمين ، وقام بعملية التعريب هناك اسحاق بن طليق الكاتب — من بني نهمشل — وقد كان مع نصر بن سيار فأصبح خاصاً به (٦٧) .

أما تعريب العلوم فقد بدأت المحاولات الأولى فيه خلال العصر الأموي وكانت على الأغلب جهود فردية وعلى نطاق ضيق واقتصرت على العلوم العملية كالطب والفلك والعلوم العقلية (كالمنطق والفلسفة والهندسة) كما عربت بعض الألفاظ اليونانية وأطلقوا عليها كلماتها الأصلية مثل البرجد (وهو كساء فليظ مخطط) وأسماء أشياء عرفها العرب بعد اتصالهم بالروم كالزبرجد والزمرد والياقوت ومقاييس وأوزان رومانية كالقيراط والأوقية وأسماء طبية أو نباتية كالقولنج والبرقوق أو كلمات نصرانية كالجاناليق والبطريق وغيرهم (٦٨) . وقد توسعت حركة التعريب خلال القرن الأول الهجري بتأثير المسيحيين ورغبة بعض الأمويين فإن خالد بن يزيد الأول (ت ٨٥ هـ) كان عالماً وأديباً ومن أول المحبين لعلوم اليونان فأمر بترجمة الكتب في علم الهيئة والطب والكيمياء حتى روى أنه وجد الحجر الفلسفي الذي يصنع به الذهب الاصطناعي (٦٩) .

وترى هونكة (٧٠) أن لفشل الأمير الأموي خالد بن يزيد وإكراهه على التنازل عن العرش أثر كبير في نفسه، دفعه إلى حقل جديد بحاله العلوم وأبحاثها.

ويرى بعض المؤرخين (٧١) : أن تنحية خالد بن يزيد عن الخلافة وغلبة مروان بن الحكم عليها كانت صدمة قوية للأمير خالد فتحول إلى ملهى شريف يلهم به ويناسب أرسقراطيته فكان ذلك هو (الصنعة) رأى أنه إذا استطاع أن يحول المعادن إلى ذهب استطاع أن يحول الناس إليه أو على أقل تقدير سيكون له من المنزلة ما يحسده عليه الخلفاء .

وهذا الرأي ينسجم مع ما أشار إليه ابن النديم^(٧٢) قول خالد : ما أظلمه بذلك إلا أن أغنى أصحابي وإخواني ، ان طمعت في الخلافة فاخترت دوني فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحداً — عرفت يوماً أو عرفت — إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة .

وشجع عمر بن عبدالعزيز تعريب كتب الطب ، فأمر بنشر كتاب الطب الشرعي الذي نقله إلى العربية متطاب البصرة مامرجويه في عهد الخليفة مروان بن الحكم وقد وجدته في خزائن الكتب بالشام^(٧٣) .

وأشهر من قام بدور التعريب في العصر الأموي يعقوب الرحوي الذي ترجم كثيراً من كتب الإلهيات اليونانية إلى العربية^(٧٤) . واضطلع السريان بنشر الفلسفة اليونانية في العراق وما حوله وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية — وهي إحدى اللغات الآرامية — التي انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها — وكان من أهم مراكزها الرها ونصيبين وكانت هذه المدن مراكز للثقافة اليونانية إلى ما بعد الفتح الإسلامي تدرس فيها الرياضيات والفلك والفلسفة على المذهب الأفلاطوني وهم الذين تسموا — بعد ذلك — في عصر المأمون وبعده بالصابئين . وكان منهم كثيرون من المؤلفين ومن تولوا الترجمة إلى العربية بعد ذلك . وقدم السريان العلم والفلسفة بما ترجموا من كتب الفلسفة اليونانية التي أصبحت الأساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون وكان لهم الفضل الكبير في نقل الفلسفة والعلوم إلى العربية في العصر العباسي^(٧٥) .

إن العرب مع كثرة ما نقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعرية مع أنهم نقلوا من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ولا جغرافية استرابون ولا ألياذة هوميروس ولا أوديسة ويرى بعضهم أن أكثر ما بحث المسلمين على النقل رغبته في الفلسفة

والطب والنجوم والمنطق ويرى غيرهم أن الراحلين من اليونان أيام
الاضطهاد إلى حران لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا فلاسفة
وأطباء (٧٦) .

ويرى بعض المؤرخين (٧٧) أن وراء عملية التعريب قوى ظاهرة وخفية
تحرّكها نوايا خيرة تريد خدمة العلم والعمل على نشره أو سيئة تريد أن تشيد
بماضى الفرس وتراثهم وتعمل على الخطأ من تراث العرب مضرّة للمسلمين .
ويبدو أن لازدهار الحضارة ونشاط الحركة العلمية والثقافية دوراً كبيراً
في نشاط حركة التعريب فقد أخذ المثقفون الفرس يعربون تراث آبائهم في
التنجيم والهندسة والجغرافيا وخاصة من يجيدون اللسانين الفارسي والعربي
ويبدو أنهم قلّة بالمقارنة عما نقل عن اليونانية والسريانية ومردّه إلى العلاقة
السياسية ومجرى التيار الحضاري .

وقد أقبل كثير من الفرس على حذق اللغة العربية والتثقف بأدائها فقد
عجب الجاحظ بموسى بن سيار الأسواري - أحد القصاص - فقال : ومن
أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان
يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ
الآية في كتاب الله ويفسرّها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس
فيفسرّها لهم بالفارسية (٧٨) . ويقول عنهم أحمد أمين إن هؤلاء الفرس
الذين تعربوا وهؤلاء العرب الذين أخذوا بقسط من الثقافة الفارسية ملأوا
الدنيا في العصر العباسي علماً وحكمة وشعراً ونثراً لسيادة اللغة العربية فكان
نتاج العقول الفارسية الراجحة إنما هو باللغة العربية لا الفارسية (٧٩) .

وقد عقد ابن النديم (٨٠) في كتابه الفهرست فصلاً لأسماء النقلة من الفارسية
إلى العربية ذكر منهم عبد الله بن المقفع وآل نوبخت وموسى ويوسف ابني
خالد ومحمد بن الجهم البرمكي وزادويه بن شاهويه الأصفهاني ومحمد بن بهرام

ابن مطيار الأصفهاني ومهرام بن مردان شاه وعمر بن الفرخان الطبري وإسحق بن يزيد الذي نقل إلى العربية كتاب سيرة الفرس المعروف باختيارنامه والبلاذري أحمد بن يحيى بن جابر المؤرخ المشهور وقد ترجم عهد أردشير شعرا ولم يعن المترجمون بترجمة وتعريب كتب تاريخ الفرس فقط بل عربوا الكتب الدينية ككتاب زرادشت المسمى (الافستا) وما عليه من شروح . كما ترجموا في الأدب عن الفرس كتاب كلية ودمنة واليقيمة والأدب الكبير والصغير وكتاب (هزار افسانه) ومعناه ألف خرافة وكتاب موبد موبدان وكتاب أردشير في التدبير وتوقيعات كسرى وكتاب أدب الحرب (٨١).

وإن ما ترجم عن العبرية لا يتعدى الاهتمامات الدينية اليهودية من ذلك ترجمة التوراة إلى العربية التي قام بها سعديا الفيومي المصري في عام ٣٣٠ هـ ، وهو أقدم من نقله إلى العربية ووضع عليها الشروح والتفاسير وذلك لسيادة اللغة العربية على ما يبدو وأن ما نقل عن الهندية كتب الطب والرياضيات والحساب وبعض كتب السحر (٨٢) .

وأهم ما عرب من كتب الهند كتاب عرف بـ (السند هند) المؤلف (براهيم حوبتا) في حركات النجوم . وأمر المنصور بترجمته إلى العربية وبأن يؤلف كتاب على نهجه وعهد بهذا العمل إلى محمد بن إبراهيم الفزارى الذى ألف على نهجه كتاب يعرفه الفلكيون باسم (السند هند الكبير) وقاد هذا الكتاب إلى أبحاث كثيرة في الفلك ومنه أيضاً عرف العرب الأرقام والأعداد الهندية (٨٣) .

لقد بدأت حركة تعريب واسعة النطاق في النواحي العملية والثقافية في العصر العباسي الأول منذ خلافة المنصور الذى كان شغوفاً بالطب والهندسة ويعتقد بالنجوم وهو أول من راسل ملك الروم يطالب منه كتب الحكمة

فبعث إليه كتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات^(٨٤)، وجمع حوله العلماء وشجعهم على ترجمة العلوم من اللغات الأخرى وقد عرب كل من جورجاني ابن جبرائيل الطبيب وعبد الله بن المقفع كتب المنطق لأرسطو وطاليس واعتنى يوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش وباسيل المطران بكتب الطب^(٨٥)، وفي عهده قام إبراهيم الفزاري بتعريب كتاب الفلك الهندى المرسوم بـ (السند هند)^(٨٦) .

كما استهل أبو يوسف يعقوب الكندى (فيلسوف العرب) وأحد العقول الكبرى فى تاريخ العالم آنذاك نشاطه الفكرى الذى لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسطوطاليسية والأفلاطونية عن طريق الترجمة فحسب بل تعدى ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج من دراسات فى التاريخ الطبيعى وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة^(٧٨) .

وقد زادت عناية الرشيد واهتمامه بتعريب الكتب فأمر بترجمة جميع ما وقع فى حوزتهم من الكتب اليونانية . كما وسع ديوان الترجمة الذى كان قد أنشأه المنصور لنقل العلوم إلى العربية وزاد عدد موظفيها فأسند تعريب الكتب إلى الطبيب يوحنا بن ماسويه وعين له كتاباً حذاقاً يشتغلون بين يديه ويساعدونه فى عمله^(٨٨) . وكان الفضل بن نوبختى المكنى بأبى سهل الفارسى ينقل كتب حكماء الفرس التى جمعت من خراسان وفارس إلى العربية^(٨٩) . ومثله علان الفارسى الذى كان يعمل فى خزانة الحكمة ويترجم للرشيد وللبراءكة^(٩٠) .

ولما تولى المأمون الخلافة اهتم بتعريب علوم الأوائل واقتدى بسياسة والده الرشيد فى اهتمامه بالعلوم وأخذ يضمن شروط الصالح مع ملوك الروم إرسال كتب الحكمة فكان أحد شروط الصالح بين ميخائيل الثالث أن ينزل للمأمون عن إحدى المكتبات الشهيرة فى القسطنطينية وكان من بين

ذخائرها القيمة كتاب بطليموس في الفلك فأمر المأمون بتعريبه وسماه المجسطي^(٩١)، كما أنشأت الحكمة وهو مجمع على ومرصد فلكى ومكتبة يقيم فيه طائفة من المترجمين من أهل الذمة وتجرى عليهم الأرزاق من بيت المال . وأرسل المأمون بعد ذلك بعثة علمية لشراء كتب الحكمة من بلاد الروم مكوفة من الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب دار الحكمة فأخذوا بما اختاروه عدداً كبيراً وحملوه إلى بغداد فأمرهم المأمون بتعريبها فاجتمع عنده في دار الحكمة مجموعة كبيرة من كتب الفلاسفة والمنطق والموسيقى والفلك وغيرها^(٩٢) إلى جانب كنوز العلوم الإسلامية^(٩٣) . وما أضافه الرشيد والمأمون من كتب العلم في لغات مختلفة وما جمعه يحيى بن خالد من كتب الهند^(٩٤) .

وبلغت حركة التعريب أشدها في عهده إذ حرص على نقل ما يتفق مع العقلية العربية الجديدة من التراث الهيلينى والشرقى إلى العربية ، فقد بلغ التمازج الثقافي بين الثقافة العربية الإسلامية الجديدة وعلوم الأولين درجة كبيرة من التقدم . ويرى البعض من المؤرخين: ^(٩٥) أن ازدهار التعريب لا يعطى للمأمون أكثر من كونه رمزاً للعصر وليس بال محرك ولا الباعث له إذ لم يبق المأمون في بغداد أكثر من عشر سنوات بين ٢٠٤ - ٢٠٤ هـ وكان تشجيعه للعلماء في جانب كبير منه عملاً سياسياً أكثر مما هو علمي وكان ما فعله المأمون في هذا المجال أنه وسع دائرة الترجمة الموجودة في البلاط فجعل من مهمة (خزانة الحكمة) وأصحابها تعريب الكتب الفلسفية أيضاً .

ويرى البعض من المؤرخين^(٩٦) أن المأمون قد تأثر بالاعتزال عن طريق أستاذه ومؤدبه يحيى بن المبارك الذى كان قد اتصل به منذ صباه في أيام الرشيد بالإضافة إلى أنه كان محوطاً بشيوخ الاعتزال أمثال ثمامة بن أشرس ويحيى بن أكرم . أو أنه أراد من اتخاذ الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة

ان يظفر بتـكـوـن دولة موحدة سياسياً بامتزاج الأحزاب وتوحيد القوى
لاستتباب الأمن فكان يريد أن يتخذ من مذهبه الديني مذهباً وسطاً إلا أنه
لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسية بإقـتـهـاء حياة الرضا بالموت مسموماً
ولا من الوجهة الدينية التي لم ترض عنها المذاهب الإسلامية الأخرى .

وفي عهده ترجمت كتب اليونان الكبرى مثل كتب أفلاطون وأرسطو
في الفلسفة وأبقراط ومالينوس في الطب وأقليدس وأرخميدس وبطليموس
في الرياضيات وغير ذلك (٩٧) .

ان عصر التعريب الحقيقي إنما قادتـه جماهير المتعلمين والمترجمين عبر عهد
المأمون في عهد المعتصم والواثق والمتوكل واستمر التعريب في هنفوانه
وكشافته حتى أواسط القرن الثالث الهجري وان المد التعريبي لم ينقطع
وقد استمر حتى أواسط القرن الرابع الهجري .

لقد ازدهرت حركة التعريب والترجمة على أيدي أهل الذمة الذين
هكفوا على ترجمة وتعريب أمهات الكتب السريانية واليونانية والفارسية
والسنسكريتية ، وكان ذلك بتأثير الخلفاء العباسيين إلا أنهم لم يكونوا وحدهم
يهتمون بالترجمة والنقل إلى العربية بل نافسهم الوزراء والأمراء والأغنياء
وأهل العلم وأخذوا ينفقون الأموال الطائلة عليها (٩٨) قال ابن الطقطقي (٩٩):
(إن البرامكة شجعوا تعريب صحف الأعاجم حتى قيل : إن البرامكة كانت
تملى المغرب زنة الكتاب المغرب ذهباً) وبالحق الفتح بن خاقان وزير المتوكل
في إنفاق الأموال على الترجمة والتأليف ولم يكن محمد بن عبد الملك الزيات
أقل منه سخاء في هذا وعن أشهر بتشجيع حركة التعريب والتأليف من
الأغنياء محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم الذين أنفقوا
الأموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات وترجمتها وكانت آثارهم

فيمتد في الهندسة والموسيقى والنجوم وقد أنفذوا حنين بن اسحاق إلى بلاد
الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات (١٠٠) .

ومن عرب لهم الكتب بالإضافة إلى حنين بن اسحق حنين بن الحسن
وثابت بن قرة وكانوا يرزقون في الشهر نحو خمسمائة دينار (١٠١) .

ولو رجعنا إلى المصادر التاريخية التي تناولت تدوين أسماء النقلة لوجدنا
أسماء جمهرة كبيرة منهم أصبحوا يشكلون طبقة بارزة وواضحة في المجتمع
العباسي يذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان في بلاط الخلافة العباسية منهم ستة
وخمسون رجلاً من أهل المذاهب .

واضطر النقلة إلى استخدام الكثير من المصطلحات والصيغ الأجنبية
اليونانية والسريانية والفارسية والهندية على صيغتها الأجنبية على الرغم من
أن الترجمة باللغة العربية ابتكروا معظم الألفاظ والمصطلحات من العربية
فإن أعجزهم ذلك استعاروا الكلمات الأجنبية نفسها (١٠٢) .

ومن آثار مشاركة الفرس في العصر العباسي في الإدارة والدواوين
والقيادة والإمارة والاختلاط والتمازج بين العرب والفرس خاصة أن
تسربت إلى اللغة العربية بعض الألفاظ الفارسية وذلك لأن العرب المسلمين
بعد الفتح الإسلامي وجدوا بعض أسماء الأدوات والحاجات وأنواع
الماكولات والملابس لا يوجد لها مقابل في العربية فأضطروا إلى تعريبها
أو أخذها كما هي بلغتها الأجنبية بما يتفق واللسان العربي (١٠٣) . وساعد هذا
الاختلاط أيضاً على نقل بعض تراث الفرس الحضاري في الأدب والتاريخ
والقصة كما قام من يمجيد منهم اليونانية والهندية بترجمة كثير من أسماء
الأدوات اليونانية والهندية إلى العربية (١٠٤) .

ونختتم بحثنا هذا بالقول أن نهضة حركة التعريب كان بدافع رسمي

وشفى وكان للإسلام أثر كبير فى نجاح عملية تعريب الأمم التى أنتشر
الإسلام فيها كما لعبت الحركات السياسية والفكرية والازدهار الثقافى
والحضارى ورغبة بعض خلفاء المسلمين دوراً بارزاً ومهما فى توسع هذه
الحركة وإنتشارها بين أغلب الشعوب التى خضعت لدار الإسلام .

مصادر ومراجع البحث

ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس
السهدي الخزرجي ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م .

١ - (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) .

بيروت ، دار الفكر ، ١٩٥٦

ابن الأثير : أبى الحسن حلى بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن
عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الخزرجي والمكنى

بمعز الدين ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م

٢ - (الكامل فى التاريخ)

مطبعة بولاق ١٢٩٠ هـ ، مصر .

ابن خلدون : عبد الرحمن المغربى ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .

٣ - (المقدمة) .

مطبعة مصطفى محمد - القاهرة .

ابن شيب : إيليا مطران نصيبين

٤ - (كتاب المجالس السبعة) (مخطوط) .

وهو رسالة الوزير المغربى العباسى للمطران إيليا

من مقتنيات الأستاذ سعيد الديوجى - الموصل .

ابن الطقطقي : نثر الدين محمد بن علي بن طباطبات ٨٧٠٩ / ١٣٠٩ م
٥ - (الفخرى في الآداب السلطانية)
مطبعة محمد علي صبح - القاهرة .

ابن القفطي : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ٦٤٦ / ١٢٤٨ م
٦ - (تاريخ الحكماء) مختصر الزوزني .
من كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) .
طبع ليبسك ١٣٢٠ .

ابن النديم : ت ٣٨٣ / ٩٩٣ م
٧ - (الفهرست) .
سلسلة روائع التراث العربي / مكتبة خياط / بيروت .

البلاذري : أحمد بن يحيى بن كابر ت ٢٧١ / ٨٩٢ م
٨ - (فتوح البلدان) .
نشر صلاح الدين المنجد .
مطبعة الموسوعات ١٩٥٧ القاهرة .

الجاحظ : ابن عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ، ٢٥٥ / ٨٦٨ م
٩ - (البيان والتبيين) .
نشر مكتبة المثنى ، بغداد .

الحطياي : محمد بن عبدوس ت ٣٣١ / ٨٣٣ م
١٠ - (الوزراء والكتاب) .
مطبعة البابي الحلبي ، مصر ١٩٣٨ م .

خليفة : مصطفى بن عبد الله الشهير بجاجي خليفة ت ١٠٦٧ / ١٦٥٦ م
١١ - (كشف الظنون عن أصاى الكتب والفنون) .
دار المعارف التركية ١٩٤١ م .

الدميرى : كمال الدين ت ٨٠٨ هـ .

١٢ - (حياة الحيوان الكبير) .

المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٢٧٤ هـ .

الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد .

(ت ٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م) .

١٣ - (الملل والنحل) .

تحقيق محمد سيد كيلاني .

نشر مصطفى البابي الحلبي / مصر ١٩٦١ م .

الماوردي : أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي .

ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م .

١٤ - (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) .

مطبعة الوطن ١٢٩٨ هـ / القاهرة .

المقرئى : تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م .

١٥ - (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) .

مطبعة بولاق / مصر .

أمين . أحمد .

١٦ - (فجر الإسلام) .

مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٥ ط ٣ القاهرة .

١٧ - (ضعي الإسلام) .

نشر دار الكتاب العربي ط ٣ بيروت .

أوليرى : دي لاسي .

١٨ - (إنتقال علوم الإغريق إلى العرب) .

مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٨

بروكلان : كارل .

١٩ - (تاريخ الشعوب الإسلامية) ط ٣
دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦١

بارنولد : ف

٢٠ - (تاريخ الحضارة الإسلامية) .
ترجمة حمزة طاهر .
ط ٣ طبع دار المعارف بمصر .

الخربوطلي : ٢١ - علي حسني
(تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي) .
دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .

دراور : الليدي

٢٢ - (الصائبة المنداتيون) .
ترجمة نعيم بدوي وغضبان رومي .
مطبعة الإرشاد - بغداد ١٩٦٩ م .

ديمومبين : موريس غودفروا
٢٣ - (النظم الإسلامية) .
ترجمة صالح الشماخ ورفيقه .
مطبعة الزهراء - بغداد ١٩٥٢

ديررانت : ول

٢٤ - (قصة الحضارة) .
طبع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

رفاعي : أحمد فريد
٢٥ - (عصر المأمون)
مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨ م .

الريس : محمد ضياء الدين
٢٦ - (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية)
دار المعارف بمصر ط ٣ ١٩٦٩ م .

زيدان : جرجي
٢٧ - (تاريخ التمدن الإسلامي)
طبع دار الهلال القاهرة .

سيدو : ل . أ
٢٨ - (تاريخ العرب العام) ترجمة عادل زعير
نشر البابي الحلبي / مصر ١٩٤٨

شاكر مصطفى
٢٩ - (التعريب في الإسلام)
مقالة بمجلة البيان الكويتية التي تصدرها رابطة الأدباء
العدد ١١١ حزيران ١٩٧٥ م .

علي : سيد أمير
٣٠ - (مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي)
ترجمة رياض رافت .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ / القاهرة .

غنيمة : يوسف رزق الله
٣١ - (نزعة المشتاق في تاريخ يهود العراق)
مطبعة الفرات - بغداد ١٩٢٤ م .

لوبيون : غوستاف

٣٢ - (حضارة العرب)

ترجمة عادل زعيتر .

مطبعة عيسى البابي الحلبي .

ماجد : عبد المنعم

٣٣ - (الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى) .

هونكة : زيفريد

٣٤ - (شمس العرب تسطع على الغرب)

المكتبة التجارية بيروت .

اليوزبكي : توفيق سلطان

٣٥ - (تاريخ أهل النخبة في العراق)

وسالة دكتوراه غير منشورة .

المحواشي

- (١) انظر ، ابن النديم : الفهرست ، البلاذري فتوح البلدان ، ابن سعد الطبقات .
- (٢) انظر : Goitein, jews and Arabs, p. 127.
- (٣) انظر : ديمويين النظم الإسلامية ص ١١ .
- (٤) انظر ، بارنولد : الحضارة الإسلامية ص ٣٠ .
- (٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنبياء ج ١ ص ١٨٥ ، ص ١٨٩ .
- (٦) انظر ديورانت : قصة الحضارة ج ١٤ ص ١٣٦ .
- (٧) انظر : The Jewish Encyclopedia Y I. p.
- (٨) انظر : جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ١١٤ ، غنيمه : نزعة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص ١٦٧ .
- (٩) ليليا المجالس السبعة (مخطوط) ورقة ٢٨ .
- (١٠) توماس أرنولد الدعوة إلى الإسلام ص ٧٠ .
- (١١) دراوور : الصائبة المتدائون ص ١٣٣ ، ص ١٣٥ .
- (١٢) الشهريستانى : الملل والنحل ج ٢ ص ٥٠ .
- (١٣) انظر سيديو : تاريخ العرب العام ص ٣٨٣ ، ٣٨٥ .
- (١٤) انظر ديورانت قصة الحضارة ج ١٣ ص ١٧٧ .
- (١٥) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٥٦ .
- (١٦) سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك ص ٢٢٦ .
- (١٧) ابن القفطى : أخبار الحكماء ص ٢٨٠ ، ص ٢٨١ ، دائرة المعارف الإسلامية (مادة صائبة) ج ١ ص ٩١ .
- (١٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٤ — ١٢٥ ، ابن النديم : الفهرست ص ٣١٢ .
- (١٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٢ .
- (٢٠) ابن القفطى : أنباء الحكماء ص ٥٧ — ٥٦ .
- (٢١) المصدر نفسه ص ٧٥ — ٧٦ .
- (٢٢) أوليري انتقال علوم الإغريق إلى العرب ص ٦٦ — ٦٧ .
- (٢٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ١٦٠ .
- (٢٤) أوليري : انتقال علوم الإغريق ص ٢١ .

- (٢٥) هوفكه : شمس العرب تسطع من ١٨١٦ .
- (٢٦) البوزيكي : تاريخ أهل الذمة في العراق من ١٨٤ — ١٨٥ .
- (٢٧) كناش جمعها كناشات أوراق تجعل كالدفتري قيد فيها الفوائد والشوارد (الزيدى تابع العروس ج٤ من ٣٤٧ مصر سنة ١٩٤٨) .
- (٢٨) ابن القفطى أخبار العلماء من ٨٠ .
- (٢٩) ابن خلدون المقدمة ٤٥٤ — ٤٥٥ .

Ency of Islam (art Nahw) T3. p. 894. 15.

- (٣٠) كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية من ٢٦ — ٢٧ .
- (٣١) أحمد أمين فجر الإسلام من ١٧٥ .
- (٣٢) عبد المنعم ماجد الحضارة الإسلامية في القرون الوسطى .
- (٣٣) اليوزبكي تاريخ أهل الذمة في العراق من ٣٨٣ .
- (٣٤) اليوزبكي تاريخ أهل الذمة في العراق من ٣٨٢ .
- (٣٥) غوستاف لوبون حضارة العرب من ٤٣٣ — ٤٣٤ .
- (٣٦) المقرئى كتاب النقود من ٣٢ .
- (٣٧) المصدر السابق والصحيفة .
- (٣٨) البلاذرى فتوح البلدان من ٤٧٣ .
- (٣٩) المصدر السابق والصحيفة .
- (٤٠) المقرئى من ٣٣ .
- (٤١) الماوردى الأحكام السلطانية من ١٤٨ .
- (٤٢) الحروبلى تاريخ العراق في ظل الحكم الأموى من ٤٢٤ .
- (٤٣) البلاذرى فتوح البلدان من ٤٧١ .
- (٤٤) المقرئى كتاب النقود من ٣١ — ٣٣ .
- (٤٥) البلاذرى فتوح البلدان من ٤٧١ .
- (٤) ابن الأثير الكامل ج٤ من ١٧٤ بولاق ١٢٩٠ هـ .
- (٤٧) الرئيس الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية من ٢٢١ ، الأتليدى أعلام الناس من ٢٧٤ .

E, Gibbon, The Decline and fall the Roman Eman (٤٨)
Vol 5, p 388.

- (٤٩) البلاذرى فتوح من ٤٤٩ .
- (٥٠) جرجى زيدان تاريخ التمدن الاسلامى ج١ من ١٨٠ .

- (٥١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٤٧٢ .
- (٥٢) أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى ص ١٦٤ .
- (٥٣) الماوردى الأحكام السلطانية ص ١٤٨ .
- (٥٤) سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ١٦٥ .
- (٥٥) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١٧٣ .
- (٥٦) البلاذرى فتوح البلدان ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .
- (٥٧) الدميرى حياة الحيوان ج ١ ص ٧٦ .
- (٥٨) الجهشيارى الوزراء والكتاب ص ٣٨ .
- (٥٩) الماوردى الأحكام السلطانية ص ١٩٢ .
- (٦٠) المقرئى الخطوط ج ١ ص ٩٨ .
- (٦١) أمير على مختصر تاريخ العرب ص ١٦٦ .
- (٦٢) الرئيس الخراج والنظم المالية ص ٢٢٧ .
- (٦٣) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٠١ ، الجهشيارى الوزراء ص ٤٠ .
- (٦٤) البلاذرى فتوح ص ٢٠١ .
- (٦٥) البلاذرى فتوح البلدان ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .
- (٦٦) المقرئى الخطوط ج ١ ص ٩٨ .
- (٦٧) الجهشيارى الوزراء ص ٦٧ .
- (٦٨) أحمد أمين ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٨١ .
- (٦٩) بارتولد تاريخ الحضارة الاسلامية .
- (٧٠) هوتسك غموس العرب تسلم ص ٣٧٨ .
- (٧١) أحمد أمين ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٧٠ .
- (٧٢) ابن النديم الفهرست ص ٣٥٤ .
- (٧٣) ابن أبى أصيبعة عيون الأنباء ج ١ ص ١٦٣ .
- (٧٤) أحمد أمين فجر الاسلام ص ١٦٢ .
- (٧٥) أحمد أمين فجر الاسلام ص ١٥٩ .
- (٧٦) انظر رفاعى عصر المأمون ص ١٦٣ ، حاشية (١) .
- (٧٧) أحمد أمين فجر الاسلام ص ٢٦٣ .
- (٧٨) الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٩ .
- (٧٩) أحمد أمين ضحى الاسلام ج ١ ص ١٨١ .
- (٨٠) ابن النديم الفهرست ص ٢٢٤ وما بعدها .

- (٨١) أحمد أمين ضحى الإسلام ج١ ص ١٧١ .
- (٨٢) شاكر مصطفى التعريب في الإسلام ص ٥٢ .
- (٨٣) زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على العرب ص ٧٣ ، ٧٣ .
- (٨٤) حاجي خليفة كشف القانون ج١ ص ٦٧١ .
- (٨٥) انظر . رفاعى عصر المأمون ج١ ص ٣٧٩ .
- (٨٦) بروكلمان ص ٤٠ .
- (٨٧) بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٠ .
- (٨٨) ابن القفطى أخبار الحكماء ص ٢٤٩ ، ابن أبي أصيبعة ج١ ص ١٧٥ ، خليفة كشف الظنون ج١ ص ٦٨٠ .
- (٨٩) ابن النديم الفهرست ص ٢٤٧ .
- (٩٠) المصدر السابق ص ١٠٥ .
- (٩١) المجسطى : ومعناه الترتيب الكبير في علم الفلك وكان المرجع المهم في الفلك عند المسلمين وعند الأوربيين في القرون الوسطى (مواد على تاريخ العرب قبل الإسلام ج١ ص ٦٨٠) .
- (٩٢) ابن النديم الفهرست ص ٣٣٩ .
- (٩٣) بروكلمان ص ٣٩ .
- (٩٤) محمد فوزى القليل الثرية عند العرب مظاهرها واتجاهاتها ص ١٩ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .
- (٩٥) شاكر مصطفى التعريب في الإسلام ص ٤٧ - ٤٨ .
- (٩٦) رفاعى عصر المأمون ص ٣٦٧ ، ص ٣٧٢ .
- (٩٧) عبد المنعم مانجد تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٤٧ ، ص ١٥٠ .
- (٩٨) اليوزبكي تاريخ أهل الذمة في العراق ص ٣٨٢ .
- (٩٩) ابن الطقطقى الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢٣٥ .
- (١٠٠) انظر ابن النديم الفهرست ص ٢٤٠ .
- (١٠١) رفاعى عصر المأمون ج١ ص ٣٧٨ .
- (١٠٢) شاكر مصطفى التعريب في الإسلام ص ٥٤ .
- (١٠٣) انظر أحمد أمين ضحى الإسلام ج١ ص ١٧٤ .
- (١٠٤) اليوزبكي تاريخ أهل الذمة ص ٤٠٠ .

امرأة مصرية، تزعم مظاهره

في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي

بقلم

دكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الإسلامي

ورئيس قسم التاريخ

بآداب عين شمس

كان النيل دائماً شغل مصر الشاغل؛ على مدى الزمن؛ ولم تكن تستطيع أبداً أن تتجاهل فيضانه؛ بل كانت تنتظره بفروغ صبر إلى أن يوافي في كل عام؛ وترفع مياهه إلى منسوبها الكافي؛ لكي تسقي أرض مصر، وبالتالي تستقبل البلاد الخير؛ عندئذ يحتفل المصريون احتفالاً كبيراً بوقاء^(١) النيل.

وقد اتخذ هذا الاحتفال مظاهر متعددة؛ فقديماً اعتبر النيل إلهاً كبيراً، وقيل إن المصريين كانوا يعمدون إلى دمية أو جارية بكر، من أجل فتيات مصر؛ ليلقوها في النيل^(٢)، بعد أن يلبسوها أفضل الحلل والثياب؛ كقربان لهذا الإله؛ حتى يفيض بخره على البلاد. فلما جاء العرب، كانوا يكتفون في احتفالهم، بإلقاء بطاقة في النيل، كُتبت فيها بعض الصيغ الدينية، واستمر ذلك إلى أن جاء الفاطميون؛ فأصبح الخليفة يركب بهيئة المواكب الرسمية العظيمة، وسط ابتهاج الشعب ومرحه؛ ليعطيه يديه المقياس في الروضة؛

وهو ما كان يعبر عنه بموكب : تخليق المقياس^(٣) ؛ أى دهانة بالطيب
« بالخلق » .

ومع ذلك ؛ فإن النيل كثيراً ما كان يقصر^(٤) عن ارتفاعه العادى ؛
ما يترتب عليه أن لا تجد مصر المياه اللازمة لسقى أرضها ؛ فتشرق الأراضى
أو لا تزرع . وقد يزيد الأمور استفحالا ؛ سوء تدير الحكام وغفلتهم^(٥) ،
عن علاج الأحوال ؛ ما يؤدي إلى وقوع المجاعات .

فيذكر المؤرخ المقرئى فى كتابه : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ،
الذى يتناول تاريخ المجاعات فى مصر ؛ أن مجىء القاطمين إلى مصر ، كان
سببه فى الواقع الضنك من المجاعات ؛ نتيجة لتقصير النيل ، بحيث أن
المصريين كانوا المعز لدين الله الفاطمى^(٦) ؛ ليحضر إلى مصر ؛ لىكى ينقذهم
منه . فلما وصل ، اتخذ إجراءات سريعة ؛ لتخفيف حدة المجاعات ، منها
حمل الغلات معه من المغرب ؛ كما منع^(٧) الغداء عن ارتفاع النيل قبل الوفاء ؛
لما يحدثه ذلك من بلبلة وقلق ؛ بمجرد الإحساس بأن النيل قد لا يصل إلى
مستواه فى المقياس ، وما يترتب على ذلك من الإلتجاء إلى التخزين ،
وارتفاع الأسعار ، وإلتهام الأقوات .

كذلك كان الحاكم بأمر الله الفاطمى ، هو الآخر تواقاً إلى أن يقطع
دائرة المجاعات من مصر ؛ حينما سمع أن عالماً فى العراق ، اسمه أبو على
ابن الهيثم^(٨) ، نبغ فى الهندسة ، وأنه قال : لو كنت فى مصر لعملت فى نيلها
عملاً يحصل به النفع ؛ فى كل حالة من حالاته ، من زيادة ونقص . فأرسل
الحاكم إليه جملة من مال ، وحشه على المجىء إلى مصر ، فلما وصاها ، خرج
الحاكم بنفسه للقائه ، وأمر بانزاله وأكرمه ، وسيره مع جماعة من الصناع
فى طول الإقليم المصرى ، حتى وصل أسوان . ولما كان ابن الهيثم ، لم يستطع
أن يقوم بشئ - بسبب طبيعة أرض أسوان الجرانيتية - واعتذر عن

عجزه ؛ فأبقاه الحاكم عزيزاً مكرماً . فلعل هذا الذى كان يقوله ابن الهيثم عن
نيل مصر ؛ هو أول تفكير لإقامة خزان أو سد عالٍ فى أسوان ؛ لحجز
المياه وقت زيادة الفيضان أو نقصانه !!

وكانت الدولة تقدر أن إبعاد شبح المجاعة عن مصر؛ لا يتأتى إلا بتخزين
الحبوب . فخصصت فى ميزانيتها كل عام ، مائة ألف دينار (خمسين ألف
جنيه) : لشراء محصول القمح من الزراع ؛ فكانت تجمعه فى البيادر ،
أى الأماكن التى يكوم فيها ، ثم ينقل إلى الخزائن السلطانية ؛ فكان هذا
الإحتياطى ، فى وقت الحاجة ، يوزع على الطعانين والجنابزين . كذلك ،
كان للدولة متاجر تملكها لبيع الغلال ، ودكاكين لبيع الخبز ؛ بقصد تثبيت
سعرهما ، أو ترخيصهما ؛ كما أنها كانت تعمل على تثبيت أسعار المواد
الغذائية الأخرى ؛ بإقامة سعر لكل شئ ؛ حتى لا يتلاعب التجار بالأسعار .

ولكن النيل عاد إلى تقصيره سنوات متتالية ، فى عهد الخليفة
المستنصر بالله الفاطمى^(١) ، وزاد من استفحال الأحوال ، اضطراب أمور
الدولة فى عهده ، بتغيير الوزراء ، حتى بلغ عددهم أربعين وزيراً فى تسع
سنوات ، وسها عن تخزين الإحتياطى من القمح ؛ إلا ما يحتاجه القصر
ومطبخ الخليفة وحواشيه لا غير ، وخزنت بدله مواد أخرى ، مثل الصابون
والخشب ، بقصد الإنجار فيها ؛ لزيادة الفائدة . وقد سعى الخليفة إلى علاج
نقص الغلال ، بالدخول فى مفاوضات مع ملكة الروم ، مع عداوتها
لخلافته ؛ فأرسل إليهم القاضى أبا عبد الله القضاعى ؛ بقصد استيراد
أربعمائة ألف أردب من القمح ؛ ولكن الروم رفضت ؛ بما جعل البلاد
لا تجد ما تحتاجه من غلال .

وحدث نتيجة لذلك مجاعة شديدة ، عرفت باسمه : الشدة المستنصرية^(١٠) ،
استمرت من ١٠٦٥/٤٥٧ إلى ١٠٧١/٤٦٤ ، وُصفت بأنه لم يحدث مثلها منذ

أيام يوسف الصديق . وزاد من خطاوتها أنه صاحبها انتشـار الأوبئة والأمراض ، ولا سيما الجدري ؛ حتى مات منه كثيرون ، وقيل إنه قـت بسببه ثلث أهل مصر . فأقفرت الأسواق ، وكان لا يرى بها أحد ، كازلت الجند للأرض لزرعها ؛ لعدم وجود الفلاحين ، ونقص عدد القرى من ٣٨٣٤ إلى ٢٠٦٢ (١١) .

فتعذر وجود الأقوات، وارتفعت الأسعار، فكان رغبة العيش وحده، يباع بـ ١٥ ديناراً (١٢) (٧١ جنيه)، وأردب القمح بـ ١٠٠ دينار (٥٠ جنيهاً). وقد اضطـر الميسـورون من الناس ، إلى بيع كل ما عندهم ؛ لقاء كسرة من الخبز ؛ حتى أن خـارة سُميت بحارة الطبق ؛ إذ بيعت فيها عشرون داراً لقاء طبق من الأكل (١٣) . وباع الخليقة نفسه ، كل ما في قصره ؛ بعد أن كانت خزائنه مكدسة بالأموال والتحف ، وكان يقنع بأكل رغبين في اليوم ؛ وأن أفراد أسرته نزحوا إلى المناطق المجاورة ، وتشقتوا في البلاد . وقيل إن رجلاً ذهب إلى الحمام ؛ فطلب صاحب الحمام من الرجل أن يخدمه سـعد الدولة أو تنقر الدولة أو عز الدولة (١٤) ؛ حيث أنهم كانوا يسمعون إلى الحصول على ما يمسك رفقهم .

وقد اضطـر الناس إلى أكل الميتة من الكلاب والقطط ، والبحث عن شرائها ؛ حتى يـبـع الكلب بـ ٥ دنانير (٢١ جنيه) (١٥)، والقط بـ ٣ دنانير (١١ جنيه). وقيل — للبالغة أو حقيقة — إنه من شدة الجوع ؛ كان طائفة من الناس ، يجلسون على السقائف ، وبأيديهم حبال فيها كلابيب — خطافات — فإذا مر بهم أحد من الناس ، ألـقوا عليه تلك الحبال ، وفشلوه بتلك الكلابيب ، في أسرع وقت ؛ فإذا صار عندهم ذبحوه في الحال ، وأكلوه بهظامه (١٦) ، أو شـرحوا

لحمه وأكلوه، وعُرف الزقاق الذى يجلسون فيه بزقاق القتل ، ولكن الدولة تعقبتهم ، وعملت على شنقهم .

فى هذه الظروف الصعبة؛ قامت امرأة مصرية^(١٧)، يبدو أنها كانت على شيء من الثراء ؛ إذ وُصفت بأنها من « أرباب البيوتات » ؛ كانت قد باعت عقداً لها ، يساوى ألف دينار ؛ لتحصل على قليل من الدقيق . ولكن هذا الدقيق نهبه الناس ، وهى فى الطريق ، واضطرت هى أن تأخذ منه ما يعين قرصة ؛ فأخذت هذه القرصة ، ووقفت عند قصر الخليفة ، فى مكان مرتفع ، ورفعتها فى يدها ؛ بحيث يراها الناس ، ونادت بأعلى صوتها ساخرة : يا أهل القاهرة، أدعوا لمولانا المستنصر ، الذى أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره ؛ حتى تقوّمت على هذه القرصة بألف دينار .

فلما سمع المستنصر بذلك ، امتعض له أشد الامتعاض ؛ وإن دفعه أن يفعل شيئاً . فدعا بتجار القمح والخبازين والطحانين فى مجلس عظيم ، وهدم بقطع الرقاب ؛ إذا لم يظهر المخزون من الغلال ؛ فظهرت الغلال فى الأسواق . كذلك شاء حسن حفظه ، أن تدارك الله الخلق ؛ وعاد فيض النيل إلى الحد المرموق ، وتوقفت الأوبئة من ذاتها . بل إن أهل الأندلس المسلمين^(١٨) ، أرسلوا إلى المصريين سفناً مملوءة بالطعام والغلال ، لمساعدتهم فى محنتهم ؛ فأعاد المصريون بدورهم هذه السفن محملة بالذخائر الحربية ؛ كي يستطيع الأندلسيون الاستعانة بها فى كفاحهم ضد الأسبان .

وبعد ؛ فإن التاريخ سوف يذكر لمصر فى العصر الحديث أن السد العالى فى أسوان ، كان تحقيقاً لحلم سابق ، وأنه لم يتم إلا بعد أن جهده له شعب مصر كل مرارده وطاقاته ، وتمسكن من أن يقر بطن الجبل الجرانيتى ؛ ليعبد عنه شبح المجاعة نهائياً ، سواء ارتفع النيل أو قصر ؛ وهى المجاعات التى لاحقت مصر منذ تاريخها القديم .

المحواشي

- (١) صبح الأعشى ، ٣ ص ٥١٦ س ٥ .
- (٢) الخطط ، ١ ص ٥٨ س ١٦ — ٢٠ .
- (٣) يتفصيل : نفسه ، ١ ص ٤٧٦ — ٤٧٧ ؛ صبح الأعشى ، ٣ ص ٥١٦ — ٥١٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٠٤ وما بعدها .
- (٤) لغات الأمة ، ص ١٩ .
- (٥) نفسه ، ص ٤ س ٣ .
- (٦) اتعاظ الخنفا ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ؛ انظر ، ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٣٦٢ .
- (٧) الخطط ، ١ ص ٩٧ — ٩٨ .
- (٨) ابن العبري ، ص ٣١٦ وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ٦٤ — ٦٥ .
- (٩) ابن ميسر ، ص ٦ — ٧ ؛ لغات ، ص ١٨ — ٢٠ ؛ انظر . ماجد ، المتنصر بالله ، ص ١٥٥ — ١٥٦ .
- (١٠) لغات ، ص ٢٤ وما بعدها .
- (١١) الكنتاس والأديرة ، ص ١٠ وما يليها ؛ الخطط ، ١ ص ١١٧ س ١٩ — ٢٠ .
- (١٢) ابن اياس ، ١ ص ٦٠ .
- (١٣) صكتري الدرر ، ٦ ورقة ٢١٥ .
- (١٤) النجوم ، ٥ ص ١٦ س ٦ — ٩ .
- (١٥) ابن اياس ، ١ ص ٦٠ .
- (١٦) لغات ، ص ٢٤ ؛ الخطط ، ٢ ص ١٤١ .
- (١٧) لغات ، ص ٢٥ — ٢٦ .
- (١٨) الحلل الموشية ، ص ٧٢ ؛ انظر . مختار العبادي ، الصقالبية ، مجلة معهد مدريد ، ١٩٥٣ ، ص ٢٦ حاشية (٤) .

صلاح الدين واليهود

للدكتور عطية القوصي

المدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة
(فرع الخرطوم)

شهد المؤرخون المسلمون وغير المسلمين للسلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب بالتسامح الديني وعدم التعصب مع غير المسلمين . ويرجع البعض هذا التسامح إلى أنه جزء من السياسة الحكيمة التي وضعها السلطان لإصلاح حال اقتصاد مصر وقت أن تولى حكمها ، وذلك بالاستفادة من جهود جميع العناصر العاملة في الدولة بغض النظر عن أديانها لمواجهة المصاعب المالية التي نجمت عن اضطراب الأحوال في مصر في أواخر عهد الفاطميين^(١) . وسواء كان هذا الرأي صحيحاً أم مجانباً للصواب فإنه من الثابت أن صلاح الدين كان يتحرى العدالة ويطبق تعاليم الشرع في جميع معاملاته ويتوخى رضا الله في تعامله مع رعايا دولته سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين^(٢) .

ولم تقتصر عدالة صلاح الدين على المسيحيين ولسكنها شملت أيضاً اليهود الذين كانوا في أسوأ حال حين تولى السلطان حكم مصر والشام . ولقد تنفس اليهود الصعداء على يد هذا الحاكم المسلم الذي سمح لهم بالعودة إلى القدس وفلسطين وبحرية العمل والعبادة في أرض هذه البلاد المقدسة . وكان الصليبيون قد طردوا اليهود من فلسطين وحرموا عليهم دخول القدس فخداة نجاحهم في حملتهم الصليبية الأولى وفرضوا عليهم هذا الحظر الذي سبق أن

فرضه عليهم أباطرة الرومان تيتوس وهادريان^(٣) . وفقد اليهود بذلك امتياز الحياة في المدينة المقدسة وحرية التنقل والمعيشة في مدن فلسطين وهو الامتياز الذي حصلوا عليه من المسلمين غداة الفتح الإسلامي لبلاد الشام^(٤) .

وتحكي لنا المصادر العربية والأوربية عن المعاملة القاسية التي عامل بها الصليبيون سكان فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة مسلمين ومسيحيين ويهود. فحين استولى «جودفروا دى بلوين»، قائد الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس (١٤ يوليو ١٠٩٩) أقام فيها حمام دم لأهل الممل الثلاثة، وانطلق رجاله في شوارع المدينة يقتلون كل من يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز. واستمرت المذبحة طوال يوم الفتح وطوال الليل^(٥) . وبالنسبة لليهود فلقد أحرق الصليبيون عليهم معبدهم الذي اجتمعوا فيه فأتى منهم عدد كبير وأُسر من فر من النار وسيقوا ليباعوا في أسواق النخاسة، ورُوي أن ثلاثين يهودياً بيعوا بدينار واحد^(٦) . وبرر دى بلوين، قتله وتحريره لليهود بأنه ينتقم منهم لقتلهم المسيح^(٧) .

ولقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبي في كل مدن فلسطين، وشملهم القتل والأسر في يافا وفي حبرون (الخليل) وحيفا وجبل الكرمل وقيسارية^(٨) . ونتيجة لهذه المذابح الصليبية هرب من تبقى من اليهود من مدن فلسطين ناجياً بحياته إلى أماكن أكثر أماناً حتى كادت مدن فلسطين أن تخلو تماماً من اليهود، وذكر الرحالة اليهودي «بنيامين التطيلي»، الذي زار فلسطين في سنة ١١٧٠م أنه رأى مدن فلسطين خالية من اليهود أو تكاد. فقد ذكر أنه لم ير في يافا سوى يهودياً واحداً وفي بيت المقدس أربعة يهود يعملون بالصباغة^(٩) . وإن كان قد ذكر في موضع آخر من كتاب رحلته أنه شاهد مائتي يهودي عند برج داود في أطراف القدس يشتغلون

بالصباغة^(١٠) . وفي مدينة الرملة ثلاثة يهود فقط . وروى أنه مر على بعض مدن فلسطين فلم يشاهد بها يهودياً واحداً^(١١) . وظل شتات اليهود وتحريم سكانهم مدن فلسطين وخاصة القدس قائماً حتى فتح صلاح الدين لهذه المدينة . فبعد أن فتح صلاح الدين القدس (يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧ م) سمح لليهود بالعودة إليها ، وأظهر من التسامح والعفو مع أهل المدينة ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير^(١٢) . ولقد أمن سكان المدينة جميعهم على أرواحهم ووزع جنوده في شوارع المدينة وأحيائها ليحفظوا الأمن والنظام بها ويحفظوا أرواح سكانها ، فلم يقع حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التي تلازم الفتح عادة^(١٣) . ولم يشأ صلاح الدين أن يفعل مع المسيحيين واليهود مثلما فعل الصليبيون الأول من ضروب التوحش والإبادة التي وقعت على سكان القدس^(١٤) . فلقد كانت رحمته وعطفه على نقيض أفعال الغزاة المسيحيين في الحملة الصليبية الأولى^(١٥) .

وحين شعر اليهود بسماحة أخلاق هذا الفاتح العظيم وعدم تعصبه الديني أخذوا في العودة من مخابثهم إلى أرض فلسطين والقدس ابتداءً من سنة ١١٩٠ م . وكتب الشاعر الأديب اليهودي يهودا الحريزي ، الذي زار مدينة القدس بعد ربع قرن من عودتها إلى يد صلاح الدين (حوالي سنة ١٢١٦ م) عن ذلك الأمر يقول :

« ... ولكن لماذا لم يسمح لليهود بالبقاء في فلسطين حين كانت في قبضة الصليبيين المسيحيين ؟ ... قيل أن السبب في ذلك أننا المتسبيون في قتل لأهلهم . وأنذروا لذلك بأنهم سوف يأكلوننا أحياء إذا تمكنوا منا . لكن الله أرسل الملك العادل صلاح الدين وزوده بالحكمة والشجاعة فسار بجيش من مصر وحاصر القدس وأسقط الله بعونه المدينة في يده . وعندئذ أرسل السلطان منادياً ينادي في أرجاء البلاد بأن يعود كل سليل من سلالة إبراهيم إلى القدس من العراق ومصر ومن كل الأماكن التي التجأوا إليها ... »^(١٦) .

ولقد شهد على عدالة وتسامح صلاح الدين وحسن معاملته لليهود غداة فتحه بيت المقدس أكبر أهداء المسلمين زعيمهم دافيد بن جوريون ، فلقد أورد في كتابه ما نصه (١٧) .

ولقد أصدر صلاح الدين نداءً غداة فتحه للقدس يحث فيه اليهود صفاراً وكباراً وخاصة الهاربين من حكم الصليبيين أن يعودوا إلى بيت المقدس . وفي خلال سنوات قليلة من حكم هذا السلطان العادل أعيد المجتمع اليهودي في القدس وتجمع اليهود من كل صوب وحذب عائدون إلى المدينة المقدسة . ولقد عاد مع هؤلاء العائدين عدد من كبار علماء اليهود ورؤسائهم منهم ثلاثمائة من فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ومكنوا مدينة القدس . ولقد ذكر مؤرخ يهودي أن الملك العادل أخا صلاح الدين استقبل في سنة ١٢١١ هؤلاء العلماء اليهود الثلاثمائة استقبالا طيباً وسمح لهم ببناء مدارس ودور عبادة يهودية . ويأتى على رأس هؤلاء الرابانية الرايين الفرنسيين شمعون بن إبراهيم الشنازي ويوناتان اللونلي . ولقد استمرت هجرة العلماء اليهود الغربيين إلى بيت المقدس وفلسطين طوال عهد صلاح الدين وعهد أسرته من بعده .

وبناءً على هذه العودة سمح السلطان صلاح الدين لليهود في مصر والشام بحرية العمل كما سمح لهم بحرية العبادة . وبذلك عاود التجار اليهود نشاطهم التجاري القديم وساهموا بنصيب وافر في التجارة الداخلية وفي تجارة المرور بين الشرق والغرب . ولم يضع السلطان الأيوبي أية قيود على اشتغالهم في التجارة ومساهماتهم في عودة الرواج الاقتصادي للبلاد (١٨) . فساوى بينهم وبين بقية التجار غير المسلمين في دفع المكوس . وكان يؤخذ منهم العشر في ميناء الإسكندرية ودمياط على البضائع التي كانوا يجلبونها من بلاد أوروبا إلى مصر مرة كل عام (١٩) . ثم تقرر أن يؤخذ منهم ومن سائر التجار الأجانب الخمس — وهو ضعف العشر — عن كل ما يصل لهم مرة كل عام (٢٠) . واستمر أخذ الخمس من قجار اليهود ومن غيرهم من التجار الأجانب طوال

عهد صلاح الدين (٢١) وهناك وثيقة من وثائق الجيزة - لم تنشر بعد -
وهي عبارة عن رسالة وردت من الاسكندرية إلى القسطنطينية تمتدح فيها
صاحبها التاجر اليهودي السلطان صلاح الدين لإنقاذه المكوس عن
اليهود (٢٢) .

وكان اليهود يدفعون الجزية السنوية المقررة عليهم شأنهم في ذلك شأن
غير المسلمين (٢٣) . وكان تجار اليهود الذين يعملون في تجارة الشرق يدفعون
إلى جانب المكوس المفروضة على بضائعهم ما عليهم من الجزية السنوية
حتى أثناء تغيبهم في رحلات تجارة الشرق (٢٤) . وقد جاء في وثائق الجيزة
أن هذه الجزية كانت تسمى في عهد الأيوبيين (جعلية) وأنها كانت تؤديها
جماعات التجار اليهود حتى أثناء تواجدهم في الهند وبلاد الشرق الأدنى .
وشاهد على ذلك أن تاجراً يهودياً من تجار الهند تغيب في الهند تسع سنوات
ثم مات هناك فدفع عنه أخوته في مصر جعلية السنين التسعة . وهناك خطاب
من خطابات الجيزة أرسله أخ من الاسكندرية لأخيه الذي يتاجر في الهند
يطلب منه أن يرسل ما عليه من جعلية . وعند وصول الأخ تاجر الهند
إلى الاسكندرية سنة ٥٥١/١١٥٦ م - بعد غياب أربع سنوات - أرسل
إلى صديق له في القسطنطينية يطلب منه أن يخبر المحصل بفرق سفينته ورجائه
أن يرفع عنه جعلية السنوات الأربع . وقال له في خطابه ما نصه : دأو عده
بنصف دينار أو دينار له وذكره بأنني يوسف صاحب المخزن الواقع تحت
الكنيسة المعلقة ، (٢٥) .

ونتيجة للعمل في تجارة الشرق وبفضل راية التسامح التي رفعها السلطان
صلاح الدين كون بعض تجار اليهود ثروات طيبة وأحرزوا مكانة هامة في
المجتمع المصري وفي البلاط السلطاني . ولقد قرب صلاح الدين أطباء اليهود
إليه وجعلهم أطباء الخصوصيين بفضل نبوغهم في علم الطب والداواة .
ورقي السلطان أحدهم إلى منصب القاضي (الناجد) ورفع مكانته وارتفعت

مكانة اليهود معه في مصر (٢٦) ، في ذات الوقت الذي ارتفعت فيه مكانة اليهود في العراق (٢٧) وحصل كبيرهم على لقب رأس الجالوت (٢٨) .

ومن الأطباء اليهود الذين خدموا البلاط السلطاني في عهد صلاح الدين وفي عهد أسرته من بعده نجد أسماءاً لامعة تحدث عنها المؤرخ الطبيب ابن أبي أصيبعة المعاصر لدولة الأيوبيين في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (٢٩) .

من هؤلاء : * الطبيب يوسف بن أبي سعيد بن خلف السامري ، المعروف بشمس الحكماء . وكان في خدمة السلطان صلاح الدين وتوفي بدمشق سنة ٦٢٤ هـ (٣٠) .

* الطبيب أبو المعالي تمام بن هبة الله بن تمام ، وكان طبيباً يهودياً غزير العلم وافر المعرفة مشهوراً في الدولة موصوفاً بالفضل مشكوراً بالمعالجة . وكان مقيماً بفسطاط مصر وأسلم جماعة من أولاده . كان في خدمة السلطان صلاح الدين وكان ذا حظوة في أيامه . وقدم بعد ذلك لأخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب وله من الكتب : تغاليق ومجربات في الطب ، (٣١) .

* الطبيب الشيخ الموفق شمس الرياسة أبو العشار هبة الله بن زين بن جميع الإسرائيلي ، . وكان من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين ، متغنياً في العلوم جيد المعرفة بها ، كثير الإجتهد في صناعة الطب . ولد ونشأ بفسطاط مصر وخدم السلطان صلاح الدين ، وكان رفيع المنزلة عنده عالي القدر نافذ الأمر يعتمد عليه في صناعة الطب . وكان لابن جميع مجلس هام للذين يشتغلون عليه بصناعة الطب وكانت له فيه كتب كثيرة (٣٢) .

* الطبيب أبو البيان بن المدور الملقب بالسديد ، . خدم السلطان

صلاح الدين وكان يعتمد على معالجته . ولقد عمر هذا الطبيب حتى أصابه الضعف والوهن بسبب كبر سنه . فأطلق له السلطان في كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل إليه في بيته دون أن يكلف بخدمة . وبقى على تلك الحال نحو عشرين سنة . وعاش أبو البيان ثلاثاً وثمانين عاماً ، وخدم بعد صلاح الدين الملك العادل أبا بكر بن أيوب وتوفي سنة ٥٨٠ هـ بالقاهرة (٣٣) .

• « الطبيب الموفق بن شوعة » . خدم السلطان صلاح الدين وعملت منزله عنده وتوفي بالقاهرة سنة ٥٧٩ هـ (٣٤) .

ويأتي على رأس هؤلاء الأطباء الطبيب العالم الفيلسوف « موسى بن ميمون » الملقب بالرئيس الذي يقول عنه ابن أبي أصيبعة أنه كان أوحده زمانه في صناعة الطب وفي أعمالها ، متفهماً في العلوم وله معرفة جيدة بالفلسفة . وكان السلطان الناصر صلاح الدين يرى له وكذلك ولده الملك الأفضل على ، وكان له من الكتب : « اختصار الكتب الستة عشر لجالينوس » ، « مقالة في البواسير وعلاجها » ، « مقالة في تدبير الصحة » ، صنفها الملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين . « مقالة في السموم والتحرز من الأدوية القتالة » ، « كتاب شرح العقاد » ، و « كتاب كبير على شرح اليهود » ، (٣٥) .

وإذا كانت شخصية موسى بن ميمون الطبية قد أحرزت مكانة هامة في المجتمع المصري في عهد صلاح الدين فإن هذه الشخصية كان لها دور عظيم في حياة كل اليهود منذ عهده حتى الآن . ذلك لأن هذا الرجل يعتبر المؤسس الحقيقي للديانة اليهودية وواضع أسس هذه العقيدة ومثبت أركان الإيمان بها . ولقد رفعه اليهود إلى مرتبة النبوة وأطلقوا عليه النبي موسى الثاني (٣٦) . ولذلك فإن اليهود الآن يدينون للسلطان المسلم صلاح الدين بإرساء قواعد

ديهم بفضل روح النساخ الديني التي ظلمت هذه والتي أعطت المناخ المناسب لنمو علامة اليهود موسى بن ميمون الذي كانت له الخطوة والمكانة في بلاط السلطان .

وكان موسى بن ميمون قد التجأ إلى مصر في عهد صلاح الدين بعد هروبه مع أسرته من المغرب (٢٧) ، واحترف مهنة الطب فيها . ولم تهن سنوات قليلة على استقراره بها حتى ذاع صيته وأصبح له السيادة فيها (٣٨) . واختير الطبيب الأول لوزير صلاح الدين ، القاضي الفاضل عبد الرحيم اليبساني ، الذي أوصله إلى البلاط السلطاني وغمره بامتيازات عديدة (٣٩) . وكان موسى قد حصل على نفس المكانة عند ريتشارد قلب الأسد ، في عسقلان وعرض عليه ريتشارد أن يبقى معه وأن يكون طبيبه الخاص . لكن موسى لم يكن يأمن غدر الصليبيين وفضل العيش تحت راية حكم صلاح الدين الذي كاداه مقابل ذلك واعطاه لقب (رأس الأمة) تشریفاً له وتعظيماً (٤٠) ، وأصبح موسى بن ميمون أعظم شخصية يهودية في زمانه حين تولى وظيفة (الناجد) — رئيس القضاة اليهود (٤١) . وصارت تصال له رسائل اليهود من كل العالم تسأله الفتوى وتطالب منه الحل لمشاكلها الدينية .

ولقد أتاح الزعامة التي أحرزها موسى بن ميمون على المجتمع اليهودي الفرصة له لإعادة تنظيم العقيدة اليهودية وإعادة ترتيب التوراة واستخلاص الأحكام الشرعية والفتاوى منه وتخليصها عما يتخللها من استطرادات وحكايات وأساطير (٤٢) واستطاع وسط زحمة العمل أن يؤلف كتبه الدينية التي كانت سر شهرته وعظمته بين يهود العالم . ولقد أراد في هذه الكتابات أن يوفق بين التوراة والتوراة وأن يشرح الحقائق الرئيسية للديانة اليهودية في العقيدة والتشريع . وأراد أن يبسط للناس التعاليم اليهودية بعد أن استعصى فهمها على اليهود بسبب كثرة التضارب في كتبهم المقدسة (٤٣) .

وكتب موسى بن ميمون ، بعد وصوله مصر بثلاث سنوات (١١٦٨م) أهم أعماله وهي « المشنا المبسطة » ، وكانت أول محاولة لوضع مشنا مبسطة للعامة . وفي سنة ١١٨٠م أخرج عمله الثاني الكبير وهو « مشنا تورا » ، (إعادة الشريعة) والذي حُرف بالتوراة الثانية عند اليهود ، ويعد من أبرز الكتب الأدبية في العالم . ولقد قسمه إلى أربع عشرة جزءاً أوضح فيها التعاليم اليهودية ببساطة وصاغ فيها كل أحكام التلمود والمشنا والتوراة بأسلوب عبري سهل واضح دقيق^(٤٤) .

كذلك أخرج كتابه الفلسفي « دلالة الحائرين »^(٤٥) الذي مزج فيه بين التعاليم اليهودية وفلسفة أرسطو . ولقد تأثر موسى بن ميمون في كتاباته بنتائج علم التوحيد وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين وبفلسفة الأشاعرة^(٤٦) . وحاول ابن ميمون في كتاباته أن يقرب بين طائفتي الربانية والقرائين اليهوديتين اللتين كانت لهما مجتمعاتهما في القاهرة والاسكندرية ودمشق وأماكن أخرى^(٤٧) .

وكما تفانى موسى بن ميمون في خدمة ديانته وبذل كل الجهد لتوضيح العقيدة اليهودية للمواطن اليهودي العادي ، فلقد تفانى في خدمة الحاكم المسلم الذي أعطى له حرية الحركة والتفكير على أرض مصر . فلقد عاش موسى بن ميمون حياته في عمل متواصل دون كل أو ملل . ولقد تحدث عن ذلك الرحالة «عبد اللطيف البغدادي» الذي زار مصر حوالي سنة ١١٩٩م وذكر ذبوع صيت ابن ميمون وشهرة ابنه إبراهيم^(٤٨) . وفي خطاب أرسله ابن ميمون إلى أحد أصدقائه أخطانا صورة لبرنامج عمله اليومي فكتب يقول :

« إني أعيش في الفسطاط بالقرب من قصر السلطان المتواجد بالقاهرة والذي لا يبعد عن مقر إقامتي كثيراً . وإني أتواجد في كل صباح في حضرة المملطان حيث أقوم بمعالجة قواد السلطان وأتباعه . وأظل هناك ولا أعود

إلى القسطنطينية قبل الظهر بأى حال من الأحوال . وعند هودق للقسطنطينية أجد
فى انتظارى كثيراً من الناس مسلمين ويهود واقفين أمام دارى . فأنزل من
على حمارى وأغتسل وأعتذر للناس عن تأخرى وأطلب منهم الإلتظار قليلاً
حتى أتناول لقيمات قليلة . ثم أعود لمعالجة المرضى وأكتب لهم العلاج .
ويظن الناس من حولى فى ذهاب ورواح حتى المساء وأظل فى خدمتهم حتى
الثانية صباحاً ، أما يوم السبت فأقوم بالخدمة الدينية حيث يزورنى كبار
رجالنا اليهود الذين أعطيهم إرشاداتى لباقي الأسبوع ، (٤١) .

وتوفى موسى بن ميمون سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٤ م فى السبعين من عمره دون
مرض ولكن بسبب الإرهاق الشديد والعمل المتواصل فبكاه اليهود والمسلمون
وأقاموا الحداد على وفاته ثلاثة أيام (٥٠) . وحمل جثمانه إلى فلسطين ودفن
فى طبرية تنفيذاً لوصيته (٥١) ، وأصبح قبره محجاً لليهود (٥٢) .

ولقد خلف موسى فى منصبه الدينى ووظيفة الطب ابنه إبراهيم (٥٣) وعمل
إبراهيم فى خدمة الملك العادل ثم الملك الكامل وظل يتردد على بیمارستان
الناصرى بالقاهرة ويعالج المرضى فيه (٥٤) . واحتفظ إبراهيم بالمكانة التى
كانت لأبيه فى البلاط السلطانى . كما احتفظت أسرة موسى بن ميمون وسائر
جماعات اليهود بالمكانة التى أحرزوها فى مصر وذلك بفضل سياسة التسامح
الدينى التى وضعها السلطان صلاح الدين وسارت عليها أمرته من بعده .

الحواشي

(١) Ehrenkreutz : Contributions to the knowledge of the Fiscal administration of Egypt in the Middle Ages, [BSOASU, V, XVI, Part 3, London 1954, p. 514].

Goitein : Jews and Arabs, their contacts through the Ages, (٢) New York 1955, p. 72.

(٣) في سنة ٧٠ م هدم الامبراطور الروماني تيتوس هيكل اليهود وقام بقتل وطرد اليهود من فلسطين والقدس . كذلك تكرر الأمر مع اليهود في سنة ١٣٥ م حين فُعلت الثورة التي قاموا بها في فلسطين ضد الرومان في عهد الامبراطور هادريان في الفترة ما بين ١٣٢ — ١٣٥ م . وهي الثورة التي عرفت باسم ثورة باركوكبا (ابن النجوم) وكانت آخر ثوراتهم في فلسطين . وبعد أن أخذ القائد يوليوس سيفروس قائد هادريان هذه الثورة قام بهدم معبد اليهود وأقام مكانه معبداً وتمثالا للاله جيوبيتر كايبتولينوس . كما قام هادريان بتغيير اسم مدينة القدس الى ايليا كاييغولينا . كذلك غير كل الأسماء العبرية في المدينة الى أسماء رومانية . وأصدر هادريان قراراً يحرم على اليهود دخول مدينة القدس والعيش فيها وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك . وظلت القدس وسائر مدن فلسطين محرمة على اليهود حتى الفتح الإسلامي للشام .

[Eva Goldmann : A History of the Jewish People, London 1967, p. 92]

(٤) ظل حظر دخول القدس على اليهود قائماً حتى استيلاء جيوش الخليفة عمر ابن الخطاب على القدس سنة ٦٣٧ م . وكان زعماء المسيحيين في المدينة قد اشترطوا على الخليفة شروطاً يسلموه بعدها المدينة منها شرط منع اليهود من دخول المدينة . لكن الخليفة الملم قبل كل الشروط ماعدا هذا الشرط معتذراً بأن القرآن حدد لأهل الكتاب ما لهم وما عليهم وليس فيه شيء يسمح بهذا . وبذلك أصبح لليهود الحق في العودة والعيش في المدينة المقدسة . ولم يجرؤ اليهود طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل الأمويين على الاستيطان بالقدس ثم سمح لهم بعد ذلك منذ أيام الخليفة عبد الملك بن مروان .

وحين أصبحت الشام في يد الفاطميين واستولوا على القدس ازدهرت بها الطائفة اليهودية لعطفهم على أهل الكتاب وبخاصة اليهود (حسن ظاناً : القدس مدينة الله أم مدينة داود ، الاسكندرية ١٩٧٠ ، ص ٣٠ ، ٣١) .

(٥) ستيفن رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العويني ، بيروت

١٩٦٧ ، ص ٤٠٤ .

—David Ben-Gurion : The Jews in their land, London (٦)
1966, p. 214.

—Simon Dubnov : History of the Jews, V. IV, London (٧)
1968, p. 672.

—Ben-Gurion : Op Cit , p. 214. (٨)

—Ben-Gurion : Op. Cit., p. 215. (٩)

(١٠) آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ،
القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٤ .

(١١) زار الرحالة اليهودي الأسباني بنيامين التطيلي بلاد العالم الإسلامي في الفترة
ما بين ١١٧٠—١١٧٣ م . فزار سوريا وفلسطين والعراق ووصل إلى بغداد . ونقل كل
شيء سمعه أو رآه عن الأحداث السياسية آنذاك في كل بلد زاره وخاصة فيما يتعلق بحياة
اليهود في هذه البلاد . كذلك قام هذا الرحالة برحلة أخرى إلى مصر بعد رحلته الأولى بحوالي
ثلاثين عاماً وتحدث فيها عن أحوال اليهود في مصر .

(Simon Dubnov : Op. Cit., IV, pp. 797-813)

(١٢) أبانغ ثناء لصلاح الدين في هذه المناسبة ما أورده المؤرخ لين بول حين قال :
« إذا كان فتح بيت المقدس والمعاملة الطيبة التي أبداهما صلاح الدين لسكانها هي الحسنة
الوحيدة التي فعلها لكفاه بذلك أن يكون أعظم الفاتحين وأرقم قلباً في عصره بل وربما في
كل العصور » .

(Stanley Lane-Pool : Saladin and the Fall of the Kingdom of
Jerusalem, Beirut 1964, p. 234).

(١٣) عارف العارف : تاريخ القدس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٧٨، ٧٩ .

(١٤) جوستاف ليبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٦ ،
ص ٣٢٩ .

(١٥) رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٣ .

— أورد المؤرخ الرحالة عبد اللطيف البغدادي أنه كان حاضراً وفاة السلطان
صلاح الدين وأنه لمس حزن كل الناس على اختلاف مللها لوفاة هذا الحاكم العظيم وقال
ما نصه :

(لا مات صلاح الدين ما رأيت ملكاً حزن الناس بموته سواه لأنه كان محبوباً محبة
البار والفاجر والمسلم والكافر — الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة
بأرض مصر ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ز) .

—Simon Dubnov : History of the Jews, IV, p 816. (١٦)

—The Jews in their land. London 1966, pp 217—218. (١٧)

—Ashtor : Saladin and the Jews, [Hebrew Union College (١٨) Annual, V. 27 (1956), p. 326]

• (١٩) المقرئى : الخطوط ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ، ص ١٢٠

• (٢٠) القلقشندي : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٥ ، ج ٣ ، ص ٤٥٩

• (٢١) قال ابن ممانى (قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة

١٩٤٣ ، ص ٣٢٦)

• « وربما بلغ قيمة ما يستخرج مما قيمته مائة دينار ما يتجاوز خمسة وثلاثين ديناراً وربما انحط عن العشرين ديناراً ويطلق على كليهما خمس . ومن الروم من يستأدى منه العشر إلا أنه لا كان الخمس أكثر كانت النسبة إليه أشهر » .

—Goitein : The Cairo Geniza as a source for the History (٢٢) of the Muslim Civilisation, [Studia Islamica, III, Paris 1955, p. 85].

—Goitein : Jews and Arabs, p. 72.

• (٢٣) كانت الجزية تفرض على أهل الذمة في مصر منذ اللحظة الأولى لفتح العرب لها . وقد وضع الخليفة عمر بن الخطاب نظاماً ثابتاً موحداً للجزية لاتباعه المال في سائر الأمصار ، وقسم الجزية ثلاثة أقسام وفقاً لحالة الذى الاجتماعية . فكان يؤخذ من الذكر الموسر أربعة دنانير وسدس في كل سنة وعلى المتوسط ديناران وقيراطان وعلى الفقير دينار وثلاث وأضيف إلى جرية كل شخص درهمان وربعم عن رسم القادر والمباشرين ، وكتب عمر إلى عماله بأن لا يوضع عليهم أكثر من ذلك وأن يخفف عن مجز عن الدفع . وقد كانت المعادة جارية باستخراج الجزية في أول المحرم من كل سنة ثم سارت تستخرج في أيام من ذى الحجة .

• (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٧)

• (٢٤) كان اليهودى المكلف بالدفع يدفع جليلته في مسقط رأسه ويأخذ بذلك شهادة

تفيد بدفعه تعرف بالبراهة .

[Goitein : The Cairo Geniza, SI, III, Paris 1955, p. 86].

—Goitein : Evidence on the Muslim Poll tax from non-

muslim sources, [JESHO, V. VI, Part I, 1963, pp. 282—283]

—Simon Dubnov : History of the Jews, V. IV, p. 816. (٢٦)

• (٢٧) أثر انقسام الإسلام إلى خلافة بغداد وأخرى بالقاهرة بقيام دولة الفاطميين

في مصر على تنظيم المجتمع اليهودى في العالم الاسلامى فتزعم يهود العراق وأس الجالوت بينما ترأس يهود مصر رئيس آخر يلقب سرهساريم (أمير الأمراء) وكان يعين أعيان اليهود في الشام ومصر أى في حدود دولة الفاطميين .

• ولا بد أن يكون الفاطميون قد مكفلوا لمجاء هذه الطائفة الخاصة من الأمراء (ناجد

— أمير) بالقاهرة رغبة منهم في معارضة كل ما هو بفسادى ، وقد تكلم الرحالة بنيامين التيطلى عن هذه الوظيفة أثناء رحلته .

• (آدم متهز : الحضارة الاسلامية) ج ١ ، ص ٦٣)

(٢٨) رأس الجالوت هو رئيس اليهود ولقد عرفه الخوارزمي بقوله عنه أنه « هو رئيس اليهود وهم الجالية أعنى الذين جلوا عن أوطانهم بيت المقدس ويكون رأس الجالوت من ولد داود عليه السلام وتزعم عامتهم أن لا يرأس حتى يكون طويل الباع تبلغ أقدامه يديه ركبتيه إذا مدحا .

(الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٢٤) .

(٢٩) هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة السعدي الخزرجي ، ولد في دمشق سنة ٦٠٠ هـ ، وكان والده أمير السكاحين (أطباء العيون) في دمشق . عاش في القاهرة الأيوبية والتحق في المارستان الناصري الذي أنشأه صلاح الدين في القاهرة واشتهر بحسن مداواته لأمراض العيون واستلفت نبوغه الجالس على كرسي الملك فالحقه بخدمة الدولة . توفي في صرخد إحدى مدن جبال حوران سنة ٦٧٨ هـ .

(مقدمة كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥) .

(٣٠) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ص ٧٢١ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٣٢) أورد ابن أبي أصيبعة (ص ٥٧٩) أن من كعبه في الطب : كتاب الارشاد لمصالح الأنفس والأجساد وهو أربع مقالات . وكتب التصريح بالمكنون في تنقيح القانون ورسالة في طبع الاسكندرية وحال هوائها ومياهها ونحو ذلك من أحوالها وأحوال أهلها . ومقالة في الليمون وشرابه ومنافعه . ومقالة في الراوند ومنافعه . ومقالة في علاج القولنج .

(٣٣) ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر ، ص ٥٧٩ ، ٥٨٠ .

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص ٥٨١ .

(٣٥) عيون الأنباء ، ص ٥٨٢ ، ٥٨٣ .

(٣٦) —Poul Borchsenius : The Three Rings, The History of the Spanish Jews, London 1954, p 116.

(٣٧) ولد موسى بن ميمون في قرطبة بالأندلس سنة ١١٣٥ (٣٠ مارس) ومات في القاهرة في ١٣ ديسمبر ١٢٠٤ ودفن في طبرية . عرف في العربية بأبى عمران موسى بن ميمون بن عبد الله .

وكان والده قاضياً ومعلماً تعلم موسى منه التعاليم الدينيّة . وحين كان موسى يبلغ من العمر ثلاث عشرة عاماً سقطت قرطبة في يد الموحدين . ولحقه خير الأمير عبد المنعم الموحدى (١١٣٠ — ١١٦٣) اليهود والمسيحيين بين الاسلام أو ترك البلاد . وكان على ميمون وأسبرته أن يختاروا أحد الأمرين فاخاروا الرحيل عن الأندلس . وفي سنة ١١٦٤ استقروا في فاس بالسكن الأسرة هجرت فاس بعد استقرار دام خمس سنوات بها وركبت البحر مبحرة إلى فلسطين فوصلت عكا ثم بيت المقدس . وبسبب الاضطهاد الصليبي الذي كان يسود فلسطين ارتحلت الأسرة إلى الاسكندرية وأخيراً استقرت في القسطنطينية .

ومات والده بعد استقراره في مصر بشهرين (١١٦٦ هـ) فقام أخوه الأكبر داود برعايته والمائلة . لكن داود غرق وبضائه في البحر مع مركب كان يتاجر عليها فاضطر موسى لذلك أن يعمل ليكسب قوته فاحترف مهنة الطب وكان قد اكتسب معرفة هائلة بشئون الحياة وفي شتى العلوم أثناء تجواله وخاصة في علم الطب .

(The Jewish Encyclopedia, V. IX, London 1916, p. 73.)

(٣٨) يقول ابن أبي أصيبعة (ص ٥٨٢) أن الرئيس موسى كان قد أسلم في المغرب وحفظ القرآن واشتغل بالفقهاء ثم لما توجه إلى الديار المصرية وأقام بفسطاط مصر ارتد . وأيده القفطي في ذلك (القفطي : تاريخ الحكماء ، ليزج ١٩٠٣ ، ص ٣١٨) .

—The Jewish Encyclopedia, IX, p. 74. (٣٩)

—Simon Dubnov : Op. Cit., p. 819. (٤٠)

(٤١) كان موسى بن ميمون أيضاً وكلياً لتجار اليهود في تجارة الشرق وكان يطلق عليه لقب أمير بلاد اليمن .

Goitein : Letters and Documents on the India Trade in Medieval Times, [Islamic Culture, London 1963, vol 37, no. I. p. 188].

(٤٢) حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي ، أطواره ومذاهبه ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٠٤ .

—Poul ; Op. Cit., p. 125. (٤٣)

—Poul : Op. Cit., p. 133. (٤٤)

(٤٥) القفطي : أخبار الحكماء ، ص ٧٩ .

(٤٦) حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي ، ص ١٥٨-١٦٣ .

—Simon Dubnov : Op. Cit., p. 819. (٤٧)

(٤٨) نقل المؤرخ الطيب ابن أبي أصيبعة عن الرحالة عبد اللطيف البغدادي في ترجمته لحياته على لسانه مانعه : أنه سافر إلى مصر في أواخر أيام السلطان صلاح الدين وأن البغدادي قال ضمن من قابلهم من الأفاضل الرئيس موسى بن ميمون الذي قال عنه مانعه :

« بقاء في موسى فوجدته فاضلاً في النفاة قد غلب عليه حب الرئاسة وخدم أرباب الدنيا وعمل كتاباً في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى وعمل كتاباً لليهود سماه كتاب الدلالة » .

[عبد اللطيف البغدادي : الافادة والاعتبار في الأمور المعاهدة والحوادث المعينة بارض مصر ، القاهرة ١٩٤٣ ، الترجمة الخاصة بالمؤلف والملحق بالكتاب عن المؤرخ ابن أبي أصيبعة ، صفحات ٥٠ و ٥١] .

—Simon Dubnov : Op. Cit., p. 820. (٤٩)

—Poul. Op. Cit., p. 134. (٥٠)

(٥١) القنطري : أخبار الحكماء ، ص ٢١٤

(٥٢) —Jewish Encyclopedia, IX, p. 80.

(٥٣) —Goitein : Jews and Arabs, p. 182.

(٥٤) كان إبراهيم معاصراً للطبيب المؤرخ ابن أبي أصيبعة ، فلقد أشار ابن أبي أصيبعة في كتابه (ص ٥٨٣) - أنه التقى في سنة ٦٣٠ أو ٦٣٢ هـ بإبراهيم في بیمارستان القاهرة وأنه وجده شيخاً طويلاً نحيف الجسم حسن العشرة لطيف الكلام متميز في الطب وقد كراهه توفي بمصر في الثلاثينات من سنة ست مائة .

دراسات في عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى

للدكتور صابر دياب
آداب القاهرة بالخرطوم

مدخل :

البحر المتوسط وطاله يمثل منطقة القلب بالنسبة للعالم ، ولذلك كان هذا البحر وطاله منطقة احتكاك حضارى بكل ماعنيه هذه الكلمة من معاني .

قامت بين شعوب هذا البحر العلاقات تارة ، واستعرت بينهم الحروب أخرى .. وتصارعت الدول والامبراطوريات على السيادة على اجواء هذا النطاق ليتحقق لها التحكم في العالم كله .. كان ذلك قديماً ووسيطاً وحديثاً .. وتبلورت بين دول وحكومات وشعوب العالم حقيقة أن من يريد السيطرة على العالم شرقاً وغرباً فعليه أن يخضع البحر المتوسط لسلطانه أو يجعل له فيه نفوذاً : سياسياً أو اقتصادياً أو عسكرياً أو ثقافياً ، أو نفوذاً يشمل هذه النواحي جميعها إن أمكن .

وكان من الطبيعي إذن أن يحدث احتكاك أو صراع ، ويقوم نوع من المد والجذر بين شعوب العالم الإسلامى وبين الشعوب الأخرى المطلة على شطآن هذا البحر . وقد مر هذا الاحتكاك بأدوار شتى تراوحت بين السلم

والحرب . وكان يشكل كل طور من هذه الأطوار حاجة وأحوال الدول التي لها مصلحة ما قد تتماشى أو تتصادم مع مصلحة العالم الإسلامي .

وقد أردت بدراستي هذه عن عالم البحر المتوسط أن ألقى بصيصاً من ضوء على بعض النواحي التي قد تعين على تفهم طبيعة الحياة والعلاقات السائدة في عالم البحر المتوسط في العصور الوسطى . ورأيت أن أبدأ هذه الدراسة على هيئة سلسلة أبحاث تتناول موضوعات يربط بينها جميعها أنها تناقش شيئاً ما في عالم البحر المتوسط .

واقه أسأل أن يوفقني فيما عزمته عليه .

١ - بعض مظاهر الوحدة في عالم

البحر المتوسط في العصور الوسطى

تمهيد :

تخطت الوحدة الرومانية لعالم البحر المتوسط في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، بدخول المسلمين كقوة مؤثرة وذات ثقل سياسي واقتصادي وعسكري في عالم هذا البحر . غير أن هذه الوحدة الرومانية ما لبثت أن عادت إليه في القرن الحادي عشر الميلادي^(١) . فقبل عصر الحروب الصليبية (فيما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين) ، قام كل من البنادقة والبيزونيون والجنويون ، ليس فقط بإزاحة خطر الغارات الإسلامية والنفوذ الإسلامي عن الساحل الجنوبي والأوسط لإيطاليا (منطقة فلورية Calabria) والجزر القريبة منه ، بل أيضاً بحملات هجومية على السواحل الإفريقية المطلة على البحر المتوسط ، وحصلوا قسراً من كثير من حكام المحليين وقتذاك على امتيازات ومعاهدات اقتصادية لهم^(٢) . وبعد ذلك

بوقت قصير ، قام حكام شمال أفريقيا وأسبانيا المسلمين بتشجيع التجار المسيحيين - الأوربيين عامة والإيطاليين خاصة - على إحضار بضائعهم إلى أسواق بلادهم الإسلامية ، والعبور بها من خلال تلك البلدان . هذا عن الحوضين الغربي والأوسط للبحر المتوسط . أما عن الحوض الشرقي لهذا البحر ، فقد كانت التجارة فيه رائجة ، بسبب نشاط كل من البارونات (Barons) - أى الأمراء والنبلاء - المسيحيين والتجارة والتجار خلال الحروب الصليبية ، مما نتج عنه تنشيطها . وفي ظل هذه الظروف عاد الانتعاش للتجارة وأصبحت ممتدة على طول شواطئ حوض البحر المتوسط وفي كل أنحائه (٣) .

* * *

إن التشابه العجيب بين الحياة في مدينة كروما ، وبين الحياة في المدن الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، تلك المدن التي احتفظت بطابع العصور الوسطى أمر مثير للدهشة حقاً ، وينهض دليلاً قوياً من دلائل الوحدة في عالم هذا البحر في تلك العصور الوسيطة ، خاصة وأنه استمر في بعض النواحي لفترات أو مدد طويلة (٤) .

وقد كشفت دراسات مؤرخ نثل كلود كاهن « Claud, Cahen » (٥) حول تطور المدن الإسلامية ، والغربية الأوربية من أنه كان هناك اعتقاد شائع ، بأن المدن الأوربية تعتبر امتداداً للمدن اليونانية والرومانية ، في الوقت الذي لم تكن المدن الإسلامية المنظمة والمكتفية ذاتياً قد وجدت بعد . لكن يجب الاعتراف أيضاً بأن المدن الغربية لم تكن في أواخر أيام الحضارة الرومانية ، تمتلك استقلالاً كاملاً ، بينما نجسد ، المدن الإسلامية الأولى تنظيماً محلية مختلفة ولشيطة ومعترفاً بها من جانب السلطات الإسلامية (٦) .

وإذا كان قد حدث اختلاف أساسي بين الشرق والغرب حوالى القرن
الثانى عشر الميلادى ، بظهور قوى جديدة وبميزة لعبت دورها فى تغيير وجه
الحضارة الغربية ، فى الوقت الذى كان الجنود والموالى (أو العبيد) يستولون
على السلطة فى معظم الدول الإسلامية ، فإن الوحدة التى سادت عالم البحر
المتوسط عام ١٠٥٠ م ، كانت لاتزال وحدة حقيقية (٧) .

ومن الملاحظ أنه على الرغم من أن الساحل الشمالى الغربى من عالم
البحر المتوسط ، - بما فيه أسبانيا - ، مثله فى ذلك مثل الساحل الأفريقى
الاسيوى ، قد انقسم إلى دول عديدة مستقلة ومنفصلة سياسيا عن بعضها
البعض ، وعلى الرغم من الحروب المستمرة التى نشبت بين هذه الدول المختلفة ،
فإن الناس والبضائع والأفكار لم تكف لحظة عن الانتقال بحرية وأمن
من مكان إلى آخر (٨) .

وعلى الجانب الإسلامى يمكننا إثبات هذه الحقيقة اعتماداً على مصادر
عديدة : كتاريخ المؤرخين والباحثين ، وبعض كتب الرحلات الممتازة
والمكتوبة فى ذلك الوقت نفسه ، والوثائق التى يمكن الرجوع إليها ضمن
مجموعة الجينزا Cairo Geniza التى تتضمن تسجيلات مفصلة عن الحياة كما
كانت فى تلك الفترة وبصفة خاصة حياة الفئات المتوسطة والدنيا فى المجتمع
والتي لم تتأثر بعمليات الاختصار والتهديب التى تتطلبها الكتابة الأدبية (٩)
والجينزا هى مجموعة الوثائق التى وجدت أو توجد فى معابد اليهود ، وهى
تتناول بالدراسة بعض مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى
مصر أو غيرها من البلدان الإسلامية التى بها معابد يهودية ، فى عصر الفاطميين
والأيوبيين بالذات ، وهى تساعد كثيراً على الخروج بنتائج طيبة بالنسبة
لتاريخ مصر فى عصر الفاطميين والدولة الأيوبية . وكلية جينزا عبرية
أطلقت وقتذاك على مكان دفن الأشياء المتعلقة برهبان وعامة اليهود ، وهى

تقابل كلمة « جنازة » في العربية . وكان من معتقدات اليهود في العصور الوسطى أن كل ورقة كتبت بالعربية لا يجب أن تمزق أو تحرق ، بل تحفظ لأن العبرية ، في تقديرهم ، — لغة الله ولها صفة القداسة ، ولذلك فكل ما يكتب بها أو كل ما يكتب عليه بها له صفة القداسة بالخلود^(١٠) .

وبادىء ذي بدء ، لابد من التأكيد على حقيقة هامة وهي : أن كاتبوا الرسائل — (الرسائل Letters) — ومسجلوا الوثائق Deeds المحفوظة أو الموثقون ، والجينزا ، كل هؤلاء كان معظمهم من اليهود ، وذلك على الرغم من أن حوالى ثمانين في المائة من هذه الرسائل والوثائق والجينزا مكتب بالعربية وليس بالعبرية . كما يرد باستمرار ذكر المسلمين والمسيحيين في هذه الوثائق ، مما يوضح أن اليهود لم يقوموا بدور يذكر يزيد عما كان للجماهير الأخرى .

وأيا كان الأمر ، فإن هذا القدر الكبير من حرية الاتصال الذي تمتع به الناس — والذي تنطق به بصورة واضحة بجمواعة الجينزا — لم يكن من الممكن توافره ، ما لم تساعد عليه وتدفعه السلطات الرسمية ، والجو السياسي العام السائد آنذاك في الدول وبين الشعوب المحيطة بحوض البحر المتوسط^(١١) .

وأكبر شاهد على حرية الحركة هذه ، ما نجده في الآلاف من القصصات والرسائل المتبادلة بين الأفراد ، فهذه وتلك لم يرد فيها أية إشارة توحى بعدم وجود هذه الحرية . فقد يشير الشخص إلى زيارة له قام بها إلى مدينة ما مثل بالرمو Panarmus, Palerm ، أو جنوة Genoa ، أو مرسيليا Marsellia ، أو إلى أي مكان آخر في إسبانيا ، أو شمال أفريقيا ، أو مصر ، أو إلى السواحل السورية ، أو حتى إلى أماكن في الدولة البيزنطية

مثل ثغر تساليا أو تسالونيك « Thessalia » ، ويعرف أيضاً باسم أطلاليا « Attalia » ، (١٢) أو طيبة .

وربما يكتب الشخص خطاباً عن رحلته بالعربية ويرسله من سيلوقيا « Selucia » إلى القاهرة ، يذكر فيه مروره - خلال رحلته - على غزة ورودس وخيوس « Chios » والقسطنطينية « Constantineple » ، دون أن يشير إلى أية صعوبات اعترضته بسبب الحدود السياسية . وقد ينتقل بحرية كل صيف بين مدن وموانئ مصر والشام الفاطمية ، وبين موانئ المغرب وبني زيري في تونس (أفريقية) (١٣) ، حتى في أوقات التوتر الشديد بين الدولتين .

وقد يسافر التاجر مستغلاً الطريق المباشر بين الاسكندرية وأشبيلية أو المرية « Almeria » ، في أسبانيا . وفي كل هذه الحالات لم يكن السفر يقتضي من المسافر إلا حمل معه البراءة ، والتي تعني أن صاحبها قد سدد ضرائبه (١٤) ولم يكن بإمكان التاجر المسافر التنقل بدون هذه البراءة ، ولو حتى في داخل مصر ذاتها . وتذكر لنا الوثائق التاريخية ، وخاصة مجموعة الجيزا ، أناساً كانوا يحملون هذه البراءة أو نسوها في البيت ، أو أناس استقلوا مركباً نيلياً متنقلين من قرية إلى قرية دون أن يحملوا دوصل الجالية ، وهذا وذاك دليل على أهمية هذه البراءة (وصل الجالية) في ضمان التحرك والسفر بالبضائع داخل وخارج أقطار عالم البحر المتوسط وقتذاك .

وهناك حدث يقف شاهداً على مدى أهمية هذه البراءة . وهي أنه عندما زار الشاعر اليهودي جوده هاليفي « Judah - HaLevi » القاهرة في طريقه إلى الأراضي المقدسة بفلسطين للحج ، اضطر أصدقاؤه في الاسكندرية إلى تدبير أمر شهادة الضرائب (البراءة) الخاصة به مع السلطات الإسلامية الفاطمية . وذلك ما تدركه جيداً من خطاب على جانب كبير من الأهمية

أرسل إليه من الاسكندرية ، حيث كانت أشعاره تجمع وتدون هناك حينئذ (١٥) .

غير أنه من الإنصاف القول بأن الحرص من جانب السلطات الإسلامية في مصر والشام وقتذاك - (أواخر عصر الدولة الفاطمية) - التأكيد على التجار الأجانب بضرورة حمل البراءة ، لم يكن ينظر إليه على أنه قيد على حرية الحركة والانتقال ، ولا يمكن لباحث منصف أن ينظر إليه كذلك .

وفي أوائل العصر الأيوبي - (خلال حكم صلاح الدين يوسف ابن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية في مصر) - وبسبب الصراع الذي كانت رخاء تدور على أرض الشام بين المسلمين والصليبيين (الفرنجة كما يسميهم الماورخون المسلمون ، كان من الطبيعي بل من الواجب أن يصبح هناك نوع من الحذر في السماح للرعايا الأجانب بأن يجوسوا خلال الديار الإسلامية لاي سبب كان ، وذلك لظروف الحرب المشتعلة أوارها حينذاك بين بلاد الإسلام والجيوش الصليبية . يدلنا على ذلك ، ما أورده «جواتيين Goitein» (١٦) ، من أن رجلاً أرسل خطاباً من الاسكندرية إلى مدن يذكر فيه : « إن ناظر الميناء لم يسمح له بالسفر ، لأنه وجدته (أي الرجل المسافر) مشيراً للشكوك ، لجرد أنه حضر على مركب أفرنجي . ومن ناحية أخرى نرى رحالة وجغرافيا أسبانيا مسلماً معروفاً هو « ابن جبير » ، أمكنه السفر أواخر سنة ١١٧٢ م ، من عكا Acre ، إلى صقلية ، ومن صقلية إلى أسبانيا ، على ظهر سفن مسيحية . مما يوحي بأن الرجل الذي منع من السفر من ميناء الاسكندرية ، لم يمنع لجرد أنه حضر على ظهر مركب أفرنجي كما يزعم . فربما يكون السبب أقوى من هذا وهو ما لم يذكره جواتيين في الققرة التي نقلها من خطاب الرجل ، ويقول أنه لم يذكره .

وعلى أى الحالات ، ومهما يكن من أمر ، فحتى لو كان الرجل قد منع لهذا السبب الذى أبداه هو ، أى بسبب حضوره على ظهر (متن) سفينة افرنجية ، فليس فى ذلك حرج بضير السلطات الإسلامية فى مصر وقتذاك ، وذلك بسبب حالة الحرب والمواجهة التى كان يعيشها العالم الإسلامى عامة ، ومصر والشام بصفة خاصة ، ضد الصليبيين (الإفرنج) منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر الحادى عشر الميلادى) أضف إلى هذا أنه كان من الشائع والمقبول وقتذاك — أواخر القرن الثانى عشر الميلادى — أن يسافر اليهود الذين يعيشون فى بلاد إسلامية على ظهر سفن غير إسلامية ، سواء من بزنطة أو جنوة أو نورمانديا أو تيرانا . وكان من المعتاد أن يكتب رجل من أسبانيا إلى زوجته فى القاهرة خطاباً يقول فيه : « أنا أنوى الحضور على جيتانى » — (أى على مركب إيطالية من جايتا « Gaeta ») — تماماً كما يكتب المرء فى الأيام الحالية فى برقية أو خطاب : « سوف أسافر هذا الصيف على ظهر سفينة (أو متن طائرة) هولندية (١٧) أو بريطانية أو مصرية ، مثلاً .

لكن الأمر الذى لا شك فيه حقاً أن القرصنة والحروب البحرية التى سادت حوض البحر المتوسط — من جانب جماعات من المسلمين والمسيحيين على السواء — كانت من العوامل التى حدثت من حرية الانتقال والحركة فى عالم البحر المتوسط . ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة القليلة منها هذه الملاحظة المعجبية التى أرسلها تاجر من الاسكندرية إلى القاهرة ، إذ كتبها بعد ظهر يوم جمعة قائلاً : « انتهى الآن انتهيت من أخذ حمام » ، وهو ما يعنى بالطبع أن شيئاً لم يحدث فى ذلك الوقت يكون من شأنه تعكير صفو الأمن . وهناك ملاحظة أبدأها رجل أسباني تقول : « لقد وصلت اتوى من المرية Almeria » ، بأسبانيا . أن صديقك رجل الأعمال فى فزان « Fez » وسراکش أرسل إلى قشتيلاً من الذهب — بالتأكيد هو من السودان — ليشتري لك بقمته

حريراً أسبانياً . وأنا أعتقد ، على كل حال ، أن هذه ليست فكرة طيبة أو جيدة ، وبالتالي فإنني أبعث لك بقضيب الذهب كما هو على حاله . ومن ناحية أخرى فإن صديقاً آخر لصديقك رجل الأعمال هذا دفع لي كمية كبيرة من العنبر (Ambergris) (١٨) ، وهو ما أبعثه لك . وأرجوك أن تبعث لي بالتالي عدد (٥) (خمس) فارورات من المسك (Musks) في حدود نفس القيمة . وأرجو منك أن تبيع العنبر بمجرد وصول هذا الخطاب إليك ويشتري بقيمته المسك ، لكن أرساها حالا ، (١٩) .

كذلك ورد في خطاب توصية كتبه شخص يدعى شلومو بن جودة (Slomon b Joda) رئيس الأكاديمية اليهودية في اورشليم « القدس » (Jerusalem) يقول : « حامل هذا الخطاب يهودى من خراسان ، وقد امتدحه أصدقائي في أشييليه ، وهو الآن في طريقه إلى القاهرة ، رجاء العناية به ، . على أننا لا نستطيع معرفة كيف حضر هذا اليهودى من شمال شرقى إيران (خراسان) إلى أسبانيا . فلربما يكون قد جاء إلى اورشليم من الطريق الشمالى ماراً بصقلية وصور وعكا . واستطاع « شلومو بن جودة » ، الزعيم الروحى لليهودية الغربية ، عن طريق مؤسسات الحج اليهودية إلى اورشليم — أن يكون قريباً وينسى علاقاته الشخصية بعدد كبير من الناس من عالم البحر المتوسط . وعلى كل حال ، فإن الطريقة العملية التى قدم بها هذا المسافر الخراسانى تبين لنا إلى أى مدى أصبح عالم هذا البحر المتوسط صغيراً وقتذاك (٢٠) .

وهناك ظاهرة أخرى تدلنا على الوحدة التى سادت عالم البحر المتوسط فى العصور الوسطى ، هذه الظاهرة هى تكرار حالات الزواج بين أشخاص من بلاد مختلفة . والأدلة فى هذا الجانب كثيرة ومتوافرة فى مجموعات الجينزا ، وهذه الظاهرة لم تقتصر على الأسر أو العائلات الكبيرة ذات

الشأن في أسبانيا وتونس ومصر مثلاً . بل نجد لها أيضاً في الأوساط الدنيا ، من الذين كانوا يقومون بخدمة سادتهم في البلاد المختلفة . ففي رسالة مرسلة من مدينة صور « Tyre » — على الساحل اللبناني — تبعت فتاة إلى رجل في القاهرة بتوكيل ، ليختار لها زوجاً ولإتمام إجراءات الزواج باسمها كولي لها . ولم يقتصر ذلك على الدول الإسلامية فقط ، بل هناك خطاب آخر — ينوه عنه جواتين بأنه مكتوب بعبرية جميلة بعثته سيدة مصرية يهودية تعيش في القاهرة ، حيث لا يزال يعيش أخوها — يوضح أن هذه السيدة اليهودية المصرية متزوجة من أوروبي وأن ابنتها تحمل اسماً يونانياً هو « زوى » ZOE^(٢١) .

على أن أهم مظاهر هذا العصر الوسيط الرئيسية ، التي كشفت عنها الوثائق المحفوظة ضمن مجموعة الجينزا ، كان هو عدم تأثر الوحدة الدينية والجماعات الدينية في استقلالها ، بالحدود السياسية . وكانت الجماعات اليهودية تقوم بجمع الأموال والتبرعات بواسطة المنظمات اليهودية المنتشرة في أنحاء مصر والشام لإبان العصر الفاطمي — للاتفاق منها على ألا كاديميتين يهوديتين التكبيرتين في بغداد العباسية . كذلك كانت أموال التبرعات تجمع سنوياً في الغرب السني الإسلامي : في أسبانيا ، وشمال أفريقيا ، للاتفاق على ألا كاديمية اليهودية بالقدس ، التي كانت تحت نطاق السيادة الفاطمية الشيعية الحاكمة على مصر والشام وقتذاك .

أضف إلى هذا أن الهبات والهدايا كانت ترسل من الأقطار المسيحية إلى مدينتي بغداد والقدس . من ذلك ما كان يرد من اليهود في مدن مثل : لوكا (Lucca) بشمال إيطاليا ، وناربون ومونتلبليه بفرنسا ، ومينز (Mainz) بألمانيا . وكل هذه المجموعات اليهودية كانت ترفع أسئلتها المتعلقة بأمور العقيدة والمذهب ، وحتى النواحي المدنية ، إلى أصحاب الرأي من الفقهاء

عندهم، وكانوا يمدونهم بإجابات متعددة تصعب على المعمر . وهذه الإجابات
الفقهية هي في الواقع أقرب ما تكون إلى « الفتاوى » ، أو « الرأي القانوني » ،
هذه المسلمين ، وكانوا يحترمونها ويلتزمون بتنفيذها على أصحابها حتى في
بلدانهم الذاتية عن مركز الخلافة أو الحكومة المركزية (٧٢) .

كذلك كان القضاة اليهود لا يتم تعيينهم — سواء في مصر ، أو تونس
أو المغرب عامة — إلا بعد موافقة رؤساء الأكاديمية اليهودية في كل من
القدس Jerusalem وبغداد Baghdad . ومن المؤكد أنه كانت هناك
علاقات مشابهة بين الدول المسيحية وبنى زيري في تونس . وهذا وذاك
أسهم — بلا شك — في توطيد وتدعيم حرية الانتقال والحركة ، كما أسهم
كذلك في توحيد عالم البحر المتوسط . وكان من الطبيعي أن ينتج عن هذا
نوع من العلاقات والحضارة المزدهرة ذات السمة التجارية بصفة خاصة
حول البحر المتوسط . وهذا النوع من العلاقات والحضارة ، الذي كان
التجار يمثلون فيه العنصر الأساسي والهام ، تطلب مزيداً من حرية الحركة
وسهولة الانتقال أو الاتصال .

وبما لا شك فيه أن البلدان المحيطة بالبحر المتوسط — سواء إسلامية
أو مسيحية — كانت لديها عناصر وتقاليد حضارية مشتركة . غير أن هناك
حقيقة هامة لا جدال حولها ، هي أن وحدة عالم البحر المتوسط ، بدأت
في التفتت والتحلل ، بمجرد أن تعرضت الدول الإسلامية ، المطالة على هذا
البحر بصفة خاصة ، للغزو الأجنبي : سواء القادم من أواسط آسيا وبلاد
القوقاز فيما يعرف « بالغزو المغولي » ، — وهي مناطق ليس بينها وبين عالم
البحر المتوسط رباط أو تقاليد مشتركة ، أو ذلك الغزو الاستعماري القادم
من الغرب الأوربي المسيحي ممثلاً في الحملات الصليبية التي دهمت العالم
الإسلامي في مصر والشام منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن
الثالث عشر الميلاديين (٧٣) .

الرحلات البحرية والهرية في عالم البحر المتوسط :

إن وحدة عالم البحر المتوسط في منتصف العصور الوسطى ، تمت من خلال وبفضل تلك الرحلات البحرية الممتدة والطويلة ، التي حملتها دأمواج المد والجزر في البحر ، . ويوجد في مجموعة الجينزا الكثير من المعلومات في هذا الصدد . فهي تهوى وصفاً لنحو ستة عشر نوعاً من السفن التجارية والحربية ، وتفصيل عن أكثر من مائة مركب ، وعشرة قوارب صغيرة قامت بمثل ما قامت به ست وثلاثون سفينة في نقل البضائع التي كانت تصل أنواعها إلى نحو مائة وخمسين نوعاً ، حملتها السفن والمراكب والقوارب المختلفة . وأمدتنا بمعلومات وغيره كذلك من ملكية السفن ، وكيفية إدارتها وقيادتها ، وفصول وأوقات إبحارها وعودها ، وكيفية إعداد المسافرين ، والطرق التي سلكتها ، وما تبودل من رسائل ، وكل ما يتعلق بحركة المراكب ورسوها ، وعطبها أو تعطلها ، وعمليات القرصنة للبحرية ، وما تستتبعه هذه الأعمال من عمليات فداء الأسرى بالمال ، وموضوعات أخرى كثيرة من هذا القبيل ناقشتها مجموعة الجينزا المذكورة (٢٤) .

وهل أى الأحوال ، فنراجع أن يكون ما حدث من ازدهار شهادته الأقطار الإسلامية في الشمال الأفريقي — وهي مطلة على البحر المتوسط — إنما يرجع الفضل فيه بالدرجة الأولى ، إلى الأوضاع العالمية السائدة في حوض البحر المتوسط آنذاك . ففي معظم دول أوروبا الغربية وبخاصة أسبانيا وغالة (أو غالبا وهي فرنسا حالياً) وإيطاليا . كان البؤس والظلام والفقاء السائد في العصور الوسطى في هذه الأقطار الأوربية ، يفسح المجال بانتظام لاتعاش فكرى واقتصادى لمدن البحر المتوسط الإسلامية مثل تونس في أفريقية والإسكندرية ودمياط وتونس في مصر ، وصور وصيدا وعكا وبيروت وطرابلس في سواحل الشام ، وسبقة والمرية في الأندلس الإسلامية . وكانها منتجات الشرق هامة وأساسية لهذا الانتعاش (٢٥) .

ومن ناحية أخرى ، فإن السفن الكبيرة التي كانت تنقل بانتظام نحو
... من المسافرين مع بضائعهم من أسبانيا إلى الشرق — وهو ما توضحه
وثائق الجينزا الخاصة بالقرن الحادي عشر — لم يكن استعمالها شائعا
وقتذاك . ولذلك صار على مدينة وميناء تونس ، وموانئ جزيرة صقلية ،
ومدن إيطاليا الساحلية ، أن تقوم بعمل مراكز التوزيع في حوض البحر
المتوسط . وإذا كان هناك ثمة ازدهار أحرزته دولة إسلامية كالفاطمية في
المغرب ويرجع جانب من الفضل فيه إلى كفاءة إداريتها وحكامها ، فإن
الجانب الآخر والهام من هذا الفضل الكبير في ذلك النمو والإزدهار يرجع
إلى التجار الذين كانوا يمثلون العمود الفقري لإقتصاد هذه البلاد (٢٦) .

ولنعرض الآن لمناقشة حركة التجارة ومشكلاتها في العصور الوسطى
براً وبحراً ونهراً في عالم البحر المتوسط فقط . وهو ما تتيحه لنا تقارير
الجينزا .

أولا : إن كل ما كان يمكن عمله آنذاك ، هو أن يسافر الناس عن طريق
البحر وليس البر . ولنضرب مثلاً على ذلك : ففي عام ١١٤٠م تقريباً سافر
شخص يهودي إيطالي ، من رجال الأعمال ، من طرابلس الغرب وليبيا ،
إلى قابس « Gabes » بالقرب من تونس . وقد نصحه صديق له بأن يسافر
على ظهر سفينة كبيرة كانت مبحرة — وقت سفره — إلى أشبيلية في أسبانيا
وكانت تقطع الرحلة — إذا ساعدتها الرياح — في ثمانية أيام ، دون أن
ترسو على بر طوال هذه المدة . وحينذاك كان عليه أن ينتقل في قارب
كبير إلى مدينة المهدية (٢٧) ، ميناء تونس الرئيسي ، محاولا الوصول إلى
جهةه المقصودة من المهدية ، وهذا بالطبع طريق غير عادي . غير أن
الأحوال السياسية وقتذاك لم تكن مطمئنة ولهذا فإن ذلك الرجل سافر في
النهاية عن طريق البر . وعلى العموم أن نسبة الوثائق أو المراجع المتوافرة

عن السفريات البرية بالنسبة إلى تلك التي عن الرحلات البحرية ، لا تعدو أن تكون بنسبة ١ : ٥ (٢٨) . وهذه النسبة جديرة بالصحة لسببين :

(أ) التفاوت الكبير بين عدد أوراق الجينزا التي وصلت عن النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي ، وهي قد خلطت بين الرحلة البحرية التجارية. وبين الهجوم على شمال أفريقيا بواسطة قبائل بني هلال وبني سليم. وفي الحقيقة فإن إشارات الجينزا إلى رحلة القافلة تكررت في النصف الأول من هذا القرن ، أكثر من أي فترة لاحقة . وحتى هذا الوقت ، فن المعتقد أن نسبة الرحلات البرية إلى البحرية كانت بنسبة واحد إلى عشرين (١ : ٢٠)

(ب) أن أغلب خطابات الجينزا كتبها يهود واليهود ، لا يسافرون أيام السبت والأجازات . وإنما كان سفر اليهود دائما في قافلة ، تزيد مدتها عن ستة أيام ، وهو إما أن يتخلف عنها ، أو يتعجل ليلحق بمقدمتها ليتمكن من الاحتفال بيوم راحته (يوم السبت) . وكلا الحالين ورد ذكره في التقارير التي أحوتها مجموعة الجينزا . وهذه القافلة التجارية كانت تتطلب ، بالطبع ، حراسة أو خفارة خاصة ، وهذا أمر مكلف وخطير في الحالين معا . فإذا كان المسافر - اليهودي - غنيا ، أو بصفة خاصة صاحب نفوذ أو سطوة ، فإنه يستطيع أن يقنع القافلة كلها بالتوقف يوم الراحة الأسبوعية لليهود (أي يوم السبت) ، وهذا أيضا أثبتته الجينزا . وما يحدّر ذكره أن هذه الحالات استمرت سائدة دون تغيير حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

فقد ذكر المستشرق الذائع الصيت أ. س. يهودا^(٢٩) A.S. Yahuda - في مجموعة مقالاته - أن جده (لوالده) حين هاجر من بغداد إلى القدس (أورشليم) سنة ١٨٥٢ م ، اشترط على القافلة التي يسافر معها أن تحمل يوم السبت يوم راحة لها ، وهو في سبيل ذلك تكبد مبالغ كبيرة . وبسبب هذه الظروف فإن التفويضات ، التي أودعها اليهود لأصدقائهم من رجال

الأعمال المصدين ، أو الحجاج القاصدين إلى مكة ، وردت في خطابات ، جاء في بعضها : « إذا كانت هناك قافلة ، وكان بها مسلمون موثوق فيهم ، أرجو أن ترسلوا البضائع معهم . . . » . وعلى أى حال ، فإن تلك الإشارات لم تكن عامة أو شائعة . وكقاعدة عامة ، فإن الناس سافروا بالبحر ، حتى في المسافات القصيرة مثل تلك التي بين عكا والرملة - طريق يافا - وفلسطين أو بين صور وطرابلس الشام (٣٠) .

وعلى الرغم من أن الأحوال اختلفت كثيرا ، أحيانا ، حتى خلال أيام العام الواحد ، فإنه يبدو - على الرغم من أن ذلك ليس مؤكدا بعد - أن متاعب السفر ، والنفقات ، وانعدام الأمن والطمانينة ، كانت أكثر في السفر عبر البر عنه عبر البحر ، وهذا ، مع أن هناك أسبابا أخرى لذلك التفاوت بين وسيلتي السفر والعبور وقتذاك (٣١) .

ثانيا : أن سفر القافلة أو إبحارها كان يتم بطريقة غاية في النظام والتنسيق .
ففي الشتاء ، وحين تكون حالة البحر لا تسمح بالملاحة البحرية ، كانت هناك ثلاث قوافل تعبر من سجلباسة - ميناء مرا كش الصحراوي الكبير وتسير عبر القيروان ، وطرابلس ، وبرقة إلى مصر . وفي الصيف ، كذلك ، فإن القافلة التجارية لا تستخدم الطريق البحري في رحلتها . لأن السفن عادة ما تبحر في قوافل ابتداء من فصل الربيع ، وتظل في رحلاتها إلى أن تعود عند حلول عيد الصليب Festiavl Cross الذي يحل في ٢٧/٢٦ سبتمبر . والقوافل البحرية الأخرى تطلع في الشهر القبطي « بؤونة » ، الذي يبدأ في ٧ يونيو من كل عام . أما الفترة ما بين نهاية مايو وبداية يونيو ، فإن القوافل التجارية البحرية التي بالخارج ، تكون في حاجة إلى فترة تتراوح بين شهرين وثلاث شهور لتقطع المسافة ما بين مصر وتونس ، في مهمة تجارية ، إلى المحطات الوسيطة خلال الطريق . ففي أحد الخطابات ، توجد إشارة إلى مدينة القيروان ، تبين بوضوح وصول القافلة لها بعد مضي شهرين يوما .

وهذه المدة أو المسافة الطويلة ، التي كانت تستغرقها القوافل كانت تعرف باسم الموسم « Mousim » ، وهي نفس الكلمة المستخدمة في رحلات المحيط الهندي التجارية، وتعرف بها رياح مسماه بالموسمية. وهذه الفصول أو المواسم وعلاقتها بالرحلات البحرية في حاجة إلى توضيح ودراسة أكبر .

ثالثا : كان عامل السرية هاما جداً في إعداد وتجهيز الرحلة البحرية التجارية أو الرحلة البرية التجارية أيضا ، وعلى الرغم من هذا فإن أيا من المؤرخين أو الجغرافيين المسلمين لم يتعرض بالدراسة لهذا العامل الهام أو يوضح سبب اللجوء إليه . وعلى كل حال ، فلقد سافرت الناس والبضائع عبر البحر ، بينما كان البريد يتم إرساله عبر البحر . والحق ، أن المصادر الأوروبية تكلمت كثيرا عن نظام البريد في عالم البحر المتوسط ، بصفة عامة، والدول الإسلامية بصفة خاصة . وقد ظلت الخدمة البريدية Postal-Service مستمرة وتحت إشراف والمصلحة الحكومة الإسلامية، مثلما كان عليه الحال في الصين والامبراطورية البيزنطية إبان العصور الوسطى .

وعلى أى حال ، فإن هذا الجانب الهام - البريد - خصص أساسا لخدمة الحكومة وأعمالها الرسمية المتعلقة بالاشراف على الإدارة والولايات. وفي مجموعة الجينزا - وكما عرفنا كثيرا عن عمليات تجارية جرت ، فإن ثمة خدمات بريدية خاصة ، كانت لا تقل أهمية بالنسبة للشعب عن البريد الحكومي المصلحي . وقد قام بهذا العمل البريدى عمال أوسعة سمي الواحد منهم باسم « الفيج »،^(٢٢) (أو العداء) ، في كل شمال أفريقيا ، بينما عرف باسم « الكتبي » - أى حامل الكتب أو المكاتب أو الخطابات - في غرب آسيا . وهذه الخدمة البريدية عموما ، كانت تدخل في نطاق مسئولية وإهتمام الحكومة الأساسى . وقد ظل هذا النظام الأخير محتفظا بعدد من المحطات للراحة ، وتغيير الحيوانات فيها واستبدالها بغيرها مستريحة قوية

غير منهكة أو ضعيفة ، ثم يكمل المشوار بها شخص آخر يتولى أمر المراسلات والطرود الوافدة إليه من نقطة البدء حتى نهاية الرحلة أو المطاف .

أما عن الخدمات البريدية الخاصة بالأهلين (الخدمات البريدية الأهلية غير حكومية) ، فكان يقوم بها « سعاة خصوصيون » لهذا النوع من الخدمة . وكان الساعي منهم ينقل البريد من القيروان « Kairouan » على طول الطريق إلى القاهرة ، ومنها إلى المرية ^(٢٢) بإسبانيا الإسلامية ، وكان ساحل شمال أفريقيا المطل على البحر المتوسط مساراً للبريد أيضاً إلى الاسكندرية بمصر . وهذه الخدمة البريدية الخاصة لم تكن مكلفة أو باهظة النفقات نسبياً . إذ كان الخطاب المرسل من المرية « Almeria » إلى الاسكندرية ، يتكلف درهما ونصف درهم فضي ، في الوقت الذي كان فيه الخطاب العاجل المرسل من بيت المقدس (أورشليم) إلى الرملة يتكلف نصف درهم . وربما كانت الخطابات المرسلة من مدينة إلى مدينة أخرى بالبر ، تشير إلى بضائع أو أصدقاء من رجال الأعمال توجهوا في نفس وقت إرسال الخطاب بطريق البحر في قارب أو مركب ^(٢٣) .

رابعا : لم يكن هناك ثمة فرق واضح في العصور الوسطى بالنسبة للمراكب الصغيرة نسبياً في إبحارها أو سيرها ، سواء في البحر أو النهر . ولذلك فلا غرابة أن نجد مجموعة الجيوزا تورد اشارات لقوارب أنت من البحر ، وأكملت طريقها في المياه الداخلية (النهرية) ، والعكس بالعكس . فن ذلك ما نقرأه عن مراكب لقاضي مسلم غنى من مدينة صور ببلاد الشام (في لبنان حالياً) ، ذهبت من دمياط — بالفرع الشرقي للنيل — إلى القاهرة المعزية ، ومن هناك اتجهت نحو الفرع الغربي للنيل فالاسكندرية ، ثم تونس .

وعلى أي حال ، فقد كان من المعتاد وقتذاك أن يترك المسافرين

والودائع ، المراكب الصغيرة في موانئ البحر المتوسط ، ويكملوا طريقهم عبر الأراضي الداخلية بوسائل أخرى ، وبصفة رئيسية عن طريق النيل . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى استمرار التغيرات التي حدثت من جراء النار الهائلة ، التي اندلعت من قاع النيل وقتئذ ، مما جعل الملاحة فيه ، نتيجة لهذه النار ، محفوفة بالخطر .

وبالتالي فإن نوعا خاصا من المهارة ، كان لابد من توافره لبعارة وربابنة المراكب النيلية ، وهو ما لم يكن متوافرا لدى بحارة وربابنة المراكب السائرة في البحر المتوسط . وهناك عديد من التماذج للسفن التي استخدمت في النيل مثل المصارى Ushari - وهو قارب نيلي - والجرم Jarm - وهو قارب أو صندوق للشحن Barge - ، والسميرية Sumayria^(٢٥) - وهو نوع من المراكب العراقية - ، وقارب طوبل مربع يسمى الخيطي Khiti - من الخيطية Khitiya - وقد نوهت عنها مصادر عدة ، تكلمت عن تاريخ العراق في صدر الاسلام ، ولم تذكر شيئا عنها في مصر في الفترة التي نناقشها في بحثنا (أى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين)^(٢٦) .

خامسا : فيما يتعلق بالملاحة في أعالي البحار ، كانت السفن تبحر - في العادة - في قوافل بحرية مسلحة « Armament Caravans » ، لتتحول وقت الخطر إلى سفن حربية تزود عن نفسها عادية الأعادى وتؤدبهم . ولذلك ، فقد كان من المعقول أن يتوقف إبحار أغلب - إن لم يكن كل - التجار أو عدم إبحارهم ، على وجود أو عدم وجود محاربين يصحبونهم في رحلاتهم التجارية ليتولوا مهمة الدفاع والحماية عنهم ولهم . وكان من المعتاد أن تصاحب السفينة الكبيرة سفن صغيرة خاصة بأحد الأقارب أو الأصدقاء للمسافرين في القافلة .

وبدئى أنه حين كانت القافلة تبحر فى أحوال جوية سيئة ، فإن المراكب الصغيرة أو القارب كانت فرصته فى البقاء والنجاة أو السلامة أكثر مما كان للمراكب الكبير ، ولا سيما حين كانت السفينة الكبيرة تفقد أشرعتها ودفتها ، وهو ما كان يحدث فعلاً ولا أكثر من مرة . فلقد ورد فى أحد الخطابات المكتوبة بواسطة يهودى باللغة العربية ، أن مراكب الخدمة^(٢٧) تمكن من النقاط من بقوا أحياء من السفينة الرئيسية (الأم) . غير أننا لم نجد فى أوراق الجينزا أى إشارة إلى ما يمكن أن نسميه بقوارب النجاة ، التى ربما تكون قد حملت على ظهر السفينة الكبيرة ، وهو على ما نعتقد ما لم يكن معروفاً أو مستخدماً حينذاك .

سادساً : أما عن الأنواع الخاصة للمراكب الوارد ذكرها فى مجموعة الجينزا . فیدخل أغلبها تحت النوع المعروف باسم القنبر « Qunbar » . وهذه الكلمة (القنبر) لم نعثر عليها بعد فى القاموس العربى ، ولم تذكرها كتب الأدب أو التاريخ الإسلامى . وعلى أى الأحوال ، فإن الامبراطور البيزنطى ليو الحكيم (٨٨٦ - ٩١٢ م) ، ذكر - فى كتابه الذى وضعه عن فن الحرب - أن كلمة القنبر تقابلها فى اليونانية « Konbarian » ، وهى مأخوذة عن المسلمين ، وإن ابنة الامبراطور « قسطنطين السابع » ، وصفها بأنها سفينة كبيرة . كذلك فإن البنادقة استخدموا هذا النوع من المراكب فى القرن العاشر الميلادى ، وعرفوه باسم جومباريا « Gombaria » . وعلى كل حال ، فقد كان البيزنطيون والبنادقة يشيرون بكلمة « القنبر » ويقصدون بها رجل الحرب ، وهى ما عرفت فى مجموعة الجينزا - على وجه التأكيد فى القرن الأخير بأنها سفينة تستخدم فى نقل الأحمال الثقيلة والمسافرين^(٢٨) .

سابعاً : وفضلاً عن أن السفن التى تبحر ، والفراقر^(٢٩) ، والأغربة^(٣٠) ، كانت تدفع أو تسير ، بصفة أساسية ، بواسطة مجاذيف ، وكانت تستخدم

في السفر والارتحال ، فان « القرقور » كانت له مزايا تكتيكية وملاحية تفوق ما كان للسفن الأخرى . إذ كان خفيف الحركة ، قادراً على المناورة بسهولة ، والهرب من هجمات القراصنة المزعجة ، كما كان بالطبع — لصغر حجمه — أقل تعرضاً لتغيرات الريح والأنواء المفاجئة . على أن الإشارات التي تدل على استخدام القراقر كسفن تجارية ، لازالت باهتة أو نادرة نسبياً فيما وصلنا من كتابات . ويبدو أن استمرار (ملازمة) السفر في عرض البحر ، أو حتى بهاب السواحل (المساحة) ، كان يعتمد أساساً على الرياح^(١١) . يدلنا على ذلك ماورد في خطاب مرسل من الإسكندرية ، يشكو فيه مرسله من عدم وصول أى سفينة خلال مدة تزيد على ٣٣ يوماً ، فيما عدا قارب أسباني كبير . لأن الرياح لم تهب لا من الشرق ولا من الغرب أضف إلى ذلك ، أن السفينة تركتهم منذ ٣٣ يوماً ، وحتى « عيد الصليب » (Festival Gross) دون أن تعود .

كذلك لم يكن أمد الرحلة في العودة محدداً بوقت معين ، حتى يمكنهم إنجاز الأعمال التجارية وغيرها خلاله . على أن الأمر الغريب حقاً ، هو أن المصالح الاقتصادية التي كانت للبلد الإيطالية في بلاد المسلمين ، لم يترتب عليها حقاً بناء سفن من نوع القراقر لتستخدم في السفريات (الرحلات) التجارية بين شواطئ البحر المتوسط^(١٢) .

ثامناً : هناك نوع آخر من السفن التي استخدمت في البحر المتوسط ، يعرف باسم « الخنزيرا » — وليس المقصود ذلك الاسم الذي يطلق على نوع من الحيوانات أو نوع من السمك يعرفه السوريون — والخنزيرا اسم غريب حقاً يطلق على نوع من السفن ، لكن وجه الغرابة سرعان ما يزول إذا سمعنا عن « الغراب » ، كاسم من أسماء نوع معين أيضاً من السفن .

وعلى كل حال ، فيبدو أن هذا النوع من السفن — الخنزيرا — قريب

الشبه بالمركب المعروف باسم « دوامة » (Duwama) ، وقد استخدمت المراكب من نوع الجزيرة في الطريق بين صقلية ، وتونس ، بطرابلس الغرب ومصر ، كما أن هناك رواية تقول أن مراكب الجزيرة التونسية استخدمت في رحلة نيلية. فضلا عن أن كلمة أولفظة « جنزيرا » (Janzira) ورد ذكرها في معاهدة عقدت في ١٩ أكتوبر ١١٨١ م بين مدينتي بيزا « Piza » ولوكا « Iucca » الإيطاليتين .

كذلك أطلقت كلمة شخطورة « Shakhturra » ، على نوع من القوارب الساحلية (التي تسير بقرب الساحل وليس في عرض البحر) ، وتردد اسمها كثيرا في بحرعة الجينزا . ففي سنة ١١٣٠ م لسمع أن قارباً ما قام برحلة من الاسكندرية (في مصر) إلى المرية (في أسبانيا) وأنه قطع هذه الرحلة في مدة ٦٥ يوما ، وأنه كان أسرع من قاربين أسبانيين أبحرا معه من الاسكندرية وقد ورد ذكر الشخطورات (Shakhturs) بصفة خاصة في الرحلات التي كانت تتم بين تونس وطرابلس والغرب ومصر .

أما كلمة « الحجم » (Hajm) ، فهي تسمية عادية لطاسة (قارورة أو قصعة) قرب كبيرة ، وقد أطلقت على نوع من السفن التي استخدمت في السفن بين صقلية ومصر ، وهي سفينة دائرية الشكل ، تشبه القارورة أو قصعة الشرب .

أما النوع الآخر الذي استخدم على نفس الطريق (مصر - صقلية) فيسمى القربة « Qarraba » - بمعنى صندوق أو صدر - ، وهذه ربما يقابلها عند الروم السفينة المعروفة باسم « Dromon » ، وهي سفينة ذات حواف حادة ، وكانت تسير في هذا الطريق بكفاءة عالية (٤٣) .

ولقد أشار اليهود خلال خطاباتهم المكتوبة بالعبرية ، إلى الأشربة والمجاديف وهذا يعني أن سفنهم كانت تعتمد أساسا على حالة الرياح . ولكن

لم يرد لسفنهم وصف محدد ، مثل تلك المراكب التي ورد ذكرها في مجموعة الجيزا ، أو تلك المعروفة باسم « الطرائد » - جمع طريدة^(٤٤) « Tarida » - وهي نوع متوسط الحجم بين السفن الكبيرة والقراق الصغيرة .

ثامنا : أن مجموعة الجيزا تتكلم في مناسبات عدة عن السفن والحرب البحرية . وهنا - أيضا - أود أن أبدى ملاحظة أو توضيحا ، ذلك أن هناك نوع من التوافق في المصادر الأدبية حول التسمية ، والتكتيك الحربي للسفينة المسماة أسطول « Ustul » ، وتشغيلها مع القراق المسماة القطائع « Qatai » ، ويقابلها حرفيا « قطع » . وقد وردت كلمة « أسطول » عند الروم واليونانيين بهذه الهيئة « Fleet (Stolos) » ، ولكنها أطلقت عند العرب وتذاك على السفن الحربية الثقيلة ، من طراز « القطائع » .

وعلى أى حال ، فنحن لم نقرأ عن رحيل المسافرين والبحارة الجسور في المصادر العربية ، على عكس الجيزا ، التي ذكرت ذلك أكثر من مرة (٤٥) .

وقد استخدمت كلمة قطائع « Qatai » ، أو « Aqta » ، كذلك للتعبير عن المراكب المستخدمة في السفريات الشاقة الكؤودة ، التي كانت تقوم بها المراكب من القاهرة في اتجاه مضاد للتيار (تيار مياه نهر النيل) حتى قوص « Qus » ، في أعالي مصر ، ومن هناك تعود المركب بعد أن تمسكت يومين فقط . كذلك الأمر ، فإن كلمة « غراب » ، التي صادفناها كنسبة للقراق ، استخدمت لنسبة السفن التجارية ، كما امتد استخدامها ليشمل نوحا من السفن الحربية . وقد ذكرت « الشين »^(٤٦) - كما يروى ابن بطي^(٤٧) ، وكما وردت في الجيزا على أنها سفينة حربية ، ثم اتسع مدلول اللفظ حتى صار يطلق على القراصنة فصاروا يعرفون باسم « أصحاب الشواني »^(٤٨) .

والواقع أن وحدة طام البحر المتوسط في العصور الوسطى ، ما كان يمكنها أن تحدث لولا اتساع وتزايد حركة النقل البحري التجاري في هذا

البحر المتسع . إذ وردت بالجيتزا اشارات تدلنا على أن النظام السائد في ملكية السفن في العالم الاسلامى إبان العصور الوسطى في البحر المتوسط ، كان يعقبه النظام السائد في مدينة جنوة « Genoa » ، الإيطالية ، أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، عندما أدى تراكم الثروات في أيدي الأسرات الغنية ، وتزايد نفوذ هذه الأسرات ، إلى تحول نظام الملكية المشتركة للسفن . ويحتاج هذا التناقض بين وسائل التجارة البحرية ، وبين ملكية السفن في العصور الوسطى إلى تعليق .

وهناك مشكلة أخرى بخصوص ملكية السفن ، وهي غياب الإشارة إلى ملاك مسيحيين محليين للسفن في العالم الاسلامى . فليس هناك بالطبع ، ذكر للسفن المسيحية الأوربية كسفن مرسيليا ، وجنوا ، وبيزا ، وجايتا ، وجزيرة صقلية الزمنية (منذ أواخر القرن الخامس الهجرى) وهو مالا يظفر في الجيتزا إلا في القرن الثانى عشر الميلادى . ومن بين المسيحيين الذين يحملون أسماء عربية ، لا يرد سوى ذكر لاسمين اثنين باعتبارهما من ملاك السفن ، واسم أو اثنين لملاك آخرين قد يكونون من أصل مسيحي .

وصفوة القول ، أن حوالى أربعائة سنة من الحرب البحرية بين دول الاسلام وبيزنطة ، فيما يبدو ، أثرت تأثيرا سلبا على الملاحة للدول المسيحية المحلية ، في عالم البحر المتوسط إبان العصور الوسطى .

* * *

مصادر البحث

(أ) مراجع عربية :

- ١ - ابن عساق : قوانين الدواوين .
- ٢ - الفلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ١٤ جزءا × ١٤ مجلدا .
- ٣ - حسين مؤنس : المسلمون في عالم البحر المتوسط (مقال بالمجلة التاريخية سنة ١٩٥١ م) .
- ٤ - حسين مؤنس (مترجم) : الامبراطورية البيزنطية (تأليف نورمان بينز) .
- ٥ - أرشيبالد، لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ٥٠٠ - ١٥٠٠ م .
- ٦ - سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية .
- ٧ - صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط .

(ب) المصادر الأجنبية :

1. Lionel, Casson : The Ancient Mariners (N.Y), 1959.
2. Aly, Fahmy : Muslim Sea—Power in the Eastern Mediterranean . .
3. Aly, Fahmy : Muslim Naval Organisation Eastern Mediterranean . .
4. Goitein, S.D. : Studies on Islamic History and Instit.
5. Goitein, S.D. : Medit. Society.
6. Kruger, H., C., : Genoese Trade with the Northern West of Africa in 12th. Century [(Speculum, Vol. 8, 1933, pp. 377—388)]
7. Kruger, H., C., : The Wares of Exchange (Speculum, Vol. 12, 1937, pp. 57—71).
8. Nadvi : Arab Navigation (Islamic Culture Review),

المحواشي

Kruger : The Wares of Exchange. SPECULUM, 12, (١)
1973, p. 57.

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط .

Kruger : Op. Cit., p. 57-59, (٣)

Goitein, S.D. : Studies of Islamic p. 296. (٤)

(٥) كلود كامن : تاريخ العرب والغروب الإسلامية من ١٨٩ - ١٩٤ .

Cahen Claud : "Mouvements Populaires et Autonomisme (٦)

Urbain dans L, Asie Musul ; une meyen age". Arabica & Revued'
Etudes Arabes. Temes V; VI (1958-1959), T, VI, p. 260 Quetes
Geniza Documents,

مأخوذة من وثائق الجيذا التي توضح أن ذلك كان حول ١٠٥٠ م ، وأن مدينة «الحدث»
كانت راسخة البنيان بالنسبة لمدينة صغيرة مثل «القدس» .

Goitien : Ibid, p, 296-297, (٧)

Goitien : Ibid, p, 297, (٨)

Goitien : Ibid, p. 297-298, (٩)

Goitein : The Documents of the Cairo Geniza as a (١٠)
Source for Islamic Social History (Stndia Islamica, Paris, Vol, 3,
1955, PP, 75-91 & JGAS, 80, 1960, pp. 91-100,

وراجع أيضاً :

عطية القوصي : وثائق الجيذا وأهميتها في دراسة تاريخ مصر الإسلامية (مقال
منشور بمجلة جامعة القاهرة فرع الخرطوم الممدد ٥ ، ١٩٧٤ من ١٨٥ - ١٩٣ .

Goitien : Studies on Islamic History & Instit., p. 297. (١١)

(١٢) راجع : صابر دياب : سياسة الدولة الإسلامية (الباب الأول الفصل
الثاني) .

(١٣) سميت أفريقية بهذا الاسم « تونس » في النصف الثاني من القرن الثاني عشر
الميلادي . ومن قبل كانت مدينة تونس وما حولها تسمى باسم « أفريقية » . وهذه كلمة
معربة عن أفريقيا (أفريقيا Africa) ، ذلك الاسم الذي كان الرومان القدامى يطلقونه
على ذات المنطقة .

وكان لتونس أهمية كبيرة في حركة النقل التجاري والحربي في وقت كانت فيه وسائل النقل بسيطة . فهي تقع في منتصف الطريق بين مصر ومراكش ، ولهذا كانت مركزاً لحركة القوافل بين شمال غرب أفريقيا ، والبلاد الواقعة جنوب الصحراء ، وبين مصر وجيرانها الشرقيين والجنوبيين .

كذلك كان قرب تونس لجزيرة صقلية — وهي الجزء الموصل لأوروبا — مما ساهم في جعل تونس مركزاً للتجارة بين الشرق والغرب ، خاصة وأنه لم تكن توجد بعد السفن التي يمكنها قطع المسافة الطويلة بين أسبانيا وفرنسا ، وإلى مصر وسوريا مباشرة .

وبعد فتح الفاطميين لمصر والشام (منتصف القرن الرابع الهجري ، تفوق أيضاً وضع تونس ، التي كانت قد غدت — قبيل تحرك الفاطميين إلى مصر — قاعدة ومركزاً لدولة إسلامية تقع على البحر المتوسط . راجع : ابن أبي دينار : المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس ، إياقوت : معجم البلدان (مادة تونس) وصابر دياب : سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط ص ٩٥ — ٩٩ . راجع :

Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 303

Kruger : Genoese Trade with the Northern Africa (١٤)
and The Wares of Exchange.

Goitein : Studies on Islamic History and Instit., (١٥)
297—298.

Goitein : Studies on Islamic History and Instit., (١٦)
298 — 299.

Goitein : Studies on Islamic History, p. 298—299, (١٧)

(١٨) العنبر : هو تلك المادة الرخوة أو اللينة التي تفرزها الحيتان ، وكانت ولا تزال تستخدم في مصانع المطور . والنوع المقصود هنا من الحيتان هو النوع الضارب لونه إلى الصفرة ، وهو موجود في المحيط الأطلسي . راجع :

Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 339.

Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 299. (١٩)

Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 300. (٢٠)

Goitein : Studies on Islamic . . . , p. 300. (٢١)

Op., Cit., p. 300. (٢٢)

Goitein : Ibid, p. 308—310 & Kruger : Genoese (٢٣)
Trade & Wares of Exch.

وأرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط .
(٥٠٠ — ١٥٠٠ م)

Goitein :Op., Cit., p. 308.

(٢٤)

Goitein : Ibid, p. 308—310.

(٢٥)

(٢٦) أرشيبالد : القوى البحرية ص .

Goitein : Ibid, p. 308—310.

(٢٧) المهدية : مدينة ببلاد المغرب بناها « عبيد الله المهدي » أول خليفة فاطمي بالمغرب (٢٩٦ — ٣٢٧ هـ) . وأراد من بنائها أن تكون حاضرة لدولته الشعبية المذهب التي قامت هناك . وهي تبعد نحو ستين ميلا (٢٠ فرسخاً) جنوبي القيروان .

وكان من أهداف بنائها — إلى جانب كونها عاصمة للدولة الفاطمية — أن تكون قاعدة عسكرية بحرية هجومية ودفاعية في آن واحد ، لتنطلق منها أساطيل دولة القواطم ومن السواحل الأفريقية غازية في البحر بلاد الكفر وأعداء الفاطميين معاً .

ونحن إذا نظرنا إلى شكل « المهدية » لوجدناها عبارة عن جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند ، ولا يسهل على العدو أن ييغتها بهجوم ، وقد نحت مرسى ميناءها في الصخور ، وكان يتسع لنحو ثلاثين مركباً ترسو أو تفلح في آن واحد . وكان بها دار لصناعة السفن تتسع لنحو مائة سفينة .

وقد بدأ في بناء المهدية ومرافقها سنة ٢٩٧ هـ وانتهى من بنائها سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) ، وانتقل إليها حكام الفاطميون سنة ٣٠٨ هـ من عاصمتهم الأولى « رقادة » . ولم يكتف المهدي الفاطمي بالمهدية ، وإنما رأى إقامة ربض (ضاحية) لها فبنى زويلة — نسبة لإحدى قبائل البربر — فسميت للمهدية وزويلة باسم « المهديتين » نسبة لبانيهما عبيد الله المهدي .

واستمرت المهدية عاصمة للفاطميين بالمغرب ، إلى أن أقيمت عاصمة جديدة لهم تليها في الأهمية هي « المنصورية » ، التي أنشئت سنة ٣٣٦ هـ في خلافة المنصور الفاطمي (٣٣٤ — ٣٤١ هـ) .

غير أن المهدية ظلت محفظة بمكانتها كميناء حربي وتجاري وكعاصمة دينية للفاطميين ، ثم كمرسى تجاري وقاعدة عسكرية بعد ذلك زمناً طويلاً .

راجع : الأصطخري : مسالك الممالك ص ٣٦ — ٣٨ والبكري : وصف أفريقيا ص ٣٠ وابن الأثير ، الكامل ج ٨ ص ٣٣ والبكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ٨٤ — ٨٥ والمقريزي : ختلط ٣/٣٠٧ و ٣١٣ — ٣١٥ (ط. بولاق) ، والأنطاكي : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٧٦٢ (٦٤) منشور في مجلة :

Pat. Or. Tome 13, Fasc. V.

وراجع أيضاً : صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية ص ٩٥ - ٩٨ .

Goitein : Studies on Islamic . . . , P. 310.

(٢٨)

(٢٩) توفي أ.س. يهودا في عام ١٩٥١ في مدينة نيوهافن بولاية كونيتيكت بالولايات المتحدة الأمريكية . راجع :

Goitein : Op. Cit. , p. 302.

Goitein : Ibid, p. 303—305. (٣٠)

Op., Cit., p. 302. (٣١)

(٣٢) الفيج : جمعها فيوج وهي كلمة فارسية أصلاً . راجع :

Goitein : Ibid, p. 303.

(٣٣) مدينة المرية (Almeria) من المدن الإسلامية الهامة التي أسسها المسلمون في الأندلس . وكانت من أعظم قواعد الأسطول الإسلامي للأندلس الأموية ، ولابان عصر الطوائف . كذلك كانت مركزاً تجارياً على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة للتجارة البحرية مع أقطار عالم البحر المتوسط . هذا فضلاً عن كونها مركزاً صناعياً هاماً للمنسوجات الحريرية الأندلسية في العصر الإسلامي .

وقد لعبت المرية دوراً سياسياً وحربياً هاماً في عهد ملوك الطوائف ، وهذا الدور لا يقل أهمية عن مثيله الذي لعبته مدينة أشبيلية (Seville) في عصر الموحدين ، أو قرطبة في عصر الخلافة الأموية على الأندلس . وكانت المرية منفذاً وحيداً لمملكة غرناطة (Arana) بعد تقلص ملك المسلمين في الأندلس ، وأصبح هذا النفوذ مقتصرًا على مملكة غرناطة فقط ، إذ كانت تصلها الامدادات والمؤن من بلاد المغرب في القرن الخامس عشر الميلادي ، وعليها كانت تعتمد مملكة غرناطة اعتماداً كلياً في وصول المجاهدين المغاربة ، لذلك كان سقوط مدينة « المرية » في يد القشتاليين سنة ١٤٩٠ م تذكيراً بسقوط غرناطة ، آخر معاقل الإسلام في الأندلس ، وهو ما تم فعلاً ١٤٩٢ م .

راجع : دائرة المعارف الإسلامية (مادة المرية) + البكري : معجم ما استعجم (المرية) + السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ص ٧ .

Goitein : Ibid, p. 303. (٣٤)

(٣٥) راجع فيما يتعلق بهذا النوع من السفن مقال S.M.Stern عنوانه :

The Petitions of the Fatimide Period

منشور في مجلة Oriens ، ١٩٦٢ م ، ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣٦) هناك نوع من السفن استخدم في أمواء البحر المتوسط ، كما عرفت البحرية الإسلامية في كل من مصر والشام ، وبلاد المغرب ، وأشبانيا الإسلامية وهذا النوع يسمى الفيطل (وجمعها : شياطل) وهي سفينة تستخدم للاستطلاع وكشف أحوال العدو والوقوف على قوته . راجع صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية من ١٨٩١ والهوامش .

(٣٧) مركب الخدمة : قارب متوسط الحجم ليس صغيرا ولا كبيرا ولكن بين بين .
راجع ابن ماتي : قوانين الدواوين ، عبارة ، سفن الأسطول الاسلامي ،

(٣٨) راجع Goitein : Studies on Islamic History, P. 303-305

(٣٩) القراقر : سفن لحمل البضائع . راجع صابر دياب : سياسة الدول الاسلامية
ص ١٨٩

(٤٠) الأفرية : (جمع غراب) وهي سفن لحمل البضائع تسير بالفلاح والمجازيف .

(٤١) راجع نفس المراجع السابق . Goitein : Ibid, P. 305

(٤٢) Lionel Casson : The Ancient Mariners (N. Y.), 1959, P. 243 & Ibid, P. 305-306

(٤٣) Lionel Casson : Ibid, P. 243 & Goitein : Cp. Cit., P. 306.

(٤٤) الطريدة : جمعها طرائد وهي سفن لها أبواب تنفتح وتغلق لحمل الخيول وقت
الحرب . راجع : صابر دياب : سياسة الدول الإسلامية ص ١٨٩ والخواشي ، سعاد ماهر :
البحرية في مصر الإسلامية . Goitein : op. Cir. P. 306-307

(٤٥) يقول جواتين "Goitein" علمت من اتصال بالدكتور ليونيل ساسون أن
الترايط التكتيكي للمراكب الكبيرة، استمد مما كان شائعاً استخدامه في الأسطولين اليوناني
والروماني . راجع جواتين في كتابه :

Studies on Islamic History and Institutions

ص ٣٠٧ ، حاشية (١) :

(٤٦) الشيني : جمعها شواني . وهي سفن حربية ذات أبراج : صابر دياب :
سياسة الدول الاسلامية ص ١٨٩

(٤٧) ابن ماتي : قوانين الدواوين ص ٢٤٠

(٤٨) Goitein : Ibid , P. 307-308

دعوة إلى إحياء تراثنا العلمى

للدكتور جلال شوقى

الأستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة

تمهيد :

إن القوانين العلمية المختلفة التى توصل إليها علماء من الشرق والغرب ، تلك القوانين التى تقوم عليها علومنا الحديثة ، لتبدو لنا ونحن على مشارف الربع الأخير من القرن العشرين - لبساطتها ومنطقيتها - وكأنها لا تستوجب كل هذا التقدير والإجلال للعلماء الذين توصلوا إليها ، والواقع أنه لا يدفعنا إلى هذا الإحساس غير المنصف سوى اعتيادنا لهذه القوانين إلى الحد الذى تبدو لنا فيه سهلة مألوفة واضحة ، لدرجة نلغى معها كيفية وأهمية التوصل إليها ، كما أنه يترأى لنا أيضا أن التجارب التى قام بها بعض العلماء تتميز بقدر كبير من البساطة إلى الحد الذى يراود فكرنا الاعتقاد بأنه فى مقدور الشخص العادى أن يتوصل إليها لو لم يسبقه هؤلاء العلماء إلى إجرائها ، ولنسق أمثلة واضحة للتدليل على قولنا هذا ، فنشير إلى أن حقيقة كروية الأرض - التى تبدو لنا اليوم أمرا بديهيا لا يختلف فيه اثنان - قد أخذت من فكر البشر وجهدهم قرونا عديدة حتى أمكن إثباتها وإثبات دورانها فى فلك معين حول الشمس . ثمّة مثال آخر هو السهولة التى تتم بها اليوم التنبؤات الحسابية ، وقد لا يعلم الكثيرون أن التوصل إلى فكرة منازل الأرقام من الأحاد والعشرات والمئات إلى آخر هذه المنازل لم يتم إلا فى صدر الحضارة

العربية ، أى أن الإنسان قد عاش آلاف السنين يتبع طرقاً عقيمة ومطولة في حساباته قبل أن يهتدى إلى فكرة منازل الأرقام ، والإنسان العاوى يؤدي العمليات الحسابية اليوم في سهولة ويسر دون أن يعي الطريق الطويل الشاق الذى قطعه الإنسان ليصل إلى هذه الفكرة التى تبدو لنا اليوم في غاية البساطة .

إن التقدير السليم المنصف ، والتفهم الصحيح للجهود الخلاقة المتواصلة التى قام بها الإنسان عبر تاريخه الحضارى الطويل ، وسميه الدروب إلى العلم والمعرفة لا يتسنى الوصول إليه دون الدراسة العميقة والتحليل الدقيق لظروف المصور التى تمت فيه تلك الجهود والمحاولات ، ومن ثم فإنه يتعين على مثل هذه الدراسة أن تعرض بالبحث لحالة الفكر والمجتمع التى لازمت هذه الجهود ، وأن تتعرف على مدى الاحتياجات والإمكانات التى أدت إلى الاكتشافات والإبداعات التى توصل إليها الإنسان ، ذلك المخلوق ذو الحضارة المبهجة .

إن العلم بنموه المتواصل يؤثر ولاشك تأثيراً متزايداً على الإنسان من حيث مقومات حياته وفكره وفلسفته ومعتقداته ، ومن هنا فإن الفهم الحقيقى الواعى للعلم - وهو الخلقة الحية الدائبة النمو والتطور والاكتمال - يقتضى منا دراسة عميقة لتطوره عبر الأزمان .

إن انتفاء الاتجاهات التى أثر ويؤثر فيها العلم على حياة البشر وسعادتهم يمكننا - مع دراسة واعية لامتداد هذه الاتجاهات - من الوقوف على الأثر المحتمل للعلم على مستقبل البشر .

دراسة تاريخ العلوم ودواعيها :

بالعلم - وهو الثمن ما لدينا من ألوان المعرفة - توصل الإنسان إلى الإنجازات العظيمة التى أحرزها في طريق إخضاع الطبيعة وتطويرها

لخدمته ، ولم يكن الطريق لك هذه الإنجازات طريقاً سهلاً ميسوراً ، بل على العكس تماماً من ذلك كان طريقاً شاقاً طويلاً تسكتفه المصاعب والعقبات ، تسكثفت على تمبيده أجيال بعد أجيال ، وإن من حق الأجيال السابقة علينا — وهي التي تدين لها حضارتنا وتقدمنا — أن نعرف معالم الطريق الذي فيه سارت ، وذلك لأسباب واعتبارات متعددة ، منها أن نعي ما بذلته أجيال السلف من فكر ومن جهد لإسعاد البشرية ، وأن نقف على تطور الفكر العلمي واتجاهاته خلال مختلف العصور والحضارات ، وأن نتناول بالدراسة والضمح والتحليل ما وصلت إليه مدارك الإنسانية حتى العصر الذي نعيش فيه .

وثمة أسباب أخرى تدفعنا إلى الاهتمام بدراسة تاريخ العلوم ، نذكر منها توسيع أفق المشتغلين بالعلوم ومداركهم من حيث تطور الأفكار والإنجازات العلمية ، وتأهيلهم للتفوق والامتياز بالوقوف على المصاعب التي واجهت العلماء السابقين ، ودراسة الأخطاء التي وقعوا فيها للإفادة من تلك المحاولات والتجارب الرائدة ، وبذلك يكتسب دارسوا تاريخ العلوم مقدرة عالية في معالجة البحوث واستنباط أساليب جديدة لإجرائها ، والوصول إلى نتائج علمية هامة ، ومن ثم كانت الحكمة القائلة :

« إن الإحاطة بعلم لا تسكتمل دون الإلمام بتاريخه » .

إن دراسة تاريخ العلم — وهي في حد ذاتها دراسة شيقة وطريفة — لا بد وأن تكون عاملاً قوياً على تنمية الميل إلى البحث العلمي والاستزادة من ألوان المعرفة ، كما وأنها تضيف الكثير إلى الثروة العلمية للإنسان .

مظاهر الاهتمام المعاصر بتاريخ العلوم :

إن من أهم سمات الحقب الأخيرة ذلك الاهتمام الواضح الأســبـيـل

بدراسة تاريخ العلوم ، ولا غرو فهذه الدراسة هي الأساس الذى يقوم عليه بناء التقدم العلمى .

ولقد قام كثير من الدول المتقدمة بإنشاء الأكاديميات ومراكز البحوث والمساعد المتخصصة فى دراسة تاريخ العلوم ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس ، والأكاديمية البولندية للعلوم وتاريخ العلوم والتكنولوجيا ، ومعهد تاريخ العلوم بجامعة وسكنسن بأمريكا ، ومعهد أبحاث تاريخ التكنولوجيا بفينا بالنمسا ، ومعهد المخاطرات العربية التابع لجامعة الدول العربية ومقره القاهرة ، ومعهد تاريخ وفلسفة العلم بمركز همدرد بكراتشى بباكستان ، وأمل أحدثها مركز التراث العلمى العربى بجامعة حلب بسوريا .

كذلك أقيمت وخصصت متاحف لعرض الآثار والمنجزات العلمية للبشر ، منها متحف العلوم بلندن ، ومتحف تاريخ العلم بكسفورد ، والمتحف الفنى للصناعات والحرف بفينا ، ومتحف شتوتجارت بألمانيا الغربية .

ولقد قامت هيئات وجمعيات علمية ركزت نشاطها فى هذا النوع من الدراسات منها جمعية نيوكمن ، فى انجلترا ، و الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، التى تأسست فى القاهرة عام ١٩٤٩ .

شهد القرن الحالى نشاطاً متزايداً فى دراسة تاريخ العلوم ، حيث نشر العديد من المؤلفات القيمة ، وبدأ ظهور الدوريات والمجلات المتخصصة فى هذه الدراسة ، فصدر العدد الأول من المجلة الشهيرة «لايزيس» فى مدينة بلتي مور بأمريكا عام ١٩١٣ ، وتوالى صدور المجلات فى مختلف بلدان العالم ، فصدرت مجلة «أبحاث فى تاريخ التكنولوجيا» بفينا بالنمسا منذ عام ١٩٣٠ ، ومجلة «حوليات العلم» فى لندن منذ عام ١٩٣٦ ، ومجلة «تاريخ العلم الطبيعى

والطب، في كوبنهاجن بالدانمارك منذ عام ١٩٤٢ ، ومجلة «السجلات الدولية لتاريخ العلوم» في باريس منذ عام ١٩٤٧ ، ومجلة «سنتورس» في كوبنهاجن منذ عام ١٩٥٠ ، ومجلة «سجلات تاريخ العلوم» في هايدلبرج بألمانيا الغربية منذ عام ١٩٦٠ ، هذا كله قليل من كثير ، يدل جميعه على الأهمية المتزايدة التي بلغتها دراسة تاريخ العلوم في الدول المتقدمة ، وهذا الاهتمام له ولا شك دوافعه القوية ودواعيه الأصيلة .

لقد تعدى الاهتمام بدراسة تاريخ العلوم حدود الأبحاث والدراسات العليا ، وأصبحت هذه الدراسة تمثل جانباً من الدراسة الجامعية المؤدية إلى الدرجة الجامعية الأولى . ولا غرو فقد ثبت لدى ذوي الخبرة في التعليم العالي أن دراسة تاريخ العلوم هي دراسة لازمة وضرورية في كل فرع من فروع المعرفة ، وكما سبق أن أشرنا فإن التمكن من العلم يستلزم دراسة جادة ومفصلة لتطور الأفكار والمنجزات العلمية عبر التاريخ الحضارى الطويل ، ومع بروز أهمية هذه الدراسات وتضمينها لبرامج الدراسة الجامعية ، كان لابد من إنشاء أقسام متخصصة يرأسها أساتذة ذكراسى في تاريخ العلم ، نذكر منها على سبيل المثال أقسام تاريخ العلوم في جامعتي أكسفورد وكامبردج ، والكلية الملكية بلندن ، كذلك جامعتي أمستردام وليدن في هولندا ، وجامعات باريس بفرنسا ووسكنسن وپرنتون بالولايات المتحدة الأمريكية .

مسئولية كتابة تاريخ العلوم :

أما وقد بينا أهمية دراسة تاريخ العلوم ودوافعها والفوائد التي تجنى من ورائها ، وعددنا الخطوات التي اتخذتها الدول المتقدمة لتوفير مقومات هذه الدراسة من إنشاء مراكز البحث والمعاهد العليا ومتاحف العلوم والتكنولوجيا ، وقيام الهيئات والجمعيات العلمية المتخصصة في هذه الدراسة ، وترأى صدر المؤلفات والمجلات المختصة بتاريخ العلوم ، فلنتساءل على

على من تقع مسؤولية القيام بهذه الدراسات ؟ هل تقع هذه المسؤولية على عاتق المؤرخين السياسيين والاجتماعيين ، أم أن هذه المسؤولية هي من صميم أعباء رجال العلم .

من الأمور المسلم بها أن أولى الناس بدراسة تاريخ العلوم هم المشتغلون بالعلوم أنفسهم ، إذ أنه من الطبيعي لمؤرخ العلوم أن يكون ملماً بالأمم طيباً بالدقائق العلمية والفنية للوضوح الذي يتعرض له بالدراسة ، وهذا أمر يسهل تحقيقه في المشتغلين بالعلم .

إن كتاب التاريخ العام لا يطلب منهم — بحكم تخصصهم في الجوانب السياسية والاجتماعية — أن يكون لديهم عامة الكفاية والإمكانيات التي تعينهم على الكشف عن دقائق تاريخ العلوم ، وتحديد فضل السبق إلى قانون أو ظاهرة أو حقيقة علمية ، إذ أن دراسة تاريخ العلوم تتطلب بطبيعتها الإمام الجيد بالعلوم نفسها ، ومن هنا كان رجال العلم هم المسئولون — في المقام الأول — عن دراسة تاريخ العلوم ، كما وأنه يقع على عاتق رجال العلم بيان آثار تطور العلوم على المجتمع حتى يفيد عامة المؤرخين من هذه الدراسات المتخصصة .

لم تكن هذه الحقيقة وهذه المسؤولية لتغرب عن بال رجال العلم ، بل على العكس من ذلك ، فقد أولوا دراسة تاريخ علومهم اهتماماً كبيراً، وتوالى ظهور نتائج هذه الدراسات في بحوث ومؤلفات عديدة قام بكتابتها جميعها علماء في كافة فروع العلم والتكنولوجيا من الرياضيات والفيزياء والكيمياء والنبات وعلم الحياة والطب والصيدلة والفلك والهندسة وغيرها .

ونقدم فيما يلي نماذج من كتابات العلماء في تاريخ العلوم المختلفة وذلك من قبيل التمثيل والاستدلال بحسب :

١ - كتاب «تطور الرياضيات» للأستاذ بل أستاذ الرياضيات بمعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا .

(Prof E.T. Bell ; " The Dpvelopment of Mathematics" , New York, 1946).

٢ - كتاب «عظماء رجال العلم» للأستاذ فيليب لينارد أستاذ الفيزياء السابق بجامعة هايدلبرج بألمانيا الغربية .

(Prof. Philipp Lenard : " Great Men of Science" , London, 1950) .

٣ - كتاب «تاريخ مقاومة المواد» للأستاذ تيموشينكو الأستاذ الشهير بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الأمريكية .

(Prof. S,P. Timoshenko : "History of Strength of Materials". New York, 1953).

٤ - كتاب « تاريخ العلم والتكنولوجيا » للأستاذ فوربس والأستاذ ديمكستر هويس ، أستاذي تاريخ العلم بجامعة أمستردام وليدن بهولندا على التوالي :

(Prof. R.J. Forbes and Prof. E.J. Dijksterhuis . "A History of Science and Technology" , Penguin Books Ltd., 1968).

وجدير بالذكر أن هذين الأستاذين القائمين فعلا بتدريس تاريخ العلوم بهامعات هولندا قد سبق لهما التخرج في كليات عليية ، إذ تخصص الأول في الهندسة الكيميائية ، والثاني في الفيزياء والرياضيات ، ولهما دراسات ومؤلفات قيمة في تاريخ العلوم .

٥ - كتاب «الطب العربي» للدكتور إدوارد ج. براون، طبعة بغداد، عام ١٩٦٤ ، وطبعة القاهرة عام ١٩٦٦ .

هذه بعض أمثلة من مؤلفات عديدة كتبها علماء متخصصون في تاريخ العلم في فروعها المختلفة ، أوردناها للتدليل على مسئولية العلماء عن كتابة تاريخ العلوم كل في مجال تخصصه ، واضطلاعهم بهذه المسئولية .

التراث العلمي العرب والحضارة المعاصرة :

مرت على أوربا - مع تدهور الامبراطورية الرومانية - عشرة قرون من الزمان ، تعرف القرون الخمسة الأولى منها (٥٠٠ - ١٠٠٠ م) بالعصور المظلمة ، التي كانت أسوأ فتراتنا في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وفيها أخذت كل من حضارة الإغريق وحضارة الرومان في الاندثار ، في وقت كانت فيه الحضارة العربية تسعى إلى عصرها الذهبي . إن الحضارة الأوربية الحديثة التي شهدت مولدها الفترة الممتدة من حوالي القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر قد قامت - دون منازع - على أكتاف الحضارة العربية ، وإن التاريخ المنصف لتطور العلوم لا بد وأن يتوقف طويلاً عند منجزات الحضارة العربية وأثرها البالغ على الحضارة المعاصرة ، إذ لو لم تكن هناك حضارة عربية لصاع تماماً تراث الإغريق وكثير من تراث الفرس والهنود والسريان ، ولتأخر مولد الحضارة المعاصرة عدة مئات من السنين .

لقد كان لحضارة العرب التي امتدت زهاء ثمانية قرون (٧٠٠ - ١٥٠٠ م) - من بلاد الهند شرقاً إلى بلاد المغرب وأسبانيا غرباً - أثر بالغ في حفظ ونقل تراث الإغريق ، ولو اقتصر فضل العرب على ذلك لكان فضلاً عظيماً في حد ذاته ، فما بال فضل العرب فيما استحدثوه وطوروه وأضافوه من ألوان المعرفة ، وعن العرب أخذت أوربا علوم الحساب والجبر والفلك والطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء والنبات وغيرها من العلوم الحديثة ، وقد مرت الحضارة العربية بعصرها الذهبي في القرنين العاشر

والخامس عشر الميلاديين في الوقت الذي كانت فيه أوروبا ترزح في حال
الجهل والظلام .

إن حركة الترجمة لأهميات الكتب الإغريقية إلى اللغة العربية ، تلك
الحركة التي أولاها الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) اهتماماً بالغاً ، كانت
عاملاً رئيسياً في حفظ تراث الإغريق ودراسته واستيعابه ، ولا غرو
فالخليفة المأمون هو الذي أسس « بيت الحكمة » ببغداد وجمع فيها علماء
أفاضل للقيام بهذه المهمة ، وهي بداية منطقية تماماً تنبئ لها الخليفة المأمون ،
إذ أن الحكيم هو الذي يبدأ بدراسة أعمال من تقدمه ويستوعبها ويهضمها قبل
أن يضيف إليها من فكره وجهده .

لقد كانت حركة الترجمة ونقل علوم الأولين حافزاً عظيماً على إقبال
العرب على العلوم والفلسفة والاهتمام بها والإضافة إليها ، فلا عجب أن
تظهر - في موطن الحضارة العربية الممتد من الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي
غرباً - عبقريات عربية كثيرة نذكر منها على سبيل الإشارة والتنبيه محمد
ابن موسى الخوارزمي (ت ٨٥٠ م) ، ومؤلفاته في الحساب والجبر والمقابلة
غنية عن التعريف ، وأبا بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٤ - ٩٣٢ م)
وقد برع في الكيمياء والطب ، وأبا الريحان البيروني (٩٧٣ - ١٠٥١ م)
ذلك العالم الموسوعي الذي كاد أن يضيف إلى كافة فروع المعرفة على عصره ،
والحسن بن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٩ م) رائد علم البصريات ، والشيخ الرئيس
الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) الذي اشتهر في الشرق والغرب
بذوغمه في الطب والفلسفة .

إن البحوث الأصلية التي قدمها علماء العرب إلى العالم هي في الواقع من
أهم أسس الحضارة المعاصرة ، ولقد ترجمت علوم العرب أول ما ترجمت
إلى اللغة اللاتينية وعن هذه الترجمة انتقل العلم العربي إلى أوروبا ، ومن الكتب

الشهيرة التي ظهرت لها ترجمات لاتينية ، كتاب الخوارزمي ، في الطب لابن بكر الرازي ، وكتاب الزيج ، - ويحتوي على جداول فلكية - لمحمد بن موسى الخوارزمي ، وقد ظهرت ترجمته اللاتينية عام ١١٢٦ م ، كذلك نشر كتاب الجبر والمقابلة ، للخوارزمي أيضاً مترجماً إلى اللاتينية عام ١١٤٥ م ، وصدرت الترجمة اللاتينية لكتاب القانون في الطب ، لابن سينا عام ١٤٧٣ م ، وظلت هذه الترجمة المرجع الأول في الطب في جامعات أوروبا حتى منتصف القرن السابع عشر ، كذلك نشر كتاب المناظر ، للحسن بن الهيثم باللغة اللاتينية عام ١٥٧٣ م ، وقد ظهر بعنوان «الذخيرة في علم الأوبطيق للهازن» ، ولفظ «الهازن» هو الاسم المحرف للحسن بن الهيثم ، وعن كتاب المناظر ، تعلمت أوروبا علم الضوء .

ولقد دخلت بعض أسماء الأعلام العرب في اللغات الغربية ، فنجد - على سبيل المثال - كلمة Algorithm في اللغة الإنكليزية ، وهي ولا شك تعريف لاسم الخوارزمي ، كما أن الأعداد كانت تسمى باللاتينية Algorismus وبالاسبانية Guarismo ، وكل هذه الألفاظ مشتقة من اسم الخوارزمي علامة الحساب والجبر ، ولقد تعلمت أوروبا طريقة الترقيم العربية - وما أدخلته على العمليات الحسابية من تبسيط وتبسيط - من كتاب الحساب الذي ألفه ليوناردو وبيزانو ونشره في إيطاليا عام ١٢٠٢ م ، وبهذا الكتاب انتقل الحساب العربي إلى أوروبا وانتقل معه اسم الخوارزمي الذي دخل معاجم اللغات الغربية .

تركت الحضارة العربية آثارها الواضحة على الحضارة الحديثة ، بل وغزت الكلمات العربية اللغات الغربية حيث نجد مئات الألفاظ العربية في لغات الغرب ، نشير هنا إلى بعض منها من قبيل التذليل العابر ، فكلمة «الجبر» التي استعملها العلماء العرب بمعنى عملية جبر الكميات السالبة إلى كميات موجبة ، قد شقت طريقها إلى معاجم العالم للدلالة على هذا العلم الذي أرسى قواعده

العلامة الخوارزمي ، كذلك الحال في كلمة « صفر » ، حيث نجد أنها قد تحولت إلى كلمة « Cifra » ، « Zephirum » في اللغة اللاتينية ، وإلى كلمة « Cioher » و « Ziro » في اللغة الإنجليزية ، وظهرت كلمة « الصفر » العربية على صورة « Cifra » و « Zepiro » في اللغة الإيطالية. ولما أدخل جوردانوس نيوراريوس الحساب العربي إلى ألمانيا حوالي عام ١٢٢٠م ظهرت كلمة الصفر في الألمانية في لفظ « Gifra » ، ثم تطورت إلى اللفظ المعاصر « Ziffer » ، كذلك فإن الألفاظ الفرنسية « Cifra » و « Chiffre » و « Zéro » تنبع من الكلمة العربية « صفر » وتعني خلاء ، وتعبير صفر اليدين غنى عن الشرح .

إن المشتغلين بعلم الفلك يعرفون تمام العلم أن ألفاظ عديدة من مسميات النجوم والكواكب تنحدر من أصل عربي ، كما أن كثيراً من الألفاظ الخاصة بالنباتات والأعشاب الطبية وعناصر الكيمياء والمسميات الطبيعية وغيرها من الألفاظ الحضارة كلها مشتقة من كلمات عربية .

وليس هنا مجال الإفاضة في التدليل على فضل العرب على الحضارة الحديثة ، إذ أن هذا يستغرق سنوات عديدة من البحث والدرس وتأليف عدة مجلدات ضخمة لتسجيل إجازات الحضارة العربية ، وإنما قصدنا هنا مجرد الإشارة إلى أن علوم العرب هي بلا شك أهم دعائم الحضارة المعاصرة ، وأن تاريخ العلوم لا بد وأن يتوقف طويلاً عند الحضارة العربية ليقوم منجزاتها تقويماً منصفاً .

ولقد ساعدت على وصول علوم العرب إلى أوروبا عوامل كثيرة منها حركة التجارة بين الشرق والغرب ، والحروب الصليبية (القرن الثاني عشر للميلاد) ، ورحلات المثقفين من أوروبا إلى بلاد الإمبراطورية الإسلامية للوقوف على علوم العرب وثقافتهم ، كما ساعد على ذلك أيضاً تبادل الحدود بين العرب والأوروبيين لا سيما في أسبانيا .

إن مذكرات كثير من علماء الغرب تتضمن إشارات واضحة إلى المؤلفات والمصنفات العربية التي اطلعوا عليها أو كانوا يقتنونها في مكتباتهم الخاصة ، فان ليوناردو دافينشي (١٤٥٢ - ١٥١٩م) - مثلاً - قد ذكر في أحد المجلدات^(١) التي خلفها وراءه قائمة بأسماء المكتب التي كان يقتنيها قبل مغادرته لميلانو ، وقد جاء فيها اسم كتاب في الصحة للعالم العربي أبي بكر محمد بن زكريا الرازي مترجماً إلى اللاتينية ، كذلك وصلت إلى ليوناردو أيضاً بحوث الحسن بن الهيثم في الضوء منقولة في كتاب العالم البولوني فينلو الذي وضعه حوالي عام ١٢٦٠م ، وقد اطلع ليوناردو على هذا الكتاب في مكتبة بافيا عام ١٤٩٠م ، وتدل مذكرات ليوناردو مرة أخرى على اطلاعه على بعض مؤلفات الشيخ الرئيس الحسين بن عبد الله بن سينا ، ورسائل فيلسوف العرب يعقوب بن اسحق السكندی (ت ٨٧٣م) ، ثم مثال آخر هو ما قرره الباحث أنطونيو قافرو من وجود نسخة من ترجمة ريزنر Risner اللاتينية لكتاب « المناظر » لابن الهيثم في المكتبة الخاصة بالعالم الايطالي جاليليو جاليلي (١٥٦٤ - ١٦٤٢م) ، وبالتالي فان جاليليو كان على بينة من أعمال الحسن بن الهيثم في الضوء والميكانيكا^(٢) .

إن أثر علماء العرب على الغرب كان جده عظيم ، وإن هذا التأثير البالغ للعلم العربي على الحضارة المعاصرة لن تتحدد معالمه قبل أن تدرس آلاف المخطوطات العربية التي تزخر بها خزانات الكتب العامة والخاصة في كافة أنحاء العالم ، وهذه الدراسة تقتضي تضافر الجهود داخل الوطن العربي وخارجه .

مصادر التراث العربي :

ضمت خزانة الكتب لإبان الحضارة العربية دور المخطوطات التي

حوت أعلى ما وصلت إليه معارف البشر في ذلك الوقت ، وقد كانت مكتبات المشرق والمغرب العربيين تغص بملايين المخطوطات ، نذكر منها على سبيل المثال مكتبة «بيت الحكمة» ببغداد ، ومكتبات النجف الأشرف ، ومكتبات الشام : سيف الدولة بحلب ، وأبي الفداء بحماه ، والقاهرة بدمشق ، ومكتبات دار الحكمة والجامع الأزهر الشريف بالقاهرة ، ومكتبات بني عمار بطرابلس ، والجامع الأعظم بالقبروان ، وجامع القرويين بفاس ، والجامع الكبير بمكناس ، ومكتبة الزهراء بقرطبة .

ولقد تعرضت الإمبراطورية العربية لمحن وتقلبات وغزوات وغارات بلغت ذروتها على أيدي التتار بقيادة هولاكو الذي أمر بإحراق كنوز الكتب العربية في بغداد . إنه لمن المؤسف حقاً أن يتلف أو يضيع جانب كبير من التراث العربي ، وما نجا منه وجد طريقه إلى خارج الوطن العربي ، حيث نقلت - في عصر العثمانيين - أثنى المخطوطات العربية إلى بلاد الغرب في وقت انحدرت فيه الحضارة العربية وازدهرت فيه الحضارة الأوروبية ، فنقل الباحثون عن كنوز الشرق الشيء الكثير من المخطوطات العربية إلى مكتبات الغرب في غفلة من ورثة الحضارة العربية .

وبازدخار مكتبات أوروبا بأهمات الكتب العربية وتزايد الاهتمام بها ، بدأت حركة الاستشراق في القرن الماضي ، وتوالى ظهور دراسات المستشرقين من أمثال سوتر ، وسخاو ، وبروكلمان ، وفيدمان ، ومتز ، وكارلو نلليانو ، وبول كراوس ، وليتمان ، وألومبيلي وفؤاد سركين ، وديتريش ، وهونسكه وغيرهم ، فلا عجب - والحال كذلك من تواجد المخطوطات والمهتمين بدراساتها - أن نقرأ عن تراثنا العربي أول ما نقرأ في كتب المستشرقين ودورياتهم المتخصصة في تاريخ العلوم .

هذا ويقدر عدد المخطوطات العربية المنتشرة في كافة أنحاء العالم بحوالى مليون مخطوطة عدا النسخ المكررة منها ، وفي الوقت الذى صدرت عن بعض خزائن الكتب العامة فهارس تضم بيانات كاملة ودقيقة عما تحويه من مخطوطات ، فإن الكثير من خزائن الكتب الأخرى لا تتوفر عنه مثل هذه الفهارس ، وما من شك فى أن النقب لم يكشف بعد عن آلاف المخطوطات العربية القيمة ، كما وأن تحقيق ودراسة ما نعرف عن وجوده من المخطوطات لازال فى أول الطريق ، ولقد صدرت خلال السنوات العشر الأخيرة كتب تبين معالم الطريق إلى مصادر التراث العربى فى مكتبات العالم شرقية وغربية منها سلسلة مجلدات « تاريخ التراث العربى ، للمستشرق التركى الأصل فؤاد سزكين »^(٢) وتصدرها دار بريل للنشر بليدن منذ عام ١٩٦٧ ، كذا كتاب « المخطوطات العربية فى العالم ، لهويسمان »^(٣) وقد صدر عن نفس الدار عام ١٩٦٧

قومية التراث العربى :

إن تراث الأمة يقع منها موقع القلب من الجسد ، فبدون القلب لا تكون حياة ، وحياة الأمة فى نشاطها الحضارى ، وتراثها جزء من هذا النشاط المستمر والجهد المتواصل عبر تاريخ الأمة الطويل .

أن من حق الأجداد علينا أن نعرف ونعى الدور المجيد الذى قامت به الحضارة العربية فى إرساء دعائم الحضارة الحديثة ، ولأنه لمن الضرورى حقاً أن نقدم للأجيال الصاعدة صورة واضحة ودقيقة للإنجازات العربية ؛ ولا غرو فى نسب الأمة العربية وحسبها .

ليست القومية العربية قضية سياسية فحسب ، إنما هى قضية تاريخ مشترك ولغة مشتركة وتراث مشترك وقيم مشتركة ، ليست القومية العربية مجرد تحريك

سياسي بل جمع الشمل وتوحيد الصف وتحقيق الهدف ، وإنما القومية العربية
أعمق من هذا المفهوم وأشمل ، وإن القومية العربية تعبير عن أمة واحدة وإن
تعددت أمصارها ، وتباينت نظمها الاجتماعية والاقتصادية ، تعبير عن تكوين
واحد وإن اختلفت بعض مظاهره ، وإن صورة هذا التكوين يجب أن
تكون واضحة كل الوضوح ، يرسمها تراث الأمة عبر تاريخ طويل
وجهد شاق .

لا يمكن أن نرفع شعار القومية العربية من فوق المنابر ، وإنما يجب أن
ننفض إلى جذور القومية العربية ، وأن نكشف عن أعماقها وأغوارها ، إن
الكشف عن الأسس الحضارية للقومية العربية لا يقل أهمية عن النشاط
السياسي للتجمع العربي ، وإن إحياء التراث العربي يثبت دعائم القومية العربية ،
ويجملوا مفهومها ، ويعتك على الاعتزاز بماضيها ، والثقة في حاضرها ،
والتفاؤل في مستقبلها .

العناية بالتراث العلمي العربي :

قد يكون التراث العلمي العربي من أروع جوانب تراثنا الحضاري ،
ومع ذلك فإن نصيبه من الاهتمام كان ولا زال يسيراً . صحيح أن بعض
المستشرقين الفضلاء من أمثال سوتر وسخاو وفيدمان ونلينيوميل وديتريش
وهونكة وأولمان قد قدموا دراسات قيمة ومنصفة في تراثنا العلمي ، إلا أنه
لا بد من الاعتراف بأن مسئولية إحياء التراث العربي تقع في المقام الأول
على عاتق أصحاب التراث أنفسهم ، ومازلنا بعد في بداية الطريق .

وبعد بنا أن نشير هنا إلى بعض ما أنجزه علماء العرب في مجال تحقيق
ودراسة المخطوطات العلمية العربية^(٥) ، فنذكر بكل تقدير فضل الأستاذ
مصطفى نظيف في أبحاثه عن الحسن بن الهيثم وتحقيقه وشرحه لكتابه
« المناظر » ، حيث أصدر مؤلفه القيم « الحسن ابن الهيثم : بحوثه وكشوفه

البصرية ، في جزئين عام ١٩٤٢ ، كذلك نذكر جهد الدكتور مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسى أحمد في تحقيق كتاب « الجبر والمقابلة » ، لـ محمد بن موسى الخوارزمي عن المخطوطة الوحيدة المحفوظة في مكتبة بودليان بأكسفورد ، وتحقيقات الدكتور أحمد عيسى بك في علمي الطب والنبات عند العرب في كتبه : « آلات الطب والجراحة والحجالة عند العرب » ، و « معجم الأطباء » ، و « تاريخ البهارستانات » ، و « تاريخ النبات عند العرب » ، كما نشيد بالكتاب الذي وضعه الأستاذ قدرى حافظ طوقان بعنوان « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » ، ويضم بين دفتيه سجلا لعلماء العرب في هذا المجال ، وبياناً بأهم منجزاتهم فيه ، كذا « كتاب الفلاحة » لابن بصال الذي أخرجه معهد مولاي الحسن بتطوان ، وكتب الدكتور أحمد شوكت الشطلي في تاريخ الطب وتشمل « تاريخ الطب » ، و « تاريخ الطب في الإسلام » ، و « الطب عند العرب » ، و « تاريخ الطب عند العرب في القرون الأخيرة في سوريا » ، و « تاريخ العلوم الطبيعية في الحضارة الإسلامية والمجتمع العربي » ، ونود الإشارة أيضاً إلى كتابات الدكتور إمام إبراهيم أحمد في جهود العرب في الفلك ، ومنها كتابه « تاريخ الفلك عند العرب » ، و « المقالة الثالثة من القانون السعودي للبيروني » ، وهناك مجموعة من الكتب التي تتناول دراسة وتحقيق جهود العرب في الرياضيات ، منها كتاب « الباهر في الجبر » - للسماويل المغربي ، تحقيق وتحليل الأستاذ ابن صلاح أحمد ورشدي راشد ، وكتاب « البديع في الحساب » - للكرجي ، تحقيق الأستاذ عادل أنبوبا ، كذا تحقيقات الدكتور أحمد سليم سعيدان وتضم « كتاب المنازل السبعة وتاريخ علم الحساب العربي - لابن الوفاء البوزجاني ، وكتاب « الفصول في الحساب الهندسي - للاقليدس » ، وهناك أيضاً تحقيق الدكتور عبد الحليم منتصر للجزء الخاص بالطبيعيات والمعادن والنبات من كتاب الشفاء لابن سينا ، وتحقيقات الأستاذ أحمد سعيد الذمرداش في بعض أعمال أبي الريحاني البيروني ، وجمشيد الكاشي ، ومحمود الفلاكي ، وكتاب الدكتور جلال شوقي « تراث العرب في الميكانيكا » ،

وكتاب « تلخيص أعمال الحساب لابن البناء المراكشي ، تحقيق الدكتور محمد سويسى .

كل هذه بعض أمثلة قصد بها التدليل على الجهود الصادقة والمخلصة التي يبذلها بعض علماء العرب ، بيد أنها محاولات فردية نابعة عن إيمان عميق بالتراث العلمى العربى ، وتقدير واع لأهمية إحيائه حتى تنضج معالم المنجزات العلمية العربية ، ويتجسأ التراث العربى مكانه الصحيح فى تاريخ العلوم .

لقد تعالت ولا زالت تتعالى أصوات مؤمنة بترأثنا العلمى ، تدعو وتلح فى الدعاء إلى مزيد من الاهتمام به ، أما أن الأوان بعد أن ننظر إلى هذا التراث على أنه من أم دعائم القومية العربية ، فنقيم معاهد ومراكز متخصصة فى تحقيقه ودراسته على المستوى القومى ، أما حان وقت العمل المثمر الجاد فى دعم أسس القومية العربية ، وهل تصح قومية دون تراث ؟ ، دعوة تقدمها لكل الشعوب والدول العربية المزمنة بترأثها ، الساعية حقاً إلى الذود عن قوميتها ، المتطلعة إلى مستقبل مشرق بعيد الأجداد الرائعة إلى أصحاب التراث العربى العظيم .

إن تاريخ العلوم لن يستقيم أو يكمل دون التقويم المنصف لمنجزات الحضارة العربية ، حقيقة أوضح من أن يلزمها برهان ، أو يقام عليها دليل ، حقيقة يعرفها العدو قبل الصديق ، يقدرها كل من يؤمن بحضارة الإنسان ، ذلك المخلوق الذى شرفه الله بخلقه على صورته . وتفتح فيه من روحه ، وعلمه ما لم يعلم .

الحواشي

- (١) Codex Atlanticus, 210 R., 225 V., 225 R. P.
وهذا المجلد محفوظ في مكتبة امروزيانا بملانو .
راجع كتاب « عبقرية ليوناردو دافينشي في الهندسة » تأليف الدكتور جلال شوقي ، مكتبة
الأنجلو المصرية بالقاهرة ، عام ١٩٦٤ .
- (٢) كتاب « تراث العرب في الميكانيكا » للدكتور جلال شوقي ، عالم الكتب بالقاهرة
عام ١٩٧٣ ، صفحة ٥٤
- (٣) F. Sezgin : "Geschichte des arabischen Schrifttums, " (٣)
E. J. Brill, Leiden, 1967 -
- (٤) A. J. W. Huisman: "Les manuscrits arabes dans le monde," (٤)
E. J. Brill, Leiden, 1967 -
- (٥) من المفيد الرجوع إلى كتاب « نشاط العرب العلمى في مائة سنة » — جامعة
بيروت الأميركية ، منشورات كلية العلوم والآداب ، بيروت سنة ١٩٦٣

الغزو الهلالي للمغرب

أسبابه ونتائجه

للدكتور حسن علي حسن

مدرس التاريخ الإسلامى

كلية دار العلوم

جامعة القاهرة

واجه المغرب الأدنى فى القرن الخامس الهجرى حركة غزو مسلح ، هذه الحركة حملت فى طياتها الكثير من ألوان الدمار والخراب ، وقد عرفت هذه الحركة فى التاريخ الإسلامى باسم الهجرة الهلالية ، أما للقاعدة التى انطلقت منها جموع الهلاليين فهى مصر فى عهد المستنصر بالله الذى تولى الحكم بمصر فى ١٥ شعبان سنة ٤٢٧هـ^(١) .

وكان هذا الغزو ذا طابع خاص ، إذ أنه لم يأخذ شكل جيش منظم ، ياتمر لقيادة موحدة ، تسير وفق خطة مرسومة ، وإنما جموع مخربة خرجت لتحقيق أهداف لها تتخلص فى السلب والنهب ، وفى نفس الوقت أرادت السلطة الحاكمة فى مصر تحقيق أهداف معينة لها وهو التخلص من حكم بنى زيرى فى القيروان ، فضلا عن التخلص من هذه الجموع ذاتها إذ أنها كانت مصدر إزعاج وقلق للحكم الفاطمى فى مصر .

وقد نجح الغزو الهلالي فى تحقيق هذه الأهداف ، وربما أصبح هذا النجاح محدودا لو أنه اقتصر على مجرد إسقاط دولة بنى زيرى - وهو أمر

خطير — إلا أن هذا الغزو أخذ أبعاداً متعددة شملت العلاقة بين بني زيري قبل سقوطها وبين الدولة العباسية ، كما شمل أيضاً العلاقة بين كل من الدولة العباسية والبيزنطية والفاطمية ، يضاف إلى ذلك تلك النتائج الخطيرة التي ترتبت على وجود الهلاليين على أرض المغرب وتأثيرهم في مجريات الأمور طيلة ثلاثة قرون مما يعطى أبعاداً جديدة للغزو الهلالي للمغرب .

وفي دراستي هذه سوف أحاول أن أسير مع هذه الحركة منذ أن كانت قبائل متفرقة بموطنها الأصلي في شبه جزيرة العرب ، إلى أن استقر بها المقام في أقاليم المغرب المختلفة ، وما صاحب ذلك من تطورات وأحداث تكشف طبيعة هذا الغزو والنتائج التي ترتبت عليه .

تشكل حلف الهلاليين من مجموعة من القبائل أشهرها بنو هلال بن عامر ابن صعصعة بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان^(٢) ، وبنو سليم وهم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان^(٣) وبنو جشم ابن معاوية بن بكر^(٤) وغيرها من القبائل التي انضمت إليها بحكم الجوار وبحكم المصالح المشتركة . وقد أطلق على هذا الحلف اسم الهلاليين وربما كان مرجع ذلك إلى وجود الزعامة — في هذه الفترة — في بني هلال باعتبارها أقوى القبائل ، وربما كان ذلك لسهولة دوران الامم على الألسنة^(٥) .

أما موطن هذه القبائل ، فكان بمجاله منطقة الحجاز ونجد ، وذلك باختلاف المرحى وأسباب الحياة ، فبنو سليم مواطنهم كما يقول المقرئى : د في عالية نجد بالقرب من خيبر ومنها حرة بني سليم وحررة النار بين وادى القرى^(٦) ، أما بنو هلال ففي جبل غزوان عند الطائف^(٧) بينما كانت مساكن بنو جشم بالسراوات وهى تلال تفصل بين تهامة ونجد متصلة من البحرين إلى الشام^(٨) ، إلا أن هذه المواضع لم تكن وطننا ثابتاً لهذه القبائل ، إذ أن ظروفهم الاقتصادية والسياسية كانت تدفعها للتجوال والحركة على أطراف

العراق والشام ، إلا أننا يمكننا القول بأن مواطنهم الأصلية هي الحجاز
استنادا إلى ما ذكره البكري في معجمه حين قال : الحجاز اثنتا عشر دار :
المدينة وخيبر وفدك وذى المروة ودار بلي ودار أشجع ودار مزينة ودار
جهينة ودار بعض بني بكر بن معاوية ودار بعض هوزان وجل سليم وجل
هلال^(٩) . .

والباحث في تاريخ هذه الجموع وما اتصفت به من شدة وبأس وميل للعدوان
يدرك الآثار المترتبة على هذه الصفات ، فهم في هذه البيئة الجبلية يتصفون
بقوة الشكيمة مع بسطة في الجسم وصلابة في العود مع ميل إلى العدوان نتيجة
لظروفهم الاقتصادية الصعبة^(١٠) .

وقد أدرك هذه الصفات خلفاء الدولة العباسية فأبو جعفر المنصور
يوصي ابنه المهدي بقوله : وإياك أن تستعين برجل من بني سليم وأظنك
ستفعل^(١١) . .

وهي نظرة ثاقبة خبيرة بأحوال القبائل ، إذ أننا نجد هذه القبائل تشكل
قلقا للحكومة المركزية في بغداد ، وذلك بإغاراتها المتكررة على قوافل
التجار ، والحجاج المتجهين إلى مكة مما جعل الخلافة تجرد الحملات للحد من
خطورة هؤلاء الأعراب .

وقد ذكر الطبري وابن الأثير في أحداث سنة ٢٣٠ هـ وجه الوراق بغا
الكبير إلى الأعراب الذين أغاروا بنواحي المدينة ، وكان سبب ذلك أن
بني سليم كانت تفسد حول المدينة بالشر ، يأخذون مهما أرادوا من
الأسواق بالحجاز بأي سمر أرادوا ، وزاد الأمر بهم إلى أن وقعوا بناس
من بني كنانة وباهلة في جمادى الآخرة من سنة ثلاثين ومائتين ، فوجه محمد
بن صالح حامل المدينة إليهم حماد بن جرير الطبري وكان مسلحة لأهل المدينة

في مائتي فارس وأضاف إليهم جنداً غيرهم ، وتبعهم متطوعة ، فسار إليهم حماد ، فلقى بهم بالرويشة فافتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزمت سودان المدينة بالناس وثبت حماد وأصحابه وقريش والأَنْصار ، وقاتلوا قتالاً عظيماً ، فقتل حماد وعامة أصحابه وعدد صالح من قریش والأَنْصار ، وأخذ بنو سليم الكراع والسيلاح والسياب فطمعوا ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة ، وانقطع الطريق ، فوجه إليهم الواصل بنو الكبير أبا موسى في جمع من الجند فقدم المدينة في شعبان فلقى بهم ببعض مياه الحرة من وراء السوارقية قرىتهم التي يأوون إليها ، وبها حصون فقتل بها منهم نحواً من خمسين رجلاً وأمر مثلهم وانهزم الباقون ، وأقام بنو السوارقية ، ودعاهم إلى الأمان على حكم الواصل ، فأتوه متفرقين فجمعهم وترك من يعرف بالفساد وهم زهاء ألف رجل وخلي سبيل الباقين وعاد بالأسرى إلى المدينة في ذي القعدة سنة ثلاثين فحبسهم ثم سار إلى مكة ، فلما قضى حجه سار إلى ذات عرق بعد إنقضاء الموسم وعرض على بني هلال مثل الذي عرض على بني سليم فأقبلوا وأخذوا من المفسدين نحواً من ثلاثمائة رجل وأطلق الباقين ورجع إلى المدينة فحبسهم (١٢) .

من النص السابق نستنتج كيف أن بني سليم شكلوا خطراً على أقوات أهل المدينة . فضلاً عن قتلهم لبعض أفراد من بني كنانة وباهلة ، ومواقف الخلافة العباسية من هذا الفساد ، ثم هزيمة الكتبية المسلحة التي خرجت لمجابهة تلك القبائل المتمردة ومقتل قائد الكتبية ، مما جعل الخلافة توجه أحد قادتها الكبار وهو بنو الكبير الذي دخل في معركة طاحنة ضد قبائل بني سليم أسفرت عن هزيمتهم ، وأسر عدد كبير منهم ، ولم تتم هذه المهمة العسكرية إلا باخضاع بني هلال والقاء القبض على مشيرى الفتن منهم .

ولم تسكن فريضة الحج وما تحمله من معاني التقديس والتقدير ، مانعاً هؤلاء الأعراب من الغدر والفتك بالآبرياء المتجهين لأداء فريضة الحج ،

فترافم في سنة ٣٥٥ هـ. يهاجمون قوافل الحجاج القادمة من مصر والشام يقول ابن الأثير « وفي هذه السنة - ٣٥٥ هـ. - خرجت بنو سليم على الحجاج السائرين من مصر والشام ، وكانوا عالماً كثيراً ومعهم من الأموال ما لا حد عليه لأن كثيراً من الناس من أهل الثغور والشام هربوا من خوفهم من الروم بأموالهم وأهلهم ، وقصدوا مكة ليسيروا منها إلى العراق ، فأخذوا ومات من الناس في البرية ما لا يحصى ولم يسلم إلا القليل ، » (١٣) .

وقد تكرر عدوانهم على الحجاج حتى أن الحج انقطع سنة ٣٦٣ هـ (١٤) وقد واجهت الخلافة العباسية هذه الاهتداءات المتكررة بالحملات والبعوث التي كانت تتخذ من هجماتهم وخطورتهم (١٥) .

وقد وجد هؤلاء الأعراب فرصة سانحة في تحقيق أطماعهم وذلك بالانضمام لحركة القرامطة بالبحرين ، فمن طريق هذه الحركة وما تجمله من دعاوى براءة ، تستطيع هذه القبائل تحقيق أغراضها في السلب والنهب وجمع المال بشتى الوسائل ، ومن ناحية أخرى فقد رحب زعماء القرامطة بهذه القوة الجديدة في تحقيق أهداف الحركة ومراميها ومن ثم وجدنا تعاوناً صادقاً بين عرب بني هلال والقرامطة (١٦) .

حتى إذا قامت الدولة الفاطمية في مصر ، وجدنا المعز ومن بعده ابنه العزيز يدخل في صراع مسلح ضد القرامطة وأشياعهم من عرب بني هلال وينجح العزيز بالله الخليفة الفاطمي في صد هجماتهم وإجبارهم على العودة إلى مواطنهم الأولى في البحرين .

وهناك رواية تشير إلى أن من نتائج هذا الصراع نقل قبائل بني سليم من ميادين القتال الممتدة بين مصر والشام ، وأن العزيز بالله أتى بهم إلى مصر حيث استقروا بالجانب الشرقي من صعيد مصر (١٧) .

وهذه الدعوى من جانب بعض المؤرخين تحتاج إلى مناقشة إذ أن هجرة قبائل بني سليم وهي تشكل جزءاً كبيراً من الخفاف الدلالي ، وفدت إلى مصر منذ وقت مبكر على التاريخ الذي يحدده بعض المؤرخين بهصر العزيز بالله ففى عهد والى مصر الوليد بن رقاعة الفهمى سنة ١٠٩ هـ ، نرى عبيد الله بن الحبجاب يتوجه إلى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ليستأذنه فى نقل الكثير من الأمر القيسية ومنها بنو سليم إلى مصر^(١٨) يقول المقرئى د ويقال أن عبيد الله بن الحبجاب لما ولاء هشام بن عبد الملك مصر قال ما أرى لقيس فيها حظاً إلا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان ، فكتب إلى هشام أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرم ، وإنى قدمت مصر ولم أر لهم حظاً إلا أبياتاً من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها تزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجاً وهي بلبس فان رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل ، فكتب إليه هشام أنت وذاك ، فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بنى نصر ومائة أهل بيت من بنى سليم فأنزلهم بلبس ،^(١٩) .

وهكذا صار لقبائل بنى سليم موطناً جديداً فى مصر ، وكان لخصوبة مصر وكثرة خيراتها فضلاً عن التسهيلات والأموال التى قدمت لقبائل قيس ومنها بنو سليم دافع كبير على قدوم كثير من بيوت بنى سليم إلى مصر واتخاذها وطناً جديداً ، يقول المقرئى د وأمرهم أى عبيد الله بن الحبجاب بالزرع ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم فاشتروا إبلًا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم وكان الرجل يصيب فى الشهر عشرة دنانير وأكثر ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر فلا يملك إلا شهراً حتى يركب وليس عليهم مؤونة فى علف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم ، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمّلوا إليهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت فصار بلبس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد وولى

الحوثرة بن مهيل الباهلي مصر مالت إليه قيس فمات مروان وبها ثلاثة آلاف بيت ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم ، (٢٠) .

وهكذا كان دافع العصبية من جانب عبيد الله ومن جاء بعده عاملاً قوياً على هجرة قبائل قيس ومعها قبائل سليم حيث سبل الحياة مبسرة ، وهذا دعم استقرار هذه القبائل في مصر .

يضاف إلى ذلك عامل آخر في خروج قبائل سليم من البحرين ما ذكره القلقشندي في قلائد الجمان ، وكان أعظم قبائل البحرين بنو عقيل هؤلاء ، وبنو تغلب وبنو سليم ، وكان أظهرهم في الكثرة والعز بنو تغلب ، ثم اجتمع بنو عقيل وبنو تغلب على سليم وأخرجوهم من البحرين فسارت سليم إلى مصر ، (٢١) ، فالصراع القبلي الذي حدث بين قبائل سليم وغيرها من القبائل المقيمة في المنطقة ، وانهازم قبائل سليم ، أجبر بني سليم على الهجرة إلى مكان آخر ، وبطبيعة الحال كانت مصر هي مقصدهم حيث أبناء قبيلتهم ، وهناك يجدون في كنفهم العز والمنعة .

أما فكرة نقل العزيز بالله عرب بني هلال إلى مصر ، فلقد حاول العزيز بالله استمالة زعيم القرامطة ومن معه إليه بالرغم من هزيمة القرامطة إلا أنه لم يفلح في ذلك ، ومن ثم اكتفى بإرسال قدر من المال على شكل هدية اتقاء لخطرهم ودفناً لضررهم يقول ابن الأثير ، وأما الحسن القرمطي فإنه وصل منهزماً إلى طبرية فأدركه رسول العزيز يدعو إلى العود إليه ليحسن إليه ، ويفعل معه أكثر مما فعل مع الفتيكين فلم يرجع ، فأرسل إليه العزيز عشرين ألف دينار ، وجعلها له كل سنة ، فكان يرسل إليه ، وعاد إلى الأحساء ، (٢٢) .

وما سبق يمكن القول أن انتقال بنو سليم إلى مصر لم يبدأ في عهد العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ هـ - ٢٨٦ هـ) وإنما تم في وقت مبكر ابتداء من سنة

١٠٩ هـ في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك ، ثم توالى مجيء الأمر من بنى سليم وانضم إليهم من أبناء عموماتهم بنو هلال وغيرهم . ووجدوا في أرض مصر مرتعاً خصباً ومماشاً طيباً فاستقروا بها وزادت أعدادهم بمرور الأيام .

فاذا ما تركنا جانب العلاقات بين مصر والعرب الهلالية ، وانتقلنا إلى الجانب الآخر وأعنى به العلاقة بين مصر وإفريقية خلال الحكم الفاطمى لوجدنا تبعية إقليم إفريقية لمصر منذ اللحظات الأولى التى انتقل فيها المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر فى سنة ٢٦٢ هـ بعد أن تم فتحها على يد قائده جوهر الصقلى من قبل .

وقد حاول الفاطميون قبل أن يتركوا إفريقية أن يولوا عليها حلفاء مختارين لدعوتهم وحكمهم وقد وقع اختيارهم على قبيلة صنهاجة ذات العدد الوفير وكنوع من المكافأة على خدماتهم الجليلة التى قدموها للدولة أعطى المعز المغرب لصنهاجة لأنها لم تكن مجرد قبيلة وإنما كانت شعباً عظيماً يتألف من بطون بلغت السبعين ، حيث كانت كتامة فرعاً منها وهى قوة هائلة تملك المغرب حتى أواسطه وتنقسم قسمين عظيمين أحدهما قريب من الساحل والآخر يسيطر على جنوب المغرب حتى السودان . . . يضاف إلى ذلك أن صنهاجة أظهرت إخلاصاً أيام نهضة دولة الفاطميين فى المغرب ، إذ كان معظمها من الحضرة أو ما يعرف من البرانس فى عدااء ضد البتر من قبيلة زناتة أنصار الأمويين بالأندلس أعداء الفاطميين ، وقد وقع اختيار المعز على أبى الفتوح يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى الذى أظهر إخلاصه فى الساعات المخيفة وقت ثورة يزيد بن مخلد كما أثبت ولاته فى حملاته فى المغرب مع جوهر ، (٢٧) .

وقد وقع الاختيار على أبى الفتوح يوسف بن بلسكر بن زيرى الذى تولى

السلطة في إفريقية سنة ٨٣٦٢هـ^(٢٤) ، وبالرغم من ثقة المعز في واليه الجديد على إفريقية ، إلا أنه قيد حركته وحد من اختصاصاته خشية استقلاله بإفريقية وخاصة أن الظروف مهيئة لهذا الاستقلال من بعد بين القاهرة والقيروان فضلا عن كراهية سكان إفريقية لمذهب الشيعة ، ولذا وجدنا الخليفة الفاطمي يوليه ولاية الحرب فقط ، أما القضاء والخراج فكانا يتبعان مباشرة للخليفة الفاطمي ، كذلك جعل إقليم طرابلس وبرقة ولايتين مستقلتين عن حكم بني زيري ويتبعان الخلافة الفاطمية في مصر^(٢٥) .

إلا أن هذه الإجراءات من جانب الخلافة الفاطمية لم تمنع المنصور ابن يوسف بن بلعكن الذي تولى الحكم سنة ٨٣٧٣هـ أن يصرح على الملأ بين الوفود التي أقبلت لتهنئته بتوليه مقاليد الأمور ، معلناً أن وصوله إلى مقعد الحكم إنما هو بفضل قوته وقوة آبائه وأجداده ، وليس للفاطميين فضل في ذلك يقول ابن الأثير : « وأما أهل القيروان وسائر البلاد يعزونه بأبيه ويهنئونه بالولاية ، فأحسن إلى الناس وقال لهم : إن أبي يوسف وجدى زيري كانا يأخذان الناس بالسيف وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان ، ولست ممن يولى بكتاب ويمزل بكتاب ، يعنى أن الخليفة بمصر لا يقدر على عزله بكتاب^(٢٦) ، ولا شك أن مثل هذه التصريحات كانت تصل إلى مسامع الخليفة الفاطمي في القاهرة .

وقد حاول الخليفة المعزيز بالله أن يواب بعض قبائل البربر على حكم بني زيري وقد تمثل ذلك في ثورة أبي الفهم الخراساني واستعانته بقبائل كتامة إلا أن أبا الفتوح المنصور استطاع القضاء على الثورة وتأديب قبائل كتامة^(٢٧) .

أما الخليفة الحاكم بالله الفاطمي الذي تولى في ٢٩ رمضان سنة ٣٨٦هـ^(٢٨)

فقد حاول أن يفتح صفحة جديدة من العلاقات الودية بين القاهرة وحكام
القيروان ، فتراه عقب توليه الخلافة يرسل سجلين إلى أبي مناد باديس .
ابن يوسف ويلقبه في أحدهما بنصير دولة الحاكم يقول المقرئى : وفيها -
سنة ٢٨٧ هـ - كتب الحاكم بأمر الله مع الشريف الداعى على بن عبد الله
سجلين لأبي مناد باديس بن يوسف بن زيرى أحدهما بولايته المغرب
وتلقيه نصير دولة الحاكم والثانى ب وفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم وأخذه
العهد على بنى مناد ، فأنزل وأكرم وأخذ العهد على جميع قبائل صنهاجة
وعمرهمم بالبيعة للحاكم فى جمادى الآخرة ثم عاد ، فقدم إلى القاهرة يوم
الخميس لليلتين خلتا من جمادى الآخرة بعد أن وصله نصير الدولة بمال جليل
وثياب وخيول ، (٢٩) .

ولم يمض على هذا السجل سوى ثلاث سنوات حتى وجدنا الحاكم الخليفة
الفاطمى يأذن لواليه على برقة وهو يانس الصقلى باستلام طرابلس من واليهما
الذى خان سيده باديس بن يوسف ولجأ إلى الحاكم فى مصر سنة ٣٩٠ هـ (٣٠) ،
ولا شك أن هذا عمل عدائى من جانب السلطة الحاكمة فى مصر ، ولم يقف
باديس مكتوف اليدين بل بادر وأرسل قواته التى استطاعت أن تسترد المدينة
وتهزم جيش يانس وتقتله (٣١) .

وقد دخلت العلاقة الزيرية الفاطمية مرحلة جديدة حين تولى المعز
ابن باديس السلطة خلفاً لوالده فى ذى القعدة سنة ٤٠٦ هـ (٣٢) ، وقد أشار
ابن عذارى إلى كيفية مبايعته بقوله : كانت ولايته بالمهدية فى يوم السبت
المذكور سنة ٤٠٦ هـ وسنه ثمانى سنين وأربعة أشهر وولايته بالمهدية وبيعته
بها لتسع بقين من ذى الحجة ، ذلك لما وصل الخبر بوفاة أبيه والسيدة أم ملال
بالمهدية ، خرج إليها منصور بن رشيق وقاضى القيروان والمنصورى
وشيوخها ، ومن كان بها من الصنهاجيين ، فعزوها فى أخبها ، وخرج المعز

بالبنود والطبول ، فنزل إليه الناس يهنونه جميعاً وبايعوه وهنوه ، وعزوه ،
وابتهلوا بالدعاء له وعاد إلى قصره ، ودخل الناس يهتفون السيدة بولايته ،
فصرف أهل القيروان والمنصورية وبقى المعز بالمهدية يركب في كل يوم ،
ويعود إلى قبة السلام ، (٢٣) .

ومن النص السابق نلح صغر سن المعز إذ أنه صبي صغير لم يتجاوز
الثماني سنوات ، وظهور والدته على مسرح الأحداث وتهنئة الرعية لها بولايته
إنها ، ولا شك أن صغر سن المعز وقلة جهازه ونخبته يشعرون بالحكم أو
كما يقول ابن خلدون « وكان لعهد ولايته فلاماً بفعلة ابن ثمان سنين فلم يكن
جرباً للأمور ولا بصيراً بالسياسة » ، (٢٤) .

لا شك أن هذه الصفات كانت عاملاً هاماً في وقوعه تحت تأثير مرييه
المالكي المذهب الذي دأب على تلقين الغلام الصغير تعاليم المذهب المالكي
في سرية تامة وبعبداً عن أعين رجال المذهب الشيعي ، وقد أشار إلى ذلك
صراحة ابن عذاري بقوله « ربي في حجر وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال
وكان ورعاً زاهداً ، وكانت أفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى
خلاف السنة والجماعة من وقت تملك عبيد الله المهدي لها ، فخرض ابن أبي
الرجال المعز بن باديس وأدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة
والشيعة لا يعلمون ذلك ، ولا أهل القيروان » ، (٢٥) ، فإذا ما وضعنا في الاعتبار
مراحل العلاقة الزيرية الفاطمية قبل تولي المعز بن باديس وكثرة المؤامرات
التي دبرها الفاطميون ضد الدولة الزيرية ، فضلاً عن ميل الكثير من عامة
الرعية للمذهب المالكي وكتفائه ذلك خوفاً من بطش رجال الحكم ، لوجدنا
أن الظروف مهيأة لاتخاذ موقف جديد تجاه الشيعة في إفريقية .

ولم يكن هذا الموقف سوى مذبحة دموية قام بها العامة ضد الشيعة في
مخازنها من الدولة الزيرية وراح ضحيتها الكثير من أبناء الشعب المعتنقين

للمذهب الشيعي وكان ذلك في عام ٤٠٧ هـ (٣١) ، وبالنظر إلى الأسباب
 المباشرة لهذه المذبحة نجد اختلافاً بين المؤرخين ، فابن عذارى يعال ذلك
 بدفاع أهل السنة عن المعز بن باديس حين أظهر ميله للشيعيين أبي بكر وعمر
 واضطراهم لمحاربة الشيعة والفتك بهم ، فخرج المعز في بعض الأعياد إلى
 المصلى في زينته وحشوده وهو غلام ، فكبا به فرسه ، فقال عنه ذلك أبو بكر
 وعمر ، فسمعته الشيعة التي كانت في عسكره فبادروا إليه ليقتلوه فجاءه عبيده
 ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضع السيف في الشيعة فقتل
 منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف فسمى ذلك الموضع بركة الدم ، (٣٧) ، بينما
 يرى ابن الأثير يضيف إلى العامل السابق عاملاً آخر هو رغبة عامل القيروان
 في إحداث فتنة بين أفراد الشعب انتقاماً من المعز بن باديس وإظهاره بمظهر
 المتخاذل عن نصرة المذهب الشيعي وأتباعه أمام الخلفاء الفاطميين أصحاب
 الحكم الشرعي للبلاد ، ودافعه في ذلك ما بلغه من رغبة المعز بن باديس
 في عزله من منصبه في هذه السنة — سنة ٤٠٧ هـ — في المحرم قتل الشيعة
 بجميع بلاد أفريقيا وكان سبب ذلك أن المعز بن باديس ركب ومشى في
 القيروان والناس يسمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة فسأل عنهم
 فقيل هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال : رضى الله عن أبي بكر
 وعمر ، فالصرفت العامة من فورها إلى درب المقل من القيروان وهو مكان
 تجتمع به الشيعة فقتلوا منهم ، وكان ذلك شهوة العسكر وأتباعهم طامعا
 في النهب ، وانهمسط أيدي العامة في الشيعة وأغرام عامل القيروان وحرصهم
 وسبب ذلك أنه قد أصليح أمور البلد ، فبلغه أن المعز باديس يريد عزله
 فأراد فسادهم ، فقتل من الشيعة خلق كثير ، وأحرقوا بالنار ونهبت ديارهم
 وقتلوا في جميع أفريقية ، (٣٨) ، وبذهب ابن أبي دينار في تعليل ذلك إلى
 إظهار الشيعة لأفكارهم وآرائهم التي لا تتفق مع آراء أهل السنة مما دفع
 العامة إلى الفتك بهم يقول ابن أبي دينار : ولما استقر — أي المعز بن باديس
 بـ بصيرة خرجت طائفة من القيروان وقتلوا جماعة من الشيعة لأنهم كانوا

يتجاهرون بمذهبهم الخبيث فقتلت نساءهم وأولادهم وكانت فتنة بالقيروان من أجل النهب والقتل ، ولجأت طائفة منهم بالجامع في المدينة فقتلوا فيه وكان لا يرى بالقيروان أحد منهم في الطريق إلا ضرب ضرباً عنيفاً وربما قتل وأحرق ، (٢٩) .

وباستعراض الدوافع المختلفة وراء هذه الحادثة يمكننا أن نقول أن كراهية الغالبية العظمى من الشعب المتمسكين بالمذهب المالكي لأفراد الشيعة وهم قلة بالقياس لغالبية الرعية ، وأن هذه الغالبية لم تكن لتستطيع إعلان سخطها أمام حكام الدولة الزيرية التابعين للخلفاء الفاطميين ، فلما تولى المعز ابن باديس وهو صغير السن وخضوعه لمؤدبه المالكي ، وإظهار المعز ميله للمذهب السني عرضاً ، كل هذا أطلق العنان لتلك الجموع الساخطة للانتقام فإذا أضفنا إلى ذلك اندساس كثير من الجند بين جموع الشعب رغبة في السلب والنهب وتراخي حامل القيروان عن اتخاذ موقف ضد هذه الجموع النائرة ، كل هذا أدى إلى تلك المذبحة .

وما لبثت أخبارها أن انتشرت في المدن الأخرى وخرج الناس يقتلون هنا وهناك ، وقد بلغ تعطش العامة إلى الدم أنهم كانوا يفتكون ببعض الناس دون التثبت من شيعيتهم يقول الصفاقسي وتعدت العامة ذلك إلى جماعة من أهل السنة ظننا أنهم من غيرهم فلقد حكى أن العامة جاءت متعلقة برجل اتهموه برأيهم فروا به على شيخ من العامة فسألهم عن تعلقهم به فقالوا نسير به إلى الشيخ أبي علي بن مخلدون فينظر ما يأمرنا به ، فقال لهم الشيخ العاصي اقتلوه الآن فإن كان رافضياً أصبتم وإن كان سنياً جعلتم بروحه إلى الجنة ، (٣٠) .

ويبدو أن المعز بن باديس خشي مضية ترك العامة في ثورتها العارمة تدمر وتقتل فضلاً عن استغاثة الكثير من الأسر الشيعية به لحمايتها من القتل ، ومن ناحية أخرى فما زال المعز بن باديس من الناحية الرسمية كايماً للخلافة

الفاطمية في مصر ، ومنصبه يحتم عليه حماية المذهب الشيعي ، لذا نراه يحاول وضع حد لهذه المذبحة وذلك بقتل زعيم أهل السنة لعل ذلك يكون رادعا وصدا لهذه الجورع المتعطشة للدماء يقول الصفاقسي « فرعب المعز منهم ورأى كسر شوكتهم ، فدبر قتل زعيم أهل السنة وشيخ هذه الدعوة يعني حسن ابن خلدون ، فلما كان يوم الخميس ثاني عشر شوال من السنة المذكورة أتى عامل القيروان مع الشرطة وخيل ورجال إلى مسجد الشيخ أبي علي حسن ابن خلدون البتوي بعد صلاة العصر ... فدخلوا المسجد على الشيخ وهو في مسجده ومعه جماعة من الناس فقتلوا أبا محمد النرياني الفقيه ... ظانين أنه أبو علي فلما عرفوا مالوا على أبي علي بسكاكينهم وجرّدوا جماعة من كان بالمسجد فحمل أبو علي إلى داره وقد وقع فيه ثلاث جراحات إحداها في صدغه أخذت إلى قفاه واثنان في جانبه الأيسر أنفدنا مقاتله وتوفي في داره بعد العشاء ،^(٤١) فهذا التصرف وضع حدا للفوضى التي عمت البلاد ، ومن ناحية أخرى لم تكن الظروف مهيأة بعد لقطع العلاقات رسميا بينه وبين الخلافة الفاطمية في مصر ، ومن ثم كان عليه التظاهر بحماية الشيعة وذلك بالقصاص من كبير أهل السنة والمزعّم لحركة الاضطهاد .

ويبدو أن الظروف الداخلية التي واجهها المعز بن باديس كانت مانعا له من إعلان انفصاله الرسمي عن طاعة الفاطميين ، وبعبارة أخرى كانت الأوضاع الداخلية سببا في تأجيل إعلان انفصاله الرسمي .

وهذه الأوضاع تتمثل في بقايا الشيعة بالبلاد والتي كانت تمثل خطرا قائما باعتبارهم جواسيس للخلفاء الفاطميين ، ويبدو أنهم كانوا يشكلون قوة عسكرية حتى أنهم استطاعوا في سنة ٤٢٣هـ الاستيلاء على منطقة نفطة يقول ابن الأثير « وفيها - أي سنة ٤٢٣هـ اجتمع ناس كثير من الشيعة بأفريقية وساروا إلى أعمال نفطة ، فاستولوا على بلد منها وسكنوه ، فجرد إليهم المعز

عسكرا فدخلوا البلاد وحاربوا الشيعة وقتلوا أجمعين ،^(٤٢) وما سبق نستنتج أن المذبحة الدامية التي حلت بالشيعة لم تحل دون استردادهم لقوتهم فضلا عن استيلائهم على منطقة من مناطق الدولة .

والوضع الثاني يتمثل في حروب زنادة ضد صنهاجة أى ضد السلطة الحاكمة مما سبب اضطرابا وقلقا في أوضاع الدولة . وقد تكررت هذه الاعتداءات مما جعلت السلطة الحاكمة مضطرة لمواجهةها وتوقيها والقضاء عليها ومن ذلك ما حدث في سنة ٤١٥ هـ يقول ابن الأثير : في هذه السنة خرج يافريقية جمع كثير من زنادة فقطعوا الطريق وأفسدوا بقسطنطينية ونفزاوة وأغاروا وغنموا واشتدت شوكتهم وكذا جمعهم ، فسير إليهم المعز ابن باديس جيشا جريدا ، وأمرهم أن يحدوا السير ويسبقوا أخبارهم ففعلوا ذلك وكنتموا أخبارهم وطوروا المراحل حتى أدركوهم وهم آمنون من الطلب فوضعوا فيهم السيف فقتل منهم خلق كثير ،^(٤٣) وتكرر نفس العدوان من زنادة في أعوام ٤٢٠ هـ ، ٤٢٧ هـ ، ٤٢٨ هـ^(٤٤) .

والوضع الثالث يتمثل في خطر الروم وأسطولهم في البحر المتوسط والذي كان يهدد أملاك بني زيري مما جعل بني زيري يوجهون اهتمامهم لحماية ممتلكاتهم وذلك ببناء السفن وتزويدها بمختلف آلات القتال لمواجهة هذه الأخطار وقد تمثل ذلك في عدوان الروم على جزيرة قلورية وامتلاكها يقول ابن الأثير : في هذه السنة - سنة ٤١٦ هـ - خرج الروم إلى جزيرة صقلية في جمع كثير وملسكوا ما كان للمسلمين في جزيرة قلورية وهي مجاورة لجزيرة صقلية ، وشرعوا في بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجمعهم مع ابن أخت الملك ، فبلغ ذلك المعز بن باديس ، فجهز أسطولا كبيرا أربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقا كثيرا وتطوع جمع كثير بالجهاد ... ،^(٤٥) إلا أن هذا الأسطول لم يحقق نجاحا إذ أنه تحطم قبل أن يصل إلى هدفه بسبب رياح شديدة وعواصف مدمرة .

أما الوضع الرابع فيتمثل في خوف المعز بن باديس من قوة الخلافة الفاطمية ، وربما حاولت إرسال جيوش من قبلها للقضاء على سلطته إذا ما حاول خلع الطاعة رسميا وظروفه الداخلية غير مستقرة ولا تساعد على القتال في أكثر من جهة ، لذا نراه يبق أسمائهم . منقوشة على العملة ، وعلى البنود وهو سلوك مناقض لميله الشخصي بمادفع أحد العلماء للاستفسار منه عن هذا التضارب فأجابه معتذرا بخوفه على الحجاج المغاربة المارين بأرض مصر وخشية الاعتداء عليهم من جانب الفاطميين إذا ما هو حاول إزالة أسمائهم من العملة والبنود يقول الصفاقسي ، ولم يبق المعز من آثار بني عبيد الا أسمائهم على السكة والبنود ، فسأله أبو عمران الفاسي على ذلك فاعتذر بالخوف على الحجاج لبيت الله الحرام والمسافرين ، يعني لو أزال ذلك من السكة لأدى إلى اضرار بني عبيد ملوك مصر بالحجاج الواردين عليهم من المغرب والمسافرين إما بقتل وأخذ مال أو منع الطريق أو غير ذلك ، (٤٦) .

هذه الأوضاع المجتمعة حملت على تأجيل اعلان الانفصال الرسمي عن الخلافة الفاطمية في مصر .

ومن ناحية أخرى ما موقف الخلافة الفاطمية من هذه الأحداث والتغيرات التي حلت بإفريقية والتي تصاعدت حتى انتهت إلى هذه المذبحة التي راح ضحيتها الآلاف من أتباع الدعوة الشيعية ؟ ؟

أعتقد أن موقف المعز بن باديس وعدم خلع طاعة الفاطميين رسميا لعب دورا كبيرا في موقف الفاطميين ، وبعبارة أخرى رضى الفاطميون من المعز بن باديس بإبقاء أسمائهم على العملة والبنود ، ولم يحاولوا بشكل رسمي محاربة الزيريين ، وربما كانت الازمات الاقتصادية التي كانت تحل بمصر من الحين إلى الحين مانعا قويا في تجهيز القوات العسكرية لإرجاع الأوضاع في إفريقية إلى ما كانت عليه ، وربما كان من قبيل المصادفة أن

تقع المذبذبة في مدن الدولة الزيرية ضد الشيعة سنة ٤٠٧ هـ ويغلبها في عام ٤٠٨ هـ أزمة اقتصادية بمصر إذ زاد النيل زيادة كبيرة مما أدى إلى فرق كثير من الضياع حتى أن الماء دخل القاهرة مما اضطر معه السكان إلى الفرار منه^(٤٧) ولا شك أن مثل هذه الأزمات العملية تلعب دورها في شغل السلطة الحاكمة ، كذلك كانت هناك أزمة اقتصادية في عامي سنة ٤١٤ هـ ، سنة ٤١٥ هـ . نتيجة عن نقص مياه النيل مما أسفر عنه قلة الآفات وارتفاع في الأسعار وقد وصفها المقرئ بقوله : ومنع الناس من ذبح الأبقار لقلتها وعزت الآفات وقلت البهائم حتى بيع الرأس البقر بمئتين ديناراً وكثر الخوف ، في ظواهر البلد واضطرب للناس ، وتحدث زعماء الدولة بمصادرة التجار ، فاختلاف بعضهم على بعض وكثر ضجيج العسكر من الفقر والحاجة فلم يجابوا وتماسد الزعماء^(٤٨) ، ولا شك أن هذه الأزمات المتكررة كانت مانعاً من التفكير في تجهيز حملة وما يصحب ذلك من نفقات وأموال ، يضاف إلى ذلك انشغال الخلفاء الفاطميين منذ مجيئهم إلى مصر بأحداث المشرق ومواجهة الخلافة العباسية والأوضاع المتقلبة في الشام مما جعل هذه المنطقة هي الفصل الداخلي للخلفاء الفاطميين .

ومن ثم وجدنا العلاقة بين الفاطميين والزيريين تأخذ طابعها المعتاد من تبادل الهدايا والرسائل^(٤٩) يقول المقرئ : وفي سنة عشر وأربعمائة سهر الحاكم بأمر الله أبا القاسم بن يزيد إلى شرف الدولة الحاكمة أبي تميم المعز ابن نصير الدولة أبي مناد باديس ومعه سيف مكل بنفيس الجواهر وخلاعة من لباس ، فقدم المنصورية ليست بقرين من صفر سنة إحدى عشرة وتلقاه شرف الدولة ونزل إليه فقرأ عليه سجلاً عظيماً فكانت أيام فرح ، ثم ورد بعده محمد بن عبد العزيز بن أبي كدينة بسجل آخر ومعه خمسة عشر علماً منسوجة بالذهب فخلع على أبي القاسم ومحمد وحملوا وطيف بهما في القهروان والأعلام المذكورة بين أيديهما^(٥٠) .

وقد تمادى الحاكم في استرضاء ابن باديس ورعيته فعين فقيهين مالكيين لتدريس المذهب المالكي وهو يخالف مذهب الدولة الرسمي يقول أبو المحاسن د ولما أرسل إليه ابن باديس يشكر عليه أفعاله ، أراد استمالته فأظهر التفقه وحمل في كنه الدفاتر وطلب إليه فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع ، (٥١) ويبدو أن الخلافة الفاطمية أدركت أن هذا التصرف لم يجد صدقاً طيباً لدى ابن باديس فضلاً عن أنه ضد مذهب الدولة ومعتقداتها الشعبية لذا نرى الحاكم يأمر بقتلها (٥٢) .

وقد اختلف الظاهر الفاطمي سياسة والده الحاكم في مصانعة ابن باديس أو بعارة ابن خلدون د أغضى عنه الظاهر ، (٥٣) وسارت العلاقات في مسارها التقليدية من تبادل للهدايا والرسائل (٥٤) يقول ابن عذارى د وفي هذه السنة — سنة ٤١٤ هـ — وصل محمد بن عبد العزيز من قبل الظاهر أمير مصر بتشريف عظيم لشرف الدولة ، فقرئت به سجلات ما وصل قبلها مثلها أجل حالاً ولا أهل مقالا ، وزاده لقباً إلى لقبه فسماه شرف الدولة وعضدها وبشره بمولودين ولداً له : أبو الطاهر وعبد الله أبو محمد وبعث إليه بعد ذلك ثلاثة أفراس من خيل وكوبه بمسروج جميلة وخلاعة نفيسة من نفيس ثيابه ، ومنحوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة ، مداخل أفريقية مثلها قط وعشرين بنداً مذهبة مفضضة ، فلقيها شرف الدولة وعضدها أجل لقاء وأعطاهما حقها من الإكرام والاعتناء ، وقرئت السجلات بين يديه ، ثم قرئت بجامع القيروان وأمر بنسخها وأنفذت إلى الأفاق ، فكان لها من السرور ما لا يوصف ، وبعد ذلك في هذه السنة ، وصله سجل آخر بزيادة لقب آخر تشريفاً لشرف الدولة وأمر أن يكتب د من الأمير شرف الدولة وعضدها ، ويخاطب مثل ذلك ، فلقيه أحسن لقاء وخلع عليه وحمله ، وجرت المكاتبه من ذلك الوقت بهذا التشريف الجليل ، (٥٥) .

إلا أن هذه العلاقات التقليدية بين الممزن بن باديس وخلفاء الفاطميين لم

ثمّنع من اتّخاذ خطوة أكثر جرأة في سبيل الاستقلال التام عن الفاطميين ، وخاصة إذا كان هناك سلوك عملي من جانب الرعية في نبذ المذهب الشيعي والتمسك بالمذهب المالكي ، وقد تمثّل ذلك السلوك في مقاطعة أهل القيروان صلاة الجمعة بالمساجد باعتبارها تمثّل المذهب الرسمي للدولة وهو المذهب الشيعي ، يقول ابن عذاري « لما رحل بنو عبيد إلى مصر لم تزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بأفريقية ويذكرون أسماؤهم على المنابر وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم وتبديعاً لإقامتها بأسمائهم ، فكان بعضهم إذا بلغ المسجد قال سرّاً : اللهم أشهد ، اللهم أشهد ثم ينصرف فيصلي ظهراً أربعاً إلى أن تنقضى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد فتعطّلت الجمعة دهرأ ، (٥٦) .

هذا المسالك العملي من أهل القيروان وغيرها من مدن إفريقية دفع المعز ابن باديس للتفكير عملياً في اتّخاذ خطوة أكثر ارتباطاً بالسلطة السنية الممثلة في الخلافة العباسية بيزداد تقرباً لرعيته وتحقيقاً لميوله السنية .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ إقامة الدعوة العباسية على منابر القيروان وغيرها من مدن الدولة الزيرية ، فبعضهم يذكر أن إقامة الخطبة للدولة العباسية تم في سنة ٤٢٢ هـ (٥٧) وبعضهم أرخ ذلك بعام سنة ٤٣٥ هـ (٥٨) بينما أشار ابن خلدون إلى أن ذلك تم في سنة ٤٣٧ هـ (٥٩) . ويبدو أن هذا الاختلاف يرجع إلى خلط بعض المؤرخين بين حادثتين منفردتين الأولى الاتصال بالخلافة العباسية وإقامة الخطبة لها واعتقد أن هذا تم في سنة ٤٣٥ هـ استناداً لما رواه بعض المؤرخين والحادث الثاني هو لعن الفاطميين واستبدال العملة وهو كل ما يتعلق بالخلافة الفاطمية وهذا بدأ في سنة ٤٤٠ هـ (٦٠) .

وسياسة التدرج هذه هي التي سار عليها المعز بن باديس منذ أن تولى الحكم ، فلقد أوقع بالشيعة في مذبحه كبيرة سنة ٤٠٧ هـ ثم بدأ يتعقب الشيعة

في كل مكان ، ولم يخلع طاعة الفاطميين مرة واحدة متمللاً بخوفه على الحجاج
المغاربة من بطش الفاطميين بينما كان يرسل سراً الخلافة العباسية (٦١) وأثمرت
هذه الاتصالات في عام سنة ٤٣٥ هـ ، الخطبة للخليفة العباسي دون التعرض
للخلفاء الفاطميين بالسب أو اللعن .

وحتى يستكمل مظاهر الارتباط الرسمي بينه وبين الخلافة العباسية وجه
رسولا من قبله إلى بغداد ليأنيه بالعهد واللواء ، ورحبت الخلافة العباسية
بهذه الخطوة الجديدة باعتبارها موجهة أساساً لأعدائها الفاطميين في مصر
فضلاً عن استرجاع الخلافة العباسية بعض مظاهر السيادة الإسمية على مناطق
انفصلت منذ فترة بعيدة ، وأرسل العهد واللواء مع مبعوث الخلافة العباسية
وهو غالب الشيرازي إلا أن الحظ لم يحالفه فوقع في قبضة الروم أصدقاء
الفاطميين في مصر ، ولم تنجح المحاولات التي بذلت في الإفراج عن المبعوث
العباسي ، وأرسل إلى القاهرة حيث أحرق العهد واللواء ، وطيف به في
شوارع القاهرة يقول المقرئى « وجهزت الخلع على يد رسول يقول له
أبو غالب الشيرازي ومعه العهد واللواء الأسود فربلاد الروم ليعدى منها
إلى أفريقية ، فقبض عليه صاحب الروم وبلغ ذلك المعز بن باديس فأرسل
إلى قسطنطين ملك الروم في أمره فلم يحبه رعاية لحق المستنصر ... وانفق
قدوم رسول المستنصر إليه بهدية عظيمة فبعث معه رسول القائم بما على يده ،
فدخل إلى القاهرة على جمل وأحرق العهد واللواء والحديدية في حفرة بين
القصرين ، (٦٢) .

ولاشك أن ما حدث برسول الدولة العباسية لبني زيري في إفريقية ،
ونجاح الفاطميين في التكيل به أغضب ولاية الأمر في كل من بغداد
والقيروان ، ومن ثم وجدنا الخلافة العباسية تعلن سلاح التشكيك في نسب
الفاطميين وتعقد المجالس والمؤتمرات للطعن في نسبهم ونفي نسبتهم إلى
إلى الإمام علي بن أبي طالب وقد أشار ابن الأثير إلى أن هذا التهجير حدث

في سنة ٤٠٢ هـ في هذه السنة كتب ببغداد محضر يتضمن القدر في نسب العلويين خلفاء مصر، (٦٣) إلا أن المقرئ يذكر ذلك في تاريخ متأخر بين سنتي سنة ٤٤٣ هـ ، سنة ٤٤٤ هـ ويذكر صراحة أن ذلك حدث من الخلافة العباسية رداً على ما صنعت به رسولها إلى بني زيري في القيروان يقول المقرئ فيها - سنة ٤٤٤ هـ - كتبت ببغداد محاضر تتضمن القدر في نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الالتحاق بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وجمع سائر أعيان الفقهاء ببغداد وأشرفها وقضاتها وعروا نسبهم في الديصانية من المجوس ، وسيرت المحاضر إلى البلاد وشنع عليهم تشنيع كبير وسبب ذلك الغضب ما عمل مع الرسول المرسل من المعز بن باديس ، فإنه لما شهر بالقاهرة على جبل مقلوب ، وكتاب العقد في عنقه والهدية بين يديه ، ثم أحرقت الخلع والنقيلد ، (٦٤) ولا يمنع تكرار حادث التشهير إذ أن فيه متنفساً للعباسيين وهجوماً شديداً على الفاطميين خلفاء مصر .

أما بنو زيري في القيروان فقد اتخذوا موقفاً حاداً وذلك بلعن الفاطميين على المنابر والدعاء للعباسيين ، يقول ابن عذارى « وأمر المعز بلعنهم في الخطب وانهم ، كان عبد الأضحى ، أمر الخطيب أن يسب بني عبيد فقال : اللهم والعن الفسفة الكبار المارقين الفجار أعداء الدين وأنصار الشيطان المخالفين لأمرك والمناقضين لعهدك ، المتبعين غير سبيلك ، المبدلين لكتابك ، اللهم والعنهم لعناً وبيلاً وأخوهم خزيًا عريضاً طويلاً ، اللهم وأن سيدنا أبا تميم المعز بن باديس المنصور القائم لدينك والناصر لسنة نبيك والرافع للواء أوليائك يقول مصداقاً لكتابك وقابلاً لأمرك ، مدافعاً لمن غير الدين ، وسلك غير سبيل الراشدين المؤمنين يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، هكذا ذكر باسقاط ، قل « وآخرها : قال الأمير أبو تميم المعز بن باديس أن يسبهم على منبر القيروان بأشنع من هذا السب فلما كان في الجمعة الأخرى أبلغ ذلك بما فيه شفاء لنفوس المؤمنين (٦٥) .

ولا شك أن لعن الفاطميين على منابر إفريقية يعد بمثابة قطع للعلاقات بين بنى زيرى والفاطميين ، وإعلان صريح بكرامية بنى زيرى للفاطميين .
وانبع المعز بن باديس لعنهم على المنابر بسلسلة من الإجراءات لدعم استقلاله وارتباطه بالخلافة العباسية وفي نفس الوقت إزالة كل ما يتعلق بالمذهب الشيعي ، فبدأ بهدم دار الاسماعيلية باعتبارها مركزاً لنشر الدعوة الفاطمية بالبلاد^(٦٦) ، ثم أمر بتغيير ملابس رجال الدولة وصبغها باللون الأسود رمز الارتباط بالعباسيين ، يقول ابن عذارى « أمر المعز بن باديس بإحضار جماعة من الصباغين وأخرج لهم ثياباً بيضاء من فندق الكتان وأمرهم أن يصبغوها سوداً فصبغوها بأحلك السواد ، وجمع الخياطين فقطعوها أثواباً ثم جمع الفقهاء والقضاة إلى قصره وخطبى القيروان وجمع المؤذنين وكساهم ذلك السواد ، ونزلوا بأجمعهم ، وركب السلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان ، ثم صعد الخطيب المنبر ، وخطب فيها خطبة أتى فيها على جميع الأمر ، بأجزل لفظ وأحسن معنى ثم دعا لأبي جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسي ودعا السلطان المعز بن باديس ولولده أبي الطاهر تميم ولي عهده من بعده ثم أخزى بنى عبيد الشيعة ولعنهم^(٦٧) ، وفي نفس الوقت غير البنود والأعلام وجعلها سوداء اللون .

أما العملة وكانت مظهراً من مظاهر ارتباطه الوثيق بالفاطميين ، فأمر بتغييرها وإزالة أسماء بنى عبيد ونقش عليها : ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وفي الوجه الثاني : لا إله إلا الله محمد رسول الله^(٦٨) وأمر بسبك جميع النقود وتحويلها إلى العملة الجديدة وهدد بالعقاب الشديد كل من وجدت لديه عملة منقوش عليها أسماء الفاطميين^(٦٩) .

وقد دعم موقف بنى زيرى في القيروان مساندة إخوانهم في برقة وكانوا

يتبعون مباشرة لحكم الخلافة الفاطمية في القاهرة ، إذ أعان أميرها جبارة ابن مختار العربي تأييده لموقف المعز بن باديس وخلعوا طاعة الفاطميين ولعنوهم على منابرهم ، يقول ابن عذارى « وصلت إلى القيروان مكتابة من الأمير جبارة بن مختار العربي من برقة بالسهم والطاعة للمعز بن باديس وأخبر أنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يدعى عليها للعبودية وأحرقوا راياتهم وتبرءوا منهم ولعنوهم على منابرهم ودعوا للقائم بأمر الله العباسي ،^(٧٠) ولا شك أن هذا الموقف دعم للدولة الزيرية وفي نفس الوقت تهديد مباشر للدولة الفاطمية وحدودها الغربية .

وقد حاولت الخلافة الفاطمية من جانبها إرجاع العلاقات إلى ما كانت عليه تارة بالترغيب وتارة بالتهديد^(٧١) ، إلا أنها فشلت في ذلك ، وساعد على تطور الأحداث ظهور شخصية اليازوري الوزير الفاطمي على مسرح الأحداث ، تلك الشخصية التي استطاعت أن تصل إلى منصب الوزارة ، وأن يقبض بيده على مقاليد الأمور ، إذ كان وزيراً وقاضياً للقضاة ومقرباً على الدعاة ، وهذا ما لم يحدث لأحد من قبله كما يقول ابن خافر^(٧٢) .

تولى اليازوري الوزارة سنة ٤٢٢ هـ^(٧٣) وذلك بعد محاولات ذكية في التقرب من أم المستنصر حتى وثقت به واستطاع أن يصل إلى هذا المنصب وأن تطلق عليه الكثير من الألقاب ، يقول المقرئ « ولقب بالوزير الأجل المكين ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضي القضاة ، وداعي الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين ، وقد بلغ من مكانته وعظم نفوذه أن طالب منه الخليفة المستنصر الفاطمي أن ينقش اسمه معه على السكة فكان يكتب عليها :

صرفت في دولة آل الهدى من آل طيه وآل ياسين

مستنصر بالله جل اسمه وعبد الناصر للدين (٧٥)

هذه المسكاة والمنزلة الرفيعة في البلاط الفاطمي جعلت اليازوري لا يقبل
اللهجة التي خاطبه بها المعز بن باديس ، ويبدو أنه برغم العداء الشديد بين
الزبريين في القيروان وبين الفاطميين في مصر ، إلا أنه كانت هناك مكاتبات
تحدث بين الطرفين ومن ثم وجدنا المعز بن باديس يحاول التقليل من شأن
الوزير الفاطمي حين كتب إليه واصفاً إياه « بصنيعته » بدلاً من أن يصفه
« بعبد » (٧٦) كما جرت العادة بذلك ، وقد أحدث هذا الخطاب أثراً سيئاً
في نفس الوزير مما دفعه إلى مقابلة أبي القاسم بن الأخوة بمثل ابن باديس
بالقاهرة وحله رسالة عتاب ولوم يقول المقرئ « فاستدعى الوزير
أبا القاسم بن الأخوة وكيل بن باديس بمصر وعتب صاحبه عنده وقال :
أظن معزاً يتقصني عن تقدمي إذا لم أكن من أهل صناعة الكتابة ، وإن لم
أكن أوفى منهم فما أنا دونهم ، ومن رفعه السلطان ارتفع وإن كان خاملاً ،
ومن وضعه اتضع وإن كان جليلاً نبيلاً ، فاكذب إليه بما يرجعه إلى
الصواب » (٧٧) ، هذا العتاب من جانب اليازوري لم يجد استجابة لدى المعز
ابن باديس بل إن عيسون اليازوري في بلاط ابن باديس نقلت ما قاله
ابن باديس في رده على الرسالة : ما الذي يريد مني هذا الفلاح ، لا كنت
عبد ولا كان ، هذا لا يكون أبداً وما كتبت إليه فكثير (٧٨) ، وقد حاول
اليازوري من حانبه استخدام سلاح التهديد والاغتيال حتى يمنع المعز من
الاستمرار في استهزائه وسخريته وعداوته ، يقول المقرئ « فذم إليه
الوزير من تطف في أخذ سكين دواته فلما وصلت إليه أحضر ابن الأخوة
وقال له : كنت أظن بصاحبك أن الذي حمله على ما كان منه ثورة الشبيبة
وقلة خبره بما تقضي به الأقدار ، وإنه إذا نبه تنبه ، فإذا الجمل مستول
عليه ، وظنه أن بعد المسافة بيننا وبينه يمنع من الاتصاف منه والوصول
إليه بما يكره ، وقد تاملنا في أخذ سكين دواته وما هي ذي فأنفذنا إليه

وأعلمه ، أنا كما تطفنا في أخذها أنا تطاف في ذبحه بها ، ودفعها إليه
فكتب ابن الأخوة بذلك ، فازداد شراً و بطراً ففس عليه من أخذ نعله ،
وكان يمشى في الأحذية السندية فلما وصلت إليه أحضر ابن الأخوة وقال له :
أكتب إلى هذا البربري الأحق وقل إن عقلت وأحسنيت أدبك ، وإلا جعلنا
تأديك بهذه فجرى على عادته في القول القبيح ، (٧٩) .

ومن هذا النص نستنتج إخفاق اليازوري في منع المعز بن باديس من
الاستمرار في عدائه له فضلاً عن السخرية منه والاستهزاء به ، ومن ثم
بدأ يفكر في اتخاذ خطوة أكثر حمماً وقمماً ، وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار
أن الخليفة الفاطمي لم يتخذ إجراء حاسماً ضد ابن باديس وما قام به من عداء
سافر ضد الشيعة والمذهب القبيح في أفريقية ولعنه للخلفاء الفاطميين على
منابر مدن الدولة الزيرية فضلاً عن تقربه الظاهر للخلافة العباسية ، كل
هذه العوامل مجتمعت دفعت الوزير الفاطمي إلى اتخاذ إجراء جديد .

ولم يكن هذا الإجراء سوى تشجيع القبائل الهلالية على التوجه إلى
القيروان وإطلاق العنان لها في التدمير والتخريب وامتلاك كل ما يقع تحت
سيطرتها . وهو بذلك يحقق عدة أهداف فمن الناحية الشخصية سوف
يحقق انتقامه من المعز بن باديس ودولته حين يواجه هذه الجموع الكبيرة
والمعروفة بوحشيتها وقسوتها والأثر المدمر الذي سوف تتركه هذه الجموع
في المغرب الأدنى ، ومن الناحية الرسمية فهو انتقام للدولة الفاطمية من
المعز بن باديس تابع الأمس والعدو الآن . ومن ناحية أخرى فإن هذا
الإجراء لن يكلف الدولة ما تكلفه الجيوش عادة عند خروجها للغزو فضلاً
عن التخلص من هذه القبائل الهلالية ذاتها إذ أنها كانت تشكل مصدر إزعاج
وقلق للسلطة الحاكمة في القاهرة .

وقد أشار اليازوري بهذه الفكرة على الخليفة المستنصر الذي استمع إليها ،

ومن ثم بدأ التنفيذ وأخذ اليازوري يعاونه أحد أمراء الدولة وهو الوزير
مكين الدولة أبا علي الحسن بن علي بن ملهم ابن دينار العقيلي في الإصلاح
بين قبائل زغبة ورياح وغيرها من القبائل ، وحملت الأموال إلى مشايخ القبائل
وفرضوا لكل عربي منهم دينارا وبعيرا (٨٠) ، وكان الأمر صريحا لهؤلاء
الأعراب بامتلاك كل ما يستولون عليه يقول ابن خلدون : وقال لهم :
قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي الأبق فلا تفتقرون ، (٨١)
وفي نفس الوقت بعث برسالة إلى المعز بن باديس تحمل في طياتها نذرا لخطر
والشر يقول فيها : فقد أنقذنا إليكم خيولا فحولا ، وأرسلنا عليكم رجالا
كهولا ليقتضي الله أمرا كان مفعولا (٨٢) .

ويبدو أن هذا التصرف من جانب الخلافة الفاطمية تجاه العرب الهلالية
صادف ترحيبا وقبولا حسنا إذ انطلقوا لتحقيق أطماعهم وآربهم في هذه
المنطقة ، وكان النجاح الذي حققوه دافعا لإخوانهم في مصر على إعلان
رغبتهم في الانضمام إلى إخوانهم وأبناء عمومتهم من الأعراب المشاركة في
المكاسب الجديدة ، ومن ثم وجدنا الخلافة الفاطمية تحاول تعويض
ما أنفقته من قبل على تلك الجوع وذلك بفرض رسوم على كل من يرغب في
العبور والاتجاه غربا إلى إفريقية يقول ابن أبي دينار : فلما وصلوا إلى إفريقية
عاثوا فيها كيف شاموا ، وملئت أيديهم من النهب فتسامعت بنو عمهم بذلك
فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم من ذلك إلا أن يعطوه شيئا من أموالهم
فأخذ منهم أضعاف ما أعطاه لبني عمهم ، (٨٣) .

سارعت القبائل العربية متجهة نحو غايتها في السلب والنهب ووصات
مدينة برقة ولم تجد كبير عناء في الاستيلاء عليها إذ أن كثيرا من سكانها من
قبائل زلانة قد هلكوا في حروبهم ضد المعز ، ومن ثم صارت برقة
وما حولها لقمة سائغة للعرب الهلالية (٨٤) ، وبدأت القبائل تنقسم المناطق

الشرقية بينما استأثرت بعض قبائل بني هلال بالمناطق الغربية، وانجذبت جموع
دياب وهرق وزغب وبقية بطون هلال إلى إفريقية يدمرون كل شيء
كدن إجدابية وسرت وغيرها من المدن والقرى (٨٥) .

وفي محاولة من جانب المعز بن باديس لصد ذلك الزحف الكبير حاول
استمالة أحد زعماء قبائل رياح وهو مؤنس بن يحيى الرياحي الذي أقبل على
لقاء المعز فوجد منه التكرم والترحيب كما أنه زوجه ابنته رغبة في توطيد
العلاقة بينهما، وتشير بعض الروايات إلى أن المعز بن باديس عرض على
مؤنس أن يمدّه بإخوانه من أبناء القبائل العربية لاستخدامهم كجند له بدلا
من جند صنهاجة لعدم ثقته بهم، لكن هذا العرض لم يجد استجابة لدى
مؤنس الرياحي وبين له أن ذلك ضد طبيعة هؤلاء العرب إذ أنهم مبالون
للفوضى وعدم التقيد بأوامر ونظام معين (٨٦) .

وهذه الرواية تحمل في طياتها بذور الشك إذ كيف يستعين المعز
ابن باديس بأعدائه الذين انطلقوا من مصر للقضاء على دولته ١٤ وكيف
يأمن لهم بعد أن بلغه ما فعله هؤلاء الأعراب بالمناطق التي حلوا بها ١٤
ليس هناك تفسير لصحة هذه الروايات إلا محاولة يائسة من جانب المعز
بن باديس في احتواء هذه الجموع والهيمنة عليها ومن ثم إخضاعها لسيطرته
وتفوقه

ويبدو أن هذه الجموع بعد أن استولت على برقة وطرابلس بدأت
تخطط لتحركاتها المقبلة وكان الهدف الذي يسمون إليه في هذه المرحلة هو
الاستيلاء على القيروان وقد ظهرت خطتهم واضحة في ذلك الحوار الذي دار
بين مؤنس المرداسي وبين رؤسائهم والتي أوردها ابن الأثير بقوله «وكانت
عرب رغبة قد ملكت مدينة طرابلس سنة ست وأربعين وأربعمائة فتتابع
رياح والانبج وبنو هدي إلى إفريقية، وقطعوا السيل وهاثوا في الأرض
وأرادوا الوصول إلى القيروان فقال مؤنس بن يحيى المرداسي: ليس المبادرة

عندى برأى ، فقالوا : كيف تحب أن تمنع ؟ فأخذ بساطاً فبسطه ثم قال لهم : من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشی عليه ؟ قالوا : لا نقدر على ذلك ، قال : فهكذا القهروان ، خذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القهروان نفذوها حينئذ . فقالوا : إنك لشيخ العرب وأيدها وأنت المقدم علينا ولسنا نقطع أمراً دونك ، (٨٧) وهكذا أوضح مؤنس الخطة المثلى في الاستيلاء على القهروان وذلك بتخريب ما حولها وبذلك يسهل الاستيلاء عليها .

ويبدو أن المعز بن باديس لم يدرك منذ اللحظة الأولى مدى خطورة هذه الجموع والأضرار التي ستحدثها في المنطقة واكتفى بتكريم أمراء العرب والتودد إليهم (٨٨) ولم يتخذ للأمر تدبيره . ومن ثم سار العرب الهلالية في تنفيذ خططهم من قطع للطرق وتدمير للقرى والمدن وإشاعة الفوضى والخراب في كل مكان يحلون به حتى ضج الناس بالشكوى وعلت صرخاتهم ونزل بهم من البلاء ما لم يروه من قبل (٨٩) .

وإزاء هذا الخطر وجدنا المعز يجهز قواته من زناتة وصنهاجة وعبيدة وأتباعه حتى بلغ تعداد جنده ثلاثين ألف مقاتل ، وكان اللقاء بينه وبين جموع العرب الهلالية ، وبزخم قلة جند العرب الهلالية والذي لم يتجاوز ثلاثة آلاف فارس (٩٠) ، إلا أن الهزيمة حلت بالمعز وجنوده وقتل الكثير من جنوده . وكانت الهزيمة نتيجة طبيعية لجيش يحمل بين جوانبه عوامل الانكسار ، فقبائل زناتة لم تفس أحقادها بالأمس وما فعله المعز بمضاربها وأفرادها ، أما قبائل صنهاجة فقد فر أفرادها من أرض المعركة لإحراج المعز الذي اعتمد على العبيد واستند إليهم في حكمه ، وإشعاره بمدى أهمية قبائل صنهاجة بالنسبة لحكمه (٩١) يضاف إلى ذلك انضمام العرب بجيش المعز إلى إخوانهم العرب الهلالية بحكم العصبية والنسب (٩٢) ولم يثبت معه في أرض المعركة إلا العبيد وحرسه الخاص أولئك الذين دافعوا دفاعاً مجيداً عن المعز وألقوه من القتل واستطاع الدخول إلى القهروان بعد أن ترك

معسكره وغنم العرب الهلالية مغانم كثيرة يعير إليها ابن هذاري بقوله
« ودخل العرب معسكر المعز السلطان ، لحازوه وفيه من الذهب والفضة
والأمثلة والأسباب والآثاث والخف والكراع ما لا يعلم عدده إلا الله ،
وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال نحو خمسة
عشر ألفاً . ومن البغال مالا يحصيه قول فخر الدين بن الجند فقال
فما فوقه ، (٩٣) .

هذه الهزيمة الشنعاء التي حلت بمعسكر المعز بن باديس لم تمنعه من
تكرار محاولة صد الأعراب وطردهم من بلاده ، إلا أن الحظ غانه ولم
يحقق نصراً ، ومن ثم لجأ إلى سلاح آخر وهو مهادنتهم والتقرب إليهم ،
لذا وجدناه يسمح لهؤلاء الأعراب الذين اتخذوا من أرباض القيروان
مرتما خصباً لهم ، سمح لهم بدخول المدينة للشراء والبيع ، وهذه الخطوة
الطيبة من جانب المعز بن باديس لم تثمر النتيجة المرجوة منها إذ دخل العرب
الهلالية مدينة القيروان ، وأساءوا إلى سكان المدينة مما أحدث شغباً
واضطراباً بالمدينة (٩٤) .

وفي محاولة يائسة من جانب المعز في حماية القيروان ، أدار عليها موراً
سنة ٤٤٦ هـ وفي نفس الوقت أمر السكان من الأطفال والنساء والشيوخ
بالانتقال منها إلى المدينة — المدينة الحصينة — حتى يجدوا في ظلها الأمان
والحماية (٩٥) ، إلا أن هذه المحاولات اليائسة لم تمنع القيروان من مصيرها
المحتوم ، إذ أن العرب كانت تقاوم بوحشية ولم ترحم طفلاً ولا امرأة وقد
أعطانا ابن هذاري وصفاً بشعاً للأعمال التي ارتكبها العرب في ضواحي
القيروان يقول : قال ابن شرف : أخبرني من أثق به ، قال : خرجت من
القيروان وسرت ليلاً ، فكنت أكن النهار ، فلم أمر بقرية إلا وقد سحقت
وأكلت ، أهلها عراة أمام حيطانها من رجل وامرأة وطفل يبكي ، جميعهم
جوعاً وبردأ ، وانقطع السير عن القيروان وتعطلت الأسواق وأمسك العرب

جميع من أسروه ، فلم يطلقوا أحداً إلا بالفداء مثل أسرى الروم ، وأما الضملاء والمساكين فأمسكهم لخدمتهم ، (٩٦) .

وباتقال المعز بن باديس إلى المهديّة ومعه جنوده وحرسه أصبحت القيروان تحت رحمة العرب الهلاليين الذين وأصلوا الإغارة على ضواحي القيروان وأبرابها لعلهم يتفقدون إليها ، وأما من بقى داخل المدينة فكان يدافع عن أبرابها دفاع المستميت ، دفعا للصير المحتوم .

وقد أعطانا ابن عذارى تصويراً دقيقاً للحالة السيئة التي وصل إليها المدافعون عن القيروان من قلة في السلاح والعتاد يقابلها في الجانب الآخر وفرة في السلاح والعتاد ، فضلاً عن رغبات جامعة في السلب والنهب يقول ابن عذارى ، وذلك أن العرب دفعت إلى هذا الباب (باب تونس) فخرج إليهم العامة ، منهم بسلاح ومنهم من بيده عصا لا يدفع بها أضعف الكلاب ، لحملت عليهم فرسان العرب وتمسكت منهم سيوفهم ورماحهم فتساقطوا على وجوههم وجنوحهم وسطحهم من حد أفران الأجر إلى هذا الباب ، ولم يبق منهم إلا من حصنه أجله ، ولم يتركوا على حي ولا ميت خرقه تواريه ، وخرج أهل القنلى عند انصراف العرب ، فرفعوا قتلام ، فقامت النوائح والنوادر بكل جهة ومكان من أزقة القيروان ، تتصدع لمنظارها وسماها الجبال ، وبقى خلق من الفسرياء في المقتلة وجرح من الناس خلق كثير ، ورأى الناس ما أذهمهم من قبيع تلك الجراحات فتفتتت الأكباد وذابت القلوب والأجساد ، لبنيات قدسودن وجروهم وحلقن رؤوسهن على آبائهن وإخوانهم فكان هذا يوم مصائب وأنكاد ونوائب ، ولم ير الناس مثله في سائر الأمصار فيما مضى من الأعصار ، (٩٧) .

وخلت المدينة تعاني من الهجمات المتكررة حتى سقطت في سنة ٤٤٩ هـ ودخلها الأعراب يملون فيها سيوفهم ورماحهم ، ويخربون بيوتها ويمدهون مبانها ويستولون على كل ما يقع تحت أيديهم (٩٨) .

وهكذا سقطت مدينة القيروان ، تلك المدينة العريقة التي اختطها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ لتكون القاعدة والمنطلق لنشر الإسلام ، واستطاعت المدينة في فترة وجيزة أن تلعب دورها الحضارى في نشر الإسلام وإرساء قواعد الحضارة العربية ، وقصدها العلماء من كل مكان ، وأضاءت بين جنباتها معمار العلم والمعرفة طيلة أربعة قرون .

ومن ناحية أخرى فقد رحبت الخلافة الفاطمية في القاهرة بتلك النتائج الطيبة التي حققها العرب الهلاليون بإفريقية ، وكانت المراسلات لا تنقطع بين الهلاليين في إفريقية وبين الخلافة الفاطمية ، يظهرونهم بما يحرزوه من نصر ، والخسائر والهزائم التي حلت بآبن باديس (٩٩) ، يضاف إلى ذلك أن بعض ذخائر وتحف آبن باديس وصلت إلى القاهرة ، واجتمع الناس لمعايشتها كرمز لانتصار الخلافة الفاطمية على أعدائها وعلى من تحدته نفسه بمعاداتها والخروج عليها ، يقول المقرئى : « فخرت القيروان حينئذ إلى اليوم . . . ووصل كثير مما نهب من قصور بنى باديس من الأسلحة والعدد والآلات والخيام وغيرها إلى القاهرة ، فكان ليوم دخولها إلى القاهرة أمر عظيم من اجتماع الناس ، واعتبار أهل البصائر بتقلب الأحوال » (١٠٠) .

ولم يمكث المعز بن باديس بعد سقوط القيروان والكثير من مدن دولته ، إذ توفي سنة ٤٥٣ هـ بالمهدية بعد أن بذل الكثير في سبيل الحفاظ على دولته .

وباستعراض ما أحدثته الغزو الهلالي بالمنطقة ، نجد أن هذا الغزو ترك بصمات واضحة على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويمكننا أن نعملها فيما يلي :

أولا : الناحية السياسية :

أن المغرب الأدنى الذي كانت تجمعه وحسدة واحدة ويخضع لحكم الزيريين ، مزقه العرب الهلاليون إلى إقطاعات ومناطق تتحكم فيها القبائل الغانية بعد أن اقتسمت المناطق فيما بينها ، وهذا يعني انهيار الحكم الزيري للمنطقة ، وبالرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها المعز بن باديس ، إلا أنه سقط نهائياً تحت ضربات الهلاليين .

وأصبح العرب يشكلون قوة عسكرية لها خطرهما ، تسعى وراء مصالحها وأهدافها ، ومن ثم وجدنا القبائل العربية تتحالف مع أكثر من جهة تحقيقاً لأطماعها ، فوجدناهم يقاتلون في صف تميم بن المعز بن باديس الذي خلف والده في حكم ما تبقى من الدولة الزيرية ، وجدناهم يحاربون ضد أحد الخارجين على تميم وهو حمد بن مليك وهذا بدوره استعان بالعرب الهلالية ضد تميم ابن المعز ، يقول ابن الأثير : في هذه السنة — سنة ٤٥٤ هـ — خالف حمد ابن مليك ، صاحب مدينة صفاقس بأفريقية ، على الأمير تميم بن المعز بن باديس ، فجمع أصحابه واستعان بالعرب وسار إلى المهدي فسمع تميم الخبر ، فسار إليه بعساكر ومعه أيضاً طائفة من العرب من زغبة ورياح ، ووصل نحو إلى سلفطة ، والتقى الفريقان بها ، وكانت بينهما حرب شديدة فانهمز نحو ومن معه ، وأخذتهم السيوف ، فقتل أكثر حماته وأصحابه ونجا بنفسه وتفرقت رجاله ، وعاد تميم مغفراً منصوراً ، (١٠١) .

وهكذا حاربت القبائل الهلالية بعضها البعض ، واعتقد أن مصالحها المادية هي التي كانت تحرك خطواتها .

وامتد تأثيرهم السياسي حتى وصل إلى المغرب الأوسط ، ووجدنا أسراء بني حماد يدفعون خطرهم وأذاهم بإعطائهم نصف غلات البلاد وهو مقدار كبير ، وهذا يعني أنهم كانوا يقتسمون ثروات البلاد ، يقول المراكشي

« وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المنتصر ، فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من تمرها وبرها وغير ذلك ، فأقاموا على ذلك باقى أيامه ، وأيام ابنه الملقب بالعزى ، وأيام يحيى ، (١٠٢) ولا شك أن هذا الموقف من جانب بنى حماد يعنى عدم قدرتهم على صد هذه القبائل والوقوف ضدها .

حتى إذا قامت الدولة الموحدية بالمغرب الأقصى سنة ٥٤١ هـ ، وجدنا عبد المؤمن بن على ، خليفة الموحدين يخوض الكثير من المعارك ضد العرب الهلاليين فى المغربين الأدنى والأوسط باعتبارهم يشكلون خطراً على ممتلكات دولة الموحدين التى امتدت حتى طرابلس شرقاً . وكانت أولى هزائمهم أمامه حين توجه إلى المغرب الأوسط ، وبعد استيلائه على بجاية سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م . دخل فى معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم ونقل نسائهم وأبنائهم إلى مراکش (١٠٣) .

وكان الصدام الثانى حين توجه إلى أفريقية وبعد استيلائه على المهدية . دخل فى معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم سنة ٥٥٥ هـ ، ومن ثم نقل مجموعة كبيرة من النساء والأولاد إلى العاصمة وعاملهم معاملة حسنة ، مما دقت كثيراً من العرب الفارين إلى اللحاق بأسرهم بالعاصمة (١٠٤) ويبدو أن أعداد العرب التى رجع بها الخليفة عبد المؤمن كانت كبيرة ، حتى أن ابن صاحب الصلاة غير عن ذلك بقوله « وقد استاق - أى الخليفة عبد المؤمن - فى أتباعه من العرب من رباح وبني جشم وبني عدى من بنى هلال وقبائلهم ما يقتضى بهم القضاء على عدد الذباب وعدد الحمى » (١٠٥) وفى رواية أخرى أنه نقل من كل قبيلة ألفاً بعيالاتهم وأبنائهم (١٠٦) .

وتبدو أهمية هذه الخطوة من جانب الخليفة عبد المؤمن بن على فى إخضاع العرب الهلاليين وتهجيرهم إلى المغرب الأقصى ، أنه اتخذهم كوسيلة لحفظ

على قبائل العرب في تعيين ابنه محمداً ولياً للعهد ، فالخليفة عبد المؤمن لم تكن
تسندة عصبية قبلية في حكمه لذلك الامبراطورية الواسعة ، لذا وجدناه بعد
أن وقع الاختيار عليه يستدعى قبيلة كومية التي ينتمي إليها للمجيء إلى العاصمة
مراکش ليستعين بهم ويعتمد عليهم . وفي نفس الوقت وجد عبد المؤمن
في عنصر العرب الهلالية قوة مؤثرة يمكنه الاستعانة بها في تحقيق أهدافه
والتأثير في الموحدون لتعيين ابنه محمداً ولياً للعهد .

وقد سبق هذه الخطوة محاولات الخليفة عقد صلة مودة بين ابنه محمد
المرشح لولاية العهد وبين زعماء القبائل العربية ، حين قام محمد بإرسال
الخطابات إليهم يخبرهم فيها أن من أسر من أبنائهم ونسائهم تصبى الرعاية
والصون ، حتى إذا تثبت زعماء العرب من ذلك شعروا بالموودة والتقدير
لابن الخليفة (١٠٧) يقول النويري « وأمر عبد المؤمن ابنه محمد بمكاتبة العرب
ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تصبى الاحتياط والحفظ والصيانة وأمرهم أن
يحضروا لتسليمهم إليهم ، فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراکش
فاعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم ووصلهم بالأموال
الجزية فأسر قلوبهم بذلك » (١٠٨) .

ثم اتبع ذلك بأن دس لزعماء العرب من يأمرهم بمطالبة الخليفة بتولية
ابنه محمداً ولياً للعهد ، ومحاولة الخليفة الامتناع إكراماً لابن حفص عمر ،
ولكنه رشح في النهاية وخاصة بعد أن خلع أبو حفص نفسه من ولاية
العهد (١٠٩) ، حتى إذا تم تولية ابنه محمداً وذلك بفضل مطالبة العرب
ومساندتهم ، أرسل الخليفة رسائله إلى أنهاء دولته يعلن فيها الخطوات التي
تمت ومبايعة ابنه بولاية العهد وقد جاء فيها ، وكانت هذه العنصر العريضة
الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل

إقليمها وذوى ألبابها وحلومها يشيرون إلى ذلك على اقتراحهم ، ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ، ولم تزل مخاطباتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تنأ كد بما كان عندهم فيه من تلج ويقين ، فلما اتفق بحمد الله وصور لهم في هذه الواقعة ... صرحوا لأول لقاءهم بما أضمروه وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه وأعلنوا أن مجدداً وفقه الله هو الذى ارتضوه لحل هبتهم وتخيره ورغبوا في تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده في توليتهم ومرادهم ، (١١٠) .

وقد ترتب على ذلك الإجراء أن صارت خلافة الموحدين محصورة في أبناء عبد المؤمن يتوارثونها فيما بينهم وكان ذلك بمساندة العرب الهلالية وتمضيدهم .

واستمر خلفاء الموحدين بوجهون جهدهم ونشاطهم العسكرى لإخضاع العرب الهلالية ونقلهم إلى المغرب الأقصى للإقامة في العاصمة وبذلك يتيسر مراقبتهم ، ففي سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م تم ترحيل جماعة من عرب رباح إلى مراکش وذلك بعد انهزامهم أمام الموحدين في قصصه (١١١) .

حتى إذا أقبلت سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م اندلعت نار الثورة بإفريقية وخاصة في مدينة قفصة ، وتزعّم الثورة بنو غانية ، وانضمت إليهم القبائل من جشم وزياح والأثبيج مما اضطر معه الخليفة المنصور الموحدى إلى تجريد حملة كبيرة وخرج على رأسها وأخضع القبائل الثائرة ، ونقل الكثير من العرب إلى المغرب الأقصى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م (١٢٢) .

فلما تولى العاصر الموحدى ، صرف جزءاً كبيراً من طاقته وجهده في فترة زمنية استغرقت ست سنوات منذ سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م إلى سنة

٦٠٤هـ / ١٢٠٥م في سبيل القضاء على بني غانية في إفريقية ومن انضم إليهم من قبائل بني هلال وقد نجح في ذلك (١١٣) .

وهكذا شغل الموحدون بالمعارك ضد العرب الهلالية منذ أن تولي عبد المؤمن الخلافة حتى الناصر ، وترجع أهمية هذا النشاط العسكري في إقبال كثير من القبائل الهلالية للإقامة بالمغرب الأقصى ومشاركتها في الأحداث السياسية والعسكرية بالمنطقة .

ومن ناحية أخرى فقد وجدناهم يتخربطون في سلك الجندية ويشاركون جنود الموحدين حملاتهم المتكررة في الأندلس وذلك لصد هجمات الفرنج ، فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن استدعاهم وحشهم على المشاركة في المعركة المرتقبة سنة ٥٦٦هـ وقد لبوا نداء الخليفة (١١٤) كذلك اشترط العرب على أنفسهم في سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م الاشتراك في الحملة الكبرى التي أعدها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بمائة وثلاثين ألف فارس ورجال (١١٥) .

وحضر وفد كبير منهم في سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م من عرب سبيلم ورياح ووجوه أنجادهم للانضمام إلى جنود الخليفة المنصور الموحدي (١١٦) .

حتى إذا كثرت العرب الهلالية بالمغرب الأقصى ، وأصاب الضعف والتخاذل ولاية الأمر من الموحدين ، تدخل العرب في شئون الدولة وذلك منذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م وقاموا بعزل وتولية بعض ملوك الموحدين ، وكان بنو جابر والخلاط أكثرهم كيدا للملوك (١١٧) .

ثانياً : الناحية الاقتصادية :

أما تأثير العرب الهلالية في أقاليم المغرب المختلفة ، فنجد أن وطئت أقدامهم أرض المغرب الأدنى ، لاحظنا الآثار المدمرة التي حلت بالمنطقة نتيجة لتخريب المدن وحرق المزارع في هجمات متلاحقة أتلفت التقدم العمراني الذي كانت تنعم به إفريقية (١١٨) ، يقول ابن خلدون « واضطرب أمر إفريقية وخرب عمرانها وفسدت سايلتها » (١١٩) .

وظلوا فترة يعيشون على السلب والنهب والإغارة على القرى والمدن حتى أخضع الموحدون معظم أقاليم المغرب المختلفة ، وأخضعوا هذه القبائل ، ونقلوا الكثير من أفرادهم إلى المغرب الأقصى ، بدأوا يجهنحون إلى الاستقرار واشتغلوا بالرعي وهي المهنة التي نشأوا عليها والتي تتفق مع طبيعتهم البدوية ، وبمرور الزمن انجبروا إلى فلاحية الأرض وزراعتها ، وأثمر ذلك أن أخصب الأراضي الزراعية على المحيط الأطلسي هي الآن بأيدي أعقابهم (١٢٠) .

ونتيجة استقرارهم واشتغالهم بالرعي والزراعة ، فرضت عليهم التزامات تجاه الدولة ، ومن هذه الالتزامات دفع الضرائب باعتبارهم كغيرهم من المواطنين مع المساهمة بعدد من أبنائهم في الحملات العسكرية التي يقوم بها ولاية الأمر (١٢١) ، يقول ابن خلدون « وكان - أي بعض القبائل العربية - موطنهم بسيط تامسنا ، وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية » (١٢٢) .

ومن ناحية أخرى فإنهم كانوا يتمتعون بما يتمتع به غيرهم من جنود الموحدين نتيجة انضمامهم لجيش الموحدين ، فقد أنطعهم ولاية الأمر بعض الأراضي (١٢٣) ، وذلك حتى يهيئوا لهم فرصة الاستقرار وعدم التحرك بالفتنة ، كما كان الخلفاء ينفقون عليهم النفقات الواسعة (١٢٤) بالإضافة إلى ذلك كانت توزع عليهم الأموال في الحملات العسكرية المختلفة ، فحين أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتعيين الجند سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م أمر للعرب

ورؤسائهم بالأموال والكساء والسلاح يقول ابن صاحب الصلاة دوأمر —
أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — للعرب بتركهم نخرج للفارس الكامل
منهم خمسة وعشرون ديناراً ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً والرجل سبعة
دنانير ، وأخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً ، ولكل
رئيس منهم على قبيلة مائة دينار ، وكسا جميعهم بالقباطى والقدح والغفار
والعمائم وأعطاهم السيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا من الرماح
الطوال وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسموها على قبائلهم وأتباعهم
ورجالهم ، (١٢٥) ، ويلاحظ من أقوال ابن صاحب الصلاة فى هذه المناسبة
أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد فضل جند العرب على جند الموحدين
فى العطاء ، فبينما أعطى للفارس الكامل من الموحدين عشرة دنانير ، أعطى
نظيره من العرب خمسة وعشرين ديناراً ، ولغير الكامل من الموحدين ثمانية
دنانير ، أعطى نظيره سبعة دنانير ، وهذا يشير إلى حرص الموحدين على
استمالة العرب وكسب ودهم .

ثالثاً : النواحي الاجتماعية :

من الآثار البارزة التى أحدثها الغزو الهلالي للعرب ، إقامتهم بالمنطقة
واختلاطهم بسكان البلاد ، وترتب على ذلك أن تعرب قسم من سكان البلاد
نتيجة للتزاوج وصلات القرابة التى تمت على مر الأيام وامتزاج السلالتين
بالدماء العربية (١٢٦) فإذا ما أخذنا الرواية التى تقدر عدد العرب الداخلين
إلى الشمال الأفريق بما يقرب من ربع مليون عربى (١٢٧) وأن هذا العدد
أقام بالبلاد لتبين لنا مدى الأثر الجنى على السكان الأصليين للبلاد ، وقد
بلغ المد العربى حداً أن وصلت قبائلهم إلى سواحل المحيط الأطلسى وامتزجت
بقبائل المصامدة وصنهاجة جنوباً ، ونتج عن ذلك أن بعض القبائل العربية
تعربت كلية كقبيلة دكالة (١٢٨) .

وقد ساعد على هذا الاختلاط والامتزاج التشابه بين حياة العرب الهلالية

وبعض قبائل البربر وخاصة التي تتمرن الرعى منها بالإضافة إلى اتفاقهم في الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وإباء الضيم وحفظ العهد وحسن الجوار وغير ذلك من الصفات (١٢٩) .

يضاف إلى التعريب الجلفى ، أيضاً التعريب اللغوى نتيجة للاختلاط والمعايشة اليومية ، ومن ثم تعلم البربر سكان البلاد الأصليين لغة الوافدين وهى اللغة العربية ، وانتشرت فى أجزاء كثيرة من البلاد . وبذلك ساعد العرب على نشر الثقافة العربية بالمنطقة بعد أن تعلم كثير من أهل البلاد اللغة العربية على يد هؤلاء الأعراب (١٣٠) .

وهكذا استطاع المسرب الهلايون أن يلعبوا دوراً خطيراً فى أقاليم المغرب منذ أن وطئت أقدامهم أرض المغرب فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، وظلوا منذ هذه الفترة يؤثرون فى تاريخ المنطقة ، وظهرت بصماتهم واضحة فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى .

الحواشي

- (١) زامباور : معجم الأنساب ج ١ ص ١٤٥
- (٢) المقرئى : البيان والاعراب ص ٢٨ ، القلقشندى : قلائد الجمان ص ١١٧ ،
السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤١
- (٣) القلقشندى : قلائد الجمان ص ١٢٣ ونفس المؤلف : صبح الأعشى ص ٣٤٥
- (٤) السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣
- (٥) المقرئى : البيان والاعراب ص ١٢٦ ، د . عبد الحميد يونس : الهلالية في
التاريخ ص ٦٢
- (٦) المقرئى : البيان والاعراب ص ٦٨
- (٧) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣ ، السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٣
- (٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٣
- (٩) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ١٠
- (١٠) عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ ص ٢١
- (١١) ابن الأثير : السكامل ج ٦ ص ١٩
- (١٢) الطبرى : تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٢٩ ، ابن الأثير : السكامل ج ٧ ص ١٢ ، ١٣
- (١٣) ابن الأثير : السكامل ج ٨ ص ٥٧٤
- (١٤) نفس المرجع السابق ج ٨ ص ٦٤٧
- (١٥) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣ ، المقرئى : العاظم الحفا ج ٢ ص ٢١٦
- (١٦) نفس المرجع السابق ونفس الصفحات
- (١٧) نفس المرجع السابق ، ونفس الصفحات ، السلوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٦٤
- (١٨) السكندى : الولاة والقضاة ص ٧٦ ، الميلى : تاريخ الجزائر في القديم والحديث
ج ٢ ص ١١٥
- (١٩) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٨٠
- (٢٠) نفس المرجع السابق .
- (٢١) القلقشندى : قلائد الجمان ص ١١٩
- (٢٢) ابن الأثير : السكامل ج ٨ ص ٦٦١
- (٢٣) د . عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٢٤١ ، ص ٢٤٢

- (٢٤) زامباور : معجم الأنساب ج ١ ص ١٠٩
- (٢٥) د . عبد المنعم ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٢٤٢ ، د . أحمد مختار : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص ٢١٠
- (٢٦) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٠
- (٢٧) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٤٣ ، ص ٢٤٤ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ج ٢ ص ٦٥٣
- (٢٨) زامباور : معجم الأنساب ج ١ ص ١٤٤
- (٢٩) المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ١٦
- (٣٠) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٥٤
- (٣١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
- (٣٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٥٧ ، القلقندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٢٤
- ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٧ ، زامباور : معجم الأنساب ج ١ ص ١٠٩
- (٣٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٧
- (٣٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣
- (٣٥) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧٣ ، ص ٢٧٤
- (٣٦) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩٤ ، ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٦٨ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣ ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ٨٢ ، الصفاقسى : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٤٠
- (٣٧) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧٤
- (٣٨) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٩٤ ، ص ٢٩٥
- (٣٩) ابن أبي دينار : المؤنس ص ٨٢
- (٤٠) الصفاقسى : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٤٠
- (٤١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
- (٤٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٤٢٧
- (٤٣) نفس المرجع السابق ج ٩ ص ٣٤٠
- (٤٤) نفس المرجع السابق ج ٩ ص ٣٧٧ ، ص ٤٥٠ ، ص ٤٥٦
- (٤٥) نفس المرجع السابق ج ٩ ص ٣٤٨ ، ص ٣٤٩
- (٤٦) الصفاقسى : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٤١
- (٤٧) د . راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٨٤

- (٤٨) المقرئزى : المخطوط ج ١ ص ٣٥٤
- (٤٩) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٦٩ ، المقرئزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١١٥
- (٥٠) المقرئزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١١٥
- (٥١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨
- (٥٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .
- (٥٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٣
- (٥٤) ابن عذارى : البيان للغرب ج ١ ص ٢٧١ ، ص ٢٧٢ ، المقرئزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٣٢
- (٥٥) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧١ ، ص ٢٧٢
- (٥٦) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٧٧
- (٥٧) أبو بكر الدوادارى : كنز الدرر ج ١ ص ٣٣١
- (٥٨) ابن الأثير : ج ٩ ص ٥٢١ ، المقرئزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١٩٠ ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ٨٣ ، الصفاقسى : تركة الأنظار ج ١ ص ١٣٩ ، ابن قنبرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢
- (٥٩) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٤
- (٦٠) د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ص ٢٥٩ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٦٠
- (٦١) حبة الله العيرازى : السيرة المؤيدية ص ٥٦
- (٦٢) المقرئزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢١٤
- (٦٣) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٣٦
- (٦٤) المقرئزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢٢٣
- (٦٥) ابن عذارى : البيان للغرب ج ١ ص ٢٧٧ ، ص ٢٧٨
- (٦٦) المقرئزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢١٦
- (٦٧) ابن عذارى : البيان للغرب ج ١ ص ٢٨٠
- (٦٨) ابن عذارى : البيان للغرب ج ١ ص ٢٧٨
- (٦٩) نفس المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٩
- (٧٠) ابن عذارى : البيان للغرب ج ١ ص ٢٨٨
- (٧١) الصفاقسى : تركة الأنظار ج ١ ص ١٣٩ ، ص ١٤٠ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ١ ص ٦٧ مخطوط .
- (٧٢) ابن ظافر : أخبار الدولة المنقطعة ص ٧٨
- (٧٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٢ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٧٨ ، أبو بكر الدوادارى : كنز الدرر ج ٦ ص ٣٦٠
- (٧٤) المقرئزى : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢١٢
- (٧٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٢

- (٧٦) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٦ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص ٦٩
المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢١٢
- (٧٧) المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢١٢
- (٧٨) نفس المرجع السابق ص ٢١٢ ، ٢١٣ ، ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة
ص ٧٠
- (٧٩) المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢١٣
- (٨٠) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٦ ، ابن ظافر : أخبار الدول ص ٧٠ ،
المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢١٦ ، التويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ١ ص ٦٢ ،
٦٣ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٨ ،
ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ١ ص ٥٣٩
- (٨١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٤
- (٨٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة ٩ ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٦ ،
المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢١٦
- (٨٣) ابن أبي دينار : المؤسس ص ٨٤
- (٨٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ١٤ ،
ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٨٨
- (٨٥) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٤ ، المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢١٧
- (٨٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٨٨ ، ص ٢٨٩ ، ابن خلدون :
العبر ج ٦ ص ١٤ ، ص ١٥
- (٨٧) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٧
- (٨٨) نفس المرجع السابق ص ٥٦٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٢ ، ٦٣
- (٨٩) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج ١
ص ٥٣٩ ، المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢١٧ ، أبي القداء : المختصر ج ٢ ص ١٧٠
- (٩٠) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٨ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٣
- (٩١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٨
- (٩٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٥
- (٩٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٩٠
- (٩٤) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٩
- (٩٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٣
- (٩٦) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٩١
- (٩٧) نفس المرجع السابق ، ص ٢٩٢
- (٩٨) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٥٦٩ ، ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٩٤ ،
أبو القداء : المختصر ج ٢ ص ١٧١ ، المقرئى : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٢١٥ ، د . الحبيب
الجنجاني : القيروان عبر عصورها ص ١٠٧

- (٩٩) السجلات المستنصرية ص ٤٣ وما بعدها .
 (١٠٠) المقرئى : انماظ الحنفا ج ٢ ص ٢١٥
 (١٠١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٩
 (١٠٢) المراكشى : المعجب ص ١٢٤ ، ص ٢٢٥
 (١٠٣) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٤
 (١٠٤) البيهقى : أخبار المهدي ص ١٢٠ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن
 ص ١٤٤ ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، د . السيد عبد العزيز :
 المغرب الكبير ص ٧٩٤

Nevill Barbour : Morrocco, p. 78.

- (١٠٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٤٤٠
 (١٠٦) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٦ ص ١٦١ ت القبلى ، ابن أبي دينار :
 المؤنس ص ١١٢
 (١٠٧) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٨٦
 (١٠٨) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣
 (١٠٩) نفس المرجع السابق ، الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٤
 (١١٠) مجموع رسائل موحدية ص ٥٧ ، ص ٥٨
 (١١١) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ٩٢٠
 (١١٢) ابن أبي زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥٧ ت القبلى ، ابن خلدون :
 المعبر ج ٦ ص ٢٠ ، ص ٢١ ، ابن أبي دينار : المؤنس ص ١١٤
 (١١٣) ابن عذارى : البيان ج ٤ ص ١٩٤ طبعة تطوان
 (١١٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٦٨ ، ص ٤١١ ، ص ٤١٧ ،
 ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ٢٣٩
 (١١٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٦٠ تطوان .
 (١١٦) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٥٦ ، ص ١٥٢ تطوان .
 (١١٧) ابراهيم حرركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٦
 (١١٨) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٠
 (١١٩) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٦
 (١٢٠) حرركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣
 (١٢١) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٧٠

Julien : Histoire de L'Afrique du Nord, 112.

- (١٢٢) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ٣١
 (١٢٣) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٤١ ، د . السيد عبد العزيز سالم : المغرب
 الكبير ص ٧٩٤

(١٢٤) النويرى : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن عذارى : البيان ج ٤ ص ١٥٢ تطوان .

(١٢٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٧

(١٢٦) عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ٣١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧ ، د . عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ ص ٧٤ ، ٧٥ المتنوى : العلوم والآداب ص ١٦ ، ص ١٧

J. Spencer : A History of Islam in West Africa, p. 19.

J. P. Fage : An Introduction to the History of West Africa, p. 13.

(١٢٨) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧

(١٢٩) الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٥

(١٣٠) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٦٥ ، حركات :

المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ ، رابح بونار : المغرب العربي ص ٢٨٣

المصادر

- ١ - ابن أبي دينار القيرواني :
المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس ط ٢ عام ١٩٦٧ م .
- ٢ - ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله (٨٧٢٦) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس جزءان تحقيق محمد الهاشمي الفيلاي
الرباط عام ١٩٣٦ م .
- ٣ - ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠ هـ) .
الكامل في التاريخ ١٣ جزء - بيروت عام ١٩٦٥ م .
- ٤ - البراوي : د . راشد .
حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين عام ١٩٤٨ النهضة المصرية .
- ٥ - بروفسال : ليفي :
مجموع رسائل موحدية من إهداء كتاب الدولة المؤمنية عام ١٩٤١
رباط الفتح .
- ٦ - البكري : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ) .
معجم ما استعجم - ت مصطفى السقا - القاهرة عام ١٩٤٥ م .
- ٧ - بن عبد الله : عبد العزيز :
مظاهر الحضارة المغربية جزءان عام ١٩٥٧ الدار البيضاء ، تاريخ
المغرب - جزءان - الدار البيضاء .
- ٨ - بونار : راجح :
المغرب العربي : تاريخه وثقافته عام ١٩٦٨ الجزائر .

٩ - البيهقي : أبو بكر الصنهاجي (القرن السادس الهجري) :
أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين - نشر ليفي
بروفنسال سنة ١٩٢٨ م باريس .

١٠ - ابن تغري بردي : أبو المحاسن يوسف :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - وزارة الثقافة .

١١ - الجنجاني : د . الحبيب :
القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي
تونس عام ١٩٦٨ م .

١٢ - حرركات : إبراهيم :
المغرب عبر التاريخ ط ١ عام ١٩٦٥ الدار البيضاء .

١٣ - ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) .
المعبر وديوان المبتدأ .

١٤ - الدواداري : أبو بكر بن عبد الله بن أيك :
كنز الدرر وجامع الغرر - الجزء السادس من صلاح المنجد
١٩٦١ القاهرة .

١٥ - زامباور :
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ترجمة د .
زكي محمد حسن ، د ، حسن أحمد محمود .

١٦ - السلاوي : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (١٣١٥ هـ) .
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - تحقيق جعفر الناصري
ومحمد الناصري الدار البيضاء .

١٧ - د. السيد عبد العزيز سالم :

المغرب الكبير : العصر الإسلامي - القومية عام ١٩٦٦ .

١٨ - السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن :

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ت محمد أبو الفضل إبراهيم

١٩٦٨ م .

١٩ - الشيرازي : هبة الله بن موسى بن داود (ت ٤٧٠ هـ) .

سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ت محمد كامل حسين دار الكتاب

١٩٤٩ م .

٢٠ - ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (نهاية القرن السادس الهجري) .

تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم

الوارثين - السفر الثاني ت عبد الهادي التازي - بيروت ط ١

سنة ١٩٦٤ م .

٢١ - الصفاقسي : محمود بن سعيد مقديش :

زهوة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار تونس عام ١٣٢١ هـ .

٢٢ - الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (٨٣١٠) .

تاريخ الرسل والملوك ت محمد أبو الفضل إبراهيم ط ٢ دار المعارف .

٢٣ - ابن ظافر : جمال الدين علي بن ظافر :

أخبار الدول المنقطعة تعقيب أندرية فربه عام ١٩٧٢ م .

٢٤ - العبادي : د. أحمد مختار :

سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس مجلة معهد الدراسات

الإسلامية مدريد مجلد ٥ عام ١٩٥٧ م .

٢٥ - ابن عذارى : المراكشى (كان حياً ٧١٢ هـ) .
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب طبعة بيروت عام ١٩٤٨
وطبعة تطوان ١٩٥٦ م .

٢٦ - أبو الفداء : عماد الدين إسماعيل (٧٣٢ هـ) .
المختصر في أخبار البشر .

٢٧ - الفلقفندي : أبو العباس أحمد بن علي (٨٢١ هـ) .
صبح الأعشى وزارة الثقافة عام ١٩٦٣ م .
قلائد الجوان في التعريف بقبائل الزمان ت ابراهيم الأبياري ١٩٦٢ م .

٢٨ - الكتندى : أبو عمر محمد بن يوسف (ت عام ٣٥٠ هـ) .
الولاية والقضاة - بيروت عام ١٩٠٨

٢٩ - ماجد : د . عبد المنعم .
السجلات المستنصرية تقديم وتحقيق دار الفكر عام ١٩٥٤ م .
ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر عام ١٩٦٨ دار المعارف .

٣٠ - المراكشى : عبد الواحد (النصف الأول من القرن السابع الهجرى)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب القاهرة ١٩٤٩

٣١ - المقرئى : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) .
المواعظ والاعتبار جزءان .
انماخذ الحنفيا بأخبار الأئمة الخلفاء - الجزء الثانى ت الدكتور محمد
حلى محمد أحمد - المجلس الأهل .
البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب ت د . عبد المجيد
عابدين ط ١ عام ١٩٦١ عالم الكتب .

- ٢٢ - المنوفى : محمد .
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين تطوان عام ١٩٥٠
- ٢٣ - الميلي : مبارك محمد .
تاريخ الجزائر فى القديم والحديث - الجزائرى عام ١٣٥٠ هـ .
- ٢٤ - النويرى : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
نهاية الأرب فى فنون الأدب - مخطوط دار الكتب .
- ٢٥ - ابن الوردى : زين الدين عمر بن الوردى .
تتمة المختصر فى أخبار البشر ت أحمد رفعت البدر اوى بيروت ١٩٧٠ م
- ٢٦ - يونس : د . عبد الحميد .
الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى عام ١٩٦٥ - جامعة القاهرة .

المراجع الأجنبية

37. J. D, Fage : An Introduction to the history of West Africa, Cambridge, 1965.
38. J. Spancer, A history of Islam in West Africa, London 1963.
39. Julien, Ch-André : Histoire de L'Afrique du Nord, Paris 69.
- 40 Nevill Barbér : A Survey of North West Africa, London 62.

تاريخ البحث في تاريخ أفريقيا

للدكتور فوزى مكاوى

مدرس التاريخ القديم — معهد البحوث والدراسات
الأفريقية — جامعة القاهرة

أطلق الأوروبيون على أفريقيا العديد من الصفات إبان فترة إستعمارهم لها، فتارة هي القارة السوداء وأخرى هي القارة المظلمة، ورغم أن الأوروبيين كثيرا ما دخلوا صراعات مريرة فيما بينهم من أجل السيطرة على القارة إلا أنهم بلا إستثناء إتفقوا على إنكار كل صلة لأفريقيا بالحضارة قبلهم وقالافريقيون في مجموعهم — كما قال كوبلاند — بلا تاريخ، فقد عاشوا لقرون عديدة غارقون في بحر من الحمجية،^(١).

قام الأوروبيون بمجهود مكثف لتثبيت هذه المعاني في عقول الأفريقيين فهم بلا تاريخ وهم مدينون بكل مظهر حضارى لأوربا، وفي هذا المعنى يقول السيد فيليب متشيل حاكم كينيا، كان الأفريقيون وثنيون يعبدون الأسلاف ويعيشون في دائرة من السحر والكهانة، أما عقولهم فقد ملأتها الخرافة، وهم في عام ١٨٩٠م أكثر بدائية مما كانت عليه بريطانيا قبل العصر الرومانى ...،^(٢).

كان موقف الاستعمار الأوربي بتجاهله الكامل لتاريخ أفريقيا يستخدم مصالحه فإن قطع الأفريقى عن أصله يجعله أسلس قيادا، ولذلك لم يدرس

الأفريقي أى شيء عن تاريخ القارة ولم يقل له الأوروبيون أن أقدم الحضارات في العالم قامت على جزء منها في مصر وأن هناك حضارات قديمة متتابعة قامت في السودان وإثيوبيا وبلاد المغرب ؛ وأخفى الاستعمار حقائق قيام الممالك والإمارات المتطورة في مناطق عديدة من أفريقيا إبان العصور الوسطى ؛ بل رفض الاستعمار الاعتراف بأن ما واجهه من مقاومة هدد استثماره للبلاد الأفريقية كان دليل وجود القوى المنظمة في القارة قبل استثماره لها. وأرغم التلاميذ الأفريقيون على دراسة تاريخ إنجلترا أو فرنسا أو غيرهما من الدول المستعمرة للقارة^(٣) .

استمرت هذه النظرة غير العادلة للأفريقيين وتاريخهم حتى وقت قريب. ورغم أن بعض الأوروبيين أحسوا رباح التغيير تهب على أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية فسارحوا إلى الدعوة لدراسة تاريخ أفريقيا^(٤)، إلا أن صوته لم يكن أعلى الأصوات إذ ترددت في نفس الوقت في محافل كثيرة نفس الدعاوى القديمة القائلة بأن أفريقيا بلا تاريخ فينسب إلى أستاذ التاريخ في جامعة أكسفورد في عام ١٩٦٣م قوله بأنه ليس هناك شيء يسمى بالتاريخ الأفريقي فيما عدا عدد من التحركات غير المثمرة لقبائل همجية ...^(٥) .

* * *

استمر التاريخ الأفريقي بغير دراسة حقيقية له في كل بلاد العالم تقريبا إلى أواخر الخمسينات من هذا القرن ؛ والجهود السابقة على هذا التاريخ لم تخرج في أغلبها عن دراسة استثمار وتقسيم أفريقيا بين الدول الأوروبية أو دراسة الأنظمة الأوروبية لحكم المستعمرات الأفريقية. واجه الأفريقيون هذا الواقع غداة إستقلال دولهم ، وكان عليهم أن يتصدوا لمسئولية كتابة تاريخ بلادهم ، فالتاريخ دليل على أصالة وحيوية الشعوب وتأكيدهم للذات المستقلة للدولة ، والأفريقيون في حاجة إلى هذه الأصالة والذات المستقلة في كفاحهم المقبل من أجل بناء المستقبل .

بدأت الجهود الجديدة من أجل كتابة التاريخ الأفريقي بدعمها الأفريقيون،
وشارك فيها منذ البداية بعض الأساتذة الأوروبيين من المشهود لهم بالنزاهة
كما دخل الحلقة أيضا قناصو الفرص الذين وجدوا في تملق الأفريقيين فرصة
للكسب السريع ، على أن البداية الحقيقية لكتابة تاريخ أفريقيا ارتبطت
بدخول الجيل الجديد من أبناء أفريقيا إلى ميدان البحث في تاريخ بلادهم^(٦).

طرق الباحثون كل باب في سبيل العثور على مادة علمية تعينهم على
إستجلاء فصوص كثير من فترات تاريخ أفريقيا فسلكوا سبلا كثيرة
أهمها :

(أ) دراسة تحليلية نقدية لما كتبه المستعمرون والرحالة والمبشرون
عن أفريقيا لاستخراج ما سجلوه من حقائق من بين ما رصدوه من
أكاذيب .

(ب) تجميع ودراسة وثائق الإدارة الاستعمارية في أوروبا والمستعمرات
السابقة ليس بحثا عن نظام الحكم المباشر أو غير المباشر الذي اتبعه الاستعمار
مع إقليم بعينه ؛ ولكن بهدف كشف النقاب عن حياة المواطنين وأوجه
نشاطهم .

(ج) الإتجاه إلى الوثائق والمخطوطات العربية بحثا عن المزيد من
المعلومات عن أفريقيا في العصور الوسطى . ومن المعروف أن الحضارة
العربية إتصلت وإندمجت بل وإنتشرت في مناطق عديدة من أفريقيا فضلا
عن الشمال الأفريقي العربي . وقد فاضت هذه المخطوطات العربية بالكثير
من المعلومات التي سجلها الرحالة والمؤرخون المسلمون وما من مخطوطة
عربية في أى علم من العلوم إلا وذكرت أفريقيا أو بعض بلادها، وأصبحت
أسماء المسعودي والبيروني وابن حوقل والبكري وابن بطوطة وغيرهم
أعلاما في التاريخ الأفريقي^(٧) .

(و) الإنجاة لتغطية النقص في المعلومات عن بعض البلاد أو بعض فترات تاريخها بجمع التاريخ من أفواه الشعب ؛ فالقصص الشعبي مهما دخله الخيال يبقى محتويا على بعض الحقائق وبالرغم من المحاذير الكثيرة التي تحيط بهذا النوع من المصادر إلا أن الدارسين للتاريخ الإفريقي لم يجدوا له بديلا في بعض الأحيان . وبدأ تجميع الروايات الشعبية عن تاريخ القبائل والملوك وتسجيلها ثم دراستها دراسة مقارنة بالمتاح من المعلومات في المصادر الأخرى^(٨) . والطريف أن هذه الروايات الشعبية أفادت في تحديد موقع عاصمة مملكة غانا القديمة^(٩) . كما أن هذه الروايات استطاعت أن تصحح كثيرا من الأخطاء التي سجلها المستعمرون عن الحركات الوطنية في أفريقيا . وفي هذا المجال تجدر الإشارة إلى المشروع الذي أنتمته جامعة دار السلام في عام ١٩٦٨ لجمع الروايات الشعبية المتصلة بثورة المايجي ماجي ضد الاستعمار الألماني عامي ١٩٠٥ - ١٩٠٦ . قام بهذا المشروع فريق عمل من الاساتذة والطلاب إنتشروا في الأقاليم الجنوبية من تزانيا (وهي المنطقة التي شهدت أم أعمال المقاومة) وبعد أن أنتموا جمع المادة تمت دراستها دراسة مقارنة ثم نشرتها الجامعة في كتاب يعد من أهم مصادر البحث في تاريخ هذه الثورة حاليا^(١٠) .

(هـ) . استعان الباحثون بعلم الآثار الذي أصبح الفارس الجديد في ميدان دراسة التاريخ الإفريقي . وعلى عكس ما تعودنا فإن الجهد الأثري لم يحصر نشاطه في نطاق التاريخ القديم فقط بل إن أعمال الحفر الأثري امتدت إلى كل فترات التاريخ الإفريقي . وبدأت الأرض الإفريقية تكشف عن مكنونها وعثرت البعثات الأثرية على بقايا العديد من الحضارات . ورغم هذا فقد واجه الباحثون صعوبة بالغة في تحديد تاريخ هذه الحضارات نظرا لعدم وجود أدلة معروفة للتاريخ معها تساعد على تحديد تاريخ عمرها ، ومن ثم لجأوا إلى العلم الحديث واستعانوا بالراديو كربون لتحديد عمر المواد

المواد العضوية التي عثر عليها . وهكذا أصبحنا - ربما لأول مرة - أمام أدلة قاطعة في التاريخ الافريقي . وساهمت الحفائر المتزايدة في إثبات صحة أو كذب بعض ما لدينا من معلومات (١١)، كما قدمت أيضا بعض المفاجآت منها مثلا العثور على بقايا حضارة نوك القديمة التي ازدهرت في شرق نيجيريا خلال الالف الاول ق.م (١٢) كما أكدت أن الإنسان أصيل في أفريقيا وأنه تطور من كائن شبيه بالإنسان إلى إنسان عاقل على أرضها . وأثبتت الحفائر أيضا أن الإنسان في أفريقيا - فيما عدا الشمال الافريقي - قد إنتقل من استخدام الآلات الحجرية إلى استخدام معدن الحديد مباشرة (١٣) . وإن استخدام هذا المعدن قد إنتشر من مصر إلى السودان وإنتشر من السودان إلى الغرب والجنوب في أوقات مبكرة مما كان له أثر ضخم على الاحوال السياسية والسكانية في أفريقيا (١٤) ، فاستخدام الآلات الحديدية ساعد على الانتقال من حياة الجمع والالتقاط إلى حياة الزراعة المستقرة ، وأصبح الإنسان قادراً على أن ينتج ما يزيد عن حاجته ومن ثم أصبح هناك فائض في الإنتاج أدى إلى تخفيف البعض من أعباء العمل وإتجاههم إلى الفكر والفن ، كما أدى إلى تزايد السكان نتيجة لوفرة الغذاء . وقد كان لإستخدام الآلات الحديدية في صناعة الاسلحة في أفريقيا أثر كبير في قيام الممالك ذات النظام المركزي .

لايعنى ما ذكرت أن كل شيء على ما يرام وأن التاريخ الافريقي أصبح كتاباً مفتوحاً لمن يريد دراسته ولكن ما ذكرت يدل فقط على أن الباحثين قد وجدوا أخيراً الطريق الصحيح لدراسة تاريخ أفريقيا . والجهود المبذولة الآن لدراسة هذا التاريخ تصطدم من وقت لآخر بعقبات إلا أن الباحثين لا يكونون في البحث عن الحلول المناسبة لكل عقبة . من بين هذه العقبات حاجز اللغة الذي يحد من مقدرة الباحثين على الاستفادة من أبحاث غيرهم كما يمنع الكثيرين من الاستفادة بالمصادر الأصلية المكتوبة بلغات لا يجيدونها

لقد فطن الباحثون لهذه المشكلة منذ عام ١٩٦١ فإتخذوا قراراً في مؤتمر تاريخ أفريقيا الذي عقد في لندن في ذلك العام بدعوة الباحثين إلى ترجمة الوثائق والمخطوطات المكتوبة بلغات أقل إنتشاراً إلى اللغات الأوسع إنتشاراً والمقصود بالمجموعة الأولى اللغات العربية والأسبانية والبرتغالية وكذلك اللغات الأفريقية وغيرها والمقصود بالمجموعة الثانية اللغتين الإنجليزية والفرنسية بصفة خاصة^(١٥) ، وقد أيدت المؤتمرات التالية هذه الدعوة بل ودعت أيضاً إلى نشر ملخص بلغة أخرى لكل مقالة تنشر في دورية علمية بما يوسع دائرة الاستفادة منها^(١٦) . عقبة أخرى تواجه الباحثين وهي تقسيم تاريخ أفريقيا إلى فترات زمنية أو ما اصطلح على تسميته بالعصور التاريخية . وفي الواقع إن محاولات الباحثين في هذا المضمار لم تحقق حتى الآن النجاح المنشود . ومازلنا نقرأ الدراسات عن العصر التاريخي الواحد تحت عناوين متعددة^(١٧) .

والجهود المبذولة لدراسة تاريخ أفريقيا في الوقت الحاضر تتلخص فيما يلي :

• قيام أغلب جامعات العالم بإنشاء معاهد متخصصة للدراسات الأفريقية وفي مقدمتها دراسة تاريخ القارة . ويقدر عدد هذه المعاهد في الوقت الحاضر بأكثر من ألف معهد^(١٨) .

• تشرف الأمم المتحدة على بعض الجهود الرامية إلى دراسة تاريخ القارة منها كتابة عدد في المجلدات عن تاريخ أفريقيا في عصوره المختلفة ويشرف على هذا المشروع لجنة رئيسها إثيوبى ونائبه رئيس هيئة الآثار المصرية^(١٩) . وتشرف الأمم المتحدة أيضاً على مشروع لجمع المصادر المكتوبة باللغة العربية عن أفريقيا خصوصاً ما كتبه أبناء المناطق التي تقع جنوب الصحراء ويشرف على هذا المشروع أحد الاساتذة من غانا .

• تقوم الجامعات والهيئات العلمية بتمويل والإشراف على الدراسات الميدانية لجمع المادة التاريخية (مثل مشروع ثورة المهاجي ماجي المشار إليه وقد مولته مؤسسة روكفلر الأمريكية) وكذلك للقيام بالحفائر الأثرية في الأجزاء المختلفة من أفريقيا وفي هذا تجدر الإشارة إلى الحفائر الكثيرة التي تمت في إثيوبيا وتنزانيا وكينيا وروديسيا والسودان وغانا وموريتانيا وتشاد وغيرها (٢٠).

• تقوم الجامعات ودور النشر بإصدار الدراسات المتخصصة في تاريخ أفريقيا سواء في كتب — مثل مشروع جامعة كبرديج بإصدار سلسلة من المجلدات عن تاريخ أفريقيا (٢١) — أو في مجلات علمية — والمجلات العلمية المهمة بالتاريخ الأفريقي أكثر من أن تحصر في الوقت الحاضر — هذا فضلا عن إصدار القوائم الببليوجرافية بالأعمال التي تنشر (٢٢).

* * *

تاريخ البحث في تاريخ أفريقيا بمصر :

كانت مصر من الدول الرائدة في ميدان دراسة التاريخ الأفريقي ولعل ذلك راجع لكونها جزء من أفريقيا كما أن اهتماماتها الأفريقية قديمة قدم الحضارة المصرية ذاتها .

وإذا أخذنا دراسة تاريخ أفريقيا بالمعنى الشامل للكلمة فالتا يجب أن نرجع بداية دراسة التاريخ الأفريقي في مصر إلى بداية دراسة التاريخ المصري فيها ، على اعتبار أن مصر جزء من أفريقيا . ولكن هذا التعميم سوف يقودنا بلا شك إلى نتائج مضللة ، ولعل الأنسب أن نحدد بأن المقصود هنا بالتاريخ الأفريقي هو تاريخ الدول الأفريقية الأخرى فيما عدا مصر . وفي ضوء الإيضاح السابق نحدد النشاط المصري في دراسة تاريخ أفريقيا في

بذله كليات الآداب المصرية من تشجيع للباحثين على اختيار موضوعات أفريقية وإن كان هذا التشجيع يعتمد على اتجاهات الأساتذة أنفسهم ولكنه لا يمثل إتجاها أو عرفاً جامعياً محدداً .

ولم يكن ذلك كل الجهد المصرى فى ميدان دراسة التاريخ الأفريقى بل أقام مصر فى عام ١٩٤٧ م أول معهد فى القارة لدراسة جزء من أفريقيا ذلك هو معهد الدراسات السودانية . وفى عام ١٩٥٣ م تغير اسم المعهد إلى معهد الدراسات الأفريقية وإن ظل فى الحقيقة مهتماً بالدراسات السودانية وشرق أفريقيا فقط ، وتغير اسم المعهد واهتماماته مرة ثالثة فى عام ١٩٧١ م فأصبح معهداً للبحوث والدراسات الأفريقية وشملت الدراسة وموضوعات البحث فيه أقالماً أخرى غير السودان وشرق أفريقيا . ورغم التغير الذى أحاط بالمعهد ووظيفته خلال السنوات الماضية إلا أن دراسة التاريخ الأفريقى ظلت جزءاً رئيسياً فيه طول هذه المدة . وخرج المعهد العشرات من الحاصلين على درجتى الماجستير والدكتوراة فى التاريخ الأفريقى انضم أغلبهم إلى ميدان البحث فى تاريخ أفريقيا بصورة مختلفة . وقد أصدر المعهد دورية علمية سنوية منذ عام ١٩٧١ م تنشر المقالات المتخصصة فى التاريخ الأفريقى وغيره من الدراسات التى يضمها المعهد .

هذه الصورة قد تبدو مشرقة ولكنها فى الحقيقة ليست كذلك فالباحثون فى تاريخ أفريقيا بمصر يواجهون صعوبات تكاد تعزلهم عن تيار البحث العلمى فى العالم منها على سبيل المثال :

• ندرة إشراك الأساتذة المصريين فى المؤتمرات العلمية المتخصصة فى دراسة تاريخ أفريقيا والأسباب لذلك مادية فى الدرجة الأولى ، وعدم إلتقاء الأساتذة المصريين وإشتراكهم مع علماء العالم فى إعادة صياغة التاريخ الأفريقى بحملهم فى موقف المستقبل فقط لما يتم بحثه وإقراره من جانب الآخرين .

• فقر المكتبة الأفريقية الوحيدة في مصر — وهي مكتبة هذا المعهد المتخصص — إلى الكتب والمراجع الحديثة وكذلك المخطوطات والوثائق والنشرات الرسمية ويكفي للتدليل على ذلك أن نعرف أن الكتب المطبوعة عن أفريقيا في العالم تقدر بمئات الألوف بينما تضم هذه المكتبة حوالى أربعة آلاف كتاب فقط عدد كبير منها عن السودان. فضلا عن عدم وجود أجهزة التصوير والنقل المصرية التي تساعد الباحثين .

• قلة البحوث الميدانية التي يقوم بها الباحثون المصريون في تاريخ أفريقيا ويكفى أن نذكر أن نسبة من رأوا مناطق دراساتهم أو جمعوا منها وثائق بحوثهم لا تزيد في أحسن الأحوال عن ١٠٪ من مجموع الباحثين في هذا الميدان . وهذا القصور يعود أيضاً لأسباب مادية تتعلق بالباحثين والجامعات في آن واحد .

• لم تنظم أى هيئة علمية في مصر حتى الآن مؤتمراً أو حلقة دراسية لبحث أى موضوع في تاريخ أفريقيا رغم غزارة ما بمصر من وثائق أفريقية سواء وثائق الحكومة المصرية عن نشاطها في أفريقيا منذ القرن التاسع عشر أو وثائق الجيش المصرى — وبعضها ذات أهمية بالغة — عن شرق أفريقيا والسودان (٢٣) ، فضلا عن عشرات المئات من المخطوطات العربية عن أفريقيا أو التي تعرضت لأخبار أفريقيا .

ورغم هذه الصعوبات فهناك من الباحثين المصريين من أنعموا رسائل وأبحاثا لها وزنها العلمى وإن وقف حاجز اللغة حائلا أمام إنتشارها .

ومستقبل دراسة تاريخ أفريقيا في مصر يواجه الكثير من التحديات ، وأعتقد أن نقطة البداية في إهتمام العالم بدراساتنا الأفريقية تبدأ باهتمامنا نحن بما بين أيدينا من وثائق ومخطوطات لا يعرف عنها العالم الكثير والعمل على نشرها على أوسع نطاق . هذا بالإضافة إلى تلافى أسباب القصور السابق

الإشارة إليها والتي تعوق مشاركتنا الفعالة في ميدان البحث في تاريخ أفريقيا ومن المؤكد أن نجاحنا في تحقيق هذه الخطوات جدير بأن يساعد على قيام ما يمكن أن يسمى بالمدرسة المصرية في التاريخ الأفريقي .

بعد أن قدمت مجملًا للنشاط الدائر في ميدان البحث في تاريخ أفريقيا على مستوى العالم وكذلك في مصر، من الضروري أن أشير إلى حقيقة يتوقف الإنسان أمامها طويلاً، ذلك أن سبقنا دولاً كثيرة في مجال الاهتمام بالتاريخ الأفريقي وليكنها جميعاً سبقنا في الوقت الحاضر بينما ظللنا نحن متوقفين عند نقطة البداية تقريباً وهذا يدفعني إلى أن أنهى مقال بدعوة كل الباحثين في التاريخ الأفريقي في مصر للتكاتف من أجل أن تعود لمصر مكانتها الرائدة في هذا الميدان .

المواشى

R. Coupland, Kirk on the Zambezi (Oxford, 1928) p. 3 (١)

S.C. Ukpabi, Knowledge of the African Past, presence (٢)
Africaine, Num. Special. (Paris, 1971) P. 297.

M. Shinnie, Ancient African Kingdoms (London, 1965) (٣)
the preface.

(٤) بدأت الدعوة لدراسة تاريخ أفريقيا بنظرة جديدة لأول مرة في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ، وعقد لذلك الغرض ثلاث مؤتمرات في أعوام ١٩٥٣ و ١٩٥٧ و ١٩٦١ على التوالي راجع تقارير هذه المؤتمرات :

R.A. Hamilton, History and Archaeology in Africa, report of a conference held in july 1953 (London, 1955).

D.H. Jones, History and Archaeology in Africa, second conference held in july 1957 (London, 1959).

R. Oliver, Third Conference on African History and Archaeology, held in July 1961, Journal of African History (Cambridge, 1962).

وقد تميزت هذه المؤتمرات بنظرة واقعية تجلت في إعلان المؤتمر الثالث بأن المكان الطبيعي لثل هذه المؤتمرات في المستقبل يجب أن يكون على أرض القارة الأفريقية نفسها .

M.S.M. Kiwanuka, African pre-colonial History, a (٥)
Challenge to the Historian's Craft, Journal of Eastern African research and Development (Nairobi, 1972) p 69.

(٦) منذ أن استقلت معظم بلدان القارة الأفريقية في أوائل الستينات من هذا القرن توالى عقد المؤتمرات لدراسة كل جانب من جوانب الحياة والحضارة في أفريقيا . وقد عقدت ثلاثة مؤتمرات للدراسات الأفريقية تحت عنوان International Congress of Africanists ، الأول برياسة Dr. K. O Diki في أنكرا سنة ١٩٦٣ والثاني برياسة Dr. A. Diop في دكار سنة ١٩٦٧ وكان الثالث في أديس أبابا وعقد في سنة ١٩٧٣ برياسة Dr. Aklilu Habte . وبالإضافة إلى ذلك فقد عقدت مؤتمرات إقليمية للبحث في تاريخ منطقة أو إقليم واحد من القارة مثل المؤتمر الذي عقد في الخرطوم تحت عنوان (السودان في إفريقيا) أو مؤتمر الدراسات الإثيوبية الذي عقد في أديس أبابا سنة ١٩٦٥

(٧) هناك فترة من تاريخ أفريقيا — وهي الفترة التي تمتد من القرن السابع الميلادي حتى القرن الخامس عشر تقريبا — هذه الفترة لانقطاعها إلا المصادر العربية . وهناك جهود متزايدة سواء على مستوى فردي أو مستوى دولي لحصر وتجميع ودراسة ونشر هذه المخطوطات أو ما يتعلق منها بأفريقيا من هذه الجهود مجلدين باللغة الروسية عن المخطوطات العربية عن أفريقيا وقد أورد المؤلفان المخطوطة باللغة العربية ثم الترجمة الروسية :

V.V Matveev and L.E.C. Kubbel

Arabskie Istochnike from VII — X Vekov & from X — XII Vekov (Moskwa, 1960 — 1965)

(٨) فوزي مكاوي ، الروايات الشعبية كمصدر لكتابة تاريخ أفريقيا . (تحت الطبع)

S.C. Ukpabi, Op. Cit. pp. 298—299. (٩)

University of Dar. Asslam, (١٠)

Maji Maji Research Project (Dar-Assalam, 1968).

Gray, The Dating of the African History, in The (١١)

African History in Middle Ages edited by R. Oliver (London, 1969).

B.E. Fagg, The Nok Culture in Prehistory, Journal (١٢)

of the Historical Society of Nigeria (Ibadan, 1959) pp. 288—293.

R. Oiver and B. Fagan., Africa in the Iron Age (١٣)

(London, 1975) P.I.

(١٤) فوزي مكاوي، مملكة مروي، رسالة ماجستير غير منشورة (القاهرة، ١٩٧١)

ص ٢٧٧

(١٥) راجع تقرير مؤتمر (تاريخ وآثار أفريقيا) الذي عقد بلندن سنة ١٩٦١

ص ١٩٢ وقد سبقَت الأثارة إليه .

(١٦) تلعب هذا الأسلوب في الوقت الحاضر العديد من الدوريات ومن حسن الحظ

أن مجلة الدراسات الأفريقية التي تصدر عن معهد الدراسات الأفريقية بالقاهرة تلعب ذلك منذ صدورهما سنة ١٩٧١ .

(١٧) هناك محاولات كثيرة لتقسيم تاريخ أفريقيا إلى عصور . البعض يحاولون تقسيم

تاريخ القارة إلى العصور التاريخية المتعارف عليها بالنسبة للحضارة العالمية (التاريخ القديم —

التاريخ الوسيط — التاريخ الحديث والمعاصر) ولكن أغلب الباحثين يرون أن تاريخ

أفريقيا له طبيعة خاصة ويجب أن يقسم تبعا لظروف القارة نفسها ، ومع ذلك فهم يختلفون

فيما بينهم فالبعض يقول بتقسيم تاريخ أفريقيا إلى ثلاث فترات الأولى : تاريخ أفريقيا من أقدم

العصور حتى قدوم الاستعمار . والثانية : تاريخ أفريقيا خلال فترة الاستعمار . والثالثة :

تشمل تاريخ القارة من الحرب العالمية الثانية حتى الآن ..

أنظر :

Endre Sik, The History of Black Africa, Akademiai Kiado (Budapest, 1966).

وهناك باحثون آخرون يرون تقسيم أفريقيا إلى العصر الحجري والعصر الحديدي ثم تاريخ الاستعمار والتحرير ، وهم بذلك يستخدمون تسميات أثرية ثم تسميات سياسية وهم يعتقدون بأن السبب في هذه التسميات راجع إلى اختلاف عصر استخدام الحديد من مكان لآخر في القارة رغم أنه أحدث نفس الآثار الحضارية عند استخدامه في كل منطقة :

R. Oliver and B Fagan, Op. Cit.

ومن الواضح أن كل من التسميات الثلاثة عليها مآخذ ولا أعتقد أنها سوف تدوم طويلا ، وما زال الباب مفتوحاً للمحاولة من جديد حتى يستقر تاريخ أفريقيا في عصور .

أنظر : فوزى مكاوى ، تقسيم تاريخ أفريقيا إلى عصور (تحت الطبع)

International African Institute, International Guide to (١٨)
African studies Research (London, 1975).

حصرت هذه الدورية ٤٤٦ معهداً حتى عام ١٩٧١ رغم أنها لم تسجل كثير من المعاهد والجامعات المعروفة .

(١٩) أصدرت الجمعية الأفريقية بالقاهرة ملحقاً لمجلتها عام ١٩٧٥ به خطة الدراسة لهذه المجلدات .

(٢٠) بلغ عدد البحوث النظرية والحفائر الأثرية والدراسات الميدانية عن أفريقيا ودولها والتي أحصرتها مجلة الدليل الدولي لأبحاث الدراسات الأفريقية (السابق الإشارة إليها) ٦٦٤٠ بحثاً منها ١١٤٦ بحثاً تاريخياً تصنف كآلاتي : ٤٣ بحثاً عن القارة ككل و ٣٨٠ بحثاً عن شرق أفريقيا و ١١٢ بحثاً عن شمال أفريقيا و ١٦٦ بحثاً عن جنوب أفريقيا و ٤٤٥ بحثاً عن غرب أفريقيا . هذا الرقم رغم ضخامته لا يمثل الرقم الصحيح للأبحاث وإنما يمثل فقط ما استطاعت المجلة حصره ، والدليل على ذلك أنه لم يشتمل على بحث واحد للجامعات المصرية رغم كثرتها ، ولم يشمل سوى بحث لمصرى واحد هو الدكتور مصطفى مسعد لذي كان يعمل بالسودان .

R. Oliver and J.D. Fage, Cambridge History of Africa, (٢١)
Cambridge University press (Cambridge)

صدر الجزء الرابع من هذه المجلدات عام ١٩٧٤ وقد كتبه جري Gray عن تاريخ أفريقيا الحديث .

(٢٢) من أشهر قوائم الكتب والمقالات عن أفريقيا :

International African Bibliography, 3 Bloomsbury place, London,
WCI.

وهذه القائمة تقدم (٣٠٠٠) عملاً جديداً عن أفريقيا كل عام .

(٢٤) بعض الدول في شرق أفريقيا تعترف بما صنفته الأيدي المصرية أثناء الوجود المصري هناك في القرن التاسع عشر ، وأخص بالذكر الصومال التي أصدرت كتباً بمناسبة انضمامها للجامعة العربية سنة ١٩٧٤ م أشارت فيه إلى الأثر العمراني والحضاري الكبير الذي تركه المصريون هناك أثناء وجودهم لمدة سبعة عشر عاماً ، وقد ذكر الكتيب على سبيل المثال أن نظام إمداد المنازل بالمياه في بربرة ما يزال حتى الآن كما أتمه المصريون خلال القرن التاسع عن أنظر :

The Ministry of Information and National Guidance, Somalia
and the Arab League (Mogadishu, 1974) pp. 14 - 15.

دور الوحدات العسكرية السودانية

في ثورة ١٩٢٤

للدكتور أحمد إبراهيم دياب

جامعة أم درمان الإسلامية

أقدم هذه الدراسة عن « دور الوحدات السودانية في ثورة ١٩٢٤ » ،
وهذه الفترة لم تدرس لذاتها بالتفصيل ، بل أن كل الذين تعرضوا لدراستها
ربطوها بغيرها من الأحداث ولم يهتم أحد بوضعها في موضعها وإعطائها
ذاتيتها وكنيوتها وذلك عندى لحوقهم من كشف حقائق هذه الفترة المعاصرة .

وما من شك في أن الذين يرغبون في تسجيل التاريخ المعاصر ودراسته
على حقيقته في مجتمعنا السوداني يتعرضون لامتحان عسير في الجبن والشجاعة
وهما أمران أحلاهما مر ، لأن الجبن بالمحاباة إهدار للذمة ، والأمانة ، والشجاعة
ستجلب لصاحبها العداوة والكراهية والحقد في مجتمعنا الذي يعيش على
الشالية والالتئامات ، ويفكر في مصالحه الشخصية ، ويقدمها على المصلحة
الوطنية . ومع ذلك فقد اخترت جانب الشجاعة المحضة في هذه الدراسة
معتمداً على الأسس التالية التي آليت على نفسي أن أسير عليها في كل بحث
أو دراسة أقدها .

أولاً : الفترة التي كانت هذه الدراسة جزءاً منها هي أدق فترات السودان
المعاصر في بنائه وطمس الحقائق التي صاحبت هذه الفترة وتزويرها وتعديها

لمصلحة عهد من العهود أو وضع من الأوضاع ، تضليل أثره على مسيرة واستقرار السودان بعد الاستقلال .

ثانياً : العقلاء من الناس يقدرّون الحقيقة ولا تهمهم الشخصيات مهما كان مركزها الاجتماعي أو وضعها العائلي أو المالي أو الطبقي الذي وصلت إليه في وقت من الأوقات وبطرقها الخاصة في عهد الاستعمار وبمساعده ، ويجرون وراء البحث العلمي عنها . أما غير العقلاء في المجتمع أو الذين لا تهمهم مصلحة وطنهم فلا عبرة ولا أهمية لانعكاس الحقائق على نفوسهم لانهم إما صاروا تبساً لأفكار أو عقائد وهمية أو شخصيات رمزية اصطناعية .

ثالثاً : إن التاريخ المزيف مهما وجد من عناية وتأيد ورعاية لا يعيش إلا ريثما ينكشف وهو يدمر صاحبه حياً أو ميتاً .

رابعاً : لم يمنحني حبي وتقديرى لرجال كبار في المجتمع السوداني أن أسجل مواقفهم التي وقفوها في هذه الفترة وفقاً لما تمخضت عنه الوثائق بعد تحليلها تحليلاً علمياً موضوعياً .

وانطلاقاً من هذه الأسس أقدم هذه الدراسة متحرراً بقدر المستطاع أن أكون محايداً ، أعطى كل ذي حق حقه ، وإن خالف مذهبه رأي وفكرة وطنيتي ، ولكنني لم أستطع بحال من الأحوال أن أتغاضى عن كشف القناع عن وجه أعوان الاستعمار البريطاني وعن أساس المراهقين فكرياً وتجار الدين والمناصب لا لكرهيتي لمؤلاء أو أولئك ولا لما لحقوه وما زالوا يلحقونه بالسودان من أذى وعنّت وإرهاق وتضليل وجرياً وراء الحكيم ، بل لجلاء الحقيقة التي تغاضى عنها السياسيون والباحثون والكتاب .

أما أحداث الدراسة فتقول :

اختلفت الروايات في التاريخ الذي تم فيه تكوين جمعية اللواء الأبيض

وذلك لأنها بدأت سرية أولاً ثم كشفت الغطاء عن نفسها عندما أرسلت
برقية إلى الحاكم العام في ١٦ مايو ١٩٢٤ . وفي رأى المخابرات أن الجمعية
قد تكوّنت في أكتوبر ١٩٢٣ وكان أسسها «الشبيبة السودانية»^(١) وتغير
هذا الاسم إلى اللواء الأبيض في مايو ١٩٢٤ عندما انعقد أو اجتماع حضره
حسب قول تقرير المخابرات كل من الملازم أول علي عبد اللطيف وصالح
عبد القادر وحسن شريف وعبيد حاج الأمين وحسن صالح المطهري وأسطى
رمضان محمد وإسماعيل ومكي إبراهيم المشلي وموسى لاط. وحسن مدحت
وعز الدين راسخ وعلي أحمد صالح والطيب بابكر وأحمد المنياوي وأحمد
المليجي وتوفيق وهي ويزوباشي عبد الحميد حافظ ويزوباشي أحمد الصاوي
وملازم فؤاد حافظ^(٢) . وفي هذا الاجتماع تم اختيار اسم اللواء الأبيض
اسماً للجمعية، ويتضح من الأسماء التي ذكرتها والتي تعتبر بمثابة لجنة مركزية
أن للنخبة العسكرية دوراً واضحاً في العمل داخل التنظيم السيامي ومن هنا
يظهر لنا أن كل ما حدث بعد ذلك بين صفوف العسكريين وفي وحداتهم
تجاوباً مع فكر اللواء الأبيض لم يكن شيئاً عفوياً بل كان نابعا من الصلة
بالتنظيم السيامي .

وقد ظهرت هذه الصلة أول ما ظهرت عندما تم تكوين وفد من اثنين
من أعضاء اللواء الأبيض ليحملا عرائض الولاء لمصر لتكون سنداً
للمفاوض المصري ضد العرائض التي جمعتها الإدارة البريطانية بمساعدة
السادة أعضاء وفد ولواء الأعيان الذي سافر لانتجلترا في ١٩١٩ ، وكان علي
رأسهم السادة علي الميرغني والشريف يوسف الهندي وعبد الرحمن المهدي
وقد كان وفد الجمعية مكوناً من الملازم أول زين العابدين عبد التام رئيساً
للفد وممثلاً للجناح العسكري في الجمعية وكان معه في الوفد محمد المهدي
الخليفة عبد الله ليمثل الجانب المدني .

وتكوّن الوفد من عسكري ومدني بوضع نشاط اللواء الأبيض في

الجانبيين كما أن فيه تمثيلا للجانب الاجتماعي والوحدة الوطنية وهو أن الجمعية لا تؤمن بالفوارق الاجتماعية ولا بالعنصرية والقبلية بل أنها حاربت العنصرية والقبلية والطائفية^(٢) التي ولدت وترعرت في أحضان الإدارة البريطانية وغذتها وورعتها السياسة الاستعمارية لتتكون سلاحاً تضرب به وحدة الشعب السوداني وقتما تريد كما حاربت الجمعية القبلية في أبسط صورها بل أن الجمعية كانت بوثقة انصهرت فيها كل الفوارق الاجتماعية لتتصب في قالب الوحدة.

وفي ٢٣ يونيو ١٩٢٤ تم القبض على خمسة من أعضاء الجمعية بعد قيادتهم مظاهرة، وكان بينهم الملازم زين العابدين عبد التام وكانت المظاهرة تحدياً لقرار مدير الخرطوم بمنع المظاهرات. وقد أرسل الضباط وضباط الصف المتقاعدين برقية إلى رئيس مجلس الوزراء المصري وضحووا فيها مشاركتهم للشعب واحتجاجهم ضد اعتقال المتظاهرين:^(٤)

« باسم الضباط والموظفين والشعب السوداني نحتج بشدة ضد اعتقال المتظاهرين الذين هتفوا بحياة مصر والسودان بعدما تم ضربهم بالسيوف وسجن خمسة منهم. أننا نؤكد لكم أن كل السودانيين غير مسئولين عن أى شيء ربما يحدث نتيجة لهذه السياسة ».

إعضاء ستة عشر ضابطاً وصف ضباط بينهم اليوزباشى كبسون الجاك وعبد الله حسن وعبد الله نور وفرج أبو النجا.^(٥) وهذه البرقية تبين لنا المشاركة التامة بل التلاحم بين العسكريين حتى المتقاعدين منهم في الأحداث السياسية التي كانت تجري. ولم تقف المشاركة بإرسال البرقيات والعمل في الميدان السياسي بل أنها تطورت مع تطور الأحداث وتصاعدها فكانت أول مظاهر تلاحم العسكريين مع ثورة اللواء الأبيض ودورهم فيها.

مظاهرة طلاب المدرسة الحربية :

لقد كان للتصاعد السياسي الذي خلفته اعتقالات أعضاء اللواء الأبيض

ومهاكمة على عبداللطيف ومحمد سر الختم المهندس بالرى دافعاً لطلبة المدرسة الحربية لكي يتفاعلوا مع المجتمع الذى يعيشون فيه . وقد أثارت مظاهرة طلبة المدرسة الحربية الجزع بين صفوف رجال الإدارة البريطانية ، وقد سبق أن حذر مكتب المخابرات من خطر الثورة بين الوحدات السودانية بحاميات الجيش المصرى . كما حذر السيد عبد الرحمن الساطات البريطانية، فى تقرير رفعه للمخابرات درقم ٣٧١/١٠٩٠٥ ص ١٢ تقريراً يورث عن القلاقل السياسية فى السودان د فى ٣١ يوليو ١٩٢٤ ، موضحاً احتمال ثورة تقوم بها الوحدات السودانية العاملة فى الجيش المصرى^(٦) . بينما وصفهم السيد على فى خطاب له للحاكم العام بقوله د إن أصدقاء الحكومة المخلصين هم دافى الضرائب أما أسوأ أعدائهم أولئك الذين يأخذون مرتبات من الحكومة مثل الموظفين والضباط السودانيين فى الجيش المصرى^(٧) .

وهذا يوضح الخوف الذى استحوذ على الشخصيات الموالية للإدارة البريطانية من نجاح الثورة خوفاً على موقفها ومستقبلها الرهين بالوجود البريطانى .

لقد كان انصرمحات الزعماء الدينيين وأقوالهم ضد جمعية اللواء الأبيض دافماً لطلبة المدرسة الحربية لكي يتفاعلوا مع المجتمع الذى يعيشون فيه . فقد عادوا من إجازاتهم السنوية وانتظروا فى الدراسة فى آخر يوليو ويقول محمد عثمان عبد البخيت أحد طلبة المدرسة فى مذكراته دسرى النشاط السياسى إلى مجتمعنا بسبب بعض التصرفات وبدأنا نجتمع بعد الساعة التاسعة ليلاً سرأ فى أحد عتار الداخلية لتداول الموقف وبدأ الحماس يسرى فى صفوفنا وفى مساء الجمعة ٨/٨/١٩٢٤ ، وفى اجتماع حضرناه كلنا قررنا أن نخرج فى الغد فى مظاهرة نعبر فيها عن سخطنا واحتجنا على مظالم الانجليز فى السودان ونؤيد فيها اتجاهنا نحو مصر^(٨) .

وقول محمد عثمان هذا يوضح لنا أسباب وهدف المظاهرة وهي :

أولا : الخروج في مظاهرة للتعبير عن :

(أ) السخط على مظالم الانجليز في السودان .

(ب) النظم للاحتجاج على تلك المظالم .

ثانياً : تأييد اتجاه وحدة وادى النيل وهو هدف اللاواء الأبيض (٩) .

وفي صباح السبت ٩ أغسطس خرج الطلاب إلى ميدان المدرسة وكل واحد منهم يحمل بندقية وخمسين طلقة رصاص . وقبل الخروج من المدرسة قام الطلاب بتبليغ الضابط المسئول بقرارهم وفي الساعة السادسة خرج الطلاب من سور المدرسة بهيئة منظمة تحت قيادة بشجاويش الفرقة محمد فضل الله الشناوى (١٠) . وتوقفت المظاهرة عند سكينات عباس التي كانت بها أورطة مصرية وهتف المتظاهرون بحياة الملك فؤاد الأول ثلاث مرات ثم استأنفوا سيرهم إلى محطة سكة حديد الخرطوم حتى يتمكن مسافروا قطارات خط الأبيض وبور سودان وحلفا / مصر من نقل خبر المظاهرة إلى الجهات الثلاث ناهيك عن نقلها للصحف المصرية كما ينقل خبرها المودعون إلى ذريهم في العاصمة . وكانت المحطة مليئة بالمسافرين والمرددين الذين انضم جزء منهم إلى المتظاهرين وساروا خلفهم يهتفون بحياة مصر والسودان (١١)

ومن محطة الخرطوم توجهت المظاهرة إلى منزل على عبد العايف — وكان بالقرب من المحطة خلف داخلات كلية الطب — وكان على مسجوننا في سجن كوبر ، فأدوا التحية العسكرية للبطل السجين وهتفوا بحياته وقد خرجت زوجته ومعها نساء الحى يحيين الطلاب بالزغاريد . وظلت جماهير الشعب تسير وراء المظاهرة بعضهم يتابعها في إعجاب بالبطال وتأييد لهدفها

والبعض تابعها لبشبع هتافاً ويرتوى نداءً ولينفـس عن شعوره المكبوت
وينشدون مع الطلاب أناشيد خليل فرح فتان الثورة وشاعرها :

نيلنا يا نيل الحياة حياك حياك الحيا

ونشيد :

نحن ونحن الشرف الباذخ دأبى الكـر شباب النيل

وتردد نشيد الشاعر عبيد عبد النور :

يا أم ضفائر قودي الرسن واهتق فليحيا الرسن^(١٢)

وعند ميدان عباس - هيئة الأمم حالياً - اعترض المظاهرة اللواء
مكاون باشا قائد الخرطوم وأمر الطلاب بالرجوع إلى ثكناتهم ، وكان ردم
حازماً حاسماً مثل قرارهم فى الخروج دكل من يعترض سبيلنا سبيلقى
حتفه،^(١٣) . فانسحب مكاون أمام إصرارهم ، وتقدمت المظاهرة حتى وصلت
مكان مبنى بنك السودان حالياً بالخرطوم وفى منتصف شارع الخديوى
إسماعيل - الجامعة حالياً - كمنت لهم قوة مكونة من رجال البوليس والتمايشة
المسلحين بالعصى الغليظة والذين استخدمتهم السلطات البريطانية لتفريق
مظاهرات اللواء الأبيض ومعهم قنسدان البوليس ومستربيل نائب مدير
الخرطوم ، فاتخذ الطلاب تشكيلا عسكريا استعداداً للمركة لولا أن تدخل
اللواء مكاون الذى تابع المظاهرات فأمر البوليس بالانصراف وأنقذ
الموقف^(١٤) .

اتجهت المظاهرة شرقاً بشارع الخديوى - الجامعة - حتى قصر الحاكم
العام حيث وقفت ورددت الهتاف بحياة سجناء اللواء الأبيض وبحياة
السودان ومصر وسعد زغلول وعلى عبد اللطيف وبسقوط الإنجليز . ولم
يعترض طريقها أحد ولم يتعرض لها حرس القصر ، واستمرت فى سيرها

شرقا حتى عبرت كوبرى النيل الأزرق إلى السجن العمومى د كوبرى ، فادت
التحية العسكرية أمام السجناء السياسيين وهنفت بحياة على عبد اللطيف وحياة
السودان ومصر (١٥) .

بعد أن أدت المظاهرة مهمتها بنجاح وأبرزت شعورها واحتجاجها رجع
الطلاب إلى داخلاتهم بالمدرسة فوجدوا أن السلطات الإنجليزية قد جردت
المخازن من السلاح والذخيرة أثناء غيابهم بل أن المدرسة قد أحيطت بقوة
من الجيش الإنجليزى بعد أن دخل كل الطلاب فيها ووقف الجنود الانجليز
في حالة استعداد لاطلاق النار كما أمر قائدهم الطلبة بتسليم سلاحهم فرفض
الطلاب بل استعدوا من جانبهم بأن قاموا باحتلال مواقع دفاعية في داخل
المدرسة وسطوح مبانيها (١٦) .

وفى تلك اللحظات الحرجة تدخل بعض الضباط السودانيين لتسوية
الموقف ولتخفيف حدة المواجهة وتهدة الثورة بإدخال أسلوب المفاوضة
والمساومة وكان هؤلاء الضباط اليوزباشية عبد الله خليل وأحمد عقيل وبلال
رزق وطلب الضباط من الطلاب أن يسلموا سلاحهم ، وهو نفس الأمر الذى
أمر به الجيش الانجليزى من قبل ، وهنا اشترط الطلاب أن تنسحب القوة
الانجليزية أولا مقابل إلقاء السلاح . وجرت مشاورات سرية وافقت
بعدها القيادة الانجليزية على سحب قواتها على أن تحمل محامى فرقة مصرية
وسلم الطلاب أسلحتهم لأركان حرب المدرسة (١٧) .

واستسلم الطلبة وفرضت حراسة صارمة ورقابة دقيقة حول المدرسة
وأضيت الأنوار الكاشفة ليلا ووجهت داخل المدرسة لرصد أى تحركات
للطلاب أثناء الليل حتى لا يحدث شئ مفاجئ . وغير متوقع منهم نحو الساطة
أو ينصلوا بأى جهة خارج المدرسة . وبقي الطلاب ثلاثة أيام داخل أسوار
المدرسة وهم ينشدون الأناشيد الوطنية والأغاني الثورية . وخافت إدارة

المخابرات من قيام اتصالات بين الطلبة والفرق السودانية التي لا يقر لها قرار (١٨)، فسافت الطلاب من المدرسة ووضعهم في سجن حاتم وهو عبارة عن باخرتين (الملك والعين) أوقفنا وسط قليل الأزرق أمام مباني كلية غردون بعيداً من أن يصلهم أحد أو يتصلوا بأحد وهناك وحصل الطلاب هتافاتهم وأناشيدهم وظلوا ساجدين على البوارج إلى أن بدأت محاضراتهم العسكرية في ٢٧ أغسطس .

ويعزى تقرير مستر ايورتي الذي كتب في منتصف ١٩٢٥ إلى أن أسباب ودوافع مظاهرة طلبة المدرسة الحربية إنما هي شخصية بحتة وهي أن أوامر عسكرية صدرت بترقية اثني عشر طالباً من المدرسة الحربية في القاهرة وترقية اثنين فقط من مدرسة الخرطوم ولذلك خرجوا احتجاجاً على عدم ترقية ترقية (١٩) . ولنفي هذا الافتراض البعيد عن الحقيقة أود أن أعرض خطاباً أرسله الحاكم العام بالإجابة مستر ولسي إلى اللورد اللنبي معلقاً فيه على المظاهرة وذلك في ٢١ أغسطس حيث قال وقبل حادثة مدرسة الخرطوم الحربية كان مظهرهم الخارجي ينم عن حسن النظام والرضا والطاعة ومن أكثر الأجهزة الحربية ولاء في السودان . لكن استمرار رأي موحد للطلبة والسرية التي أحيطت بها المؤامرة حتى نفذت تظهر على أنها كانت نتيجة لدعاية ماهرة ذكية ضد البريطانيين ولربما نجحت إلى حد غير متوقع ، (٢٠) .

وأرى أن المقصود بهذا الوصف دعائية ذكية ضد البريطانيين أعضاء اللواء الأبيض ومؤيديها وقد اتهمت السلطات بعض المتقاعدين من الضباط والذين عرفوا بتأييدهم للواء الأبيض حيث قالت ديبدو أن الملازم أول معاش سليم الأمين وملازم أول متقاعد محمد شناوي وملازم أول موسى الله جابو كان لهم دور في قيام التمرد لأن محمد شناوي هذا له ابن وهو البشجاويش في المدرسة الحربية وقد جره والده في المناقشات معه ، (٢١) .

وما يؤكد القول بأن المظاهرة تناج طبيعى لفكر اللواء الأبيض قول
المخابرات بأنه بين المدة من سبتمبر ١٩٢٣ إلى يونيو ١٩٢٤ أثبت أن
على عبد اللطيف استطاع أن يؤسس جمعية ذات نفوذ واسع . وقد استطاع
نفوذ على عبد اللطيف أن يتسرب إلى المدرسة الحربية وقد سماه الطلبة
«الأمم الأسود» وهو البطل الوطنى وسار من وراء الضباط السابقين
والسودانيين» (٢٢) .

واهتمت السلطات بالمظاهرة اهتماماً كبيراً وذلك لأن عدداً من الطلاب
من أسسودانية ذات نفوذ دينى وقبلى وتجارى فى أجزاء مختلفة من السودان
اشترك فيها وإن أى عمل تجاه أبنائهم الطلاب سيؤثر على العلاقة بين الحكومة
وهذه الفئة (٢٣) .

ويقول أحمد بكر مصطفى (٢٤) أن الذين أهدوا وخططوا للمظاهرة هم
كل من محمد فضل الله الشناوى وإدريس عبد الحى ومحمد عبد العظيم خليفة
وأحمد بكر مصطفى .

وفى نفس اليوم الذى حدثت فيه مظاهرة طلبة المدرسة الحربية ضد
السلطات البريطانية قامت فى عطبرة مظاهرات استمرت لمدة ثلاث أيام
متواصلة ، كانت نتيجةها لأول مرة عدد من القتلى وتدمير شامل لورش
السكة الحديد .

موقف الوحدات العسكرية بالأقاليم

لقد أثارت مظاهرة طلبة المدرسة الحربية الجزع بين صفوف رجال
السلطة الانجليزية وقد سبق أن حذر مكتب المخابرات من خطر الثورة بين
الوحدات السودانية بحاميات الجيش المصرى وهم الذين وصفوا خطأ بأنهم
الضباط السود المنحدرين من سلالة الرقيق» (٢٥) . وقد رددت هذه العبارة

من قبل المخابرات ونفى هؤلاء وأولئك أن الضباط السود من سلالة القبائل
النيلية على الأخص الدينكا الذين هاجروا أسلافهم أو أخذهم محمد علي بعد
مد الإدارة المصرية للسردان في عشرينات القرن التاسع عشر ليؤسسوا جيش
محمد علي الحديث ولم يكونوا رقيقاً قط . وهذه نعمة أثارها الانجليز لتسير
عليها سياسة فرق تسد التي تسميهم بالضباط السود وتسمى غيرهم بالعرب بل
وتصفهم بأنهم العنصر الأكثر تأثيراً - سياسياً هم الضباط السود المفصولين
والذين في المعاش ولقد عرفوا بظهورتهم وتهديدهم وهذه الطبقة تتكون من
الضباط ذوي الشخصية القوية من أرباب المعاشات وأيضاً الضباط الذين
فصلوا بعد تقديمهم لمحساكم عسكرية تأديبية بسبب مخالفات عسكرية وهم
ينحدرون أصلاً من سلالة الرقيق الذين أبرزتهم يد القدر في كل التاريخ
السياسي للسنوات الأخيرة (٢٦) .

لقد برز موقف الوحدات العسكرية في الأقاليم في أربعة أحداث هي :

١ - حادثة العلم في واو :

بدأ الحادث في يوم ٢٤ أغسطس حين رفعت السلطات العلم المصري
القديم ذي اللون الأحمر بدلا من العلم الأخضر الجديد على مبنى المديرية في
صباح ذلك اليوم وتورد المخابرات بأن مدير المديرية قد رفع العلم الأحمر
القديم لأنه كان يرفع علما مصرية أخضر اخاصاً بالجيش (٢٨) وليس بالمديرية
وبما أنه عرف أن هنالك اختلافا بين علم الجيش وعلم المديرية ففضل أن
يرفع العلم القديم الأحمر بدلا من الأخضر الذي يخص الجيش . وهذا بالطبع
تبرير لما حصل وقد كان رد الفعل قويا من ضباط الوحدات العسكرية
التابعين للقوات المصرية ، فقد وجه أحد الضباط نظر مدير المديرية للتغيير
الذي حدث في العلم وسئل عن سبب تغييره وأن في هذا إساءة لهم وقد رد
مدير المديرية بما أوردته المخابرات سابقاً . واستاء كل الضباط ومأمور

المركز عما أدى إلى أن يرفعوا الاحتجاج كجموعة لمدير المديرية ثم أرسلوا برقية احتجاج لوزير الحربية بواسطة القائد العام يحتجون على ما فعله مدير المديرية موضحين أن عمله إنما هو اهانة مقصودة للعلم المصري . كما أن المدير عندما مثل لم يعط مبررات (٢٨) . وبما أن الحادث ظفيف إلا أن الضباط من أعضاء اللواء الأبيض قد أحسنوا استغلاله وعلى رأسهم الملازم أول زين العابدين عبد التام الذي نقل إلى واو للتخلص من أفكاره الثورية ولتعتبر له كفى واعتبرت المخابرات أن الضباط المنتمين للواء الأبيض وراء حوادث الإثارة والعنف وأنه من الواضح أن هؤلاء الضباط صلة بالخرطوم ومصر وأن هناك خطة موحدة لإثارة حوادث متعددة لتسكون دليلا على أن الجنوب كالشمال يزار تحت حكم الاستعمار البريطاني (٢٩) .

واتهمت السلطات البريطانية بعض الضباط المصريين بالإضافة للسودانيين بأنهم وراء حادث العلم فقامت بمحاكمة اثنين منهم باعتبارهم من زعماء الحادث في محكمة عسكرية قروت نقلهم للقاهرة .

وقد علق تقرير ابورت عن اشتراك الضباط السودانيين في حادث واو بقوله إن طبيعة قسم يمين الطاعة الذي أداه الضباط لمصر وتطلعاتهم الوطنية التي اكتسبوها من اتصالهم بالطلاب وطبقة الخريجين هي من أهم الأسباب (٣٠) .

٢ - مظاهر ملكال العسكرية :

في عيد الأضحى في سبتمبر ١٩٢٤ أقيم احتفال عام بالعيد بمسكرا ١٢ جي أورطة سودانية ضم الموظفين والتجار والضباط والجنود في ملكال وقام اليوزباشى المصرى نصر الدين بالقاء خطاب سياسى ندد فيه بالاستعمار وطالب بخروج الانجليز من البلاد وشجب محاولة الحصول على توقيعات من الموظفين والتجار لضم السودان للتاج البريطانى حاثا الانضمام لمصر .

للعمل يدا واحدة ضد العدو المشترك ليحيا وادى النيل حياة طيبة (٢١) .

وكانت نتيجة الخطبة أن اعتقل فوزى ووضع بالسجن وتلا اعتقاله ضغط شديد من جانب الانجليز وسوء معاملة جعلت الأورطة في حالة تدهور أدت إلى أن يقرر الجنود بالتظاهر والثورة وقد جابوا الشوارع في مظاهرات صاخبة ضد ما رأوا أنه إساءة عامة لقائدهم الأعلى الملك فؤاد وذلك من ضابط بريطاني فقاموا بصرف الذخيرة لأنفسهم وأقاموا حراسة على مخازن الذخيرة وسارت الأورطة في هيئة ظاهري تمزق أمامه الموسيقى وترفع صورة الملك فؤاد هاتفة بحياته وحياة مصر والسودان وسقوط إنجلترا (٢٢) وانضم الموظفون المدنيون للمظاهرات مما أدى إلى أن يوجه الإنجليز اللوم لكل من الضباط السودانيين والمصريين بالحامية وموظفي الري المصري (٢٣) .

وفي اليوم التالي قبض على خمسة من ضباط الصف من بينهم علي رمضان جابر وسعد سعيد عبدالله وسليمان داود وعبدالله حبيب الله الذي كان يحمل صورة الملك . وبعد القبض عليهم أرسل انذار من مجهول إلى قائد الأورطة الانجليزية بتهديده بالقتل وجميع الانجليز كما جرت محاولة لحرق منزله واتهم بارسال خطابات التهديد وإثارة الجنود وصف الضباط للتظاهر عدد من الضباط السودانيين والمصريين الذين أمروا بالقيام بالخرطوم وهم كل من الملازم ثاني عبد العزيز حيدر ، محمد شريف ، علي البنا ، عزيز شريف ، ومحمود التومي الذي نقل إلى ١٠ جى أورطة بتلودى (٢٤) .

وحكم على ضباط الصف الخمسة لمدة تراوح بين سنتين وستة سجنًا مع تخفيض رتبهم إلى درجة نهر ونقلوا للسجن الحربي بالخرطوم وبالرغم من ذلك طلب مدير المديرية ارسال وحدات سريعة له وأرسلت له فرقة انجليزية على باخرة خاصة خوفا من قيام مظاهرات جديدة (٢٥) .

٣ - أحداث تلودي :

كانت حادثتا وار وملسكال نذيرا بالحوادث اللاحقة في وسط الفرقة العسكرية .

كانت الأورطة العاشرة السودانية عسكرية في تلودي عاصمة مديرية عجمال النوبا وكان كل ضباط الأورطة مصريين ما عدا ستة منهم سودانيين وقائد الأورطة انجليزى ، ولما حدث اغتيال ستاك بمصر وما تبعه من انذار وأمر إبعاد الجيش المصرى من السودان ، جمع قنندان الأورطة من جنود وضباط سودانيين ومصريين وبعد أن قرأ علينا قرار الحكومة الانجليزية والقاضى بإبعاد القوات المصرية من السودان طلب من الجنود مغادرة الطابور إلى حيث يسكنون ورجع الضباط المصريون إلى المعين ولم يبق غير السودانيون وهم :

اليوزباشى خضر على ، والملازمين محمد جلال وعبد الحميد فرج الله ، سيف عبد الكريم ، محمد صديق ومحمود التومى ، (٣٦) .

استاء الضباط السودانيون من هذا التصرف واتفقوا على الوقوف بجانب إخوانهم الضباط المصريين . واجتمع الضباط الستة باخوانهم المصريين داخل ثكناتهم واقسموا بأن لا يخرجوا لطابور طرد منه الضباط المصريون وكان ذلك في يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٣ . ويقول عبد الرازق ربحان : ان الضباط السودانيين قد اتصلوا بالقومندان الانجليزى وأبلغوه بأنهم لا يتخلون عن زملائهم الضباط المصريين وبما أنهم يدينون بالولاء للملك مصر فليس أمامهم إلا الرحيل إلى مصر مع أولئك الضباط . وطلب القومندان منهم تسليم مسدساتهم ليتسنى له الإستجابة لرغبتهم والسماح لهم بمرافقة الضباط المصريين فهددوا القومندان فاتفق بالمدير الانجليزى نورسكوت الذى وضعهم مع الضباط المصريين بالحبس الاجبارى فى الحبس

وانتدب سرية تتألف من ٤٤ جندي و ٢٠ صنف ضابط ومع كل واحد منهم ٧٥ طلقة وأمر أولئك الجنود بعمل كردون على اليس،^(٢٧) .

وفي اليوم التالي ٢٥ نوفمبر استطاع أحد الضباط السودانيين أن يرسل خطاباً للجوايش طالباً تسليمهم من الاعتقال فقام الجوايش بجمع ٤٠ جندياً وبعد أن أقسموا جميعاً على المصحف توجهوا إلى مكان اعتقال الضباط حيث استطاعوا أن يستبدلوا الحرس الموجود وبعدها إطلاق سراح الضباط وتسليمهم مسدساتهم وبذلك صارت الأورطة في حالة ثورة كاملة بعد أن استولوا على مخازن الذخيرة واستقلت الأورطة بزمام الأمر في المدينة بقيادة اليوزباشي خضر علي والملازم ثان عبد الحميد فرج الله مما اضطر السلطات البريطانية إلى استقدام قوة الهجانة من الأبيض لتعين على استرداد الموقف كما قامت ٣٢ عربية مدرعة من الخرطوم بحمل فرقة من الجيش الانجليزي^(٢٨) .

وبعد جهود سلبية عنيفة استسلم الثوار في ٢٨ نوفمبر واعتقل الضباط الستة وأرسلوا للخرطوم واعتقلوا في الطابية الانجليزية ثم حوكموا بعد ذلك . أما الأورطة فقد تم تسريحها بعد الحادث مباشرة .

٤ - مظاهرة الهجانة بالأبيض :

كان اليوزباشي محمد صالح جبريل قائداً لبلوك الهجانة بالأبيض عاصمة كردفان وقد تمكن من إثارة قوات الهجانة حيث طاف بهم المدينة جنوده بين زخايرد النساء وهتاف الرجال بحياة ملك مصر والسودان ، وحياة سعد زغلول ، فاعتقل وأرسل إلى سجن كوبر بالخرطوم بحري ، إلى أن حوكم فيما بعد^(٢٩) .

ملحمة ٢٧ نوفمبر

لم يكد الحديث في المجتمع يبدأ بعض الشيء عن مظاهرة المدرسة

الحربية بالخرطوم حتى فوجئت العاصمة بصوت الرصاص يدوى من الجانب الشرقى منها وعرف أن عدداً من الضباط والجنود أرادوا أن يجتازوا كبرى النيل الأزرق في طريقهم إلى الخرطوم بحرى بفرض الاتصال بالجيش المصرى الذى كان يتأهب لمغادرة السودان إثر الأزيمة الانجليزية المصرية بعد اغتيال سيرلى سميث حاكم عام السودان بمصر والإنداز البريطانى للحكومة المصرية بخروج الجيش المصرى من السودان .

كانت القوة السودانية المنجبهة صوب الخرطوم بحرى تتكون من نحو ١٢٠ جندياً ولكنها قوة ممتازة مكونة من ضباط الصف المدربين تدريباً طالياً على استعمال الأسلحة ومن الكتيبة ١١ جى أورطة السودانية بقيادة عدد من الضباط هم عبد الفضيل الماظ وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وسليمان محمد وسيد فرج وعلى اليينا^(٤٠) . وتزودت القوة بكل الذخيرة الموجودة في مدرسة ضرب النار فكان في حوزتهم زيادة على بنادقهم أربعة مدافع مكسيم وعدد من صناديق الذخيرة ، وقام سيد فرج قبل أن تتحرك القوة بفك سراح جميع الجنود الذين كانوا في السجن الحربى ، وكان عددهم نحو الستين وسلمهم حسن فضل المولى سلاح بدون ذخيرة وطلب منهم الحصول على ذخيرة والانضمام إلى عبد الفضيل الماظ كقوة احتياطية^(٤١) .

وفي نحو الساعة الرابعة مساء يوم ٢٧ نوفمبر خرجت هذه القوة في قوة وحراسة واستقبلتها شوارع العاصمة بجماهير معجبة وهى تسير من ثكنات توفيق متجهة إلى كبرى النيل الأزرق عن طريق شارع الخديوى والجامعة حالياً ، مارة برئاسة الجيش المصرى والبوستان حالياً^(٤٢) . ويقول على البناد وقد احتك بنا لإنجليزى خرج من دكان حلاق وشق صفوفنا ومنعه سليمان محمد من المرور بين الصفوف وقد هدده بالمسدس فرفض وانصرف وبعد قليل جاء اللواء مكافى وسألنا هل تريدون ضرب الجيش الانجليزى؟

فقلنا له لا ، وإن غرضنا أن نذهب للخرطوم بحرى لكي ننضم لإخواننا المصريين باعتبارنا مقيدين بيمين الولاء والطاعة إلى مصر مع الجيش المصرى . فطلب أن يذهب الضابط ويبقى العساكر فرفضنا . وبعد ربع ساعة جاءنا هدستون باشا نائب السردار ، وطلب منا أن نتفاوض معه فرفضنا وقلنا إننا لا نعرف هدستون باشا بل نعرف رفعت بك فقط وإن المفاوضات مع رفعت بك فى بحرى ،^(٤٣) .

واستمروا فى سيرهم نحو الخرطوم بحرى وبالقرب من وزارة الثروة الحيوانية حالياً ، مبنى المجلس الطبى وقفت القوة السودانية عندما رأت أمامها الجيش الانجليزى يسد شارع الخديوى ، وقد احتل كلية غردون بقسميها الكليات والداخليات وأخذت تشكيباً حربياً لتتصدى للقوة السودانية وترغمها على الرجوع ، كما فتح كبرى النيل الأزرق - الموصل بين الخرطوم والخرطوم بحرى - ليستحيل عليهم الذهاب لبحرى أو وصول أى قوات من بحرى^(٤٤) .

وبعد ذهاب هدستون أطلقت القوة الانجليزية طلقات فى الهواء إرهاباً وتجويفاً ، فما كان من ضباط القوة السودانية إلا أن أمروا جنودهم أن يتحصنوا بالجداول على طرفى الشارع وصوبوا نيرانهم الحامية بسرعة خاطفة على الجنود البريطانيين فأبيد عدد من جنود الفرق الانجليزية المرافقة .

ويقول على البنا د ولا أبالغ إذا قلت إن أورةة بهاها قد أبيدت أى حوالى ٦٠٠ جندى من فرقة الاسكتلنديين ، وتقول جريدة الراى العام إن العدد الذى أبيد بلغ السبعائة جندى ، ويقول تقرير المخابرات ، كانت ضحايانا كثيرة^(٤٥) .

وظلت الملحمة دائرة بعنف ولم تبدأ حتى منتصف الليل ، ويقول البنا د إنه فى حوالى الساعة الحادية عشر مساء جرح عبدالفضيل الماخذ ، فأرسلته

للمستشفى العسكري « رئاسة وزارة الصحة حالياً ، بجوار مكان المعركة
ومعه حرس اثنين عساكر ولكن للأسف كان حيكباشى المستشفى الانجليزى
مجرداً من الإنسانية فبدلاً من إسعافه قتله ، وكان حرس عبد الفضيل الماظ
جاويز من جبال النوبا اسمه أرتيكو فجاء فى حالة حزن وأخبرنا بأنه قتل
الضابط الانجليزى واثنين شوام انتقاماً لقتل الماظ ،^(٤٦) ، وهذا القول
يبرز شيئاً جديداً عن موت عبد الفضيل الذى أوردته كل الكتب والصحف
التي تناولت الحديث عن ملحمة ٢٧ نوفمبر بأنه استشهد وهو يحمل مدافعه
المكسب إلى أن تحطم فيه جانب من مبنى المستشفى^(٤٧) .

واستمرت الملاحمة بين الفريقين حتى صحوه يوم الجمعة ٢٨ نوفمبر وقد
نفدت الذخيرة من بعض الجنود السودانيين قرب منتصف الليل ، فأخذوا
يتسللون ويختفون . وقد تمكن سيد فرح من عبور النهر إلى الخرطوم بحرى
حيث اتصل بالجيش المصرى وسافر معه «أما سليمان محمد وحسن فضل المولى
وثابت عبد الرحيم وأنا ، فقد اجتمعنا بعد أن صارت القوة غير متكافئة
وعرفنا العساكر ليدافع كل عن نفسه وذهبنا إلى أم درمان بمراكب السمك
والأسف انضم بعض الضباط الذين كانوا معنا للقوات البريطانية ووجهوا
مدافعهم علينا من الخلف من رئاسة الجيش المصرى وقد عبر بعض هؤلاء
عن هذه العملية بأنها شغل أولاد»^(٤٨) .

ومنذ مساء ٢٨ نوفمبر شرعت السلطات فى إلقاء القبض على الضباط
المشاركين والمتهمين ومن يعثر عليه من الجنود الذين تسللوا بعد نفاذ
ذخيرتهم ، وبمجيء مساء السبت ٢٩ نوفمبر كان قد تم اعتقال كل من سليمان
محمد وثابت عبد الرحيم وعلى البنا ، أما حسن فضل المولى فقد سلم نفسه ،
وهكذا انتهت ملحمة ٢٧ نوفمبر التي وصفها الشاعر السودانى حسين منصور
بقوله :^(٤٩) .

يا لها ليلة ويوماً عبوساً تركا الشعب شاخصاً للبياء
يسأل الله رحمة ومصيراً كاملاً في الحقوق حتى البقاء
عاش أهل الجنوب أخوة مصر في الضحايا وعاش كل فدائي

وقد شهد البريطانيون بموقف الذين اشتركوا في ملحمة ٢٧ نوفمبر حيث وصفهم بأنهم قاوموا مقاومة عنيفة وإن الأمور لم تعد إلى مجاريها إلا بعد أن استعان الجيش خلال أربع ساعات بمدافع قاذفة... وبناذق مريضة الطلقات (٥٠).

إن ما حدث في عصر الخميس ٢٧ نوفمبر ١٩٢٤ لم أحد تعليلاً لأسبابه المباشرة حتى الآن . وما قيل من الأسباب هو في الغالب ما استنبط من ظروف الأحداث وما أدى إليه الاستقراء العام . وما قيل في أسباب تلك الملحمة الدامية ، إن الحادث كان نتيجة مؤامرات ضد الانجليز دبرت في مصر وهذا التردد يظهر أنه نفذ بناء على أمر آخر من القائمقام أحمد بك رفعت من المدفعية وغيره من المصريين . وقد وعد الضباط الذين قاموا بتحريض رجالهم ضد الانجليز على أنه بعد إطلاقهم القذيفة الأولى فإن المدفعية المصرية ستشارك معهم بضربها للطاوية والقصر وثكنات الجيش الانجليزي (٥١) .

هذا ما كان يتصوره أو يقدره الحكم الانجليزي في السودان إنه السبب المباشر ويدحض هذا الزعم ما قاله أحد زعماء الملحمة ، اجتمعنا نحن الضباط الستة الموجودين ، وقررنا باعتبارنا مقيدين بيمين الولاء والطاعة لملك مصر أن ننضم إلى القوات المصرية وننفذ تعليمات رفعت بك سواء بالبقاء في السودان أو السفر إلى مصر مع الجيش بعد حضور مندوب الملك (٥٢) . وهذا القول يوضح أن الضباط السودانيين كانوا يريدون الانضمام لقيادة رفعت بك وفاء للقسم الذي أدوه بالولاء لملك مصر وهو قائم الأعلى وأنهم يريدون الهجرة لمصر لتأمين مستقبلهم في الجيش المصري . وهذا الرأي هو

الذى أراه يجرى فى مجرى الواقع ، ويؤيده قول أحد الذين قادوا وأشهر كوا
فى الملحمة .

أما الوجه الآخر للمعادلة وهو مسألة وعد الجيش المصرى بالتدخل
فى الوقت المناسب وبعد أن يشعل السودانىون القتيل فى الإجابة بنعم
إنه لم تتحرك أى كتيبة مصرية خاصة والقتال كان يدور قريباً من كوبرى
النيل الأزرق حيث كان الجيش المصرى يعسكر على البر الشرقى فى الخرطوم
بمصرى ، أو على بعد لا يزيد عن الميل ، وإن القتال استمر ليل الخميس
وصباح الجمعة .

الحواشي

- (١) F. O. 371/100537 page 17.
- (٢) المرجع السابق ص ٢٥
- (٣) intell. 11. 6/14/40 No. 359 Apprendinse.
- (٤) عبد الكريم السيد : اللواء الأبيض ثورة ١٩٢٤
- (٥) Intell. 11. 6/14/40 No. 359 page 12.
- (٦) F. O. 371/10905 page 12.
- (٧) المرجع السابق تقرير ا . يورت .
- (٨) جريدة الرأي العام عدد ٣١ مارس ١٩٥٦ ذكريات محمد عثمان عبد البخيت .
- (٩) المرجع السابق .
- (١٠) F. O. 371/10905/page 35.
- (١١) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح من أجل الوحدة ص ٢٣
- (١٢) حسن نجيلة ملامح من المجتمع السوداني ص ١٨٤
- (١٣) الرأي العام : عدد ٣١ مارس ١٩٥٦ م .
- (١٤) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح ص ٢٤
- (١٥) الرأي العام : عدد ٣١ مارس ١٩٥٦
- (١٦) Intell No. 361/ Aug. 1924 page. 5.
- (١٧) الرأي العام عدد ٣١ مارس ١٩٥٦
- (١٨) Intell. No. 361/Aug. 1924. Apperdix s.
- (١٩) F. O. 371. 10905. page. 24.
- (٢٠) F. O. 371/10053/telegram from Sterryto Allenly.
- (٢١) palace : 4/9/47 p. 1153.
- (٢٢) Intell No. 361 Aug. 1924.
- (٢٣) Ibid. page. 5.
- (٢٤) من طلبية المدرسة الحربية — أقواله إلى لجنة تكريم نوار ١٩٢٤
- (٢٥) Bakhti. G. M. A. British Administration and sudanese Nationalism p. 96.

- F. O. 371/10905. reperton Political Agitation. (٢٦)
- F. O. 371/10905/page/13 (٢٧)
- intell : 6/14/46. No. 361/page 8. (٢٨)
- F. O. 371/10905 page 14 (٢٩)
- F. O. 371/10905 page 14. (٣٠)
- (٣١) من أقوال علي رمضان جابر الجندى سابقا في ١٢ أجي أورطة في ملكال حين أخذت أقواله عند تكريم ثوار ١٩٢٤ محفوظة بدار الوثائق المركزية / الخرطوم .
- palace : 4/9/42 page 8:5. 25/9/1925. (٣٢)
- F. O. 371/10905 page 14. (٣٣)
- (٣٤) المصدر السابق ص ١٤
- (٣٥) المصدر السابق ص ١٥
- (٣٦) من حديث عبد الرازق ريجان الذي كان جندي برتبة امباشي في تلودي سيمبر ١٩٢٤ وشارك في هذه الأحداث — أخذت أقواله عند تكريم ثوار ١٩٢٤ . محفوظة بدار الوثائق المركزية بالخرطوم .
- (٣٧) المرجع السابق .
- F. O. 371/10905. page 16. (٣٨)
- (٣٩) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح حول الوحدة ص ٥٨
- (٤٠) علي البنا : من حديثه في مقابلة لي معه يوم ١٩٢٤/٧/١ بمنزله في القاهرة .
- (٤١) حسب الخريطة في الملحق .
- Intell : 6/14/46 No. 364 nov 1924. (٤٢)
- (٤٣) حسب الخريطة في الملحق .
- (٤٤) من حديث مع علي البنا .
- (٤٥) جريدة الرأي العام عدد مارس ١٩٥٦
- (٤٦) من حديث مع علي البنا (لواء م) .
- (٤٧) من حديث مع علي البنا (لواء م) .
- (٤٨) محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح حول الوحدة ص ٨٥
- (٤٩) من حديث مع علي البنا (لواء م) .
- (٥٠) قصيدة الشاعر السوداني/ حسين منصور نشرها محمد عبدالرحيم في كتابه الصراع المسلح حول الوحدة ص ٥٨
- F. O. 371/10905 page 12. (٥١)
- Intell : 6/14/46 No. 364 rev 1924. (٥٢)
- (٥٣) من حديث مع علي البنا (لواء م) .

مصادر البحث

مراجع :

عبد الكريم : اللواء الأبيض ثورة ١٩٢٤ مذكراته ونشرته شعبة
أبحاث السودان ١٩٧٠ .

محمد عبد الرحيم : الصراع المسلح على الوحدة في السودان . القاهرة
بدون تاريخ ، مخزون الباحث .

المتطلع (حامد القرضاوى) ضحايا مصر في السودان وخفايا السياسة
البريطانية ١٩٣٥

سليمان كشة : أسرار ووثائق تاريخية ، بدون تاريخ ، الخرطوم .

د . د . : عكاكيات اللواء الأبيض .

د . د . سوق الذكريات ، ١٩٦٣ الخرطوم .

محمد لبيب الشاهد وأحمد بك رفعت : مذكرتان عن أعمال الجيش المصرى
في السودان ومأساة خروجه منه - الاسكندرية ١٩٣٦

حسن نجميله : ملاح من المجتمع السودانى - بيروت ١٩٦٤

داؤد بركان : السودان المصرى ومطامع السياسة البريطانية -
مصر ١٩٢٤

مبارك بابكر الربيع : ثورة ١٩٢٤ - الخرطوم .

(١) وثائق غير منشورة :

١ - أوراق وبحث الخاصة بجامعة درهام بإنجلترا .

٢ - وثائق مركز المحفوظات العام - لندن . F.O.

٣ - وثائق من دار الوثائق المركزية بالخرطوم .
(أ) تقارير المخابرات .

(ب) مراسلات قصر الحاكم العام وتقاريره . Palace.

(ج) وقائع مجلس الحاكم العام . Genco.

(د) ملفات الأمن . Security.

بدء انقيار

نظام الامتيازات الأجنبية في مصر

دراسة لإعادة تشكيل مجلس بلدى الإسكندرية عام ١٩٣٥ م

للدكتور رافت غنيمى الشيخ

مدرس التاريخ الحديث — كلية الشريعة — عين شمس

مقدمة :

لم تكن الامتيازات الأجنبية وليدة عصر الاحتلال البريطانى لمصر ، كما لم تكن وليدة عصر الحديوى إسماعيل وماتم فيه من انفتاح أوروبى وتنظيمات إدارية وإقليمية ، كما أنها لم تكن وليدة اتفاقية لندن عام ١٨٤٠ م ، رغم أن هذه الاتفاقية قد فرحت نوعاً من الوصاية الدولية على مصر . ولكن هذه الامتيازات ترجع فى أصولها إلى الحكم العثمانى لمصر ، وهو الحكم الذى منح الدول الأوروبية امتيازات اقتصادية ودينية وتعليمية واجتماعية فى مصر وغيرها من ولايات الدولة العثمانية .

إذن تبدأ الامتيازات الأجنبية فى مصر أثناء الحكم العثمانى المملوكى ، وبصفة خاصة منذ القرن الثامن عشر ، وكان ذلك بداية للتدخل الأجنبى الذى مارس نشاطه الاستغلالى تحت مظلة هذه الامتيازات ، بإنهاء البنوك والوكالات التجارية والمدارس والكنائس ، والادعاء برعاية المسيحيين

العرب^(١) ، مما كان له أثره الكبير في تحقيق الإطاح الاستعمارية الأوروبية عند ضعف الدولة العثمانية .

ورغم أن معاهدة لندن لعام ١٨٤٠م، قد فرضت على مصر وصاية دولية أوروبية كما ذكرنا - إلا أن التدخل الأجنبي في مصر وتدعيم الامتيازات الأجنبية بالبلاد، ظل ضعيفاً حتى أوائل عهد محمد سعيد باشا الذي ارتقى كرسي الباشوية عام ١٨٥٤م، ولم يتواجد مع الأوروبيين في مصر حتى ذلك العام سوى ما احتاج إليه باشوات مصر من خبراء أجانب أو بعض التجار الأنجليز والفرنسيين بصفة خاصة الذين سمح لهم بممارسة نشاطهم في ظل حماية محدودة من قناصل بلادهم .

إلا أنه منذ أن تولى محمد سعيد باشوية مصر تدفق الأجانب عليها تدفقاً كبيراً وصفه القنصل الفرنسي بالقاهرة آنذاك بما لو كانت مصر كاليفورنيا جديدة . ومن الطبيعي أن تدعم الامتيازات الأجنبية في عهد محمد سعيد الذي فتح أبواب مصر على مصراعيها أمام الأجانب ، فقال دالسيس المهندس الفرنسي امتيازاً مبهضاً بمصر لشق قناة في برزخ السويس ، وتوظف عدد كبير من الأوروبيين في دواوين الحكومة المصرية ، وسمح بفتح مدارس أجنبية كثيرة تقدم خدمات تعليمية للمصريين وغيرهم كل ذلك في إطار حماية قنصلية مستندة إلى الامتيازات الممنوحة .

جاء إلى المحكم في مصر إسماعيل باشا المفتون بأوروبا منذ كان صبياً، حيث عاش في فيينا وباريس ، ودرس وتعلم هناك ضمن البعثة المصرية الخامسة ، وتكونت شخصيته هناك ، وكان اتجاهه وهو تحت تلك المؤثرات أن يحمل من مصر قطعة من أوروبا وأن يحمل من نفسه عاملاً عظيماً يجرى عواهل أوروبا كما شاهدتم في فيينا وباريس^(٢) .

ونتيجة لتطلعات إسماعيل هذه زادت ديون مصر من ١١ مليون جنيه .

في عهد محمد سعيد باشا إلى ٩١ مليون جنيه عندما تشكل صندوق الدين عام ١٨٧٦ تسدد على ٦٥ سنة بفائدة ٧٪ . وكان إسماعيل قد بدأ منذ السنة الثانية من حكمه في الاقتراض من المصارف الأوربية عامة والفرنسية خاصة ، واضطر لكي يدفع أرباح هذه الديون إلى مزيد من القروض القصيرة الأجل بفوائد عالية وصلت إلى ١٥٪ في السنة .

وكان من الواضح منذ عام ١٨٧٠م أن هذه السياسة المضطربة ستؤدي قريباً إلى كارثة مالية ، فالدائنون الأوربيون الذين حرم نظام الامتيازات الأجنبية فكرياً في الإقادة من ذلك لكي يحصلوا على مزايا اقتصادية ، كما فكرت الدول الأوربية في استخدام النفوذ المالي الذي حصل عليه ابتاؤها لأغراض سياسية^(٣) .

وما يؤكد ذلك أن الامتيازات الأجنبية التي منحت سابقاً للأجانب في ممتلكات الامبراطورية العثمانية قد تزايدت بصورة كبيرة بحكم الاعتياد على التمتع بها ، حتى تمتع مواطنوا الدول صاحبة الامتيازات بالتححرر الكامل من الخضوع للقوانين الوطنية - المصرية - وكان التقاضي في أمورهم يتم فقط أمام محاكمهم الخاصة^(٤) .

ونظراً لاستفعال نظام الامتيازات الأجنبية في مصر ، فقد حاول إسماعيل منذ عام ١٨٦٧م ، اتخاذ إجراءات الحد من مساوئ هذا النظام ، فأنشئت المحاكم المختلطة كإصلاح وصفه السير موريس أموس Sir Mourice Amos المستشار القضائي للحكومة المصرية في ٢٥ مارس ١٩٢٥م، بأنه إذا كانت الكنيسة توضع في المرتبة الأولى فإن المحاكم المختلطة تتلوها وتعتبر أكثر المؤسسات الدولية الناجحة في التاريخ^(٥) .

وإذا كان نظام المحاكم المختلطة قد وضع حداً للاغتصاب المالي عن طريق التهربات الباعظة التي أرغمت مصر على دفعها تحت الضغط الدولي ، وإذا

كانت مصر قد نالت بمقتضى هذا النظام مركزاً ممتازاً في تقدير الدول التي نزلت لمصر بمقتضى هذا الاتفاق عن مباشرة حق القضاء القنصلي الناشئ عن الامتيازات الأجنبية^(٧) فإن هذا النظام كان معقداً في غيبة قانون وطني مصري^(٨) ، مما ترتب عليه أن رأينا المحاكم المختلطة توازن الدائنين الأوروبيين ضد الحكومة المصرية أثناء أزمتها المالية .

وحيث أن المحاكم القنصلية كانت خير مكان مناسب للتقاضى في الأحوال الشخصية للرعايا الأجانب في مصر ، فإن المادة رقم ٤ من القانون المدني للمحاكم المختلطة قد أكدت على استمرار المحاكم القنصلية في مباشرة تلك الاختصاصات (وهي مسائل الزواج والطلاق ، وحماية الممتلكات ... الخ) بعد تأسيس المحاكم المختلطة ، وبناء عليه فإن المحاكم القنصلية الأمريكية ، سوف تستمر في مباشرة التقاضى بين رعايا الولايات المتحدة الأمريكية في الأحوال الشخصية ، وأنه مازالت المحاكم القنصلية الأمريكية في مصر تمارس مسؤولياتها هذه^(٩) .

أدت الامتيازات الأجنبية قبل الاحتلال البريطاني إلى التدخل الأوربي في شئون مصر السياسية إلى جانب الشؤون الاقتصادية حتى رأينا سيطرة الأجانب على صندوق الدين العمومي ووجود مراقبة ثنائية لشئون مصر الاقتصادية إلى جانب اشتراك وزراء أوروبيين في الحكومة المصرية ، وكانت قمة التدخل الأوربي في مصر هو الكيد للخديوى إسماعيل عند السلطان العثماني حتى أصدر الأخير فرماناً بعزل إسماعيل وتعيين ابنه محمد توفيق مكانه ، وذلك حين شاء إسماعيل متأخراً أن يقف في وجه تغافل النفوذ الأجنبي السياسي^(٩) .

كان محمد توفيق شاباً ميالاً إلى الوطنيين المصريين ، ولكنه أثر مصانعة الانجليز والفرنسيين حتى لا يتعرض لما تعرض له والده ، فسلم قياده لأصحاب

الامتيازات الأجنبية في البلاد وعادى الحركة الوطنية حتى انتهى الأمر بالصدام بينه وبين الوطنيين فيما عرف بالثورة العرابية التي انتهت بمحذوث الاحتلال البريطاني لمصر .

وكان عرابى باشا قد أرسل إلى السلطان العثمانى رسالة عام ١٨٨٢م ، قال فيها : إن مصر وقعت فى قبضة الأجانب ، فما لم يتدخل السلطان بنفوذها ستلقى مصير تونس عن قريب ، ولما كان السلطان يدرك أن مايقوله عرابى صحيح فقد شجعه بعض الشىء (١٠) . وإذا كان السلطان قد غير من موقفه من عرابى بعد ذلك إلا أنه كان يدرك خطورة التدخل الأجنبى فى مصر .

الاحتلال البريطانى والامتيازات الأجنبية

يمثل الاحتلال البريطانى لمصر بداية لمرحلة جديدة فى الامتيازات الأجنبية ، إذ أن إنجلترا لا تريد شريكا فى حكم مصر داخليا كان أو خارجيا ، فاذا كانت السيادة العثمانية قد بقيت على مصر ، وينال السلطان العثمانى الجزية السنوية ، والحدىوى خاضع له والمصريون رعاياه ، فان حقيقة الأمر أنه لم يكن السلطان ولا الحدىوى يمارسان الحكم فى مصر ، بل كان الحكم فى يد بريطانيا العظمى (١١) .

وكان ممثل الحكومة البريطانية فى مصر يسعى إلى الاستئثار بالسلطة الفعلية فى البلاد دون أن يمس الأوضاع الشرعية أو التاريخية مثل : السيادة العثمانية أو الامتيازات الأجنبية ، على أنه استطاع أن يمحو الكثير من أدوات الرقابة الدولية على الإدارة المصرية ، وأن يكتسب تسليما فعليا من جانب الدول الكبرى بمركز خاص لبلادها فى مصر (١٢) ، وتمثل هذا المركز فى تغلغل النفوذ البريطانى فى شئون الحكومة كافة من سياسية وحرية ومالية وتشريعية وإدارية (١٣) .

ومن الطبيعي أن ينتج عن ذلك أن تتولى السلطات البريطانية معالجة مسألة الامتيازات أم رغبتها في الانفراد بالسلطة في مصر ، وأمام مطالب الحركة الوطنية المصرية بضرورة إلغاء هذه الامتيازات ، في الوقت الذي تعلم فيه الجاليات الأجنبية تمام العلم أن قيام الحكومة المستقلة في مصر معناه حتماً — ان عاجلاً وان آجلاً — زوال نظام الامتيازات العميق ، وبقاء الاحتلال يحول دون وقوع هذا الشر ، وإن كان كرومر قد ظل يؤكد أن زوال الامتيازات سوف يصحبه إنشاء ضمانات للأجانب ، كان يعطى الجاليات الأجنبية قدراً وصوتاً في التشريع والقضاء يساوي أصحاب البلاد (١٤)

ومنذ عام ١٨٨٢ م ، وهو عام الاحتلال البريطاني لمصر ، إلى عام ١٩٣٧ م وهو عام انتهاء العمل بنظام الامتيازات الأجنبية في مصر ، استمر المصريون يطالبون بانتهاء نظام الامتيازات الأجنبية أثناء مطالبتهم بإجلاء جيش الاحتلال وباستقلال مصر ، وكانت هذه المطالب كلها ظهرت في الخطاب الوطني للزعماء المصريين وفي مفاوضاتهم مع الحكومة البريطانية .

ومن جهة أخرى اتخذت إنجلترا موقفاً دولياً لتضمن فرض الحماية البريطانية على مصر منذ أكتوبر ١٩١٤ م ، دون اعتراضات دولية ، فأبلغت الحكومة البريطانية كلا من روسيا وفرنسا بعزمها هذا ، وأكدت على لسان وزير خارجيتها سير إدوارد جراي Sir Edward Grey بأنه سيستمر العمل بالامتيازات إلى حين بحثها مع الدول ، كما أن المحاكم المختلطة ستستمر تباشر نشاطها أيضاً (١٥) .

وفي ١٨ ديسمبر ١٩١٤ م ، أعلنت السلطات البريطانية وضع مصر تحت الحماية البريطانية ، وقررت في اليوم التالي خلع الخديوي عباس حلمي الثاني وتعيين السلطان حسين كامل ، الذي أبلغه القائم بأعمال المعتمد البريطاني بأنه قد سبق لحكومة جلالاته — جلالة ملك بريطانيا — أنها صرحت

مراراً بأن المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الأجنبية المقيدة بها حكومة سموكم لم تعد ملائمة لتقدم البلاد ولكن رأى حكومة جلالتهم أن يؤجل النظر في تعديل هذه المعاهدات إلى ما بعد انتهاء الحرب (١٦) .

وبينما كانت الحركة الوطنية المصرية تعمل من أجل الحصول على استقلال مصر بعد انتهاء الحرب ، فقد كان الانجليز يعملون على تنظيم الحماية بعد الحرب ، ونتيجة لتدبير السلطات البريطانية ، شكل مجلس الوزراء في ٢٤ مارس ١٩١٧ م ، لجنة عرفت بلجنة الامتيازات الأجنبية على رأسها السير وليام برونيث Sir William Brunyate الذي كان يشغل منصب المستشار المالي بالنيابة ، وكان مستشاراً قانونياً لدار الحماية .

وكان الهدف من تشكيل هذه اللجنة هو وضع التعديلات التي يستدعي إدخالها في القوانين والنظم القضائية والإدارية ، نظراً لما كان محتملاً من زوال الامتيازات الأجنبية في ظل الحماية البريطانية (١٧) . وقد وضع سير برونيث مشروعات قوانين تهدف إلى سيطرة إنجليزية على البلاد ، وإقناع الدول الأجنبية بالرضا بإلغاء امتيازاتهم حتى تنحصر السلطة كلها في يد المعتمد البريطاني (١٨) .

وقد ووجه مشروع سير برونيث بمعارضة شديدة من جانب المصريين ، وخاصة بما يتعلق بموضوع الامتيازات الأجنبية الذي وصفه حسين رشدي باشا ناظر النظار - رئيس الوزراء - في مذكرة له قدمها إلى مجلس الوزراء ودار الحماية البريطانية في نوفمبر ١٩١٨ م ، بأنه يعترف بأن الأجانب في مصر يتمتعون ببعض امتيازات مستنبطة من معاهدات قديمة وعادات عتيقة يعتبر بقاؤها اليوم من الأمور المناقضة لروح العصر ، ولكن هذه الحال الخاصة لا يمكن الاستناد عليها لحرماننا اليوم من حقنا في حكم

أنفسنا ، وتولى شئوننا بأنفسنا ، وهو الحق الذى كنا ولا تزال نتمتع به قانوناً إلى الآن (١٩) .

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى واشتعال ثورة عام ١٩١٩ م ، ثم انطلاقتها حاولت الحكومة البريطانية - كنتيجة لثورة ١٩١٩ م - أن تظهر ميلاً - غير حقيقى - للاستجابة لبعض المطالب الوطنية المصرية ، فشككت الحكومة البريطانية فى مايو عام ١٩١٩ م ، لجنة برئاسة مانر Milner وزير المستعمرات هدفها : تحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت أخيراً فى القطر المصرى ، وتقديم تقرير عن الحالة الحاضرة فى تلك البلاد ، وعن شكل القانون النظامى الذى يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها ، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيعاً دائماً والتقدم والترقى ، ولحماية المصالح الأجنبية (٢٠) .

وكانت إنجلترا قد حصلت من ألمانيا فى مؤتمر الصلح على تعهد بعدم تدخلها فى أية مفاوضات تجارية بريطانيا والدول الأخرى حول مصر ، وأن تنقل ألمانيا كافة ممتلكاتها فى مصر إلى الحكومة المصرية دون تعويض ، وتنظيم وضع الدين العام المصرى ، ومعاملة الرعايا الألمان فى مصر (٢١) .

وكان معنى هذا أن لجنة ملنر إنما جاءت من بين ما جاءت من أجله لكي تنقل امتيازات الدول الأوروبية فى مصر إلى الحكومة البريطانية ، وأن يعترف المصريون بهذا الانتقال فى وثيقة رسمية يرضون عنها لتضمن بقاء الوجود البريطانى المهيمن فى ظل استقلال ذاتى ضعيف .

وجاء فى المشروع الذى عرضه ملنر - وذكر أن الجانبين المصرى والبريطانى ارتاحا إليه أن قليلاً أو كثيراً - فيما يختص بموضوع الامتيازات الأجنبية ، اعتراف بضرورة تعديل الامتيازات الأجنبية وجعلها أقل

ضرراً بمصالح البلاد ، على أن تمنح مصر الحكومة البريطانية الحقوق التي تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ، ولتمكينها من تقديم الضمانات التي يجب أن تعطى للدول الأجنبية لتحقيق تخلي تلك الدول عن الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات (٢٢) . وذلك باتفاقات تعقد بين إنجلترا والدول الأوربية صاحبة الامتيازات في مصر ، وأن تضمن بقاء المدارس القائمة والمؤسسات الدينية والصحية ، وإنشاء مؤسسات جديدة ، وإبعاد العنصر الدولي من مجلس الصحة في الاسكندرية (٢٣) .

ولكن هذا المشروع لم يقدر له التنفيذ لاعتراض المصريين على معظم بنوده التي أعطت لبريطانيا سلطات في مصر تسلبها استقلالها الذي تطالب به ، ولكن في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م كانت مسألة الامتيازات الأجنبية من بين التحفظات الأربعة التي رأت إنجلترا الاحتفاظ بإدارة دفعتها إلى الوقت الذي يحين فيه إمكان عقد مفاوضات مصرية بريطانية مستقبلية بشأنها .

وظلت التحفظات الأربعة موضوع مفاوضات طويلة بين مصر وإنجلترا من عام ١٩٢٤م ، إلى عقد معاهدة ١٩٣٦م ، تولاها سعد زغلول مع المستر ماكدونالد في شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٩٢٤م ، وانهت بالفضل بسبب تمسك سعد بالمطالب القومية ومنها عدول الحكومة البريطانية عن دعاها حماية الأجانب والأقليات في مصر (٢٤) .

وتناولت مفاوضات ثروت باشا مع السير تشمبرلين كذلك من يوليو ١٩٢٧م ، إلى مارس ١٩٢٨م ، موضوع الامتيازات الأجنبية ، حيث نصت المادة الثالثة من المشروع المصرى على أن تعهد بريطانيا ببذل نفوذها لدى الدول صاحبة الامتيازات في مصر للحصول على نظام بديل يكون أكثر ملاءمة لروح العصر ، وأن لا يسمح لإنجلترا بالتدخل بواسطة ممثلها في

فمصر لحماية الأجانب من أية تشريعات ضدهم ، على أن تتعهد بريطانيا العظمى ألا تستعمل هذا الحق إلا في الأحوال التي يجعل فيها القانون في مسائل الضرائب تفرقة غير عادلة في معاملة الأجانب ولغير مصلحتهم ، أو التي يتعارض فيها القانون مع مبادئ التشريع المشتركة بين الدول ذوات الامتيازات (٢٥) .

هذا بينما نصت المادة الثامنة من المشروع البريطاني على أنه نظراً إلى المسؤوليات الخاصة التي تقع على عاتق ملك بريطانيا فيما يتعلق بالمصالح الأجنبية في مصر ، تتعهد الحكومة المصرية بأن توافيه في كل وقت بوسائل التحقيق من أن حياة الأجانب وأموالهم تتمتع بحماية كاملة في مصر ، وتبقى الحكومة المصرية في إدارة البلاد عنصراً أجنبياً كافياً لضمان مثل تلك الحماية (٢٦) .

وإذا كان قد حدث تعديل في المشروعين - المصري والبريطاني - أدى إلى أن تعدل المادة الثامنة السابقة إلى نص جاء فيه : أنه في حالة حدوث مواقف خطيرة تهدد حياة الأجانب وأموالهم ومصالحهم في مصر يتشاور ملك مصر مع ملك إنجلترا لاتخاذ الوسائل الكفيلة بالقضاء على هذه المواقف ، فإن اعتراض معظم زعماء الشعب المصري على إبقائه حبراً على ورق ، وإن كان سيصبح الأساس للمفاوضات التالية سواء تلك التي دارت بين محمد محمود باشا والمستر هندرسون في يونيو ١٩٢٩ م ، أو تلك التي دارت بين مصطفى النحاس باشا والمستر هندرسون عام ١٩٣٠ م ، أو تلك التي دارت بين مصطفى النحاس باشا والسير مايلز لامبسون بقصر الزعفران بالقاهرة في عام ١٩٢٦ م ، والتي انتهت بعقد اتفاقية الصداقة والتعاون بين مصر وإنجلترا .

كان تمسك المصريين بأن يكون للحكومة المصرية حريتها بالنسبة لحماية الأجانب ولا تشاركها دولة أخرى ، وأن تعدل الامتيازات بما يتفق مع

تطور الزمن والظروف وإلغاء الإدارة الأوروبية ، وأن تكون سيادة البلاد داخلية أو خارجية في جملتها وتفصيلها مطلقة من كل قيد فتزول سلطة الضباط البريطانيين في الجيش ولا يبقى المستشاران إلا بمقدار حاجة الحكومة المصرية إلى مشورتهم (٢٧) . كل ذلك كان محور المفاوضات بين الطرفين طوال تلك المدة التي أشرنا إليها .

وكانت الحكومة المصرية قد حاولت منذ عام ١٩٢٤ م، اتخاذ إجراءات من شأنها التخفيف من قبضة الأجانب على شئون مصر وخاصة في مجال القضاء ، فتقدمت الحكومة المصرية إلى الدول الأوروبية بذكر في ١٢ أكتوبر تطلب فيها تأييداً لوجهة نظرها بأن يتولى قضاة مصريون وطيون رئاسة جلسات المحاكم المختلطة، وبأن تكون اللغة العربية مستخدمة في لوائح وقرارات تلك المحاكم .

وكانت مذكرة الحكومة المصرية هذه نتيجة لموقف اتخذ في شهر فبراير من ذلك العام أحد القضاة المصريين الذي كان يجلس في الدائرة الثالثة لمحكمة الاستئناف في الاسكندرية عندما قدم نفسه كرئيس للجلسة على أساس أنه ليس هناك ما يمنع في القانون الأسامي للمحاكم المختلطة من أن يتولى قضاة مصريون هذه الوظائف الرئاسية (٢٨) .

وجاء هذا الاجراء الجريء من القاضي المصري ضربة لنظام الامتيازات الأجنبية ، ولكن الجمعية العمومية لمحكمة الاستئناف انعقدت وعارضت هذا الاجراء بدعوى عدم وجود نص صريح يسمح للقضاة المصريين برئاسة الجلسات ، ولأنه خلال ٥٨ سنة من عمل تلك المحاكم لم يرأس قاض مصري أية دائرة من دوائر تلك المحاكم ، رغم أن الجمعية العمومية أعلنت بأن المستوى التعليمي للقضاة المصريين وذكاءهم وكفاءتهم قد ارتفعت منذ تأسيس المحاكم المختلطة حتى إنه يوجد الآن قضاة مصريون في تلك المحاكم موازين في المستوى للأجانب الذين يتولون رئاسة الدوائر القضائية .

وجاء رد الحكومة الأمريكية بعد أن طلبت استشارة قاض أمريكي في مصر ، معارضاً للطلبات المصرية ، وأنه من غير المعقول أن يترأس قاض مصري قضاة أجنب ، وأنه خير للحكومة المصرية أن تقترح على الدول إجراء تغيير جذري في إجراءات هيئة المحاكم المختلطة ، وفي هذا التغيير يمكن النص على جعل القضاة المصريين يترأسون الدوائر القضائية ، وأما عن اللغة العربية ، فإن الحكومة الأمريكية ستظل تعتبرها إحدى اللغات المستخدمة — وهي الانجليزية ، والفرنسية — والإيطالية — دون تمييز ، حتى يتم تغيير النظام كله (٢٩) .

ولكن الحكومة الأمريكية ما لبثت أمام إصرار الحكومة المصرية على مطالبتها أن وافقت على هذه المطالب في ٣ يناير عام ١٩٣٦ م ، بعد أن أبلغت الحكومة المصرية في ٢٠ نوفمبر ١٩٣٥ م ، في رسالة برقم ٤٢٥ بأن الحكومة الفرنسية قد وافقت على مطالب الحكومة المصرية مقابل اختيار قاض أجنبي ، ليرأس دائرة واحدة فقط ، وأن القضاة المصريين يجب ألا يشغلوا سوى منصب رئيس الجلسة في كل من المحاكم الثلاثة بالقاهرة والاسكندرية والمنصورة ومحكمة الاستئناف (٣٠) .

وجاءت موافقة الحكومة الأمريكية الكاملة على المطالب المصرية في رسالة من وزير الخارجية الأمريكية إلى الوزير الأمريكي المسئول في مصر ، بأنه بناء على مذكرة وزير الخارجية المصرية عزيز عزت المؤرخة في ١٠ يوليو ١٩٣٥ م ، برقم ٣٢ / ١١ / ١ (٣٣ مسلسل) بطلب الموافقة على تغيير المادة رقم ٣ من النظام القضائي حتى تتيح ترأس قاض مصري بعدم النص صراحة على جنسية الرئيس وأن يترك ذلك للهيئة القضائية ، وأن الحكومة الأمريكية توافق على هذا التعديل في المادة كما جاءت في مذكرة وزير الخارجية المصري (٣١) .

وما يدل على أهمية مسألة الامتيازات أنه بعد أن توصل الطرفان المتفاوضان المصري والبريطاني إلى مشروع اتفاقية عام ١٩٣٦ م ، علق محمد محمود باشا موافقته على المعاهدة وعلى كسبنا مسألة الامتيازات وحصولنا على ما نريده منها ، وها هو ذا قد وافق على المعاهدة بما يدل على أن مكسبنا في هذه النقطة بالذات كان لا يستهان به (٣٢) .

وجاءت معاهدة ١٩٣٦ م ، مؤكدة للمطالب المصرية بالتخلص من سيطرة وتدخل الموظفين الانجليز في شئون الجيش والبوليس المصري ، ومن إدارة الأمن العام الأوروبية ، وأن مسئولية حماية أرواح وممتلكات الأجانب تقع على عاتق الحكومة المصرية وحدها دون سواها ، واعترفت بريطانيا بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة وأصبح المندوب السامي سفيراً (٣٣) .

كما أكدت المعاهدة على ضرورة إلغاء الامتيازات دون تأخير وإقامة نظام انتقالي لمدة معقولة تحدد ولا تطول بغير مبرر ، وفي أثناء تلك المدة تبقى المحاكم المختلطة وتباشر الاختصاصات المخولة الآن للمحاكم القنصلية فضلاً عن اختصاصها القضائي الحالي ، وفي فترة الانتقال لا يكون للمحاكم المختلطة أي اختصاص تشريعي ولا أن تتعرض لمشروعية القوانين ، وتقتصر مهمتها على تطبيق القوانين المصرية التي تسن أو تعدل لتكون سارية على الجميع من مصريين وأجانب كما يكون لها اختصاص أوسع من اختصاصها الحالي في المسائل الجنائية ، أما الاختصاص القنصلي في مسائل الأحوال الشخصية فلا ينقل إليها إلا بموافقة الدول ذوات الشأن . وفي نهاية مدة الانتقال تكون الحكومة المصرية حرة في الاستغناء عن المحاكم المختلطة ، ويحدد مدة فترة الانتقال المؤتمر الذي يعقده للنظر في إلغاء نظام الامتيازات بأمره (٣٤) . فاذا تعذر الاتفاق بين مصر والدول صاحبة الامتيازات احتفظت مصر بحقوقها كاملة إزاء نظام الامتيازات بما فيه المحاكم المختلطة .

وتنفيذا للمعاهدة دعت الحكومة المصرية إلى عقد مؤتمر دولي في مونترو
بسويسرا يحضره ممثلو حكومات الدول صاحبة الامتيازات في مصر ، وقد
عقد المؤتمر في ١٢ أبريل وأصدر قراراته في ٨ مايو ١٩٣٧ م ، وكان على
رأس وفد مصر مصطفى النحاس باشا ، وحضره مندوبون عن حكومات :
اتحاد جنوب أفريقيا ، والولايات المتحدة الأمريكية ، واستراليا ، وبلجيكا ،
وبريطانيا العظمى ، وأيرلندا الشمالية ، والدانمرك ، ومصر ، وأسبانيا
وفرنسا ، واليونان ، والهند ، ودولة أيرلندا الحرة وإيطاليا ، والنرويج ،
وزيلانده الجديدة ، وهولانده ، والبرتغال ، والسويد .

ويتضح من عدد الدول المدي الذي وصلت إليه الامتيازات الأجنبية
في الاساءة بالمصالح المصرية ، وكان أهم ما توصل إليه مؤتمر مونترو قبول
جميع الدول إلغاء الامتيازات في مصر إلغاء تاما ، وأن يخضع جميع الأجانب
للقوانين المصرية دون تمييز ، وأن تظل محكمة الاستئناف المختلطة وغيرها
من المحاكم المختلطة الأقل درجة قائمة في فترة انتقال تنتهي في ١٤ أكتوبر
١٩٤٩ م . لا يجوز لهذه المحاكم ابتداء من ١٥ أكتوبر ١٩٣٧ م ، قبول أى
دعوى مدنية أو تجارية أو جنائية أو متعلقة بالأحوال الشخصية ، ولكل
دولة من الدول المتعاقدة ولها محاكم قنصلية في مصر أن تحتفظ بها لفصل
في الأحوال الشخصية لرعاياها ، وذلك إلى أن تنتهي فترة الانتقال فتلغى
المحاكم القنصلية ، وتؤول اختصاصاتها واختصاصات المحاكم المختلطة إلى
المحاكم الأهلية .

إعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية

كانت إعادة تشكيل مجلس بلدى مدينة الاسكندرية بموجب مرسوم
بقانون رقم ١ لسنة ١٩٣٥ م ، سببا في إثارة اعتراضات بعض الدول الأجنبية
نظرا لأن هذا القانون قد تمشي من المطالب الوطنية المصرية ، وإن كان غير

موجه ضد المصالح الأجنبية المعتدلة ، هذا إذا اعتبرنا أن الامتيازات الأجنبية كانت وضعا شاذا في مصر لابد من العمل على انائها .

كانت اعتراضات الدول الأجنبية منصبية في المقام الأول على خلو هذا القانون من الامتيازات التي نص عليها الأمر العالي الخديوي الصادر في ٥ يناير ١٨٩٠ م، الذي تم بمقتضاه تشكيل أول مجلس بلدي لمدينة الاسكندرية، ولتحديد تلك المواد التي أثارت اعتراضات الدول الأجنبية وعلى رأسها إيطاليا وبلجيكا ثم فرنسا فالولايات المتحدة الأمريكية ، نستعرض ما جاء في المرسوم بقانون لعام ١٩٣٥ (٣٥) مقارنا بما جاء في الأمر العالي الخديوي لعام ١٨٩٠ م .

المادة الأولى

تعديل المواد رقم : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ من الأمر العالي الصادر في ٥ يناير سنة ١٨٩٠ م ، بتشكيل « قومسيون » بلدي بمدينة الاسكندرية على الوجه الآتي :

(مادة ٢) : يؤلف القومسيون البلدي من ثمانية وعشرين عضوا على الوجه الآتي :

عدد	
٦	أعضاء لهم الحق في العضوية
٨	أعضاء تعينهم الحكومة
١٤	عضوا ينتخبون طبقا لأحكام هذا القانون .

ولا يقبل في القومسيون البلدي أكثر من عضوين منتخبين من جنسية

واحدة من الأجانب، ومع ذلك يكون في القومسيون من الأعضاء المنتخبين والمعينين أحد عشر عضوا من الأجانب .

وكانت هذه المادة في الأمر العالي الخديوى لعام ١٨٩٠ م ، قد ذكرت نفس الأعداد من الأعضاء الذين لهم الحق في العضوية ، والأعضاء الذين تعيينهم الحكومة، ولكننا فصلت في عدد الأعضاء المنتخبين على النحو التالى:

عدد
٦ ينتخبون بمعرفة دائرة الانتخاب المشكلة بمقتضى المواد من ٤ إلى ١١ من أمرنا هذا .

٣ ينتخبون بمعرفة تجار الصادرات .

٣ ينتخبون بمعرفة تجار الواردات .

٢ ينتخبون بمعرفة أرباب العقارات الكائنة بمدينة الاسكندرية وضواحيها .

ولا يقبل في القومسيون البلدى أكثر من ثلاثة أعضاء منتخبين من جنسية واحدة من الأهالى أو الأجانب (٣٦) .

وواضح من نص هذه المادة أنها في قانون عام ١٩٣٥ م قد ضيق عدد الأعضاء المنتخبين بعضوين على الأكثر من جنسية واحدة ولا يزيد عدد الأعضاء المنتخبين والمعينين عن ١١ عضوا من الأجانب . هذا في الوقت الذى أطلقت فيه نفس المادة في الأمر العالي الخديوى لعام ١٨٩٠ م عدد الأعضاء المنتخبين إلى ثلاثة أعضاء من جنسية واحدة ، وسوت بين الوطنيين - المصريين - والأجانب ، وأغفلت أية شروط بالنسبة لعدد الأعضاء المعينين من الأجانب في المجلس .

(مادة ٣) : لم يحدث تعديل فيما نصت عليه هذه المادة في الأمر العالي

الخدوى العام ١٨٩٠ م ، والتي نصت على تسمية الأعضاء الستة المعينين في المجلس وهم .

- ١ - محافظ الإسكندرية أو من ينوب عنه .
- ٢ - النائب العموم لدى محكمة الاستئناف المختطة أو وكيله .
- ٣ - مدير عموم المصارف أو من ينوب عنه .
- ٤ - رئيس النيابة بمحكمة الاسكندرية الأهلية أو وكيله .
- ٥ - الحكيم المعين بالإسكندرية في أعلى وظيفة تابعة لإدارة الصحة (٣٧) .
- ٦ - المهندس المعين بالإسكندرية في أعلى وظيفة تابعة للأشغال العمومية (٣٨) .

وإذا كان الظاهر أنه لا تعديل في تسمية الأعضاء المعينين بمقتضى هذه المادة ، فالعبرة بمن يشغل هذه الوظائف ، ونسبة عدد المصريين منهم إلى عدد الأجانب ، والشئ المؤكد أن عدد الأجانب فيهم لم يكن قليلا .

(مادة ٤) : جاء في قانون ١٩٣٥ م ، مانصه : لا يجوز لأحد أن ينتخب إلا إذا كان ناخباً . وحق الانتخاب يكون لكل شخص من الذكور بالغ سن من خمس وعشرين سنة على الأقل ومقيم في مدينة الإسكندرية أو في ضواحيها بمحل مقيم بدفانر البلدية بأجرة قيمتها ٢٤ جنياً سنوياً فأكثر (٣٩) ولم يكن في حالة من أحوال عدم الأهلية المبينة بالمادة الخامسة .

(المادتان ٥ ، ٧) : فصلت المادة ٥ في قانون عام ١٩٣٥ م ، الأشخاص المحرومين من حق الانتخاب تفصيلاً أوضح مما جاء في الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م ، كما أن المادة ٧ في قانون ١٩٣٥ م ، لم تشر إلى تجار الصادرات

والواردات وأصحاب العقارات الذين أعطاهم الأمر العالي الخديوي المشار إليه الحق في أن يقرروا فيما بينهم قاعدة للانتخاب يصير التصديق عليها من قاطر الداخلية وهذا معناه عدم إعطاء هذه الفئات ومعظمها إن لم يكن كلها أجاناب امتيازات خاصة .

(مادة ١٧) : نصت هذه المادة في قانون ١٩٣٥ م ، على اجتماع القومسيون البلدى عادة مرة كل أسبوع (٤٠) وبصفة غير اعتيادية عندما يتراءى لرئيسه ضرورة لذلك أو بناء على طلب محرر من ثمانية من الأعضاء .

(مادة ١٩) : وهى الخاصة بتصديق وزير الداخلية على قرارات القومسيون فى خلال ثلاثة أيام ، وتعتبر نافذة إذا لم يصدر منه أمر بإيقاف تنفيذها فى بحر ثمانية أيام من تاريخ عرضها عليه ، أو إذا لم يجر إلغاؤها - إذا كان قد أوقف تنفيذها خلال ثلاثين يوماً من تاريخ عرضها عليه ، وأضيف فى قانون ١٩٣٥ م ، نص فحواه : وكل مداولة تطفى يكون إلغاؤها بقرار مسبب من الوزير وأسباب الإلغاء لا تكون محل مناقشة فى القومسيون .

(مادة ٢١) : اختصرت هذه المادة فى قانون ١٩٣٥ م ، اختصاصات رئيس القومسيون البلدى وحددتها باعتباره النائب عنه فى الأمور المتعلقة به ، وأنه يمارس اختصاصاته تحت مراقبة القومسيون وملاحظة وزير الداخلية ، وهذه الاختصاصات هى :

١ - إمضاء المسكائيات الموجهة إلى وزارة الداخلية تنفيذاً لقرارات القومسيون .

٢ - عرض الميزانية التى تقرر بمجلسة القومسيون على وزير الداخلية .

٣ - إصدار القرارات طبقاً لمداوولات القومسيون البلدي المصدق عليها
من وزير الداخلية .

٤ - تعيين ورفعت الموظفين طبقاً للأحكام التي يقررها وزير الداخلية (٤١) .

هـ - النيابة عن البلدية أمام المحاكم سواء كان مدعياً أو مدعى عليه .

ومعنى هذا إلغاء ما كان يخول له في الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م من اختصاصات أخرى مثل إدارة الإيرادات ، وملاحظة المحلات والمصالح المحولة على المدينة . وعقد المشتريات وإجراء المزايدات المتعلقة بالأعمال البلدية ، والتوقيع على عقود المبيعات والمشتريات .

(مادة ٢٢) : حددت هذه المادة في قانون عام ١٩٣٥ م . اختصاصات مدير عام القومسيون بالنسبة للموظفين الذين لهم حق تعيينهم وترقيتهم أو تأديبهم ورفقتهم والوظائف التي يكون تعيين شاغليها وترقيتهم وتأديبهم وفصلهم بمعرفة الوزير مباشرة . وأكدت نفس المادة ما جاء بها في الأمر العالي الخديوي لعام ١٨٩٠ م ، بأن كافة مأموري ومستخدمي البلدية لا يكون لهم حق في معاش أو مكافأة من أى نوع كان من طرف الحكومة .

(مادة ٢٨) : أضافت هذه المادة في قانون ١٩٢٥ م، شرطاً بأنه في حالة مشاركة عضو القومسيون في مداوولات تتعلق بمسائل له فيها صالح سواء كان عن نفسه أو بصفته وكيل ، فإن حصل ذلك منه يقال من وظيفته .

(مادة ٢٩) : فصلت هذه المادة في قانون ١٩٣٥م، قبول أعضاء جدد بالقومسيون لا تتوفر فيهم الشروط المنوّه عنها في المادة الرابعة - في هذا القانون - أو يوجد في إحدى الحالات المنصوص عليها في المواد ٥ ، ٥ ، ٥ ، مكررة ١ ، ٥ ، مكررة ب ، ٩ ، ١١ ، ٢٨

(مادة ٣٧) : وفصلت هذه المادة في قانون ١٩٣٥ م موضوع ميزانية القومسيون أى إيرادات البلدية ومصروفاتها ، وعرضها على القومسيون الذى عليه إقرارها بابا بابا — أى بنداً بنداً — قبل ١٥ مارس (٤٢) من كل سنة ، على أن يصدق وزير الداخلية على الميزانية لتصبح معدة للتنفيذ . وأضافت المادة نصاً جديداً هو كل مصروف غير وارد بالميزانية أو زائد على التقديرات الواردة بها ، وكذلك نقل أى مبلغ من باب إلى آخر من أبواب الميزانية يجب أن يعرض على القومسيون البلدى .

(مادة ٣٨) : قضت هذه المادة في قانون عام ١٩٣٥ م ، بأنه إذا لم يصدق وزير الداخلية على مشروع الميزانية المقدم إليه لغاية ٣٠ أبريل (٤٣) يستمر العمل بميزانية العام المنصرم حتى يتم التصديق عليها .

(مادة ٣٩) : قررت هذه المادة في قانون عام ١٩٣٥ م ، بداية الميزانية في أول مايو ونهايته العمل بها في ٣٠ أبريل (٤٤) من كل سنة أو في أى وقتين آخرين تعينهما وزارة المالية .

(مادة ٤٣) : جاء التعديل في هذه المادة في قانون عام ١٩٣٥ م ، بشأن مراجعة حسابات القومسيون عن السنة الماضية ، بحيث ألغى حق القومسيون البلدى في النظر في أعمال رئيسه الإدارية كما كان الأمر العالى الخديوى يقضى أن تمال الحسابات إلى وزارة المالية لمراجعتها ، بينما نص الأمر العالى الخديوى على تقديمها إلى إدارة عموم حسابات الحكومة لمراجعتها .

(مادة ٤٤) : جاء التعديل في هذه المادة في قانون ١٩٣٥ م ، باتساع التعليمات واللوائح الصادرة من وزارة المالية (٤٥) ، وأن تعتبر أموال البلدية أموالاً عامة وتتبع بشأنها القواعد الخاصة بحفظ وصرف الأموال العامة .

(مادة ٤٥) : نص التعديل في قانون عام ١٩٣٥ م ، على أن يقرر وزير

الداخلية في لوائح خاصة أحكام الانتخابات البلدية (٤٦) والقواعد الأساسية للترتيب الإداري ، ولسير الأعمال في الإدارات واللجان والقومسيون ، ولعلاقات البلدية مع مصالح الحكومة .

المادة الثانية

يضاف إلى الأمر العالي الصادر في ٥ يناير ١٨٩٠ م ، المشار إليه بعد المادة هـ المادتان الآتيتان :

(مادة هـ مكررة ا) : يوقف استعمال حق الانتخاب للمدد الميئنة بعد بالنسبة للأشخاص الآتي ذكرهم :

أولاً : المحجور عليهم مدة الحجر ، والمصابون بأمراض عقلية والمحجوزون مدة حجزهم .

ثانياً : الذين أشهر إفلاسهم مدة خمس سنوات من تاريخ إشهار إفلاسهم إلا إذا رد إليهم اعتبارهم قبل ذلك .

(مادة هـ مكررة ب) : يوقف استعمال حق الانتخاب بالنسبة لمستخدمي البلدية .

المادة الثالثة

تُلغى المادة ٣٠ من الأمر العالي الصادر في ٥ يناير ١٨٩٠ م ، المشار إليه وكانت هذه المادة تنص على أنه يجوز للقومسيون البلدي أن يقرر الشروط والرسوم والمقاييس المتعلقة بأعمال جديدة أو بحفظ وصيانة المدينة التي مجموع قيمتها لا يتجاوز مبلغ ١٠٠٠ جنيه مصري وتعتبر قراراته صحيحة بشرط مراعاة أحكام المادة التاسعة عشرة ، فإذا تجاوز في المصاريف

هذا الحد لا يجوز إجراء الأعمال إلا من بعد تصديق ناظر الأشغال العمومية .

المادة الرابعة

على وزير الداخلية تنفيذ هذا المرسوم بقانون وله أن يصدر القرارات اللازمة لذلك .

نأمر بأن يصمم هذا المرسوم بقانون بخاتم الدولة وأن ينشر في الجريدة الرسمية ، وينفذ كقانون من قوانين الدولة .

يأمر حضرة صاحب الجلالة فؤاد ، رئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية محمد توفيق نسيم .

وانطلاقاً من مواد هذا القانون الصادر في يناير ١٩٣٥ م ، سوف نتناقص موقف الدول الأجنبية من إعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية فى إطار من الاتجاهات الوطنية المصرية الداعية إلى إنهاء الامتيازات الأجنبية من مصر فى مواجهة تمسك الدول الأجنبية ببقاء هذه الامتيازات فى مصر .

صدر القانون رقم ١ فى أول يناير ١٩٣٥ م ، وقراران وزاريان فى ٢ يناير من نفس العام ، وتم نشر القانون والقراران فى الجريدة الرسمية فى ٣ ، ٤ يناير ١٩٣٥ م^(٤٧) ، ولكن معظم الدول الأوروبية افتتحت بوجهة النظر الانجليزية — كما ذكر الوزير الأمريكى فى مصر مستر فيش Fish لوزارة الخارجية الأمريكية — القائلة بأنه مادام القانون الجديد رقم ١ لعام ١٩٣٥ م ، لم يتعرض للمادتين رقم ٣١ و ٤٠ اللتين تضمنتهما الأمر العالى الخديوى لعام ١٨٩٠ م^(٤٨) ، فإنه لا داعى لأن تحتج الدول على صدور هذا القانون ، وان كانت كل من إيطاليا وبلجيكا قد أعلنت كل منها — عند

صدور القانون وعن طريق ممثلها في مصر — عن تحفظات بشأن حقوق الدولتين ورعاياها في مصر .

كما شارك اتحاد تجارة التصدير لمدينة الاسكندرية في الاحتجاج على صدور هذا القانون في مذكرة سلمت إلى توفيق نسيم باشا رئيس مجلس وزراء الحكومة المصرية في ١٦ فبراير ١٩٣٥ م، مؤكدين أنهم ومعهم تجار الواردات وملاك العقارات كانوا أعضاء عاملين في المجلس من ٥ يناير ١٨٩٠ إلى أول يناير ١٩٣٥ م، ولكن في ظل التشكيل الجديد فانهم سيمثلون ضمن الأعضاء الأجانب، وكيف يكون ذلك وهم — تجار الصادرات وتجار الواردات وملاك العقارات — كانوا يدفعون مبالغ كبيرة تمثل أعلى دخل في إيرادات المجلس^(٤٩) .

وكانت فرنسا ثالث الدول الأجنبية التي أظهرت عدم رضى عن إعادة تشكيل مجلس بلدى مدينة الاسكندرية، وشاركت في ذلك كلاً من بلجيكا وإيطاليا، واشتركت قنصليات الدول الثلاث في مصر في توجيه مذكرة بوجهة نظرم في القانون الخاص بإعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية رأت أنه حيث لم يتضح من منطوق القانون حدوث تغير شامل، فإن وضع الرعايا الأمريكيين لن يتأثر تأثيرات جذرية^(٥٠)، ومن ثم فلا داعى للمبالغة في اتخاذ مواقف مضادة .

ولكن الوزير الأمريكى في مصر — مستر فيش Fish — أرسل مذكرة لوزارة الخارجية المصرية في ٢٢ مايو ١٩٣٥ م، يشير إلى المرسوم بقانون رقم ١ الصادر في أول يناير ١٩٣٥ م، والقرارات الوزارية المؤرخة في ٢ يناير من نفس العام المتعلقة بإعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية، وأنه بناء على تعليمات الحكومة الأمريكية فإنه يذكر الحكومة المصرية بأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت إحدى الدول التي وافقت على مذكرة

وزارة الخارجية المصرية المؤرخة في ١٦ مايو ١٨٨٩ م ، بشأن المرسوم
الأساسي بتأسيس مجلس بلدى لمدينة الاسكندرية ، وان هذه الموافقة
تضمنتها مذكرة رقم ١١٣٦ في ٨ يوليو ١٨٨٩ م ، من القنصلية العامة والوكالة
الأمريكية في القاهرة ، وانه كما جاء بالمذكرة يلاحظ أن موافقة الولايات
المتحدة لم تكن مرتبطة بمادة أو مواد بعينها ولا بكتها مرتبطة بكل بنود القانون
الذي بموجبه تأسس عام ١٨٩٠ م ، المجلس البلدى لمدينة الاسكندرية (٥١) .

وهذا يعنى أن الحكومة الأمريكية لا تعترض على إعادة تشكيل
مجلس بلدى مدينة الاسكندرية ، وان كانت تبدى تحفظا بتأكيد حماية
مصالح الرعايا الأمريكيين الذين يمكن أن تتعرض بأية صورة للتأثر
بالقانون رقم ١ لعام ١٩٣٥ م ، والقرارات الوزارية الصادرة والمتعلقة
بالقانون المذكور (٥٢) .

ولكن وزارة الخارجية الأمريكية رأت عدم الاصرار على إثارة
الاعتراضات ضد إعادة تشكيل مجلس بلدى الاسكندرية ، وأن وزارة
الخارجية لا ترغب أن يستمر الوزير الأمريكى فى مصر — Fish —
فى التأكيد على وجهة النظر القائلة بأن إعادة تشكيل مجلس بلدى
الاسكندرية من المحتمل أن يضعف من المصالح والحقوق الأمريكية
بمصر (٥٣) .

وكان هذا بداية النهاية للاعتراف الدولى بأن الامتيازات الأجنبية فى
مصر يمكن انتهاء أجلها تحقيقا لمطالب المصريين ، الذين استمروا فى
التأكيد على ضرورة إلغاء الامتيازات الأجنبية حتى عقدت معاهدة ١٩٣٦ م ،
ومن بعدها مؤتمر مونتر و ١٩٢٧ م ، الذى تقرر فيه — كما رأينا — موافقة
الدول الأجنبية على إلغاء الامتيازات فى مصر ، وبالفعل أزيلت آخر بقايا
امتياز عدم خضوع — الأجانب — للحكم الوطنى (٥٤) .

الحواشى

- (١) د. رأفت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث ص ، ٣٩ .
- (٢) د مكى شبكة : تاريخ شعوب وادى النيل، ص ٥١٥ .
- (٣) بييرنوفان ، تعريب د . جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية ص ٥٦٢ .
- (٤) The Secretary of state to messrs. Alexander and Green
of New York, Washiungton, August 26, 1935. No. 17618.
- (٥) Jasper Y. Brinton : The Mixed Courto of Egypt, P.L.
- (٦) د. رجب حراز : المدخل لى تاريخ مصر الحديث — ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .
- (٧) (الحاشية) .
- (٨) The Secretary of State to Mesare — Ibid,
- (٩) د. محمد أنيس وآخرون : دراسات فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى
والحديثه ، ص ١٩١ .
- (١٠) لورد كرومر ، تعريب عبد العزيز عرابى : الثورة العرابية ، ص ٧٠ .
- (١١) Warner, Morten and Muir : The New Groundwork of
British History, P. 875.
- (١٢) محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ج ١ ص ١ .
- (١٣) د. مكى شبكة : المرجع السابق ، ص ٧٤٢ .
- (١٤) محمد شفيق غربال : المرجع السابق ، ص ٢٠ .
- (١٥) مؤسسة الأهرام : ٥٠ عاماً على ثورة ١٩١٩ ، ص ٤٨ .
- (١٦) نفس المرجع : ص ٧١ ، وغربال، ص ٤٠ .
- (١٧) غربال : ص ٤٦ .
- (١٨) مؤسسة الأهرام : ص ٩٠ .
- (١٩) نفس المرجع، ص ٩٣ .
- (٢٠) غربال : ص ٦٢ .
- (٢١) مؤسسة الأهرام : ص ٣٧١ الحاشية .
- (٢٢) غربال : ص ٦٩ .

(٢٣) نفس المرجع ، ص ٧٢ .

(٢٤) نفس المرجع ، ص ١٥١ .

(٢٥) نفس المرجع ، ص ١٧٧ .

(٢٦) نفس المرجع ، ص ١٨١ .

(٢٧) نفس المرجع ، ص ٢١١ .

Memorandum by the Chief of Division of Near Eastern Affairs, No. 833. 05 1516, Washington, October 13, 1934.

The Chief of Division of Near Eastern Affairs (Murray) (٢٩)
to the Under Secretary of State (Phillips) No. 883. 05 1525
Washington, January 3, 19 5.

The Secretary of State to the Minister in Egypt (٣٠)
(Fish) No. 883. 05 1551, Telegram, Washington, January 3, 1936 -
5 P.M.

The Secretary of State to the Minister in Egypt (٣١)
(Fish) No. 883. 05 : Tekgram, Washington, January 13, 1936 -
3 P.M.

(٣٢) جاء ذلك في البيان الذي ألقاه الدكتور أحمد ماهر عند ختام مناقشة المعاهدة
في مجلس النواب ، غريال : المرجع السابق ص ٢٨٩ .

(٣٣) أتنوني فاننج ، تعريب د . راشد البراوي : العرب انتصاراتهم وأبجاد الاسلام
ص ٥١٤ .

(٣٤) غريال : ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

(٣٥) الوقائع المصرية ، السنة الخامسة بعد المائة ، ٣ يناير ١٩٣٥ م .

(٣٦) الوقائع المصرية ، السنة التاسعة والخمسون ؛ ٦ يناير ١٨٩٠ م .

(٣٧) أضيفت عبارة أو من ينوب عنه في التعديل الصادر بالقانون رقم ١
لعام ١٩٣٥ م .

(٣٨) عدلت عبارة الأشغال العمومية إلى مصلحة المبانى أو من ينوب عنه في التعديل
المشار إليه .

(٣٩) نصت نفس المادة في الأمر العالى الحديوى لعام ١٨٩٠ م ، على أن تكون الأجرة
٧٥ جنيها سنوياً فأكثر .

(٤٠) كان نص نفس المادة في الأمر العالي الحديوى لعام ١٨٩٠ م ، أن يتم اجتماع القومسيون مرة كل شهر .

(٤١) نقلت هذه الاختصاصات من المادة رقم ٢٢ في الأمر العالي الحديوى لعام ١٨٩٠ م .

(٤٢) جاء في نفس المادة في الأمر الحديوى لعام ١٨٩٠ م ، لإقرار القومسيون للميزانية قبل حلول اليوم الخامس عشر من شهر نوفمبر من كل سنة .

(٤٣) جاء في نفس المادة في الأمر العالي الحديوى المشار إليه عبارة لغاية ٣١ ديسمبر .

(٤٤) حددت نفس المادة في الأمر العالي الحديوى بداية الميزانية أول يناير ونهاية العمل بها في ٣١ ديسمبر .

(٤٥) جاء بنفس المادة في الأمر العالي الحديوى لعام ١٨٩٠ م ، لإدارة عموم حسابات الحكومة .

(٤٦) مسألة أحكام الانتخابات البلدية لم ترد في الأمر العالي الحديوى المشار إليه .

The Minister in Egypt (Fish) to the Secretary of State, (٤٧)
February 14, 1935 Cairo.

(٤٨) نصت المادة رقم ٣١ على ما يلى : للقومسيون البلدى أن يتداول في الميزانية والايرادات والمصروفات الاعتيادية وغير الاعتيادية ، وعلى العموم في جميع المسائل التى تتعلق ببلدية المدينة ، ولا يجوز له بأى صفة كانت إحداث رسوم جديدة ولا تعديل في الرسوم المقررة ، بل له أن يعرض عما يراه فيما يتعلق بالأمور الآتى يبانها :

أولا : تقرير عوايد إضافية على الرسوم المقررة .

ثانيا : إحداث رسوم جديدة .

ثالثا : فتح سلف لا يتجاوز مجموعها مطلقا ٥٠٠٠٠٠ ج . م (٥٠٠ ألف جنيه مصرى) مع إيضاح الأبواب المرغوب صرف هذه الايرادات الغير اعتيادية فيها .

ولجلس النظار دون غيره أن يقرر ما يراه فيما يعرض عليه من هذا القبيل .
فإذا وافق المجلس يكون الطلب المعروض عنه نافذ المفعول ،
ولكنه إذا كان مخالفا لنص المعاهدات الصريح فلا يصير نافذا إلا بعد
إقرار الدول عليه .

ومع ذلك فلا حاجة لهذا إلا قرار فيما يختص بالرسوم على المواد الآتية وغيرها التي تكون مخصصة للبلدية فقط ، ويكون لها صفة بلدية محضة وهي : الطرق (التنظيم) والبالوعات والموازين العمومية والأسواق والمخازن العمومية وتشجيع الجنازات وإعطاء أراضى للدفن فى الجبانات وإشغال الطريق العام والعربات العمومية والخصوصية وعوائد الوقوف والكنس والرش والفنادق (اللوكاندات) ، والنواد (الكلوبات) والبيوت المفروشة المعدة للتأجير والقهواى والمخارات وقهاوى الملاهى والمراقص والملاهى والديارات والألعاب والمهرجانات العمومية وأسواق الموالد وبيوت المومسات وعربات الأمتيوس ، والتمواى وعربات النقل والكلاب والدواب المعدة لحمل الأثقال أو للركوب أو لجر العربات إلى آخره .

كما نصت المادة ٤٠ من الأمر العالى الحديوى لعام ١٨٩٠ م ، على أن إيرادات الميزانية هي الآتية :

- أولا : صافى ما يتحصل باعتبار نصف من واحد من الألف على قيمة الصادرات .
- ثانيا : صافى ما يتحصل باعتبار نصف من واحد من الألف على قيمة الواردات (وهذه الإيرادات صار تقريرها لمدة خمس سنوات لاغير تبتدىء من تاريخ نشر أمرنا هذا) .
- ثالثا : صافى ما يتحصل من أرباب الأملاك بواقع واحد فى المائة بالأكثر من قيمة لإيجارات أملاكهم المبنية .
- رابعا : صافى ما يتحصل من مستأجرى الأملاك المبنية بواقع اثنين فى المائة بالأكثر من قيمة الإيجارات .
- خامسا : صافى ما يتحصل من الرسوم على العربات والدواب المعدة لحمل الأثقال .
- سادسا : المتحصل من جفائن التزعة .
- سابعا : المتحصل من عوائد الطرق .
- ثامنا : صافى ما يتحصل بواقع خمسين فى المائة من صافى إيرادات دخولية اسكندرية البالغ قدرة بضمان الحكومة ٣١٧٨٠ جنيه مصرى .
- ثامسا : الإيرادات الأخرى التي تتقرر بالوجه القانونى .

The Consul General at Alexandria (Russell) to (٤٩)
the Secretary of State No. 624 Alexandria, February 25, 1935.

The Secretary of State to the Minister in Egypt (٥٠)
(Fish) No. 84, Washington, April 29, 1935.

The American Legation to the Egyptian Ministry (٥١)
for Foreign Affairs, No. 137, Cairo, May 22, 1935.

Ibid (٥٢)

The Secretary of State to the Minister in Egypt (٥٣)
(Fish) No. 108, Washington, July 12, 1935.

(٥٤) أنتوني ناتنج ، تعريب د. راشد البراوي: العرب . . . ص ٥١٤ .

مصادر البحث

أولا : الوثائق :

١ - Foreign Relations of the U.S. Diplomatic Papers, 1935. —
in four Volumes, Vol. 1 General, The Near East and Africa. U.S.
Government Printing Office, Washington 1943.

٢ - الأمر العالي الخديوى الصادر فى ٥ يناير ١٨٩٠ م ، بشأن تأسيس
قومسيون بلدى بمدينة الاسكندرية ، نشر فى الوقائع المصرية ، السنة التاسعة
والخمسون ٦ يناير ١٨٩٠ م .

٣ - المرسوم بقانون رقم ١ لعام ١٩٣٥ م ، بتعديل الأمر العالي الصادر
فى ٥ يناير ١٨٩٠ م بتشكيل قومسيون بلدى بمدينة الاسكندرية ، معنون
بعبارة نحن فؤاد الاول ملك مصر ، نشر فى الجريدة الرسمية - الوقائع
المصرية - بتاريخ ٣ يناير ١٩٣٥ م السنة الخامسة بعد المائة .

٤ - قرار وزارى صادر عن وزير الداخلية بإعادة التنظيم الإدارى
لبلدية الاسكندرية الصادر فى ٣ يناير ١٩٣٥ م ، ونشر فى جريدة الوقائع المصرية
بتاريخ ٤ يناير ١٩٣٥ م .

ثانياً : الكتب :

- ١ - دكتور رافت الشيخ : فى تاريخ العرب الحديث - القاهرة ١٩٧٥ م .
- ٢ - دكتور مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان
فى القرن التاسع عشر) بيروت ١٩٦٥ م .
- ٣ - دكتور السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من
الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى - القاهرة ١٩٧٠ م .

- ٤ - بيبرنوفان ترجمة دكتور جلال يحيى : تاريخ العلاقات الدولية
١٨١٥ - ١٩١٤م - القاهرة ١٩٧١م .
- ٥ - محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ١٨٨٢
- ١٩٣٦ ج ١ - القاهرة ١٩٥٢م .
- ٦ - لورد كرومر تعريب عبد العزيز هرايى : الثورة العرابية -
القاهرة ١٩٦٠م .
- ٧ - مؤسسة الأهرام، مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة،
٥٠ عاماً على ثورة ١٩١٩ - القاهرة ١٩٦٩م .

Gaspery. Birtton (Justice of the Court of Appeals — ٨
Mixed Courto of Egypt) ; The Mixed Courto of Egypt, New
Haven Yale university Press, 2 nd Printing: 1931.

Warner; Masten and Muir ; The New Groundwork of — ٩
British History, section four, (1688—1h39) Blackie London 1947.

أضواء على
موقف وزارة علي ماهر
من الحرب المالية الثانية
دراسة وثائقية ، (*)

للدكتور عبد الحالق محمد لاشين

في ١٢ أغسطس ١٩٢٩ فاجأ محمد محمود - رئيس الوزارة المصرية - زملاءه أعضاء الوزارة وقيادات حزب الأحرار الدستوريين ونواب الأمة بتقديم استقالة وزارته طبقاً لرغبة الملك^(١) . إذ يبدو أن الأخير رأى أن يدعم مركزه بإسناد الوزارة إلى علي ماهر ساعده الأيمن ، لأنه وجد فيه « خير » من يتولى هذا المنصب في « هذا الظرف الدقيق من حياة الأمة » ، نظراً لما كان يمر به العالم من « دور خطير »^(٢) .

ويستوقف النظر في أمر هذه الوزارة الجديدة أن علي ماهر لم يكن حريصاً على أن يشرك معه فيها حزب الأحرار الدستوريين ، ذلك الحزب

* تقتضى الأمانة أن أسدى الشكر خالصاً للأستاذ حسن يوسف ، المشرف على مركز تاريخ مصر المعاصر ، التابع لمؤسسة الأهرام ، لتفضله بإطلاعي على الوثائق البريطانية الخاصة بهذا البحث ، والاذن لي بنشر هذا البحث الذي كنت قد عاونت المركز المذكور في إعداده .

الذى كان قد بنى خطته على أساس التعاون مع الوزارة الجديدة والاشتراك فيها^(٢). غير أن على ماهر خيب أمل الحزب وقادته عندما لجأ خلال مباحثات تشكيل وزارته إلى إحراج الحزب ووضعه في مركز لا يسمح له بالاشتراك فيها^(٣). ففي ١٨ أغسطس ١٩٣٩ صدر قرار تشكيل الوزارة من بين قيادات الهيئة السعدية وبعض المستقلين من أنصار على ماهر والقصر متجاهلا الأغلبية البرلمانية التي كان يتمتع بها حزب الأحرار الدستوريين في مجلس النواب ، وهي تلك الأغلبية التي كان الحزب قد حصل عليها في انتخابات أبريل ١٩٣٨^(٤). وربما يفسر ذلك التجاهل أن التشكيل الوزاري الجديد استحدث منصبين وزاريين للشئون البرلمانية للمرة الأولى في تاريخ مصر تولاها سياسيان بارزان هما محمد علي علوبة وإبراهيم عبد الهادي^(٥) ، ليستطيعا بما لهما من خبرة ونفوذ سياسى أن يتعاملوا مع مجلس النواب والشيوخ في مثل هذه الظروف النولية الحرجة .

ولم يكد يمضى أسبوع واحد على تشكيل الوزارة حتى بعث مستر بوثمان — الوزير المفوض في السفارة البريطانية في القاهرة والقائم بعمل السفير — نظراً لتغيب مايلز لامبسون — بمذكرة إلى على ماهر بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٩٣٩ يطلب إليه فيها أن تمنح الحكومة البريطانية « ممارسة حقها في تعزيز القوات البريطانية المتمركزة في مصر ، وأن تضع الحكومة المصرية تحت تصرف حكومة بريطانيا « جميع التسهيلات والمساعدات المنصوص عليها في المادة السابعة من معاهدة التحالف »^(٦) . كما تطلب إليها اتخاذ جميع الأعمال التحضيرية الإدارية اللازمة لضمان إعلان حالة الطوارئ في أقصر وقت ممكن متى دعت الضرورة إلى ذلك »^(٧) . وما يلفت النظر أن القائم بالأعمال البريطاني استند في مذكرته إلى « أن حالة دولية مفاجئة يخشى خطرها قد وقعت ، ، وهي العبارة التي أثارت اعتراضات بعض أعضاء البرلمان المصري عند مناقشة معاهدة التحالف والصداقة التي وقعت بين مصر

وبريطانيا في أغسطس ١٩٣٦^(٩) . على أن الحالة الدولية المفاجئة التي يشير إليها القائم بالأعمال البريطاني هي تهديد ألمانيا بغزو بولندا ، وتصميم كل من إنجلترا وفرنسا على الدفاع عن سلامة بولندا في حالة تعرضها لأي غزو ألماني^(١٠) .

وفي أول سبتمبر ١٩٣٩ استقبل الملك فاروق سير مايلز لامبسون - السفير البريطاني في القاهرة - وأعرب له عن د كامل استعدادة للتعاون ، مع الحكومة البريطانية . وناقشا معاً موقف إيطاليا في حالة وقوع الحرب . وأبدى الملك للسفير عدم ارتياحه لسياسة إنجلترا الخاصة بأن دتغال إيطاليا بعيدة أطول فترة ممكنة ، لأنه كان يرى أن الحكومة البريطانية د ستعمل على أن تشرك إيطاليا في الحرب قريباً ،^(١١) . وينبغي أن نلاحظ أن هذه المقابلة وما دار خلالها من نقاش قد حدث في نفس اليوم الذي أعلنت فيه ألمانيا الحرب على بولندا ، وقبل أن تعلن إنجلترا حالة الحرب ضد ألمانيا .

وفي نفس اليوم - أول سبتمبر - يادر على ماهر بإعلان الأحكام العرفية في مصر وتم تعيينه حاكماً عسكرياً . وقام باتخاذ كافة الإجراءات التي نصت عليها المعاهدة للرقابة العامة على البريد والمراسلات السلوكية واللامسلوكية ، وأعلنت حالة الطوارئ وأنشئت مصلحة رقابة النشر ، وكانت رقابة مشتركة مثلت فيها كل من مصر وإنجلترا ، كما فرضت مجموعة من القيود الحربية والاقتصادية ، وقسمت البلاد إلى أربع مناطق عسكرية ، ووضعت موانئها ومطاراتها تحت تصرف إنجلترا . كما تم قطع علاقات مصر الدبلوماسية مع ألمانيا في الثالث من سبتمبر ، وتم إلقاء القبض على الرعايا الألمان ووضع ممتلكاتهم تحت الجراسة ، وأصدرت الحكومة المصرية تصريحاً نص على ضرورة تفتيش السفن في بور سعيد والسويس وإغلاق قناة السويس في وجه السفن المعادية ، ولم يلبث أن أصبح المروء فيها قاصراً على سفن الحلفاء الحربية^(١٢) .

وبالرغم من كل تلك الإجراءات التي اتخذتها وزارة على ماهر حتى من قبل أن تعلن انجلترا ذاتها قيام حالة الحرب ضد ألمانيا ؛ وبالرغم من المعارضة التي أثارها الأحزاب المصرية فيما بعد وخاصة حزب الوفد (١٣) ضد هذه الإجراءات ، فإن السفير البريطاني اعترض على موقف مجلس الوزراء المصري وطالب بضرورة إعلان حالة الحرب على ألمانيا . غير أن على ماهر تذرع بوجود معارضة في مجلس الوزراء ضد إعلان حالة الحرب ، . وقد وصف السفير البريطاني الموقف داخل مجلس الوزراء المصري بأنه يعتبر « أول أزمة من نوعها في تاريخ مصر المستقلة » (١٤) .

وقد بعث وزير الخارجية البريطانية في الثامن من سبتمبر ١٩٣٩ بتأييده التام لموقف سفيره في القاهرة ومطالبه من حكومة على ماهر بحبذا ضرورة قيام مصر بإعلان حالة الحرب ضد ألمانيا متعللا بأن مصر سوف تكسب اقتصادياً من إعلانها لحالة الحرب ، كما أنها « سيكون لها الحق في توقيع معاهدة الصلح على أساس المساواة مع الدول الأخرى » (١٥) .

وقد ظل السفير البريطاني في القاهرة يمارس ضغطه بقوة كي يرغم على ماهر - رئيس الوزارة - على إعلان حالة الحرب ضد ألمانيا ، على الرغم من أن بريطانيا ذاتها قد تأخرت في إعلان الحرب حتى الثالث من سبتمبر وبعد انقضاء يومين على غزو ألمانيا لبولندا . وقد جاء ذلك مجرد إعلان لحالة الحرب معها فحسب ، وشاركتها فرنسا نفس الموقف (١٦) . ولقد كان من الممكن اعتبار الإجراءات والترتيبات التي اتخذتها الوزارة المصرية كافية للغاية ، فقد قوبلت بموجة من الهجوم والاستياء من جانب بعض قطاعات الرأي العام المصري على اعتبار أن مصر لم تكن قد أعلنت قيام حالة الحرب ، كما أن الحكومة الانجليزية ذاتها لم تكن قد أعلنت - مثلها فعلت مصر - الأحكام العرفية . بل اكتفى برلمانها وحكومتها بوضع التشريعات الكفيلة بحماية الدولة في حالة الحرب دون تقييد لحرية الصحافة

أفهم إلا في أضيق الحدود التي تقتضيها ضرورات الحرب (١٧) . ولكل هذه الاعتبارات وغيرها تريثت وزارة على ماهر فلم تعلن حالة الحرب مع ألمانيا ، حيث أن المخاوف كانت تساور البعض وتصدم عن الاندفاع في هذا التيار ، فقد كانوا يرون أن ألمانيا لا تقهر ، وأن تنفيذ مصر للمعاهدة بإعلان الحرب ، أمر خطير النتائج ، خاصة إذا ما اشتركت إيطاليا في الحرب إلى جانب ألمانيا (١٨) . لكل ذلك أخذت وزارة على ماهر تثير المشا كل والتمهلات كسباً للوقت من ناحية ، ومسايرة للرأى العام المصرى من ناحية أخرى . على الرغم من أن السفير البريطانى قد لوح خلال حديثه مع على ماهر بأن مصر بموقفها هذا قد فاتها كثير من المجد ، إذ فشلت في قيادة العالم العربى وخذلت العراق وزعزعت ثقة الحكومة البريطانية فيها (١٩) . وذلك تلويح له مغزاه نظراً لما لإعلان مصر حالة الحرب من أثر معنوى كبير في البلدان العربية وبلدان الشرق الأوسط .

وأمام الضغط المستمر من جانب السفير البريطانى وافق مجلس الوزراء المصرى بالإجماع في اجتماعه المنعقد بالاسكندرية مساء ٨ سبتمبر ١٩٣٩ على إعلان حالة الحرب ضد ألمانيا ، وإن كان قد علق موافقته هذه على أن يبعث السفير بخطاب إلى رئيس الوزراء المصرى مؤداه أن إعلان الأحكام العرفية في مصر وقطع العلاقات مع ألمانيا لم تكن كافية لمواجهة التدابير اللازمة للمحافظة على أمن البلاد وسلامة القوات البريطانية ، وأن المطلوب الآن هو إعلان قيام حالة الحرب . كما تم إبلاغ السفير البريطانى ببعض المسائل التي تشغل بال الوزراء المصريين ، ومنها حماية السفن المصرية في الملاحة في البحر الأبيض المتوسط وعودة المصريين الموجودين بالخارج وضرورة اتخاذ بريطانيا الاجراءات اللازمة لضمان أمنها وسلامتها . وقد بعث السفير البريطانى إلى وزير خارجيته يطلب الترخيص له بتقديم الخطاب اللازم لرئيس الوزراء المصرى ، ويحيط الخارجية البريطانية علماً بكل تلك المسائل (٢٠) .

وقبل أن يتلقى السفير رد حكومته ، سلم إليه على ماهر - خلال اجتماعهما في ٨ سبتمبر - صورة برقية كان قد تسلمها لتوه من حسن نشأت سفير مصر في لندن مؤرخة في ٧ سبتمبر تتعلق بمقابلة الأخير مع مستر بتلر وكيل وزارة الخارجية البريطانية ، فهم منها نشأت أن بتلر يحبذ وقوف مصر على الحياد ، ؛ لما في ذلك من تسهيل ورود أسلحه أمريكية للحلفاء . وهو ذلك الأمر الذي يعد تغييرا كبيرا في خطة مصر وسياستها من إعلان الحرب . وربما أن رئيس الوزراء المصري قدم صورة تلك البرقية رغبة منه في التراجع عن القرار الذي سبق أن اتخذته مجالس الوزراء من قبل والذي عده السفير البريطاني د فشل في الوفاء بما عاهده عليه كتابة وشفها ، . وقد عزاء ذلك إلى دخول القوات الألمانية وارسو عاصمة بولندا ، وطلب من حكومته د إيضاحات تبديد سوء الفهم الذي وقع فيه سفير مصر ، (٢١) .

وقد استمرت وزارة على ماهر من جانبها في اتباع سياسة التسوية والمماطلة مستغلة عدم وصول الرد على ما طلبه السفير من حكومته . وأخذت تثير هذه مسائل دستورية تتعلق بقانونية إعلان حالة الحرب والاجراءات اللازمة لذلك . غير أن السفير الذي كان قد نفذ صبره طلب من رئيس الوزراء في وضوح د هل الحكومة المصرية على استعداد لإعلان الحرب ؟ ، ، وإذا كانت على استعداد فهل يجب دعوة البرلمان للاجتماع ؟ وذهب في قوله إلى حد أنه د ينبغي أن تقوم الحكومة بما هو واضح وواجب عليها القيام به بموافقة البرلمان أو بغير موافقة ، وقد اتخذ من وضع السودان وسيلة للضغط على رئيس الوزراء حيث صرح له د ماذا يكون عليه موقف السودان الشاذ : فهو محارب مع أحد الشريكين ومحاييد مع الشريك الآخر ، ، وقد استرعى ذلك الحديث انتباه على ماهر وطلب منه إمله حتى المساء ليبلغه بما ينتهي إليه الموقف في اجتماع الوزراء مساء ٩ سبتمبر ١٩٣٩ (٢٢) .

وقد قام رئيس لجنة قضايا الحكومة - عبد الحميد بدوي - بإعداد مذكرة

حول شرعية إعلان الحرب على ألمانيا من الناحية الدستورية صيغت ولا شك براءة فائقة ، كما استندت على أسس قوية وأشارت على الحكومة المصرية بعدم إعلان حالة الحرب إلا بموافقة البرلمان بالإجماع على اعتبار أن مصر ستخوض حرباً هجومية وليست دفاعية . ومما يسترعى الانتباه أن على ماهر أفهم الملك فاروق في موضوع إعلان حالة الحرب من عدمه ونسب إليه أنه قد حضر تحرير مذكرة عبد الحميد بدوى (٢٣) .

وفي رسالته إلى وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٢ سبتمبر بعث السفير البريطاني بملاحظاته على ماورد بالمذكرة المصرية من حجج وأسانيد محاولاً تنفيذها والرد عليها ، وقد خلص فيها إلى أن الحكومة البريطانية ينبغي أن توطن نفسها على أن الحكومة المصرية غير مستعدة لإعلان حالة الحرب في الوقت الحاضر ، ولكنه طلب ضرورة أن تسجل حكومته في ردها على المذكرة المصرية خيبة أملها ودهشتها لفشل رئيس الوزراء في أن يفي بماوعد به مراراً وبصفة رسمية ، وأن « ما أظهره من المراوغة كان له أثر سيء ولم يقع من حكومة جلالة الملك موقع الرضا » (٢٤) . وقد ضاق السفير البريطاني ذرعاً بهذه المذكرة التي أعدها بدوى وذهب في التهجم عليها إلى حد القول بأنها « ليست قرآناً منزلاً ، وأن الخبراء الدستوريين « إنما يؤخذ رأيهم باعتبارهم مراجع قانونية لحسب » وأن الذين لهم القول الفصل في ذلك إنما هم « أهل المستويات » في مصر (٢٥) .

وفي نفس اليوم - ١٢ سبتمبر - بعث وزير الخارجية البريطانية - فيكرنت هاليفاكس - ببرقية إلى السفير البريطاني في القاهرة يبلغه بأن حسن نشأت سفير مصر في لندن قد سلمه رسالة من على ماهر تفيد بأن الحكومة المصرية مستعدة لتنفيذ كل واجباتها والتزاماتها التي تنفق ونصوص المعاهدة . كما أنه قد قامت عدة صعوبات في سبيل إعلان مصر لحالة الحرب وهي نفس الصعوبات التي قامت في العراق الأمر الذي دفع الحكومة

المصرية إلى الاتصال بالحكومة العراقية لإقناعها بضرورة أن تحذو العراق حذو مصر . كما نقل إليه الحديث الذي دار بينه وبين سفير مصر في لندن عند اجتماعه به في ١٢ سبتمبر ؛ ذلك الحديث الذي تضمن التطورات التي مر خلالها موضوع إعلان مصر لحالة الحرب ضد ألمانيا والاصاب التي واجهت ذلك (٢٦) .

وفي ١٣ سبتمبر أ برق هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية إلى سفيره في القاهرة يبلغه بأن فرصة مصر في إعلان حالة الحرب قد ضاعت بعد القرار الذي اتخذته مجلس وزراء مصر في ٨ سبتمبر وكان يقضى بعدم إمكانية صدور مثل هذا الإعلان إلا بعد عرضه على البرلمان ، لأن ذلك قد يجر إلى متاعب وقد ينتهي إلى الرفض ، كما عبر عن ذلك هاليفاكس ، كما أشار إلى السفير بأنه يرى أن معاودة الضغط على الحكومة المصرية في هذا الصدد لا جدوى منه ، (٢٧) .

وقد عاد وزير الخارجية البريطانية فطلب من سفيره في ١٥ سبتمبر تجاهل المذكرة المصرية التي أعدها عبد الحميد بدوي حول دستورية إعلان حالة الحرب على ألمانيا ، ذلك لأن الخارجية البريطانية كانت قد بنت خطتها على أساس أنها سوف تلجأ إلى الصمت المطبق ، لتدع على ماهر د يتسكن بمدى تبرئنا ، وما عسى أن يكون عليه موقفنا في المستقبل ، . كما أوضح له كيف انتهت مشكلة الرعايا المصريين في ألمانيا سواء كانوا دبلوماسيين أو غير دبلوماسيين (٢٨) .

وقبل أن ينهزم شهر سبتمبر ويمر شهر واحد على إجتياح ألمانيا لأراضي بولندا ، ونظراً لموقف وزارة على ماهر من قضية إعلان مصر لحالة الحرب على ألمانيا وما اتسم به هذا الموقف من مراوغة واكتساب للوقت وانتحال لشئى المعاذير ، فقد ضاقت الحكومة البريطانية بوزارة على ماهر

وأخذت تفكر في تغييرها واستبدالها بوزارة جديدة . وذلك لأنها قد أخذت عليه عدة أمور كانت تكفي واحدة منها فقط لإسقاط وزارة معمرية في الظروف العادية (٢٩) غير أن أوضاع الحرب وما نجم عنها من حساسية شديدة لوضع إنجلترا في مصر وموقف الرأي العام المصري إزاء الحرب برمتها قد جعل الخارجية البريطانية وممثلها في مصر يترثان كثيراً قبل اتخاذ أى خطوة عنيفة ربما يكون من شأنها أن تضاعف من إثارة معارضة شديدة ضد تدخل إنجلترا ، في شؤون مصر الداخلية . كما أن عدم وجود سياسى مصرى يستطيع - من وجهة النظر البريطانية - أن يخلف على ماهر في الحكم دفع السفير البريطانى في القاهرة إلى أن يشير على حكومته في لندن أن تكف أيديها في الوقت الحاضر ولا تتدخل في الأمر إلى أن تحين الفرصة المواتية إما بأن « تعم الشكوى » أو بأن « يعيث [على ماهر] بأحكام الدستور » فعندئذ تجد إنجلترا مبرراً لتدخلها بحجة إنقاذ موقف « ظاهر الخطورة في زمن الحرب » (٣٠) .

وكان من الواضح أن من بين العوامل التي دفعت إنجلترا إلى التريث قليلاً قيام على ماهر برئاسة كل من الوزارة والديوان الملكى معاً . الأمر الذى كان يعنى أن اصطدام إنجلترا بعلى ماهر سوف يؤدي حتماً إلى صدامها بالملك في نفس الوقت والذهاب إلى حد استخدام القوة والتلويح بهزله ، وهو ما لم تكن إنجلترا راغبة فيه في تلك الظروف على الأقل خوفاً من موقف الرأي العام ثم من موقف الجيش المصرى . يضاف إلى ذلك أن إنجلترا - بالرغم من كل ذلك - قد امتدحت لعلى ماهر كل مواقفه وجهوده في تنفيذ كافة ما طلب منه فيما عدا مسألتين فقط هما : إعلان حالة الحرب ، واعتقال بعض الموظفين الألمان . وفي هذا الصدد يذكر السفير البريطانى « أنه قد استجاب لمطالبنا بكل همة ، وأصدر تشريعات الطوارئ بسرعة لم يكن في مقدور حكومة أخرى أن تقوم بها ، ويضيف « وقد

يكون له بعض العذر عن المسألتين المشار إليهما بسبب خشيته مما قد تسفر عنه الحرب ، ومن الجائز أن يعدل موقفه مع بواذر انتصارات الحلفاء ، (٣١).

على أية حال ، فقد تجمد الموقف مؤقتاً ، وقبلت بريطانيا من مصر مرقعها على مضض ، وراحت ترقب تصرفات حكومتها بحذر وقلق شديدين طوال الأشهر المتبقية من عام ١٩٣٩ وأوائل عام ١٩٤٠ وإن ظلت ترى أن وزارة علي ماهر تقوم بتنفيذ بنود معاهدة التحالف والصداقة بسخاء إلا أنها تنفذها تنفيذ الكاره الساخط ، وليس الصديق الحريص على معاونة صديقه « وأنجاه » . وهكذا كانت الحالة النفسية القائمة بين الوزارة المصرية والسلطات البريطانية في مصر مشوبة بفقر كبير وعدم الثقة والاطمئنان إلى المستقبل (٣٢). وظل وضع مصر الدولي شاذاً وفريداً ، فهي طبقاً للنصوص المعاهدة كانت في حلف مع إنجلترا ، وبالتالي وضعت مواردها تحت تصرف إنجلترا دون أن تكون رسمياً في حالة حرب مع ألمانيا . ولهذا لم يكن باستطاعتها أن تأخذ بموقف الحياد . إذ أن الفارق العملي الوحيد بين وضع مصر هذا وحالة الحسرب هو أن القوات المسلحة المصرية لم تكن ملزمة بالاشتراك في الحرب اشتراكاً فعلياً ضد الألمان (٣٣) .

غير أن تطوراً كبيراً طرأ على الموقف العسكري في أوروبا نتيجة لإجتياح الجيوش الألمانية أراضي كل من بولندا والنرويج وبلجيكا وهولندا والدانمرك وتوغلها في الأراضي الفرنسية حيث لم تستطع القوات البريطانية والفرنسية الصمود أمامها ، الأمر الذي أدى إلى سقوط وزارة نيفل شميرلين في إنجلترا باعتبارها وزارة غير قادرة على تحمل أعباء الحرب وإدارة دفتها وتشكيل وزارة قومية بريطانية برئاسة ونستون تشرشل في العاشر من مايو ١٩٤٠ (٣٤) ومن ناحية أخرى فإن موسوليني - عاهل إيطاليا - رأى مع التفوق العسكري الألماني أن الفرصة باتت سانحة أمام إيطاليا لاشتراكها في الحرب إلى جانب حليفها ألمانيا علماً بظفر بنصيب من مغانمها عند

عقد الصباح . حقيقة أنه قد التزم موقف الحياد طوال الفترة الماضية فأتاح لبلاده أن تجنى الكثير من الفوائد الاقتصادية والتجارية ، غير أنه بدأ مع التطورات العسكرية الجديدة يفكر جدياً في دخول إيطاليا الحرب (٣٥) . ولهذا كان يهم بريطانيا بالدرجة الأولى أن تستطلع رأى الحكومة المصرية وموقفها فيما إذا دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا لأن ذلك سوف يشكل تطوراً جوهرياً في موقف كل من مصر وبريطانيا . ومن ناحية أخرى فقد كان يهم إيطاليا أن تتعرف على موقف مصر في حالة دخول إيطاليا الحرب مع ألمانيا .

ولهذا فقد سأل وزير إيطاليا المفوض في القاهرة على ماهر في ٢٥ مايو ١٩٤٠ عما إذا كان في نية مصر مهاجمة إيطاليا ، فرد عليه رئيس الوزارة المصرية بأن مصر ليس لديها هذه النية وأنها ستقبل كل جهدها لتجنب الحرب ضد إيطاليا ، ولكنها ستقاوم أى هجوم يشن عليها من جانب إيطاليا . وفي نفس اليوم فإن السفير البريطاني رأى - هو الآخر - ضرورة إبلاغ رئيس الوزراء المصرى بأن بريطانيا - إذا ما وجدت نفسها في حالة حرب ضد إيطاليا - فإن مصر بطبيعة الحال ينبغي أن تقف إلى جانبها كحليف محارب ، . إلا أن رئيس الوزراء المصرى عاد فكرر له ما سبق أن ارتأته حكومة مصر حول ضرورة عرض الموضوع على البرلمان والحصول على موافقته في حالة ما إذا كانت الحرب بعيدة عن مصر ؛ لأنها ستكون في هذه الحالة حرباً هجومية . أما إذا ما وقع أى هجوم على أرض مصرية فإن الأمر يكون واضحاً تماماً بأنها ستكون حرباً دفاعية فلا داعى لدعوة البرلمان . وطلب من السفير عدم إثارة هذه المسألة في الوقت الراهن إنتظاراً لتطورات الموقف ، فقد لا تثار المسألة أبداً ، كل ذلك على الرغم من إلحاح السفير وتذرعه بأن الهجوم يكون في بعض الحالات د خيوسيلة للدفاع ، . وقد اكتفى السفير بأن حذره من الدعاية الإيطالية التى تروج للنظرية القائلة بأن مصر يمكنها أن تظل بعيدة عن الحرب وهى آمنة إذا ما دخلت إنجلترا في حرب ضد إيطاليا (٣٦) .

ولم يكتف السفير البريطاني بذلك بل إنه إلتهم فرصة مقابلته لذلك
فاروق في أول يونية ١٩٤٠ ولغت نظره إلى الدعاية الإيطالية المتزايدة حول
حياد مصر . فوعده الملك د بأنه سيتعهد المسألة ، وأن كان لا يملك أن
يصدر في هذا الشأن د أمراً عالياً ، كما أوضح للسفير بأنه قام بوضع أحد
أعمال الملكة فريدة تحت الحراسة نظراً لتشجيعه للايطاليين وليؤله الهجورية .
بل ذهب الملك إلى حد القول بأنه مستعد لاتخاذ إجراءات مماثلة عند الضرورة
وقد أبلغ السفير الملك بأنه فاتح على ماهر بلباقة د في شأن تعزيز حكومته
بضم عناصر أخرى إليها لتصبح في وضع أقوى إذا ما عرضت مسألة (الحرب
الهجومية) على البرلمان ، وكان السفير يقصد ضم عناصر وفدية إلى
الوزارة ، ومع أن الملك أبدى موافقته على ذلك إلا أنه دراح يردد المطاعن
ضد الوفد ، على حد قول السفير ، الذي اقترح على الملك أيضاً ضرورة
تسوية الخلاف القائم بين الوفد ورئيسه مصطفى النحاس من جهة ، والهيئة
السعدية ورئيسها أحمد ماهر الذي يترأس مجلس النواب من جهة أخرى ،
لأن ذلك قد يساعد على تدعيم الوزارة بتوسيع القاعدة ، فوافقه الملك على
ذلك وإن أبدى امتناعه عن القيام بدور الوساطة بينهما لأنه قد يزيد
د الأمور سوءاً بدلاً من تحسينها ، نظراً لأن المسألة د في غاية الدقة ، كما
ناقش السفير مع الملك كذلك حجة على ماهر الخاصة بموقف البرلمان من
الحرب الهجومية ، فجاء رد الملك بأنه - ومعه رئيس وزرائه - يعرفان
كيف يتعاملان مع البرلمان إذا تمسك برأيه ؛ ويقصد بذلك أنه يعتزم أن
يتخطاه . ويذكر السفير أنه نظراً لخطورة المسألة فإنه لم يشأ أن يترسل
في الحديث عنها ، ويعلق السفير على موقف الملك بقوله أنه د لا يزال ودياً
كما يبدو في ظاهره ولو أنني لأستطيع أن أقول إلى أي مدى يمكن أن نعتمد
على ذلك إذا تآزمت الأمور ، وقد بعث السفير البريطاني بتقرير إلى وزير
خارجيته في لندن بكل ما دار بينه وبين الملك وعلى ماهر ، وطلب رأي
الوزارة في مسألك هذا (٣٧) .

وفي الخامس من يونيه جاءه الرد من هاليفاكس مبدياً له عدم ارتياحه إلى الضغط الذي مارسه السفير على كل من الملك ووزيره الأول كي يتعهدا بإعلان الحرب على إيطاليا ، لأن ذلك الضغط ربما يسبب إلى بريطانيا أكثر مما يفيدها ، وأعرب له عن أمله في أن تقدم الحكومة المصرية على عمل سوف تثبت الحوادث أن لا مفر منه . وأن مصر ستقف في الحرب إلى جانب الحلفاء دفاعاً عن الحرية التي ينعم بها المصريون . كما أشار وزير الخارجية على سفيره في القاهرة بأن يكون مُقَرِّلاً في أبداء النصيحة بصدد تشكيل الوزارة في مصر ، حتى لا يضايق الملك أو يساء تفسير نصيحته . أما فيما يتعلق بالخلافات الشخصية بين الساسة المصريين فقد أوضح له بأنها من المشاكل الشائكة ، ونصحته بأن يظل نفوذ السفارة البريطانية مستتراً إلا إذا اتخذت الأحداث مساراً خطيراً ، (٣٧) مكرر .

وفي نفس اليوم - ٥ يونيه - بعث السفير إلى وزير خارجيته بتطورات جديدة نجم عنها تطور مريع للوقوف في مصر ، ذلك لأن جريدة البلاغ - الموالية للقصر - كانت قد نشرت مقالا دعت فيه إلى ضرورة وقف مصر موقف الحياد في حالة دخول إيطاليا الحرب (٣٨) . وهو الأمر الذي عبر عنه السفير بقوله أن الجو يأخذ يتسمم بالنظرية القائلة بالامتناع عن دخول الحرب أو بالوقوف على الحياد ، مما دعاه إلى مقابلة علي ماهر وحذره بلهجة قاسية ، واتهمه بأنه يخدع بريطانيا . وقارن بين ذلك المقال الذي نشرته جريدة البلاغ وبين مقال آخر نشرته جريدة المصري - الوفدية - دعت فيه إلى عدم الاطمئنان لتأكيدات إيطاليا بعدم اعتدائها على مصر (٣٩) . ووضح من المقارنة التي عقدها السفير المأخوذ الذي يقصده من وراءها . وقد طلب السفير من رئيس الوزراء عدم السماح بنشر تلك الآراء المضللة ، والعمل على نشر الآراء « السديدة » التي يدعو لها الوفد في هذه الأيام . غير أن رئيس الوزراء أنكر أية مسؤولية له عن مقال

البلاغ ، وأوضح للسفير أنه قد أصدر تعليماته بمراقبة النشر ومنع جميع التعليقات ، كما أصدر تعليماته إلى وزير الدفاع بأن يعتمد أية مبالغ مالية تتطلبها الأغراض العسكرية ، وألا يتقيد في هذا الصدد بالوائح المالية العادية . وبأنه قد ناقش الموقف مع بعض الأعضاء البارزين في مجلس الشيوخ فأوضح لهم بأن الحرب لا عمالة ستمتد إلى مصر ، وإن كان قد أبدى للسفير عدم استحسانه لإشاداته بالجريدة الوفدية . وخلال هذه المقابلة نصح السفير رئيس الوزراء بأن يصدر تعليماته للحد من نشاط وزير مصر المفوض في روما - مراد سيد أحمد - لأنه - وفقاً لرواية السفير - يدعو إلى حياض مصر ، كما أنه يظهر عدم ولائه للحلفاء وقضيتهم الأمر الذي يضر بموقف إنجلترا ومصلحتها ، وإن كان على ماهر قد أوضح له بأن تعليماته لجميع وزراء مصر المفوضين في الخارج تقضى بأن يقرروا حقائق الموقف بحسب ، وأنه لا سلطة لهم في مناقشة موضوع حياض مصر (٤٠) . وقد ختم رئيس الوزراء حديثه بأن طلب بإلحاح ضرورة إعلان القاهرة مدينة مفتوحة ، وذلك في مقابل أن يوافق السفير على كل المسائل الأخرى ، وهو ذلك المشروع الذي كان عبد الحميد بدوى - رئيس قلم قضايا الحكومة - قد أعده ؛ وأبدى بسببه جميع القادة العسكريين البريطانيين دهشهم ، وكذلك الحكومة البريطانية في لندن . وكان على ماهر قد فهم خطأ أن جنرال ويلسون - قائد عام القوات البريطانية في الشرق الأوسط - قد وافق عليه . وقد رد عليه السفير البريطاني بأنه لا يستطيع أن يدلى برأى حول ذلك المشروع الآن لأن مقترحات بدوى تبحث على وجه السرعة . وفي ختام البرقية نفي السفير لوزير خارجيته الشائعات التي قيل أنها تردد في جو القاهرة بأن على ماهر يقوم بخداع إنجلترا ، وإن كان قد أوضح بأن لرئيس الوزراء المصرى « شهرة في الدس » (٤١) .

وفي السادس من يونيو استدعي وزير الخارجية البريطانية سفير مصر

في لندن وأعرب له عن ارتياح حكومته لمسلك الحكومة المصرية خلال
الآزمة الراهنة والترتيبات التي اتخذتها لتأمين الدفاع عن مصر ضد العدوان
الخارجي وضد رجال الطابور الخامس الذين يقومون بترويج الدعاية
المحورية . كما أوضح له مطامع إيطاليا في شرق البحر المتوسط ، وطالب إليه
أن يواصل إرسال التقارير المشجعة إلى حكومته في مصر عن تصميم وعزم
الشعبين البريطانيين والفرنسي على مواصلة الحرب حتى النصر . كما أشار له أن
مسألة إعلان القاهرة « مدينة مفتوحة » موضع بحث من جانب الحكومة
والسلطات البريطانية ، وأنه يتعشم أن توافق الحكومة البريطانية على هذا
الإعلان بشرط ألا يكون عقبة أمام السلطات العسكرية (٤٢) . كما أنه أراد
من ناحية أخرى أن يتعرف على رأى السفير المصري في الموقف الداخلي
في مصر في حالة وقوع غارات عليها ؛ وعما إذا كان ذلك سيترتب عليه
اضطرابات داخلية ، فطمأنه السفير « بأن الأمن الداخلي يمكن المحافظة
عليه بسهولة » (٤٣) .

وقد بعث وزير الخارجية البريطانية في ١٠ يونيو ١٩٤٠ برفقة إلى
سفيره في القاهرة أعرب له فيها عن تأييده لموقف السفير ومطالبته من رئيس
الوزراء المصري . وطلب إليه ضرورة إبلاغه بأن كل ما يقال عن حيدة
مصر إنما هو « مقترحات مضللة تماماً » وأن الحكومة البريطانية سوف
تتخذ من مصر بكل تأكيد قاعدة لعملياتها الحربية . وترك للسفير مطلق
الحرية في اختيار الأسلوب الذي يعالج به الموقف مع رئيس وزراء
مصر (٤٤) .

وفي العاشر من يونيو ١٩٤٠ دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب ألمانيا
على أثر سقوط فرنسا ، الأمر الذي أدى إلى تطور موقف كل من مصر
وبريطانيا تطوراً جوهرياً . فإيطاليا — كما نعلم — تحتل ليبيا ومن ثم

تناخم حدود مصر الغربية . وقد تولى جنرال جراتسياني قيادة القوات الإيطالية في ليبيا ليتوجه بها إلى مصر ويجعل من أرضها ميداناً لقتال انجلترا فيها . يضاف إلى هذا أن احتلال إيطاليا للحبشة جعل منها موضع تهديد دائم لمصر في السودان وساحل البحر الأحمر . حقيقة إن إيطاليا سبق لها أن أعلنت على لسان موسوليني أنها مضطرة لدخول الأراضي المصرية لإخراج الإنجليز منها ، وأنها رغم ذلك تحترم استقلال مصر ولا تريد بحال أن تعتدي عليه أو تمسه . فهل يكفي مثل هذا الإعلان الذي روجته محطات الإذاعة لتظل الحكومة المصرية على موقفها من محور ألمانيا وإيطاليا؟ وهل تسمح بريطانيا للحكومة المصرية بأن تتخذ الموقف الذي تراه ؟؟ خاصة وأن القتال قد بدأ يتحرك سريعاً نحو الأراضي المتاخمة لمصر ، الأمر الذي قد ينتقل منها إلى مدن مصر وقراها في أية لحظة .

لقد سبق أن رأينا كيف أن السفير البريطاني قد التقى برئيس وزراء مصر - إثر مقابلته مع وزير إيطاليا المفوض في ٢٥ مايو الماضي لإبلاغه أن بريطانيا تتوقع أن تقف مصر منها موقف « الحليف المحارب » ، في حالة اشتراك إيطاليا في الحرب . كما أنه وقف موقفاً حازماً من الدعايات التي بدأت تروجها بعض الصحف المصرية لما سمي آنذاك « بجهاد مصر » والامتناع عن دخول الحرب « وتجنيد مصر وبلاتها » . ولم يقتنع السفير بكل ذلك بل إنه أخذ يراقب الموقف بحذر ، وراح مع القادة العسكريين البريطانيين في القاهرة يضعون كافة الترتيبات والخطط اللازمة لمواجهة الموقف في حالة دخول إيطاليا الحرب . وعندما أعلنت إيطاليا الحرب على كل من فرنسا وانجلترا في ١٠ يونيو سأل وزير إيطاليا المفوض على ماهر عما عساه يكون موقف مصر ؟ فأبلغه الأخير بأن « مصر بطبيعة الحال ستعمل بما يتفق ومعاهدتها » مع بريطانيا . وقد طلب السفير البريطاني في مساء اليوم ذاته من رئيس الوزراء المصري تنفيذ المرحلة الثالثة والأخيرة لإزاء الرعايا

الإيطاليين التي تتعلق باعتقالهم وترحيل الوزير الإيطالي المفوض وجميع أعضاء المفوضية والتقنصليات الإيطالية في مصر . وهي العملية التي أطلقت عليها السفارة البريطانية في وثائقها بعملية « التباك » . وقد استجاب على ماهر « في الحال » لهذا المطلب ، وكلفت مراكز القيادات العسكرية البريطانية بالتعاون مع وزارة الداخلية المصرية بتنفيذ هذه العملية في ساعة محددة (٤٠) .

وفي اليوم التالي ١١ يونيه - قابل السفير البريطاني على ماهر وأبلغه بتطورات الموقف العسكري وراح يذكره بوعوده والتزاماته السابقة تجاه الموقف . غير أن على ماهر أوضح له بأنه تلقى الكثير من الأسئلة من زمهون أن مصر وهي لا تملك أكثر من خمسة آلاف جندي كيف لها أن تلتق بنفسها إلى التهلكة بإعلان الحرب ؟ وقد أثار ذلك غضب السفير ، وهذه تجاهلا للقوات البريطانية في مصر من ناحية ، كما رأى فيه « تقديراً خاطئاً لعدد الجيش المصري من ناحية أخرى . وأكد له مدى ما تعلقه حكومته من أهمية خاصة على معاونة الجيش المصري لها . وعند ذلك اكتفى السفير بإبلاغ على ماهر بأنه إنما جاء ليطالب منه تسليم جوازات السفر للوزير الإيطالي المفوض وأعضاء المفوضية الإيطالية في القاهرة . وقد نقل السفير البريطاني وقائع ما جرى خلال تلك المقابلة بينه وبين على ماهر إلى وزير خارجيته في لندن ، وأعرب له عن قلقه من موقف رئيس الوزراء المصري (٤٦) .

وفي نفس اليوم - ١١ يونيه أبلغ السفير البريطاني وزير خارجيته في لندن بأنه أصبح يشك في « حسن نية » على ماهر . وأشار عليه بضرورة اتخاذ موقف حازم عاجل ، كما أشار عليه بأن الموقف يقتضى تغيير وزارة على ماهر وتشكيل وزارة جديدة على أساس أوسع يكون رئيسها مستعداً للوقوف مع بريطانيا « بإخلاص » ، كما يكون مستعداً لمواجهة إيطاليا

بقوة وحزم . ورشح كلا من حسن صبرى وحسين سرى وحافظ عفيفى أو غيرهم لتولى أمر تلك الوزارة الجديدة . كما أوضح السفير فى برقيته أن تنحية على ماهر تعنى الاصطدام بالملك فاروق لأنه سيعترض على اتخاذ مثل هذا الإجراء . كما أنه طالب ضرورة استبعاد الحكومة البريطانية للأقدام على ذلك عند الضرورة . وفى حالة معارضة الملك فإنه يجبر على التخلي عن عرشه وأضاف السفير بأن « لنا من الأمير محمد على خير من يساعدنا ، ونستطيع الاعتماد عليه والثقة به » . وزعم بأن « جمهرة الشعب المصرى ترحب بذلك التغيير » (٤٧) .

وفى صباح اليوم التالى - ١٢ يونيه - قابل السفير البريطانى على ماهر وأطلعه على التطورات العسكرية وأوضح له أن الإيطاليين قد اقتحموا أحد المواقع المصرية على الحدود الغربية جنوب السلوم ، وأن السلوم نفسها باتت عرضة لهجوم الإيطاليين؛ الأمر الذى يحل « مشكلة الحرب الدفاعية والهجومية » . ذلك لأن الحرب قد امتدت فعلاً إلى الأراضى المصرية مما يتطلب ضرورة إعلان الحكومة المصرية لحالة الحرب مع إيطاليا طبقاً للتعهدات والتأكيدات السابقة التى قطعها رئيس الوزراء على نفسه . وقد طلب السفير ضرورة ترحيل نائب القنصل الإيطالى فى السلوم فوراً . فوافقه على ماهر على نقله إلى الإسكندرية تحت الحراسة .

وقد أطلع على ماهر السفير البريطانى على البيان الذى اعتمد لإلقاءه فى جلسة سرية أمام البرلمان المصرى بمجلسيه - الشيوخ والنواب - صباح اليوم ذاته ، والذى كان مقررأ أن يدلى به مساء الليلة الماضية . وقد تضمنت مراسلات السفير البريطانى مع وزير خارجيته أهم محتويات ذلك البيان . ولا ترجع أهمية تلك الوثيقة إلى أنها تضمنت أهم محتويات بيان رئيس الوزراء المصرى فحسب ، بل لأنها تصور كذلك فهم السفير البريطانى لذلك البيان ورد الفعل عنده إزاءه . بالإضافة إلى أنها تعتبر المصدر الوحيد الذى تحت

أيدينا حتى الآن لذلك البيان^(٨) . ويذكر السفير أن علي ماهر سيفتح بيانه بالإشارة إلى التغيير الذي طرأ على الموقف منذ إعلان إيطاليا الحرب في ١٠ يونيو ثم بالإشارة إلى الموقف الجديد الذي تجد مصر نفسها فيه . ويشير البيان إلى موقف مصر من ألمانيا منذ سبتمبر وإلى قطع العلاقات معها . أما مع إيطاليا فإن الوضع يختلف بسبب الجوار في البر والبحر ، ومصر مصممة على التمسك بمعاهدة التحالف . أما عن نظرية حياد قناة السويس إذا كانت مصر في حالة حرب فإن هذا الحياد يستحيل تطبيقه عملياً . والاتجاه العام لرئيس الوزراء هو أن يثبت للبرلمان وللجمهور بأن مصر قد بذلت كل ما في وسعها للحيولة دون الحرب وأنها بمقتضى المعاهدة ملزمة بتقسيم جميع التسهيلات الممكنة لحليفتها وسوف تقوم بهذا كما فعلت ضد ألمانيا . وأن مصر متجهة بكل عواطفها نحو الحلفاء . ولكنها بمقتضى المعاهدة غير ملزمة بإعلان الحرب في جميع الأحوال وأنها لا بد لها من أن تحمي نفسها وهي مصممة على ذلك . فإذا ما وقع اعتداء بالقنابل أو هجوم على الجيش المصري أو دخول في الأراضي المصرية فهذا معناه الحرب . وهذا هو الموقف مبدئياً فإذا ما هوجمت هبت للدفاع عن نفسها ووقفت في الحرب مع حليفتها ، وبعدئذ سيلجئ رئيس الوزراء إلى رغبتنا في أن تكون مصر معنا في الحرب ثم يشير إلى حديثه منذ فترة قصيرة مع الوزير المفوض الإيطالي عندما سأله الوزير عما إذا كانت مصر ستهاجم إيطاليا إذا لم تقم إيطاليا بمهاجمتها وكانت إجابته بالنفي كما سبق أن أبلغ السفير والقيادات العسكرية البريطانية في مصر بذلك . كما سيتضمن بيان علي ماهر إشارة إلى موضوع إعلان القاهرة مدينة مفتوحة وإلى أن الأمر لا يزال قيد البحث . هذا كل ما نقله السفير عن البيان ، وتنبغي الإشارة إلى أنه قد تراجع في برقيته إلى وزير خارجيته عما سبق له اقتراحه بضرورة تنحية وزارة علي ماهر ، حيث رأي أنه كان خلال لقائه معه أقل تردداً عما

كان عليه في الليلة الماضية ، . وإن كان قد نصح بأنه لا يزال يتطلب مراقبة شديدة ، (٤٩) .

على أن أم ما يسترعى النظر فيما دار خلال إلقاء بيان رئيس الوزراء المصري في الجلسة السرية للبرلمان هو أن أحمد ماهر - رئيس الهيئة السعدية ورئيس مجلس النواب - قد عارض بيان رئيس مجلس الوزراء - وإن كان قد وافق عليه من حيث الشكل - وطالب المجلسين بضرورة الثقة بالانجليترا ومنحها حقوقاً أكثر مما تخولها لها المعاهدة ، خاصة وأنه في حالة انتصار كل من ألمانيا وإيطاليا فإنهما لن تحمدا لمصر موقفها الذي وقفته منهما . وقدم اقتراحاً بعبء عن الرغبة في منح الديموقراطيات كل ما يمكن من عون وتأيد . وقد ووفق على هذا الاقتراح . كما أن الأحرار الدستوريين - في المجلسين - قد أبدوا بيان رئيس الوزراء . بينما امتنع الوفديون - وكان عددهم ١٢ عضواً في مجلس النواب - عن التصويت على هذا البيان على اعتبار أن الحكومة لم تنح لهم الوقت الكافي للنشاور مع زعماء حزبهم في مثل هذه الأمور الخطيرة (٥٠) .

وبما استلقت النظر أيضاً أن على ماهر رفض في بيانه أمام البرلمان مصارحة أعضائه بما سبق أن تعهد به لوزير إيطاليا المفوض من حيث أن مصر ليس في نيتها مهاجمة إيطاليا ، ولكنها سوف تتصدى لأي هجوم يمتد إليها . غير أنه صرح لهم بأنه ، في حالة عدم هجوم إيطاليا على مصر فإن الأخيرة لن تعلن الحرب ضد إيطاليا ، وهو ما أشار إليه السفير البريطاني في برقيته ليلفت نظر وزير خارجيته إليه .

وعلى أية حال ، فبعد أن أدلى رئيس الوزراء ببيانه السياسي أمام البرلمان صباح ١٢ يونيو صرح وكيل وزارة الخارجية المصرية بأن الحكومة المصرية قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إيطاليا . كما أنه امتدعي وزير إيطاليا

المفوض في مصر وأبلغه بأن عليه أن يرحل عن مصر هو وأعضاء بعثته الدبلوماسية ، ولكن نظراً لأن الحكومة المصرية أرادت ألا تتكرر معها مسألة احتجاز أعضاء بعثتها الدبلوماسية في ألمانيا ، فإنها لم تسمح للوزير الإيطالي المفوض وأعضاء مفوضيته بمغادرة مصر إلا بعد أن تغادر البعثة الدبلوماسية المصرية روما وتخرج من إيطاليا بأمان ، كما أضاف وكيل الخارجية المصرية بأن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية قد وافقت على أن ترعى مصالح مصر في إيطاليا^(٥١) .

وفي ١٤ يونيو توجه على ماهر وبرفقته صديقه المخلص عبد القوي أحمد وزير الأشغال العمومية إلى السفارة البريطانية - بناء على استدعاء من السفير البريطاني - وطلب السفير من على ماهر ضرورة قيام الحكومة المصرية بمصادرة جميع السفن الإيطالية الراسية في المياه المصرية وتسليمها للسلطات البريطانية ، ومنع الاتجار مع العدو وتطبيق الأمر العسكري رقم ٦ على إيطاليا ، وهو الذي تم بمقتضاه فرض حالة الطوارئ ضد ألمانيا . كما طلب السفير ترحيل أعضاء المفوضية والقنصليات الإيطالية وضرورة مراقبة النشر لمنع نشر أى مقالات تروج للدعابات الإيطالية ، وقد أشاد السفير في حديثه مع رئيس الوزراء بموقف الوفد والمصحف الوفدية المؤيد تماماً لبريطانيا . كما أكد له خطورة النشاط الذي يمارسه الطابور الخامس ، في مصر ؛ ويعنى بهم الرعايا الألمان الذين لم يتم إلقاء القبض عليهم بعد . وطلب من رئيس الوزراء سرعة إصدار الأوامر اللازمة لتعيين الحكام العسكريين للمناطق العسكرية الثلاث التي حددتها بريطانيا وهي : الصحراء الغربية ، الصحراء الشرقية ، ومنطقة القنال . وحذره من خطورة الموقف الذي قد ينجم عن حدوث أى تأخير في هذا الصدد . كما لفت السفير البريطاني نظر رئيس الوزراء إلى الحالة السيئة التي أصبحت تسود الجيش المصرى كنتيجة لموقف الحكومة المصرية المتراخى تجاه إيطاليا . وحثه على ضرورة تزويد الجيش

بالتعليمات التي تقتضى التعاون الكامل مع بريطانيا حليفة مصر لأن إنجلترا تعلق على الجيش أهمية كبيرة . وفي ختام حديثه ذكر السفير كلا من رئيس الوزراء ووزير الأشغال بموقفهما المنطوى على التساهل وتقلب وجهة نظرهما فيما يتعلق بتعهدهما والتزامهما بأنه في حالة ما إذا دخلت إيطاليا الحرب فلن يكون هناك ثمة شك في موقف مصر منها . وقد شرح على ماهر وجهة نظره في كل أمر من هذه الأمور السابقة وإن لم يقتنع السفير بواحدة منها . كما اتهمه في برقيته التي بعث بها إلى وزير خارجيته « بالتهرب » و « عدم التعاون » . وفسر موقفه هذا بأنه رد فعل لرجحان كفة الميزان في غير صالح الحلفاء ، ومحاولة رئيس الوزراء أن يكسب لنفسه شعبية بمحاولة تجنب الشعب المصرى دخول الحرب والتعرض لويلاتها (٥٢) .

ويبدو أن السفير كان قد تلقى من وزير خارجيته ما يؤيد رأى القائل بأن اتخاذ مصر موقف الدولة غير المحاربة قد يفيد بريطانيا ، لأن السفير أعرب له عن موافقته على هذا الرأى على شرط أن تكون هناك حكومة مصرية يمكن الاعتماد عليها في اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لتأمين القوات البريطانية المسلحة بالسرعة المطلوبة ، وهو ما لا ينطبق على وزارة على ماهر . كما أن السفير أوضح في برقيته أن وجود الملك فاروق فى الإسكندرية وتغيبه عن القاهرة فى مثل هذه الظروف الحرجة يدل فى حد ذاته على مدى استعداداته ومعه حكومته لمواجهة الموقف الناجم عن دخول إيطاليا الحرب وما يستتبعه من التزامات تجاه مصر (٥٣) .

وقد وصل السفير البريطانى فى ١٥ يونيه إلى افتتاح كامل بأن على ماهر « غير متعاون ولا يمكن الاعتماد عليه بل ولا احترامه » ، على الرغم من أن على ماهر كان قد استجاب للكثير من المطالب التي طلبها منه السفير فيما عدا إعلان حالة الحرب على إيطاليا . وهو ذلك الأمر الذى كان السفير قد تفاضى عنه ولو إلى حين كما انضغ من الوثائق السابقة ، وكما سيتضح فيما يلى

من وثائق (٥٤) مما يدل على أن تشدده مع علي ماهر ربما يرجع إلى عداوته الشخصية وكرهه له من ناحية ، ولأنه وهو الأهم كان رجل القصر والملك شخصياً الذي كانت ميوه تجاه المحور لا تخفى على أحد خلال تلك الفترة . وهو ما لا يمكن لانجلترا احتمالاه في مثل هذه الظروف . وقد دفع ذلك كله السفير إلى أن يشير على وزير خارجيته بضرورة تغيير الوزارة بلا تأخير . وربما أن السفير قد دفع إلى اتخاذ هذا الموقف أيضاً نتيجة للمراسل التي كان قد بعث إليه بها كل من مصطفى النحاس - زعيم الوفد - ومحمد محمود - زعيم الأحرار الدستوريين . والتي أعربا فيها عن « اليأس » وأشارا إلى ضرورة تخلي علي ماهر عن الحكم فوراً إذا ما أريد إنقاذ البلاد . كما وافق على هذا الإجراء كذلك حسين مري وزير المالية في وزارة علي ماهر الذي صرح للسفير بأن علي ماهر لا يتعاون مع انجلترا بإخلاص ، وأنه وببعض زملائه قد يقدمون استقالاتهم من الوزارة لولا ما قد يحدثه ذلك من أثر في البلاد من الناحية السياسية . كل ذلك حدا بالسفير إلى أن يقترح على وزير خارجيته ضرورة تغيير الوزارة فوراً ، وأنه مستعد لقبول وزارة وفدية صميعة إذا ما كان مصطفى النحاس يفضل ذلك . لأنه يرى أن النحاس - رغم أخطائه - سيعمل مع انجلترا « بولاء » . وطلب من وزير خارجيته الترخيص له بمفاتيح النحاس في الأمر للتعرف على رأيه . وأشار إلى أنه ينبغي على انجلترا أن تلتزم الحزم مع الملك . ولوح له بأن جنرال ويفل Wavell - قائد القوات البريطانية في مصر - مستعد لأن يشد أزره إذا لزم الأمر . كما أوضح السفير بأن الملك فاروق قد فقد شعبيته إلى حد كبير وأنه يجب منع علي ماهر من العودة إلى القصر مرة ثانية لأن مركزه فيه يكون أكثر خطراً على بريطانيا من وجوده كرئيس للوزراء (٥٥) .

وفي ١٦ يونيو وافق هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية على اقتراح

تشحية على ماهر من رئاسة الوزارة وفوض سفيره في القاهرة لإبلاغ الملك فاروق بذلك . كما أعرب للسفير عن رغبة بريطانيا في إقامة حكومة جديدة تمثل أكبر عدد من العناصر المختلفة وأن الحكمة تقتضى أن يكون رئيسها غير وفدى على أن يتمتع بثقة الوفد . ذلك لأنه كان يرى أن تشكيل وزارة وفدية خالصة سوف يغضب القصر وبعض الدوائر السياسية الأخرى التي يهم بريطانيا تعاونهم معها حتى لا يخشى مناوأتهم لها ، فضلاً عما يتسم به الوفد — من وجهة النظر البريطانية — من عدم الكفاية والدراية . كما أنه أشار عليه بضرورة أن تتمتع الوزارة الجديدة بولاء كل من : الجيش المصري نظراً لما دلت عليه القوات المسلحة المصرية من أهمية بالغة ، ، ثم د تأييد أغلبية الشعب المصري ، (٥٦) .

وفي نفس اليوم — ١٦ يونية — بعث السفير البريطاني إلى وزير خارجيته ببرقية يبلغه بنتيجة استطلاعه رأى كل من النحاس وعبد المحمود في الموقف ، فالنحاس د يفضل تشكيل وزارة وفدية خالصة يقوم إلى جانبها (مجلس حرب) مؤلف من زعماء الأحزاب الأخرى ، كما أنه قدم أيضاً اقتراحاً بديلاً يقضى بتأليف وزارة محايدة برئاسة عبدالفتاح يحيى أو سيف الله يسرى ، ويضيف السفير أن النحاس وعبد المحمود دلم يوافقا على ترشيح حافظ هنيئى أو حسن صبرى لرئاسة الوزارة ، ومن ناحية أخرى فإن عبد المحمود لا يوافق على إختيار عبد الفتاح يحيى للرئاسة ، . ويعقب السفير على ذلك أن دءا يؤخذ على تشكيل وزارة وفدية خالصة :

(١) إغضاب القصر والقوى السياسية الأخرى ، واستبعاد حسين سرى وأحمد ماهر وغيرهما ممن هم على استعداد للعمل معنا .

(ب) قلة عدد الوفديين الأكفاء من الناحية الإدارية .

(ح) عدم ملاءمة الاقتراح الخاص بتعيين نفر من الزعماء أعضاء في (مجلس الحرب) واختصاصه والفائدة من تشكيله غير واضحة . ومن بين مآخذ السفير على إقتراح الوزارة المحايدة أن المرشحين لها ليست لهم قوة الزعامة . كما أن تجارب سيف الله يسرى تنحصر في عمله في السلك الدبلوماسي في الخارج . بيد أنها تلقى تأييداً من محمد محمود وحزب الأحرار وقد يؤيدها الوفد كما قد يرتضيها السعديون . ويضيف السفير أنه وبعد إعمال الفكر ، فسّر أن ينصح الملك باستشارة كل من محمد محمود بوصفه زعيم المعارضة في البرلمان ، والنحاس باعتباره زعيم أكبر الأحزاب شعبية ، وأن يعمل بآرائهما . وخلص إلى القول بأن الأمر قد يؤدي في النهاية إلى تأليف وزارة محايدة غير حزبية برئاسة سيف الله يسرى ، الذي لا يشك في تعاونه مع البريطانيين ، تعاوناً صادقاً ، (٥٧) .

وفي ١٧ يونيو قابل السفير البريطاني الملك فاروق — بالاسكندرية — وأبلغه مطالب بريطانيا وكان ذلك بمثابة إنذار صريح بأن لا سبيل إلى التعاون مع وزارة علي ماهر نظراً لأنه غير حاز على ثقة بريطانيا ، ولأنه لا ثقة الشعب المصري ، وفقاً لما أبداه زعيم كل من الوفد والأحرار الدستوريين . كما طلب من الملك بالحاج عدم عودة علي ماهر إلى منصبه في القصر ، لأن التجارب أظهرت أن وجوده في ذلك المنصب يجعل من المستحيل على أية وزارة أن تقوم بعملها . وقد طلب الملك فاروق من السفير أن يرشح له من يخلف علي ماهر في الوزارة . فاعتذر السفير بحجة أن ذلك ، ليس من شأنه . وإن كان قد أشار عليه — بعد إلحاح من الملك — أن الطريق السليم هو أن يستدعى للاستشارة كلا من محمد محمود وزعيم المعارضة ، ومصطفى النحاس زعيم أكبر حزب ، حاز لتأييد الشعب . ولكن الملك — الذي سلم بضرورة استشارة زعيم المعارضة ، أبي أن يستشير النحاس بحجة أنه صدرت عنه ، إهانة للملك ، . وهنا أوضح له السفير ضرورة استشارته

فأصالح بلده بل ولصالح عرشه . مع ما لهذه العبارة الأخيرة من مغزى كبير واضح . وخلال حديثهما لوح له الملك فاروق د بأن واجبه كملك لمصر يقتضيه أن لا ينضم في الحرب إلى الطرف الخامس . فرد السفير بأن مصر مرتبطة د بنا نجونا أو غرقنا ، فمن الخير أن نتحمل معاً لكي ننجو معاً ، وصرح له د بأن بريطانيا سوف تنتصر في النهاية فلا يظن غير ذلك . وكان السفير قد ألمح له خلال حديثه بأن جنرال ويفل د يتربع عودتي هذا المساء ليقف على مدى إستجابة الملك لطلباتنا . ويذكر السفير أنه لم يكن في استطاعتي أن أمارس ضغطاً عليه أقوى مما فعلت إلا أن أقدم له إنذاراً . ويختم السفير برقيته بأنه قد أبلغ أحمد حسنين - الذي كان يشغل منصب الأمين الأول في القصر - بكل ما دار بينه وبين الملك ، وطلب إليه أن يبصر الملك بضرورة الأخذ بما اقترحه عليه . وكان من رأى أحمد حسنين إعطاء على ماهر فرصة أخرى . إلا أن السفير رد عليه باستعالة ذلك بحجة أن على ماهر د لا يستطيع أن يعمل باستقامة ، (٥٨) .

وعلى الرغم من أن هذا د الإنذار ، الذي قدمه السفير البريطاني للملك قد تضمن مطالب محددة ، فإن الأخير أخذ يراوغ وبماطل في تنفيذها تمسكا منه بوزارة على ماهر التي وقفت من إعلان حالة الحرب حتى الآن هذا الموقف الذي يجنب مصر ويلاتها ، والذي يمكن تفسيره على أنه كان يعنى عدم ربط مصر بعجلة الامبراطورية البريطانية الخاسرة والمراهنة على الجواد الخامس الذي اتضح من حديث الملك مع السفير البريطاني ، خاصة بعد أن تطور الموقف العسكري في أوروبا لغير صالح الحلفاء بعد انهيار فرنسا أمام القوات الألمانية . وهو ما شجع تزايد الميول المحورية في مصر شعبية كانت أم رسمية ، ليس على اعتبار أن المحور صادق النية في الوعود التي أعلنها قادته وتعلق باحترام سلامة وإستقلال دول منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط ، ولكن على اعتبار أنه ان يكون أسوأ من الاحتلال

البريطاني الفرنسي الذي طأت منه شعوب منطقة الشرق الأوسط بأسرها وخبرته فترات طويلة ، ومن ناحية أخرى أن هذا الميل كان يحمل في طياته دوافع التشنق والانتقام من « حليف » أكرهت مصر على مخالفتها ضد رغبة شعبها . كما أنه كان يتضمن في نفس الوقت معنى الإعجاب بالمسكينة الألمانية « التي لا تقهر » من جانب بعض قطاعات الرأي العام المصري وقادته بل وحتى الملك فاروق ذاته .

وعلى أية حال ؛ فإن الملك فاروق رغبة منه في المراوغة وكسب الوقت بعث في ١٨ يونيو ببرقية إلى ملك بريطانيا يشكو فيها من أسلوب التعسف والشدد وعدم اللياقة الذي مارسه السفير البريطاني ، وفي نفس الوقت دفع بأحمد حسنين لمقابلة السفير كي يحيطه علماً ببرقية الملك إلى ملك إنجلترا ويوضح له بأن لن يكون هناك تعديل في الوزارة حتى يصله رد لندن على تلك البرقية . في الوقت الذي راحت فيه الصحف الموالية للقصر تشيع الأنباء بأن على ماهر أخذ في تعديل وزارته بتوسيع نطاقها حتى تقطع على البريطانيين خط الرجعة . وقد كانت مقابلة أحمد حسنين للسفير تعنى — في نفس الوقت — محاولة القيام بدور الوساطة كي يسمح لعل ماهر بالعودة إلى منصبه في القصر كرئيس للديوان الملكي ، مراعاة لكرامة الملك فاروق . وقد رفض السفير ذلك رفضاً باتاً في الوقت الذي أكد له أنه ليس في نية بريطانيا التمسيم على مطالبة أي حكومة مصرية بإعلان حالة الحرب . وقد طلب السفير من حكومته ضرورة أن يكون الرد على برقية الملك والتعليمات الصادرة إلى السفير هو تنحية على ماهر من رئاسة الوزارة وعدم السماح بعودته إلى منصبه في القصر بضرورة قاطعة بحجة أنه « لا يمكن أن تقوم حكومة مناسبة إذا هو استعاد مكانه في القصر »^(٥٦) . علماً بأن الإجراءات التي اتخذتها وزارة على ماهر لتدكين بريطانيا من استخدام مصر كقاعدة عسكرية

في المنطقة لم تكن تختلف كثيراً عن قرار إعلان حالة الحرب ضد دول المحور .

وقد أخذ السفير البريطاني يستعجل رد حكومته على برقية الملك فاروق متعللاً بأن أي إبطاء في عزل علي ماهر سيؤدي إلى « وضع خطير » ، لأن القصر قد أوقف كل تصرف انتظاراً لذلك الرد . هذا في الوقت الذي أخذ علي ماهر يشيع بأنه قد عزل من منصبه بغير وجه حق ، وأنه لا يعتزم التخلي عن منصبه طالما أن وزارته « تتمتع بثقة الملك والبرلمان » . كما أنه دأب على إذاعة أن وزارة الخارجية البريطانية لازالت تدرس الموقف حتى يترك انطباعاً عاماً في مصر بأن انجلترا قد تتراجع عن موقفها وأنه قد يبقى في الحكم مسعياً في ذلك ببعض قطاعات الرأي العام المصري المشايخ^(٦٠) وقد أشار السفير البريطاني على حكومته - في برقيتين بعث بهما إلى وزير خارجيته في ١٩ يونيو - بأنه في حالة رفض المطالب البريطانية فليس أمامها سوى التهديد بإعلان الأحكام العرفية البريطانية على مصر كما حدث من قبل في عام ١٩١٤ عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر . وذلك إجراء كان من شأن تطبيقه الرجوع بحالة مصر إلى الوراء والتجاهل الكامل لاستقلالها وسيادتها المعان في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ والذي تأكد بتوقيع معاهدة ١٩٣٦ ، علماً بأن السفير ذاته لم يكن مرتاحاً تمام الارتياح إلى تطبيق هذا الإجراء ، وإن كان قد أراد استخدامه كورقة يلوح بها للضغط على مصر حتى تستجيب للمطالب البريطانية . وقد عبر السفير عن ذلك بأن « مجرد التهديد سيكون كافياً » في حد ذاته . وإن كان قد أوضح بأن الاستعداد لمواجهة مثل هذا الموقف قد تم ، وأن لديه من القوات العسكرية ما يكفي لتنفيذه . الأمر الذي يعني أن جزء كبيراً من القوات سينحصر للقيام بالمحافظة على الأمن الداخلي وما يتبع ذلك من مصاعب من الناحية الإدارية^(٦١) .

وقد تأخر رد وزارة الخارجية البريطانية على سفيرها في القاهرة -

بالرغم من إلحاح الأخير - بعض الشيء . وإن كانت قد وصاته برقية من الوزارة بتاريخ ١٩ يونيه تطلب إليه عدم التمسك في علاقاته ومطالبه من الحكومة المصرية ببعض الأمور الأقل أهمية كتلك التي تتعلق باعتقال أو ترحيل الرعايا الإيطاليين في القاهرة ، والتي ربما قد تتخذ ذريعة لعرقلة سياسية بريطانيا العامة في مصر ، وإن أعربت له في نفس الوقت عن استعداده لتأييده - ومعه السلطات العسكرية - في اتخاذ ما يراه من إجراءات ضرورية (٦٢) .

وفي الثاني والعشرين من يونيه وصل الرد الذي طالما انتظره السفير وألح في طلبه . وقد تضمن ذلك الرد موافقة هاليفاكس وزير الخارجية على الاقتراح الخاص بالتهديد بإعلان الأحكام العرفية البريطانية في مصر بما في ذلك فرضها إذا لزم الأمر على اعتبار أنها إجراء مؤقت دعت إليه اعتداءات الإيطاليين والمحافظة على الأمن العام في مصر . وأن ذلك لن يؤثر في سير الحياة العادية إلا بأقل قدر ممكن . كما نصحه بأن تكون ذريعة بريطانيا عند اللجوء إلى ذلك هو مخالفة الحكومة المصرية لنص المادة الخامسة من معاهدة الصداقة والتحالف (٦٣) كما خوله وزير الخارجية حق قبول تنازل الملك فاروق عن العرش إذا لم يستجب إلى المطالب البريطانية . بشرط ألا يترك - بعد تنازله - حراً طليقاً ؛ وأن يوضع تحت الرقابة البريطانية حتى لا ياجأ إلى إيطاليا للمطالبة بعرشه (٦٤) .

ويتضح من ذلك الرد أن وزارة الخارجية البريطانية قد هيأت نفسها لقبول وزارة يتولى رئاستها مصطفى النحاس - رئيس الوفد وزعيم حزب الأغلبية - في حالة ما إذا تم تنحية الملك فاروق عن العرش لأن العقبة التي كانت تقف دائماً أمام تعيين النحاس رئيساً للوزارة المصرية وهي الخوف

من إغضاب القصر تكون قد زالت ، مما يسمع بتولى النحاس رئاستها باعتبارها
رأب المعاهدة وراعيها، (٦٥) .

ورغبة من الملك فاروق في تدارك الموقف وحفاظاً على عرشه —
وكانت قد وصلت إلى مسامحه أنباء رد وزارة الخارجية البريطانية —
استدعى إلى قصر عابدين عدداً من الساسة القدامى وزعماء الأحزاب وقادة
الرأى للنشاور في الأمر . فاجتمعوا بالقصر مساء السبت ٢٢ يونيه —
وهو اليوم الذى وصل فيه رد الخارجية البريطانية ذاته — وافتتح الملك
الاجتماع وتركهم بعد أن أشار عليهم بالمسائل التى سيجرى بحثها وطلب
إليهم أن تم دراستها بكل حرية . وقد تداول المجتمعون في الموقف بعد أن
عرضه عليهم على ماهر رئيس الوزراء واستمروا في اجتماعهم أكثر من
خمس ساعات . وتروى المصادر العربية (٦٦) أن المجتمعين وفي مقدمتهم أحمد
ماهر قد اتفوا إلى اتخاذ قرار بالموافقة على استقالة وزارة على ماهر بعد
أن انعدمت الثقة بينها وبين الحكومة البريطانية . حيث وزد في القرار أنه
إزاء إصرار على ماهر بأنها على الاستقالة فانهم يضعون الأمر بين يدي
الملك ليصرفه بحكمته ، وذلك يعنى الإذعان للتبليغ البريطانى . ثم انتقل
البحث إلى شكل الوزارة الجديدة فرأى بعضهم أن تكون وزارة قومية
ورفض النحاس الفكرة وطلب أن تؤلف وزارة محايدة تقوم بإجراء
انتخابات جديدة ، مما أدى إلى أن ينتهى المجتمعون على غير اتفاق .
وتكاد الوثائق البريطانية أن تنفق في روايتها حول هذا الاجتماع مع ما أورده
المصادر العربية (٦٧) .

وفي صباح اليوم التالى — ٢٣ يونيه — قابل السفير البريطانى وبرفقته
الجنرال ويقل الملك فاروق ، وسلمه الأخير صورة القرار الذى تم التوصل
إليه في اجتماع القادة بالأمس في قصر عابدين . وأوضح له أن ذلك يعنى
« أننا نسير في سياسة قوية من الصداقة والإخلاص تجاه إنجلترا » . فذكره

السفير مرة أخرى بالمطالب البريطانية التي تقضى بتشكيل حكومة قوية تمثل الشعب ... وتلتزم بتنفيذ المعاهدة ؛ أى يوافق عليها النحاس باشا ، . كما طلب إليه ضرورة استدعاء النحاس للمشاور معه فى الأمر (٦٨) .

وفى مساء نفس اليوم - ٢٣ يونية - قدم على ماهر استقالة حكومته وأشار فيها إلى التدخل البريطانى حيث ورد فى كتاب الاستقالة ، ولكن أصبح الاستمرار فى الحكم متعذراً لأسباب قاهرة خارجة عن إرادتنا وإرادة الشعب المصرى . لهذا أرانى مضطراً إلى رفع استقالتي إلى مقامكم السامى ، ، معرباً عن أمله فى أن تخرج البلاد من هذه المحنة مرفوعة الرأس عزيزة الجانب ، (٦٩) .

كما ذهب أحمد حسنين - الأمين الأول بالديوان الملكى - إلى دار السفارة البريطانية فى مساء اليوم - ٢٢ يونية - لإبلاغ السفير رد الملك على المطالب البريطانية ، ويتضمن موافقته على اعتزال على ماهر رئاسة الوزارة وتعهدها بالآلا يعود إلى منصبه فى القصر كرئيس للديوان الملكى ، واقترح الملك بأنه سيقوم باستدعاء النحاس ورؤساء الأحزاب السياسية الأخرى للاتفاق على اختيار رئيس وزراء محيد ، وقد أوضح السفير لمندوب القصر تمسكه بمطلب بريطانيا الاسامى ، وهو أن يكون رئيس الوزراء الجديد حائزاً على تأييد النحاس ، . فرد عليه أحمد حسنين بأن الملك يعمل طبقاً لمشورة النحاس وزعماء الأحزاب الأخرى فى سبيل الحصول على تأييدهم لرئيس الوزراء الجديد وضمن موافقة البرلمان . وقد طلب السفير ضرورة الانتهاء من هذه المشاورات على وجه السرعة وأن يكون رئيس الوزراء الجديد من طراز حافظ عفيفى أو حسن صبرى (٧٠) .

ويبدو أن الملك أراد أن يستغل اقتراحاً نسبته إلى وزير الخارجية البريطانية ورد ضمن برقية من حسن نشأت سفير مصر فى لندن إلى الحكومة

المصرية بأن الخارجية البريطانية ترى أن يتم تغيير الوزارة دون ضجة وبغير حاجة إلى حل البرلمان . فقد عقب السفير على ذلك بأن هذا الأمر قد يتخذ الملك ذريعة لاستبقاء الحال على ما هو عليه ، ، لأنه من غير المحتمل أن يجمع النحاس وزعماء الأحزاب الأخرى على مرشح واحد لرئاسة الوزارة . مما دعاه إلى أن يقترح وقف جلسات المجلس النيابي خلال عطلة الصيف مما يذلل تلك الصعوبات . كما أنه رأى أن ينتظر ما قد تسفر عنه المشاورات وإلا فإنه سوف يصير على قبول ما يشير به النحاس الذي يزعم الأغلبية العظمى في البلاد ، . ويعاق السفير على الموقف بمرته موضحاً : وقد تخرج من الأزمة الحالية دون حاجة إلى تغيير الملك ، ولكنني أشك كثيراً في أن يستمر طويلاً وعلمنا أن مراقبه طول الوقت ، ويضيف : وفي نفس الوقت اتخذت جميع الإجراءات إذا ما اقتضى الأمر إعلان الأحكام العرفية ، (٧١) .

والأمر الذي يدهو إلى الالتفات هو بروز دور بعض رجالات الجيش المصري للمرة الأولى خلال هذه الأزمة وظهور ما أسماه السفير - في برقيته بتاريخ ٢ أكتوبر ١٩٣٩ - « بالثلة العسكرية ، ويقصد بهم الفريق عزيز على المصري وعبد الرحمن عزام وصالح حرب وغيرهم (٧٢) ، والتي ربما كانت مدفوعة من جانب على ماهر - وربما من جانب الملك ذاته - للعمل على إحباط دور البعثة العسكرية البريطانية وهدم نفوذها في صفوف الجيش المصري . وقد دفعت كل تلك العوامل وغيرها السفير البريطاني إلى حد التلويح بإعادة مصر إلى ما يقبضه همد « الحماية ، ذلك لأن بريطانيا ما كان يوسمها أن تغض الطرف عما كان يجري في مصر في تلك الظروف العصيبة التي كانت تمر بها بريطانيا . لذلك آثرت أن ترتب الموقف باهتمام بالغ إلى أن واثتها ظروف مناسبة للتخاص من هذه الوزارة « المناوئة ، دون أن يشير تدخلها مباشرة مصر والمصريين .

على أية حال ، فقد دعى الزعماء إلى عقد اجتماع آخر في مصر عابدين يوم ٢٤ يونية للشاورة في تأليف الوزارة . فأصر النحاس على رفض الاشتراك في وزارة قومية مؤكداً رأيه بشأن تأليف وزارة محايدة تجري انتخابات حرة عندما تسمح الظروف بذلك (٧٣) . وفي نفس اليوم - ٢٤ يونية - طلب على ماهر عقد جلسة لمجلس الشيوخ ليبدل فيها ببيان عن موقفه من الأزمة . وقد أوضح في بيانه أسباب استقالته وذكر أن السلطات البريطانية تقدمت إليه بعدة طلبات كما هو ثابت في محفوظات وزارة الخارجية ورئاسة مجلس الوزراء وأنه استجاب إلى الكثير من هذه المطالب في نطاق معاهدة التحالف ، الأمر الذي استوجب شكر السلطات العسكرية البريطانية عليها . ولكن السفير البريطاني لجأ إلى « الوسائل العتيقة » وطلب تنحيته عن الحكم . وجاء في هذا البيان أن « جوهر الخلاف الحالي في التعارض بين مصلحة الدولتين فكل منا كان يعمل بما يمليه عليه الولاء والإخلاص لوطنه » . وقد أعرب المجلس عن كامل تأييده لرئيس الوزراء المستقيل (٧٤) ، ونلاحظ أن على ماهر التجهز إلى مجلس الشيوخ وليس إلى مجلس النواب - الذي يملك وحده إعلان الثقة بالوزارة وربما يرجع ذلك إلى خشية من المعارضة التي قد يثيرها رئيس المجلس نفسه - أحمد ماهر - استمراراً لمواقفه السابقة من رئيس الوزراء فيما يتعلق بموقف مصر من الحرب .

وقد تأخرت موافقة الملك على قبول استقالة على ماهر ووزارته حتى يوم ٢٧ يونية ١٩٤٠ إلى أن كلف حسن صبرى بالقيام بتشكيل الوزارة الجديدة طبقاً للترتيبات التي أعدتها بريطانيا وهوانف مختلف القوى السياسية المصرية .

وهكذا تم الإطاحة بوزارة على ماهر نتيجة لانتهاك بريطاني سافر لاستقلال مصر وسيادتها بلغ حد توجيه إنذار إلى الملك ، وتدخل بريطاني مباشر وصريح في عزل وتعيين رؤساء الوزارات المصرية . وليس في وسع

من يطلع على هذه الوثائق البريطانية التي كشف النقاب عنها مؤخراً إلا أن يشيد بموقف علي ماهر وسياسته خلال فترة تقلده رئاسة الوزارة التي استمرت بين ١٨ أغسطس ١٩٢٩ ، ٢٧ يونيو ١٩٤٠ ؛ والتي التزمت بمبدأ د تجنيب مصر ويلات الحرب ، . على الرغم من أنها عملياً قد انساقت تحت تأثير الضغوط البريطانية إلى اتخاذ إجراءات عديدة وصارت بالبلاد إلى حد أنها كانت أشبه بالدولة المحاربة .

الحواشى

- (١) الرافعى ، فى أعقاب الثورة ، ج ٣ ، ص ٦٩
- (٢) فؤاد كرم ، النظارات والوزارات المصرية ، ص ٣٨٠
- (٣) هيكل ، مذكرات فى السياسة ، ج ٢ ، ص ١٦٣
- (٤) نفس المرجع ، ص ١٦٤ — ١٦٥
- (٥) الرافعى ، المصدر السابق ، ص ٦٠
- (٦) فؤاد كرم ، المصدر السابق ، ص ٨٢ — ٣٨٣
- (٧) راجع نص هذه المادة فى ، القضية المصرية ، ص ٤٦١
- (٨) F.O., 407/223, No., 1060, from Petman to Halifax
- (٩) راجع ، قانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ ، صفحات ٤٠ وما بعدها ، ١٣٥ وما بعدها
- (١٠) حول هذه الظروف الدولية ، راجع ، تروخانوفسكى ، سياسة بريطانيا الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية ، ترجمة عبد الحميد الجمال ، ص ٢١ وما بعدها ، كذلك جرائد وآخر ، أوروبا فى القرنين ١٩ ، ٢٠ ، ترجمة محمد على أبو درة وآخر ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ وما بعدها .
- (١١) F.O., 407/223, No., 507, from Lampson to Halifax.
- (١٢) Ibid, No., 527, from Lampson to Halifax.
- (١٣) لم يوافق مجلس الشيوخ فى البداية على إعلان الأحكام العرفية ، ولكنه انتهى إلى الموافقة بأغلبية ٦٨ صوتا ضد ٥٩ صوتا .
- (١٤) Op. Cit., No., 527.
- (١٥) F.O. 407/223, No , 618, from Halifax to Lampson
- (١٦) ربما يرجع ذلك التأخير إلى سياسة التهديد التى كانت تتبعها الحكومة البريطانية تجاه توسعات هتلر واستفزازاته المتكررة ، راجع ، تروخانوفسكى ، المصدر السابق ، ص ٢١ وما بعدها . أو أنها ترجع إلى ارتباط خطة بريطانيا العسكرية فى الدفاع عن بولندا بحوقف الحكومة الفرنسية ، حيث أن إنجلترا لم يكن فى وسعها اتخاذ خطوة عسكرية إلا بعد نزول قواتها فى الأراضى الفرنسية .
- (١٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، العلاقات المصرية البريطانية ، ص ٣٢
- (١٨) هيكل ، المصدر السابق ، ص ١٧١
- (١٩) F.O., 407/223, No. 555, from Lampson to Halifax.
- وكان من بين الأسباب التى تعللت بها الوزارة فى تأخير إعلان حالة الحرب احتجاز ألمانيا لرجال المفوضية المصرية وبعض الرعايا المصريين المقيمين فى ألمانيا .
- (٢٠) F.O. 407/223, No., 557, from Lampson to Halifax,

- F.O. 407/223; No., 562, from Lampson to Halifax. (٢١)
- Ibid., No., 570, from Lampson to Halifax. (٢٢)
- Ibid, No., 575, from Lampson to Halifax. (٢٣)
- Ibid, No., 582, from Lampson to Halifax. (٢٤)
- Ibid, No., 570, from Lampson to Halifax. (٢٥)
- F.O. 407/223, No., 1038, from Halifax to Lampson. (٢٦)
- Ibid, No. 651, from Halifax to Lampson. (٢٧)
- Ibid, No., 669, from Halifax to Lampson. (٢٨)
- (٢٩) ومن بين المآخذ التي عدها السفير البريطاني على علي ماهر : جمعه بين رئاسة الحكومة ورئاسة الديوان الملكي وإدارته لأعمال ذلك الديوان بينما الملك في معزل عما يجري حوله ، تكبيله للمعارضة في ظل الأحكام العرفية !! ؛ اتجاه القصر والأوساط المحيطة به ومعهم على ماهر إلى معاداة الانجليز والميل نحو الألمان ، بل أن بعضها اتجه نحو « اليسارية » ؛ محاولات على ماهر التفريق بين المدنيين والعسكريين البريطانيين العاملين في مصر ، إذاعته أنباء خلافه مع السفارة البريطانية ، محاولات على ماهر التخفيف من قبضة الانجليز على مصر والحد من نفوذهم تدريجيا . عزل بعض العناصر المقربة إلى الانجليز من مناصبهم كأمين عثمان وعبد الرازق أبو الخير ...
- F.O. 407/233, No. 719. from Halifax to Lampson. (٣٠)
- and No., 298, from Lampson to Halifax.
- F.O., 407/223, No., 298, from Lampson to Halifax. (٣١)
- (٣٢) ميكل ، المصدر السابق ، ص ١٨١
- (٣٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، المصدر السابق ، ص ٣٢
- (٣٤) تروخانوفسكي ، المصدر السابق ، ص ١١١ — ١١٢
- (٣٥) تروخانوفسكي ، المصدر السابق ، ص ٤٨ — ٥٠ ، جرائد وتبرلي ، المصدر السابق ، ص ٢٩٣
- F.O. 407/224, No. 382, from Lampson to Halifax. (٣٦)
- Ibid., No., 429, from Lampson to Halifax. (٣٧)
- Ibid., N., 401, from Halifax to Lampson. مكرر (٣٧)
- (٣٨) البلاغ ، ٥٦٠٠ في ٦/٢ ، ٥٦٠٢ في ٤/٦/١٩٤٠
- (٣٩) المصري ، ١٢٨٧ في ٢ يونيو ١٩٤٠ مقال افتتاحي لمحمود أبو الفتح بعنوان « في ساعة الخطر تؤدي مصر واجبا كاملا »
- F.O.. 407/224, No. 447, from Lampson to Halifax. (٤٠)
- F.O., loc. Cit. (٤١)
- Ibid, No., 406, from Halifax to Lampson. (٤٢)
- F.O. 407/224, No., 406, from Halifax to Lampson. (٤٣)

- Ibid., No. 435, from Halifax to Lampson. (٤٤)
- Ibid., No., 477, from Lampson to Halifax. (٤٥)
- F.O., 407/224, No.; 488, from Lampson to Halifax. (٤٦)
- Ibid., No., 491, from Lampson to Halifax. (٤٧)
- (٤٨) إذ أن كل ما عرف عن هذه الجلسة هو أن رئيس الوزراء عرض سياسة الحكومة لآراء دخول إيطاليا الحرب. فأقر المجلسان سياسة الحكومة ومضمونها تجنب البلاد ويلات الحرب، مع الوفاء بتعهداتها وتقديم أكبر معونة ممكنة للحليفة في دفاعها عن الحق والحرية في حدود مبادئ الصداقة والتجالف. وأن يكون موقف مصر موقفاً دفاعياً مع قطع العلاقات السياسية مع إيطاليا واعتقال معظم رعاياها. أنظر: الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية، ج ٣، ص ٨٣
- F.O., 407/224, No., 498 and No., 502, from Lampson (٤٩)
to Halifax.
- F.O., loc. Cit. (٥٠)
- F.O., loc. Cit. (٥١)
- F.O., 407/224, No., 519, from Lampson to Lampson (٥٢)
- Ibid., No., 522, from Lampson to Halifax. (٥٣)
- Ibid., No., 530, from Lampson to Halifax. (٥٤)
- F.O., 407/224, Nos., 525 and 530, from Lampson (٥٥)
to Halifax.
- Ibid., No., 468, from Halifax to Lampson. (٥٦)
- Ibid., No., 532, from Lampson to Halifax, (٥٧)
- F.O., 407/224, No., 536, from Lampson to Halifax (٥٨)
- Ibid., No., 541, from Lampson to Halifax. (٥٩)
- F.O., 407/224, Nos., 544 and 555, from Lampson (٦٠)
to Halifax.
- F.O., loc. Cit. (٦١)
- Ibid., No., 475, from Halifax to Lampson (٦٢)
- (٦٣) وتضمن تلك المادة على تهديد كل من الطرفين المتعاقدين بأن لا يتخذ في علاقاته مع البلاد الأجنبية موقفاً يتعارض مع المحالفة، وأن لا يبرم معاهدات سياسية تتعارض مع أحكام المعاهدة الحالية. القضية المصرية، ص ٦١
- F.O., Ibid., No., 493, from Halifax. (٦٤)
- F.O., 407/224, No., 493, from Halifax to Lampson. (٦٥)
- F.O., Ibid., No. 590, from L. to H.
- (٦٦) الرافعي، في أعقاب الثورة، ج ٣، ص ٨٣ — ٨٤. هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، ج ٢، ص ١٨٦

(٦٧) حيث تذكر الوثائق البريطانية ان النحاس قد أبدى رايًا خلال الاجتماع يتعلق بتشكيل وزارة محايدة مؤيدة من الأحزاب المختلفة ، وأضاف بأن تستمر تلك الوزارة في الحكم الى حين إجراء انتخابات حرة .

F.O. Loc. Cit. (٦٨)

(٦٩) كرم ، النظارات ، ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ، الرافعي ، المصدر السابق ، ص ٨٤

F.O., 407/224, Nos., 590 and 592, from Lampson (٧٠)
to Halifax.

F.O., loc. Cit. (٧١)

F.O., 407/223, No., 298, from Lampson to Halifax. (٧٢)

(٧٣) الرافعي ، المصدر السابق ، ص ٨٥

(٧٤) مضابط مجلس الشيوخ ، دور الانعقاد العادي الخامس عشر ، الجلسة ٤٤ في ٢٤

يونيه ١٩٤٠ ، ص ٩٤٧ - ٩٤٨

مصادر البحث

أولا : الوثائق العربية المنشورة :

- ١ - جمهورية مصر، القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٤، القاهرة، ١٩٥٥
- ٢ - مجلس الشيوخ، قانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٣٦ بالموافقة على معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وبريطانيا العظمى، القاهرة، ١٩٣٧
- ٣ - مضابط جلسات مجلس الشيوخ، دور الانعقاد العاشر الخامس عشر، الجلسة ٤٤ في ٢٤ يونية ١٩٤٠

ثانيا : المؤلفات المنشورة بالعربية والمترجمة :

- ١ - أحمد عبد الرحيم مصطفى، العلاقات المصرية البريطانية ١٩٣٦ - ١٩٥٦، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٨
- ٢ - تروخانوفسكى، سياسة بريطانيا الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية، ترجمة عبد الحميد الجمال، مراجعة وتقديم عبد الحائق لاشين القاهرة، ١٩٧٦
- ٣ - جبرانت وتمبرلى، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة محمد على أبو درة، القاهرة، ١٩٦٧
- ٤ - عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥١
- ٥ - فؤاد كرم، النظارات والوزارات المصرية، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٩
- ٦ - محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٥٣

ثالثاً : الصحف والدوريات :

١ - الأهرام ، مايو - يونيو ١٩٤٠

٢ - البلاغ ، مايو - يونيو ١٩٤٠

٣ - المصري ، مايو - يونيو ١٩٤٠

رابعاً : الوثائق البريطانية غير المنشورة :

F.O., 407 - 223 & 224, Nos. : -

1060 - 507 - 527 - 618 - 555 - 557 - 562 - 570 - 575 - 582 - 1038 -
651 - 669 - 719 - 298 - 382 - 429 - 401 - 447 - 406 - 435 - 477 - 488
491 - 498 - 502 - 519 - 522 - 530 - 525 - 468 - 532 - 536 - 541 - 544 -
475 - 493 - 590 - 592

وثائق ونصوص

دراسات في مصادر تاريخ مصر في العصر العثماني

(٣)

بلوغ الأرب برفع الطلب

تأليف

محمد البرلسي السعدى

تقديم وتعريف وتحقيق

الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

كلية البنات - جامعة الأزهر

تمهيد :

وضع السلطان سليم - بعد خضوع مصر للحكم العثماني - بعض الترتيبات الإدارية، التي كان الهدف منها، ضمان استمرار ولاء مصر للحكم العثماني، وكان من بين هذه الترتيبات، ترك حامية عثمانية كبيرة، مهمتها حماية البلاد، وتوطيد الأمن فيها، والمشاركة في إدارة شئونها^(١)، ورغم هذه الترتيبات التي وضعها السلطان سليم، فإن بعض العناصر المملوكية الجركسية، وبعض الزعامات العربية

(١) بشأن هذه الترتيبات، ونظم الحكم العثماني، انظر، دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن تقديم « كشف السكرية في رفع الطلبة » المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث والمعشرون ١٩٧٦ م، ص ٢٩٢.

وبخاصة التي كان في يدها إدارة الأقاليم ، قامت بعد وفاة خير بيك ، ببعض التمردات ، ضد الحكم العثماني^(١). كما حاول ، أحمد باشا ، أحد الولاة العثمانيين الملقب « بالخائن » ، إستغلال روح التمرد هذه ، والإستقلال بالبلاد ، ولكن محاولته باءت بالفشل^(٢) ، فجاء إبراهيم باشا الصدر الأعظم إلى مصر لدراسة أحوال البلاد واستقصاء أسباب هذه التمردات ، وبعد دراسته لأوضاع البلاد وأحوالها قدم إلى السلطان سليمان تقريراً مفصلاً ، وصدر قانون نامة مصر^(٣) « وجدّد القوانين المصرية ، وخلدها في الدفاتر » ، « بموجب دفاتر الجراكسة القديمة »^(٤) .

أستطاع الولاة العثمانيون ، في الفترة التالية لصدور قانون نامة ، وحتى السبعينات من القرن السادس عشر ، وإلى حد كبير ، تنفيذ أحكام هذا القانون ،

(١) من هذه التمردات ، تمرد جانم السيفي ، كاشف البهنسا والقيوم ، وكاشف أطفيح وإينال الطويل كاشف القرية .

انظر ، يوسف اللواتي ، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب (مخطوطة) نسخة مصورة ، عن النسخة الأصلية ، المحفوظة بمكتبة رفاعة رافع الطهطاوي بسوهاج ، النسخة المصورة رقم ٦٢٣ هـ تاريخ ، ص ١٦٤ ؛ أحمد شلي بن عبد الغني ، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشا ، نسخة مصورة — في حوزتي — عن نسخة مكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة ، المحفوظة بها تحت رقم Landberg No. 3 ؛ محمد بن أبي السرور البكري ، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، (مخطوط) ورقة ٤١ ، والنزهة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية مخطوطة ورقة ٢٢ ؛ دكتور عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ — ١٧٩٨) ، الطبعة الثانية ص ١٣٨ — ١٤٠ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ١٤٠ — ١٤٣ .

(٣) نقوم حالياً بالاشتراك مع الصديق الدكتور أحمد فؤاد متولى مدرس اللغة التركية بأداب عين شمس تحت إشراف أستاذنا الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بإعداد دراسة عن هذا القانون ونشر نصه مترجماً إلى اللغة العربية ضمن مطبوعات « سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث » بجامعة عين شمس .

(٤) يوسف اللواتي ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ، محمد بن أبي السرور ، المنح الرحمانية ، ورقة ٤٢ ؛ النزهة الزهية ، ورقة ٢٣ .

بجد وحزم ، وقاموا بكثير من الأعمال النافعة . وتوطيد نظم الإدارة العثمانية في البلاد ، ولكن منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر ، بدأت الأمور تضطرب بعض الشيء ، وبدأت بعض فرق الحامية العثمانية - وبخاصة جند السباهية - هي التي تنزع الثورات ، والحقيقة أن ثورات الجند في تلك الفترة أصبحت ظاهرة عامة في أرجاء الدولة العثمانية وليست ظاهرة خاصة بمصر ، وقد كانت هنالك عوامل كثيرة تحرك هذه الثورات ، يأتي على رأسها العوامل الاقتصادية^(١) وسندرس فيما يلي أسباب هذه الظاهرة في مصر ، حيث أن موضوع المخطوطة التي ننشرها ، كان أحد الأسباب التي حركت هذه الثورات ، وسوف نتناول هذه الدراسة ، أسباب ثورات جند السباهية في مصر ، ثم التعريف بالمخطوطة ومؤلفها .

أسباب ثورات جند السباهية :

(أولا) تذكر المصادر المعاصرة الكثير عن الاضطراب الاقتصادي الذي بدأ يسود البلاد وكان أحد العوامل المحركة لثورات الجند منذ ولاية علي باشا الصوفي^(٢) (غرة رجب ٩٧١ - سلخ رمضان ٩٧٣ هـ) حيث بدأ الزيف في المعاملة ، ١٤ فبراير ١٥٦٤ - ٢٠ أبريل ١٥٦٦ م) نتيجة لخاطها بالنحاس زيادة عن القانون ، وكثر المفسدون من اللصوص وقطاع الطرق ، وكان لذلك أثره على أحوال البلاد ، وبدأ جند السباهية يستغلون نفوذهم في فرض الضرائب غير الشرعية على الأهالي ، ويثرون ضد الولاة الذين يقفون في وجهه ما يفعلون ، محتجين على ذلك بانخفاض القيمة الشرائية لمرتباتهم^(٣) ومن هنا كانت بداية ثورات جند السباهية .

(١) انظر : دكتور عبد الكريم رافق ، ثورات العساكر ، ص ١٥ - ٢٢ .

(٢) محمد بن أبي السرور البكري ، المنح الرحمانية ، ورقة ٤٧ ، النزعة الزهية ، ورقة ٢٥ ؛ يوسف الملواني ، المصدر السابق ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ، أحمد نشلي ، المصدر السابق ، ص ١١ ، دكتور عبد الكريم رافق ، ثورات العساكر في القاهرة في الربع الأخير من القرن السادس عشر ، والعقد الأول من القرن السابع عشر ومتزاها ، ص ١٥ - ٢٤ .

(ثانياً) نتيجة لنظام الإدارة العثمانية في الريف ، أصبح لجند السباهية (جمليان - تفكجيان - جراكسة) نفوذ كبير في الريف ، حيث كانت مهمتهم الأساسية . توطيد الأمن وحماية المناطق الزراعية ، وطرق المواصلات من غارات البدو ، والمحافظة على شبكات الري ، والإشراف على توزيع المياه على القرى ، ومساعدة الأمناء الذين كانوا يديرون المقاطعات ، وكذلك مساعدة الكشاف في أداء مهمتهم ، حتى أن المصادر المعاصرة تطلق عليهم « طائفة الجند المكتوبين » ، في بلاد الأرياف ، مع كشاف الأقاليم ، ولكن هؤلاء الجند استغلوا نفوذهم على سكان الريف ، وفرضوا لأنفسهم كثيراً من الامتيازات والعادات التي لم يستطع أهل الريف منها فكاً ، ولما حاولت الدولة العثمانية رفع هذه المظالم الاقتصادية عن كاهل أهل الريف ، وكلفت ولايتها بالعمل على إبطال هذه المظالم وبخاعة مظلمة الطلبة ، كانت هذه المحاولة سبباً مباشراً في إشعال نار ثورات جند السباهية^(١) .

والمخطوطة التي نحن بصدددها ، تصور ما أصاب الريف من أعمال هؤلاء الجند ، وثوراتهم ضد الولاة منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر ، حيث ترسم الصورة التالية لأوضاع أهل الريف في ظل هذه المظالم ، وكيف أصبح جند السباهية يشكلون طبقة متميزة عن سكان البلاد :

« وكانت قبل هذا الأوان قد اختل أمرها ، وضائق معيشة أهلها ، لما كثر شرها ، وحصل ضررها ، وضعفت فلاحيتها ، وخربت قراها ، وانقصمت عراها ، وانقابت أحوالها ، وتعطت غلاتها وأموالها ، لما أراده الله سبحانه وتعالى في القدم ، أبرازها من الوجود إلى العدم ، وخراب البلاد ، وهلاك العباد ، وجلاء الفلاحين ، وإهانة الشرع المبين ، واتسع الخرق وزاد الحرق ،

(١) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثاني عشر ، ص ٥٣ - ٦١ .

وكان ذلك كله بسبب قيام طائفة من جنود مصر المكتوبين مع الكشاف في نواحي الأرياف ، أظهروا العناد ، وسعوا في الأرض بالفساد ، وأحدثوا شيئاً يسمى الطلبة ، على الفلاحين ، وصاروا يضاعفونها في كل سنة من السنين ، إلى أن زادت على أموال المقاطعة ، هذا ولم يقدر أحد على المدافعة ، وعمت وطمت وزاد خبثها وغمث ، وذلك خلاف ، ما صدر منهم من الأمور الشنيعة ، والفعائل الخارقة للبشرية ، من ارتكاب الزنا واللواط بالمرء جهاراً ؛ واقتضاض الأبقار نهراً ، وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولا يأترو بأمر ولاتهم وكشافهم فيما يفعلوه ، وصار لهم اسمطة وأطعمة غالية المقدار ، زائدة الاقتنار ، تحمل إلى خيامهم آناء الليل وأطراف النهار ، وتهديد الكشاف بالقتل ، إن قصرُوا عن ذلك ، ويسلكون بهم أسوأ المسالك ، والمسلمون معهم في أمر مريج معوج غاية التعويج ، وقد صار أرذل الجند عندهم مقلداً بالسيوف المسقط والسروج المذهبة المنقطة ، والخيول المسومة ، والعدد المقومة ، والأولاد الجميلة المزينة ، والنعمة الظاهرة المبينة ، فإذا وجدوا ولداً مع والده اغتصبوه وأخذوه وتبعوه ورصدوه ، مع الفسق بنساء الفلاحين ، واقتضاض بناتهم الأبقار ، وسلب ما معهم من الدثار ، وغير ذلك من الأشياء المنكرة ، والحوادث الشنيعة المبكرة^(١) وواضح من هذا النص ، كيف أن أفراد جند السباهية استغلوا سلطتهم ونفوذهم على أهل الريف ، الذين ضجوا بالشكوى من هذه المظالم ، ولما حاول الولاة الحد من هذه المظالم وإلغاء الطلبة التي أصبح هؤلاء الجند يعتبرونها حقاً مقررأ لهم ، ثاروا ضد هؤلاء الولاة ، وتمردوا عليهم وعلى أوامر الدولة ، ولم تجد لهم النصيحة قتيلاً ، ووصل بهم الأمر إلى حد تهديد هؤلاء الولاة بل وقتل أحدهم ، وقد سبق لنا معالجة هذه الثورات ، في الدراسة التي قدمنا بها لنشر مؤلف محمد بن أبي السرور البكري الصديق ، حول موضوع

(١) انظر النص ، ص ٨ — ١٠ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٨ من هذه الطبعة .

« الطالبة » ذاته ، والمسمى « كشف الكربة في رفع الطالبة » ، ونضيف هنا إلى الدراسة السابقة الملاحظات التالية :

أولاً : إن هذه الثورات ، إمتازت بالعنف والقسوة ضد الولاة العثمانيين من ناحية ، وضد السكان المحليين من ناحية ثانية ، فنجد أن اتسامها بالعنف ضد الولاة، أذهب عنهم هيبتهم ، وأفقدتهم سلطتهم ، حتى أصبح بعضهم يستجيب لمطالب هؤلاء الجند ، ويصدر أوامره بإعطائهم ما يريدون من طلب وغيرها ، كما حدث مع أويس باشا (١٢ جمادى الثانية ٩٩٤ - ١٨ جمادى الثانية ٩٩٩ هـ)
(٣ مايو ١٥٨٦ - ١٣ أبريل ١٥٩١ م)

الذى قامت ضده أول ثورة من ثورات هؤلاء الجند ، ووصل العنف بهم أقصى درجاته ساعة قتلهم إبراهيم باشا (١٤ ذوالحجة ١٠١٢ - ١ جمادى الأولى ١٠١٣ هـ)
(١٤ مايو ١٦٠٤ - ٢٥ سبتمبر ١٦٠٤ م)
وتحديدهم بعد ذلك للسلطات وإعلانهم الاستقلال بمصر ، وتعيينهم سلطاناً ورؤساء من بينهم ، وتقسيم البلاد فيما بينهم إلى مناطق نفوذ^(١) .

أما السكان المحليين فإن هذه الثورات كانت سبباً في إضعاف أحوالهم ، وخراب بلادهم ، ولم يكن أمامهم من سبيل سوى الشكوى لكل باشا جديد ، ساعة قدومه إلى مصر ، لعائلتهم واجدين فيه ، منقذاً لهم من تصرفات هؤلاء الجند^(٢) .

ثانياً : إن عنف هذه الثورات ، لم يكن قصرأ على الريف ، وإنما امتد إلى المدينة ، وبخاصة المدن الكبرى ، كما حدث في القاهرة والمحلة ، وطنطا ، واعتدائهم على الكشاف ، وتهديدهم لهم ، كما هددوا كثيراً من الرؤساء ، وكبار

(١) دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، تقديم كشف الكربة ، ص ٢٩٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

المسؤولين في حكومة القاهرة ، وتعقبوا بعضهم إلى حد القتل وإهانة أولاد العرب (السكان المحليين) ، إهانة شديدة « في أخذ خيولهم ، وما عليهم من اللباس الحسن ، » ونادى مناديتهم أن أولاد العرب لا يستخدمون مماليكا بيضا ، وهذا يوضح أن أمر إلغاء الطلبة لم يكن هو السبب الوحيد لهذه الثورات ، وإنما محاولة الوقوف في وجه الإمتيازات المادية التي حصل عليها هؤلاء الجند ، كانت الدافع الأساسي لها سواء في المدينة أو الريف^(١) .

ثالثاً : يتضح من دراسة هذه الثورات والعناصر التي شاركت فيها ، بروز العنصر المملوكي على وجه الحياة السياسية والعسكرية في مصر ، سواء في الجانب الثائر أو في الجانب الحكومي المضاد لها ، فإذا نظرنا إلى الجانب الثائر ، وهم جند السباهية فإننا نجد أن معظمهم من عناصر مملوكية ، أي أن هؤلاء الثائرين حينما أعتنوا خروجهم على السلطة العثمانية وعينوا سلطاناً ورؤساء من بينهم ، معنى ذلك إعلان العنصر المملوكي خروجه على السلطة العثمانية ، وفي نفس الوقت نجد أن القوات الحكومية ورياستها كانت في يد عناصر مملوكية كذلك وأن كثيراً من المناصب الإدارية — كما يتضح من استعراض الأسماء التي وردت في المصادر المعاصرة — أصبحت في يد عناصر مملوكية كذلك ، أي أن العناصر المملوكية أصبحت هي المتنفذة في إدارة شؤون البلاد وأنه لو قدر لجناحها التنسيق فيما بينهما ، لربما أدى ذلك إلى استقلال هذه العناصر بالبلاد وإعادتها إلى الحوزة المملوكية كاملة كما كانت من قبل ، ولكن لم يقدر لها في تلك المرحلة أن تفعل ذلك ، وإن وضح منذ تلك الفترة وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، سيطرتها التامة على إدارة شؤون البلاد السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وتوارى الحكم العثماني إلى مرحلة الظلال ، حيث ضعفت فاعليته وسيطرته ، واكتفى بالسيادة الاسمية ، يؤكد هذا الاعتقاد ، أن الكتاب المعاصرين لأحداث ثورات السباهية ،

(١) - انظر النعي ، ص ١٢ ؛ م ص ٢٨٨ — ٢٨٩ من هذه الطبعة .

اعتبروا تغلب محمد باشا (٧ صفر ١٠١٦ - ١٨ جمادى الثانية ١٠٢٠ هـ) ٣ يونيو ١٦٠٧ - ٢٨ أغسطس ١٦١١ م) على

الناشرين ، وقضائه عليهم ، فتحاً عثمانياً ثانياً للبلاد ، وهو فى الحقيقة الفتح الثانى لمصر ، فى الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى ، كما نعت هذا الباشا بالقباب « معمر مصر » و « مبطل الطلبة » و « قول قران » . وأعجب الكتاب والشعراء بأعمال هذا الباشا ، وعلى الأخص إبطال الطلبة ، وأخذ كل منهم يدلى بدلوه فى هذا الميدان ^(١) ، وكان من بين المعجبين صاحبنا « محمد البرلى السعدى »

الذى وضع مؤلفه « بلوغ الأرب برفع الطلب فى عام ١٠١٧ هـ ، مينا سبب ١٦٠٩ م

وضعه لهذا المؤلف بقوله « قلنا رأيت ما وقع بالديار المصرية فى هذا العام

(١٠١٧ هـ) من الأمور الجسام ، والأهوال العظام ، اقتضى الحال ، تعاقب تلك ١٦٠٩ م

الأخبار ، قصداً للاعتبار ، وبما فعله هذا الدهر الغدار بمشيئة الأقدار وتغلب حال الليل والنهار ، بما يفضى لقارثها العجب ، وتميل أعطافه من الطرب وطرزتها ببعض آيات شريفة من الكتاب الكريم ، وأحاديث شريفة ، الواجبة القبول والتعظيم ، ونكات لطيفة ، واستطرادات ظريفة ، بعضها بالمشاهدة وبعضها بأخبار الثقة طلباً للفائدة ، وسميتها « بلوغ الأرب ، برفع الطلب » والله سبحانه

(١) انظر محمد بن أبى السرور البكرى ، كشف الكربة فى رفع الطلبة ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون ، ١٩٧٦ م ، تحقيق دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ؛ دكتور عبد الكريم رافق ، ثورات الساكر ، ص ٢٩ - ٣٢ ، بلاد الشام ومصر ، ص ٢٣٩ - ٢٥٣ .

— Shaw, J. Stanford. The financial and Administrative organization and development of ottoman Egypt, Princeton 1956. pp 87—88

— Holt, P.M. Egypt and fertile Crsséent 1515—1722, apolitical History, P. 76,

وتعالى أسأل أتباع سلوك الحق ، وإلهام طريق الصدق، إنه ولي ذلك والقادر
عليه ، وفي الحقيقة فالكل منه واليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم»^(١) .

* * *

(ثانياً) التعريف بالمخطوطة ، ومؤلفها وموقفه من الأحداث التي عاصرها :

١ - المخطوطة :

مخطوطة « بلوغ الأرب برفع الطالب » ، تأليف محمد البرلسي السعدي ،
تؤكد الصورة التي رسمها ، محمد بن أبي السرور البكري في مؤلفه « كشف الكربة
في رفع الطلبة » ومؤلفاته الأخرى^(٢) ، عن أحوال مصر السياسية والاقتصادية

والاجتماعية ، في الفترة الممتدة من ($\frac{٩٩٧ - ١٠١٧}{١٥٨٩ - ١٦٠٩ م}$) ، حين تمكن محمد باشا

($\frac{١٠١٦ - ١٠٢٠ هـ}{١٦٠٧ - ١٦١١ م}$) ، من القضاء على ثورة جنود السباهية

في ($\frac{٩ ذي القعدة ١٠١٧ هـ}{١٤ فبراير ١٦٠٩ م}$) ، وتوجد النسخة الأصلية لهذه المخطوطة

بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، تحت رقم (٨١) تاريخ ، وتوجد صورة
لهذه النسخة على فيلم برقم ٢٦ بمعهد إحياء المخطوطات العربية ، التابع لجامعة

(١) انظر : ص ٢ - ٣ ، من الترقيم الذي وضعناه للنص ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ ،

من هذه الطبعة .

(٢) انظر : حول هذه المؤلفات . دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، تقديم « كشف

الكربة » ، في رفع الطلبة » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث والعشرون ، ص ٣٠٤ .

الدول العربية ، ومدونة تحت رقم (٩٣٧) ، تاريخ الجزء الثاني من فهرس المخطوطات^(١) .

وهذه النسخة بخط المؤلف الذى كتبها عام $\frac{١٠١٧}{١٦٠٩}$ هـ ، بخط النسخ الجليل ، والمخطوطة تقع فى تسع وخمسين (٥٩) ورقة ، لاسيتين (٦٠) ، كما ذكر فى البيانات المدونة عنها فى فهرس المخطوطات ، أى أنها تحتوى على مائة وخمسة عشرة صفحة ، خلاف صفحة الغلاف حيث أن الورقة رقم ٥٩ ، كتبت بها صفحة واحدة فقط والصفحة الثانية تكلمة للمخطوطة المكتوبة على هامش المخطوطة ، وقد رقمنا صفحات النص بأرقام بين قوسين معكوفين لتوضيح بداية كل صفحة جديدة مبتدئة برقم ١ ، ومنتية برقم ١١٥ :

وكل صفحة من النص تحتوى على سبعة عشر (١٧) سطرا ، وكل سطر يحتوى ما بين سبع أو ثمانى (٧ ، ٨) كلمات ، وبما هو جدير بالإشارة ، أنه كتب فى الجزء الأعلى من يمين صفحة الغلاف العبارة التالية « استصحبه العبد الآثم شاي زاده ، إسماعيل عاصم ، أصاح الله شانه ، وصانه عما شانه ، وشاي زاده هذا مؤرخ عثمانى مشهور ، وربما قصد بهذه العبارة أنه استصحب أصل المخطوطة معه إلى المدينة المنورة حيث آلت إلى مكتبة عارف حكمت .

والمخطوطة بعد المقدمة التى بين فيها المؤلف السبب الذى دعاه إلى وضعها وفضل مصر وخيراتها وجندها ، وما قيل بخصوصها فى الحديث تعالج الموضوعات التالية :

(١) أشار الدكتور عبد الكريم رافق ، إلى هذه المخطوطة ، فى مؤلفه القيم « بلاد الشام ومصر » الطبعة الثانية ، ص ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، ص ٤٣٢ ؛ ثورات العساكر فى القاهرة ، طبع دمشق ، ص ص ١٠٤ ، ١٤ .

١ - الطلبة وماهيتها ، وكيف أصبحت سبباً في خراب البلاد ، وفساد أحوالها .

٢ - الأحداث التي وقعت في عهد الولاة الذين تولوا حكم مصر ، منذ
عهد أويس باشا (١٢ جمادى الثاني ٩٩٤ - ١٨ جمادى الثانية ٩٩٩ هـ) ، وحتى
٣١ يناير ١٥٨٦ - ١٣ أبريل ١٥٩١ م
نهاية عهد محمد باشا (٧ صفر ١٠١٦ - جمادى ٨ الثانية ١٠٢٠ هـ)
٣ يونيو ١٦٠٧ - ٢٨ أغسطس ١٦١١ م

٣ - ثورات جند السباهية ، والعناصر الأخرى التي شاركت فيها .

والملاحظ على هذه المخطوطة ، أنها تكاد تتشابه تماماً ، مع مؤلف دكشف
السكرية في رفع الطلبة ، ، لمحمد بن أبي السرور البكري ، في أسلوبها ،
وترتيبها لذكر الأحداث بنفس العبارات ، مما يجعل الباحث في حيرة أيهما تأثر

أو نقل عن الآخر ، وإن ذكر كل منهما ، أنه وضع مؤلفه عام $\frac{١٠١٧ \text{ هـ}}{١٦٠٩ \text{ م}}$

ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن مؤلف ابن أبي السرور يمتاز بذكر تفاصيل
أكثر في كثير من المواضع ، كما أنه يمتاز بأنه جمع في نهاية المؤلف ، ما نقله من أفواه
الثقة من الناس ، وما تجدر الإشارة إليه كذلك ، أن محمد البرلسي السعدي ،
هو الذي قام بنسخ ومقابلة النسخة الموجودة لدينا من مؤلف ابن أبي السرور

وانتهى من هذا العمل في $\frac{١٠ ربيع الآخر ١٠٢٢ \text{ هـ}}{٣٠ مايو ١٦١٣ \text{ م}}$ ، وربما يدعونا

ذلك إلى الظن بأنه تدخل في بعض مواضع من هذا المؤلف ، حيث أننا نجد أن
الشعار التي نسبت إليه في كلا المؤلفين ، أصابها بعض التعديل في بعض ألقاظها ،
وزيادة بعض الآيات في نص ابن أبي السرور ، والتي لم يرد ذكرها في نصه

الذى نشره الآن^(١) ، كما نجد كذلك أن المواضع التى تركت بيضاء فى مؤلف ابن أبى السرور البكرى ، هى نفس المواضع التى تركت بيضاء فى مخطوطة البرلسى التى نحن بصدها . وإن ظهر بعض الاختلاف فى ذكر بعض الأسماء التى وردت فى المؤلفين ، وقد أشرنا إلى كل ذلك فى موضعه من النص .

والمؤلف يعالج موضوعه على طريقة التراجم ، فبعد المقدمة يذكر الباشا الذى أوكل إليه السلطان حكم مصر ، وأهم الأحداث التى وقعت فى عهده ، وأهم أعماله ، ويستطرد خلال كتابته للأحداث ، يذكر بعض العظات والأحاديث النبوية ، والنكات والفكاهة التى تطابق واقع الحال ، ولم نحذف هذه الفقرات كما فعلنا عند نشر مؤلف ابن أبى السرور البكرى ، وإنما اكتفينا بالإشارة إلى مواضعها فى الهامش . وعموماً فإن أسلوب محمد البرلس السعدى ، أكثر تناسقاً وإتقاناً فى التركيب من أسلوب ابن أبى السرور ، وقد أصلحنا الأخطاء النحوية والإملائية التى وقع فيها المؤلف ، وأشرنا إلى ذلك فى الهامش .

* * *

٢ - المؤلف :

إذا كانت المعلومات التى لدينا عن محمد بن أبى السرور البكرى وأسرته بحد كثيرة ، فإن معلوماتنا عن محمد البرلسى السعدى مؤلف «بلوغ الأرب» برفع الطلب ، جد قليلة ، حيث سكت المصادر المعاصرة ، وكتب التراجم ، عن الترجمة له ، وكل معلوماتنا التى استطعنا تجميعها عنه ، جاءت مما كتبه عن نفسه ،

(١) قارن على سبيل المثال : قصيدته السعدية التى دونها فى مؤلف «كشف الكربة» فى رفع الطلبة ، ص ٣٧٨ - ٣٨٢ مع قصيدته المدونة فى نهاية نص مؤلفه «بلوغ الأرب» برفع الطلب .

في ثانيا مؤلفه هذا ، أو أشعاره التي رصدها في هذا المؤلف ، وما ذكره على صفحة غلاف مؤلفه ، وصفحة غلاف مؤلف محمد بن أبي السرور البكري «كشف الكربة في رفع الطلبة» ، والتي قام بنسخها ومقاباتها عام ١٠ ربيع الآخر ١٠٢٢ هـ ، وبناء على هذه المعلومات يمكن القول ، بأنه ٣٠ مايو ١٦١٣ م

ينتمي إلى قبيلة بني سعد وأن مستقر أسرته منطقة البرلس بشمال دلتا مصر ، وأنه كان فقيراً وكثير العيال وليس لديه مال ، حتى أنه وضع قصيدة مدح في محمد باشا ذاكر آ له هذه الحقائق لعله يمد له يد العون قائلاً :

نفذها عروساً من سميّك وهو من	ذوى سعد من أرض البرلس في الذكر
وفي النفس حاجات وفيك مكارم	يناجيك عن أسرارها عالم السر
فقير ومن أهل العيال وماله	وحرمة رب درهم قط في مصر
ومن نيلك الفياض يرجو مكارماً	فيل أياديكم تجل عن الحصر ^(١)

ذكر كذلك أنه ولي منصب القضاء في كل من إسكندرية ودمياط ورشيد

قبل عام $\frac{١٠١٧}{١٦٠٩}$ هـ ، وأنه شافعي المذهب ، رفاعي الطريقة «البرلسي الرفاعي الشافعي»^(٢) .

أما ماورد من نسبة الدمياطي إليه ، في البيانات التي كتبت عن طريق معهد إحياء المخطوطات على الورقة الأولى من المخطوطة . تحت اسم المؤلف . محمد البرلسي السعدي الدمياطي ، فلا ندري من أين جاءت نسبة الدمياطي هذه إليه ، أ جاءت نتيجة لأن منطقة البرلس تتبع لمحافظة دمياط ، أم نتيجة لأنه ذكر أنه

(١) انظر : ص ١١٤ — ١١٥ من النص طبقاً لترقيم الذي وضعناه له .

(٢) انظر : كشف الكربة في رفع الطلبة ، صفحة الغلاقة ، ص ٣٠٧ .

كان خادماً للشرطة المطهرة باسكندرية ودمياط ورشيد ، أم أنه خاط من كاتب البيانات ، حيث أنه لم يذكر هذه النسبة إليه قط في مؤلفه^(١) .

وقد كان البرلسي صادقاً في رصده لأحداث الوقائع التي عاصرها ، متتبهاً لمسبباتها ونتائجها موجزاً لها ، غير مبالغ فيها ، فجاء تصويره للوقائع ، قريباً من الواقع ، ومتفقاً مع ما ذكر في المصادر المعاصرة الأخرى^(٢) ، ففي مؤلفه صورة واضحة عن الواقع الذي كان يعيش فيه المجتمع المصري ، في الربع الأخير من القرن السادس عشر ، ومطلع القرن السابع عشر ، إقتصادياً ، وسياسياً واجتماعياً .

(١) انظر : الورقة الأولى من المخطوطة ، حيث دونت البيانات الخاصة بالمخطوطة ومؤلفها ص ٢٨١ ، من هذه الطبعة .

(٢) انظر : مؤلفات محمد بن أبي السرور البكري ، السابق ذكرها ، وبوسف الملواني ، تحفة الأحياب ص ١٦٨ — ١٨١ ، وأحمد شلبي بن عبد الفتى ، أوضح الإشارات ، ص ١٠ — ٢٣ ، جرجي زيدان تاريخ مصر الحديث ، ج ٢ ، ص ٨٢ — ٨٣ . طبعة ١٨٨٩ م .

بلوغ الأرب برفع الطلب

لمحرره

العبد الفقير المفرط الحقير

خادم السنة الشريفة والعلوم المنيفة

محمد البرلسي السعدى

وخادم الشريعة المطهرة باسكندرية

ودمياط ورشيد سابقاً

ختم الله تعالى له بالصالحات

وأدره له البركات ، ولطف به في المحيا والممات

وجميع المسلمين والحمد لله رب العالمين

[١] الحمد لله الذى أقام قوام قوايم الشريعة الغراء ، والمحجة الزهراء بمحمد ، وأباد ذوى الطغيان ، والبغى والعصيان بمهنده ، وقطع دابر الطائفة المارقة ، الخارجة عن طاعة الله ورسوله ، وطاعة السلطان ، ذوى البغى والعصيان ، الذين هم فى ضلالهم يعمهون ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، نحمده على أن هدانا للدين القيم ونشكره على إهانة الطغاة البغاة ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الملك العدل القادر القاهر الديان ، ونشهد أن سيدنا ونبينا محمدا [٢] صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله . وصفيه وخليله ، القايل : « من شق عصي أمي فاقتلوه كائنا من كان » ، الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، وجعله رسول الله وخاتم النبيين ، فأخبر صلى الله عليه وسلم عن السر المصون ، ونبا بما كان وما يكون إلى يوم يبعثون ، واستعاذ صلى الله عليه وسلم من غلبة الدين وقهر الرجال ، ومن فتنة الحيا والمات ، ومن فتنة المسيح الدجال ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين شيدوا دعائم الاسلام فرفعوها ، وعمرُوا بلاد الله بالعدل والاحسان أكثر مما عمروها ، وسلم تسليما كثيرا ، دائما غزيرا ، وبعد فلما رأيت ما وقع بالديار المصرية فى هذا العام (*) ، من الأمور الجسام ، والأهوال العظام ، اقتضى الحال تعليق تلك الأخبار قصدا للاعتبار وبما فعله هذا الدهر الغدار بمشيئة الأقدار ، وتغلب حال الليل والنهار [٣] بما يفضى لقارنها العجب ، وتميل أعطافه من الطرب ، وطرزتها ببعض آيات شريفة من الكتاب الكريم ،

وأحاديث شريفة الواجبة القبول والتعظيم ، ونكات لطيفة ، واستطرادات ظريفة ، بعضها بالمشاهدة ، وبعضها بأخبار الثقة طلبا للفائدة ، وسميتها « بلوغ الأرب » ، برفع الطلب ، ، والله سبحانه وتعالى أسأل اتباع سلوك الحق ، وإلهام طريق الصدق ، إنه ولي ذلك ، والقادر عليه ، وفي الحقيقة فالكل منه وإليه ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، قال الله جل ذكره ، وتقدس أسمائه ، « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض »^(١) وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسل وأولى الأمر منكم »^(٢) . وقال تعالى : [٤] « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم »^(٣) ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبداً حبشياً ، والأحاديث في معنى ذلك كثيرة ومن المعلوم أن مصر المحروسة خير بلاد الأرض على الإطلاق ، وجندها خير أجناد الأرض ، وسلطانها أعظم السلاطين وأبهى الملوك وأنفعهم ، وكفاه مجداً وشرفاً خدمة الحرمين المحترمين ، وأهلها أرق الناس طباعاً ، وأكثرهم فضيلة واتضاعاً ، لما جاء فيها وفي ساكنها من الآثار ، والفوائد والأخبار . من ذلك ما رواه^(٤) عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال ، حدثني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جنداً كشيفاً » وقال : « إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيراً » ، وفي الأخبار أن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم [هـ] عليه السلام مثل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبلها ، وبحارها وأنهارها ، وعامرها

(١) سورة المائدة ، آية ٣٣ .

(٢) سورة النساء ، آية ٥٩ ، وصواب الآية « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » .

(٣) سورة النساء ، آية ٩٣ .

(٤) في النص تعبير « أمير المؤمنين » وعليه شطب فحذفناه .

وغامر ها ، ومن يسكنها من الأمم ، ومن يملكها من الملوك ، فلما رأى إلى مصر
 رأى أرضاً سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة ، ورأى جبلاً
 من جبالها مكسوا نورا لا يخلو من نظر الرب إليه بالرحمة ، فدعى آدم عليه
 السلام في أرضها بالبركة ، وبارك في نياها سبع مرات ، وكان آدم عليه السلام
 أول من دعى لها بالبركة والرحمة والخصب والرافة ، ثم دعى لها بعد ذلك نوح
 عليه السلام ، فأثارت دعوتهما فيها البركة ، وقال عليه الصلاة والسلام « مصر كنانة
 الله في أرضه من أراد لها بسوء قصمه الله » ، وأخرج الطبراني وغيره من
 حديث أبي بكرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
 « الوالى العادل المتواضع ظل الله ورحمته في أرضه [٦] فمن نصحه في حقه وفي
 عباد الله حشره الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، ومن غشه في نفسه وفي
 عباد الله خذله الله تعالى يوم القيامة » ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم « عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة قيام ليلاً
 وصيام نهارها » . وأخرج الزبيرى من حديث أبي سعيد الخدرى رضى الله
 عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحب الناس إلى الله يوم القيامة
 وأدناهم عنده مجاساً إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً
 إمام جابر » ، وأخرج الزبيرى أيضاً من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه
 قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السلطان ظل الله في الأرض فإذا
 عدل كان له منى الأجر وعلى الرعية الشكر ، ثم إذا خان كان عليه الوزر وعلى
 الرعية الصبر » ، وقال عمرو بن مرة لمعاوية يوماً سمعت رسول الله [٧] صلى
 الله عليه وسلم يقول « ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة ،
 إلا أغلق الله تعالى أبواب السماء دون حاجته ، وخلته ومسكنته » ، وروى
 اليزيدى وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من ولاه الله
 شيئاً من أمور المسلمين واحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله

تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة^(١)، وعلى ما ذكرناه فإنه يجب على عامة الرعية إمتثال ولى أمرهم، والانقياد لطاعته بهذا، وليس بخاف أن الديار المصرية، والقاهرة المعزية، محروسة بحمد الله تعالى وحماية ببركة الأولياء والأصفياء والصالحين، والعلماء العاملين، أئمة الدين، وبالجليل المقطم الذى ساحته غراس إبل الجنة عن يقين، ليس لها فى مصر الأمصار نظير يشهد بذلك المسافرون^(٢)، وكل من أراد لها سوءاً انقلب عايه، وصار [٨] وباله إليه، وهى الآن فى غاية العار والاطمئنان وأهلها راتعون فى نعم الله تعالى فى دولة حضرة مولانا السلطان^(٣) وخصوصاً فى زمن متولها الآن^(٤)، داعون له بطول الأعمار، أثناء الليل واطراف النهار، وأن يديمه بالقطر المصرى مادام الفلك الدوار، وقد كانت قبل هذا الألوان قد اختل أمرها، وضائق معيشة أهلها، لما كثر شرها، وحصل ضربها، وضعفت فلاحيتها وخربت قراها، وانقصمت عراها، وانقابت أحوالها وتعطلت غلالها وأموالها، لما أراد الله سبحانه وتعالى فى القدم، إبرازها من الوجود إلى العدم، وخراب البلاد. وهلاك العباد، وجلالة الفلاحين وإهانة الشرع المبين، واتسع الخرق، وزاد الحرق، وكان ذلك كله بسبب قيام طائفة من جند مصر المكتوبين مع الكشاف فى نواحي الأرياف أظهروا العناد، وسعوا فى الأرض الفساد، وأحدثوا [٩] شيئاً^(٥) يسمى

(١) بخصوص جميع الأحاديث المذكورة فى الدس، انظر، انعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، عن الكتب الستة وعن مسند الدارمى وموطأ مالك ومسنند أحمد بن حنبل رحمه ونظمه ليف بن المستشرقين، ونشره الدكتور أ. ي. ونسك، أستاذ العربية بجامعة لندن، لندن ١٩٣٦، حيث أوردها جميعاً متشورة فى هذا المعجم كل فى موضعه.

(٢) فى الأصل « المسافرين ».

(٣) السلطان أحمد الأول تولى السلطنة ١٨ رجب ١٠١٢ - ٢٣ ذى القعدة ١٠٢٦ هـ ٢٢ ديسمبر ١٦٠٣ - ٢٢ نوفمبر ١٦١٧ م

(٤) ٧ صفر ١٠١٦ - ١٨ جمادى الثانية ١٠٢٠ هـ (٤) يقصد محمد باشا

٣ يونيو ١٦٠٧ - ٢٨ أغسطس ١٦١١ م

(٥) فى الأصل « شىء » وصحتها « شيئاً ».

«الطلبة» على الفلاحين ، وصاروا يضاعفونها في كل سنة من السنين ، إلى أن زادت على أموال المقاطعة ^(١) ، هذا ولم يقدر أحد على المدافعة ، وعمت وطمت وزاد خبثها وعمت ، وذلك خلاف ما صدر منهم من الأمور الشنيعة ، والفعائل الخارقة البشعة من ارتكاب الزنا واللواط بالمرء جهاراً ، واقتضاض الابكار نهاراً ، وصاروا لا يتناهون ^(٢) عن منكر فعلوه ، ولا يأتَمروا بأمر ولا تنهم وكشافهم فيما فعلوه ، وصار لهم اسمطة وأطعمة غالية المقدار ، زائدة الاقتضار ، تحمل إلى خيامهم أثناء الليل وأطراف النهار ، وتهديد الكشاف بالقتل إن قصروا عن ذلك ، ويسلكون بهم أسوأ المسالك ، والمسلمون معهم في أمر مريع ، معوج غاية التعويج ، وقد صار أرذل الجند عندهم مقلداً بالسيوف المسقطه ، والسروج المذهبة المنقطة والخيول المسومة ، والعدد [١٠] المقومة ، والأولاد الجميلة المزينة ، والنعمة الظاهرة المينة ، فإذا وجدوا ولداً مع والده اغتصبوه وأخذوه ، وتبعوه ورصدوه ، مع الفسق بلساء الفلاحين ، واقتضاض بناتهم الابكار ، وسلب ماله من الدثار ، وغير ذلك من الأشياء المنكرة ، والحوادث ، الشنيعة المبتكرة ، وغير ما سذكركه من الوقايع والدواهي الفظايع وذلك في ثاني شهر شوال المكرم سنة ٩٩٧^(٣) زمن ملك الأمراء المرحوم

(١) سبق التعريف بضريبة الطلبة عند نشر مؤلف محمد بن أبي السرور البكري « كشف الكربة في رفع الطلبة » ، ص ٣١١ ، المجلد الثالث والعشرون ، المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٧٦ م .

أما المقصود بأموال المقاطعة ، الأموال الأميرية التي كانت مقررة على القرية أو الناحية ، التي كانت تعرف في تلك الفترة بالمقاطعة ، وذلك قبل تطبيق نظام الالتزام في جباية الضرائب في مصر

١٠٦٩ هـ
١٦٥٨ م

انظر عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٧١ .

٧٥ -

(٢) في الأصل « يتناهوا » وصحتها « يتناهون » .

(٣) ١٤ أغسطس ١٥٨٩ م .

أويس باشا كافل الممالة الإسلامية ، بالديار المصرية ، دامت عليه رحمة خير البرية ، ركب العسكر المصرى وهجموا عليه فى الديوان الشريف ، وحقروه حقارة زائدة بحيث أن أحدهم دخل إلى محل حرمة ، وأخذ له ساعة مشمئة ، وسيفا مشمنا جداً^(١) بأنواع الفصوص وقوسا^(٢) وضربوا ثلاث ختمات شريفة بالسيوف ، فوسطوهم نصفين ، وفروا منهم وقد قتل (فى)^(٣) ذلك اليوم ثلاثة أنفار من أتباعه ودخلوا [١١] إلى بيت مولانا شيخ الإسلام ملا أحمد أفندى الأنصارى ، قاضى القضاة بمصر المحمية إذ ذاك ، وقطعوا رأس عثمان باش الجاوشية فى ذلك النهار بمراى منه ، ثم قبض على نحر الأماثل على بن القاق ماتزم الغربية ، والقاضى محمد شمس الدين بن زحاق ناظر الحرمين الشريفين ، فى يوم الأربعاء الرابع الشهر المذكور^(٤) وسجنوهما بالعرقانة وفى صبيحة يوم الخميس خامسه^(٥) أنفذوا حكم الله تعالى فيهما بأن قطعت رؤسهما فى الديوان وعلقتا بالجيزة فى الرهيلة وضرب رأس شخص من الجاوشية يسمى أحمد جاوش بيضة ناعمة بباب زويلة ، وهرب الأمير أحمد العادلى أياما ، وكذلك الأمير مصطفى أمير الحاج الشريف فى تلك السنة ، وطاب سفره حسن المقاطعجى وابن العادلى المذكور ، والسلاوى المباشر^(٦) ، وقفلت الحوانيت ، ونهب بعض أسباب الناس ، وقتلوا غلام الأمير الصوباشى ، وضجوا العسكر وبضعوا [١٢] بأولاد العرب من أخذ خيولهم وعمالهم وأولادهم ، وما وجد معهم من الجوخ والمابس الحسن أخذوه ، ونادى مناد^(٧)

(١) فى الأصل « سيف مشمن » .

(٢) فى الأصل « قوس » .

(٣) أضفت حرف (فى) لتوضيح المعنى

(٤) ١٦ أغسطس ١٥٨٩ م .

(٥) ١٧ أغسطس ١٥٨٦ م .

(٦) فى كشف الكربة : والقاضى بدر الدين السلاوى .

(٧) فى الأصل « ونادوا مناد » .

أن أولاد العرب لا يستخدمون الكايبضا ، وأن اليهود والنصارى لا يستخدمون^(١) جواراً ولا عبيداً ، والكشف عايمهم بعد ثلاثة أيام ، وأن أولاد العرب لا يتزيون بزى الاروام^(٢) ، وصاروا يجتمعون طوايف طوايف ، ويذهبون إلى منازل أصحاب المناصب من أولاد العرب ، فيضربون بالبندق ، ويدخلون في وكبة عظيمة ، فيأخذون^(٣) من كبير المنزل ، ما أرادوه بالقول ، وإلا يبطشون به ، وخلص من أذاهم وشرهم القاضى زين العابدين أمين ديوان المحاسبات بالديار المصرية بالباص الكثير لسائر فرقهم ، وهرب منهم الشيخ العلامة محي الدين الغزى الحنفى لكلمة بلغتهم عنه^(٤) ، ورصدوا منزله مراراً ليقتلوه ، وما نجاه إلا الهروب من المنزل ، وجماعة أخر أغلقوا منازلهم وصاروا يعاملونهم [١٢] بكسر الأبواب ، وحضر مولانا أفندى المشار إليه يوم الأحد ثامن شوال^(٥) ، هو والامير الدفتردار ، يومئذ ، وقاضى مكة المشرفة ، ونخرا الأماثل والأفاضل محمد جلبى يغلى زاده كاتب الديوان ، إذ ذاك ، والعسكر جميعاً بمدرسة مولانا السلطان السعيد الشهيد السلطان حسن طاب ثراه ، بعد أن وعظ العسكر مولانا نخر العلماء عمدة الفضلاشمس الدين محمد التى برمق ، زيدت فضايله ، وأعطى حضرة مولانا أويس باشا بيورلدا شريفاً^(٥) لقاضى مصر أنه مهما طلبوه العسكر يفعل لهم ويخلصه من أيديهم ، وقد عاثوا وتمردوا ، وزادو فى طغيانهم وضربهم بالبندق ، فى الديوان العالى ، واشهروا السلاح ، وهجموا بالخيول إلى مجلس الحكم الشريف وأخربوا

(١) فى الأصل « لا يستخدموا » .

(٢) فى الأصل « يتزاوا » والمقصود بالأروام الأتراك .

(٣) فى الأصل « فيأخذوا » .

(٤) ١٩ أغسطس ١٥٨٩ م .

(٥) فى الأصل « بيور لى شريف » .

الرفوف ، أوخذوا ولد مولانا أويس باشا المومى إليه^(١) ، رهينة على بعض
أشياء ، يفعلها لهم ، وكتب محمد جلي المذکور حجة بين الفريقين [١٤]
بأشياء على قدر مرادهم ، وما سلم أويس باشا من القتل إلا طول أجله ، وتوفى
عند حلول أجله بالديوان المصرى ، تغمده الله تعالى برحمته ، وفى هذه الواقعة
يقول مولانا العلامة عبد الواحد البرجى زيد فضله :

قد أصبح العالم فى حصر فعجل اللهم بالنصر
فصر قد أوبقها أصرها ومن له صبر على الإصر
يا صاحبي الأمر مستفحل قفا نبكى على مصر

وقال الشيخ الأديب عبد المنعم الماطى فى هذه الواقعة :

موالا^(٢) مؤرخاً

نظام مصر العزیزة قد غدا مخروم
وصار من رزقها القاطن بها محروم
وذل فیها العزیز الفاضل المكروم
لما بتاریخها جارت عایمها الروم
سنة ٩٩٧^(٣)

(١) كُتبت فى الأصل عبارة «هو محمد جلى» وهو خطأ حذفناه ، حيث أن محمد جلى ،
كما يتضح من النص ومن مؤلفات ابن أبى السرور ، هو كاتب الديوان العالى ، وليس ابن
أويس باشا .

انظر : محمد بن أبى السرور ، كشف الكربة ، ص ٣١٧ — ٣١٨ ، النزعة الزهية ،
ص ٥٧ — ٥٩ ؛ المنح الرحمانية ، ورقة ٦٢ .

(٢) فى الأصل « موال » .

(٣) ١٥٨٩ م .

ثم في أواسط شهر رجب المرجب سنة ١٠٠٦^(١) ست وألف اجتمع جماعة من العسكر من ساير [١٥] الأقاليم ، وحضروا إلى مصر^(٢) ، زمن حضرة مولانا السيد الشريف محمد باشا ، بالديار المصرية دامت عاياه نعم رب البرية ، فوجدوا مولانا الباشا المشار إلى حضرة في الربيع^(٣) ، وكان متحفظاً منهم ، وكان معه طائفة من العرب ، هم الأمير مقلد ، وعطا الله ، وابن الخير وغيرهم ، كل واحد منهم في خيمته وقد ركب شخص من أمائل جاوشية الأبواب العالية الخنكارية يدعى دالى محمد ، وكان معظا في نفسه مهابا عند الحكام ، في جماعة كثيرة ، وكل واحد من الأمرا المحافظين بمصر إلى أن نزل من الربيع ، إلى أن وصل إلى الرميّة ، فاجتمع العسكر المذكور بالرميّة وأخذت الروس في الهرب ، فقصد مولانا صاحب السعادة الصوة فقاطعوا عاياه العسكر واحتاطوا به ورموا بندقاً كثيراً ، وطائفة الينكجيرية ينحوا الطائفة عنه ، وهم يسبونونه وقد حاصروه مقداراً من النهار ، وطلبوا منه الدالى محمد المذكور [١٦] والأمير محمد الجلال ، وصوباشى مصر ، والأمير مقلد ، والأمير جعفر رضى اغاة الجاوشية ، وداود أغا الصغير ، وابن السكرى ، وجماعة آخر ليقتلوهم فأجابهم إلى ذلك ، وطلب المهلة ثلاثة أيام ، فصار كل منهم يزق بأعلا صوته ، شرع الله ، وطلبوا قاضى العسكر بمصر^(٤) ، ليحكم بينهم بمدرسة مولانا السلطان حسن ، فأجابهم إلى ذلك فتوجه طائفة منهم إلى المدرسة فهزم حضرة مولانا الباشا بفرسه من باب الساسلة ، وفرّ ، وترك ولده

(١) فبراير ١٥٩٨ م .

(٢) في الأصل كتبت عبارة « فوجدوا حضرة » ثم شطبت .

(٣) ٢ شوال ١٠٠٤ - ١٢ ذى الحجة ١٠٠٦ هـ
(٤) ٣٠ مايو ١٥٩٦ - ١٦ يوليو ١٥٩٨ م

(٤) هو عبد الرعوف الشهير بعرب زاده ، انظر محمد بن أبى السرور ، الزهية ، ص ٦٢ ؛ كشف الكربة في رفع الطلبة ، ص ٣٢٠ .

وكتخذه فمسكوهما وسلوهما إلى مولانا حسين باشا بأقليم الحبشة يومئذ^(١) ،
ونفر الأمراء الكرام ، عمدة الكبرا الفخام الأمير يري بك أمير الركب
الشريف الحجازي ، ولم ينزجروا بعد ذلك ، ولم يرجعوا عن فعاليهم الخبيثة
وتوجهوا إلى منزل الدالي محمد بقناطر السباع ، فعاركوه وعاركهم ساعة طويلة
وقد قتل من الطائفتين نحواً من عشرة أنفس ، فلما كثروا عليه فر [١٧]
هارباً إلى داخل منزله وكان بكوشك مشرف على مأذنة الجامع بالحكمة^(٢) ،
التي هناك فحرر بعضهم عليه من المأذنة المذكورة ببندقة فلم تخط رأسه ونفدت
إلى الجانب الآخر ، وأطلقوا النار في باب بيته وهجموا عليه ، دفعة واحدة
فقتلوه وقطعوا رأسه وعلقوها بباب زويلة ، ونهبوا جميع ما في منزله من العدد
والأسلحة والخيول والملبس والتحف وغير ذلك ، وصادفوا نحر الأمراء ،
الأمير محمد عشي باش بك^(٣) أمير اللوا الشريف بالرميلة ، وهو طالع إلى
الديوان الشريف فهجموا عليه وقتلوه وقتلوا مقدم مصر يومئذ ، وضربوا
شخصاً يدعى محمد المخربي من أتباع مولانا نحر القضاة محمد أفندي رفاعي زاده
بالنحر الرشيدى كان ، وهو في طبقة بالقرب من الغورية مع أستاذه فطلقوا
إليه وقتلوه في حضان أستاذه وتبعوا جماعة من أولاد العرب المتزيين بزيهم
فقتلوه ، وقفلت محاكم مصر وهرب الأمير مقلد [١٨] وداود أغا وابن

(١) يذكر ابن أبي السرور في مؤلفاته أن اسمه « حسن باشا المدعو بالسكران
بكلربكي الحبشة يومئذ ، وليس حسيناً ، وربما كان تحريفاً من المؤلف ، حيث أننا نميل إلى رأى
ابن أبي السرور ، والمقصود بالحبشة ، ولاية جدة ، انظر : كشف الكربة في رفع الطلبة ،
ص ٣٢٠ ، النزعة الزهية ، ص ٦٣ .

(٢) المقصود بها محكة قناطر السباع التي كانت تقع بجى السيدة زينب ، وبها مدرسة
البردكية .

(٣) يذكر أن ابن السرور أن اسمه « الأمير محمد الشهير باشجى محمد بيك ، انظر
كشف الكربة ، ص ٣٢١ .

انظر : كشف الكربة ، ص ٣٢٠ ؛ النزعة الزهية ، ص ٦٣ .

السكري والمطلوبين كلهم ، ومحمد الصوباشي ، وولوا كشافا بالاقليم وصوباشي بمصر ، وكان عند طلبهم الشرع ، وطلبهم هؤلاء ، هب ريح عاصف^(١) من قبل الله تعالى وثار الغبار وأظلم النهار فأرسل له كتخدا العزب هو^(٢) أن يتقدم ويدخل من باب العزب ، فهمز ودخل الباب وأغلق بعد دخوله ، ومنع من يدخل من العسكر ، فلما أن دخل إلى الحوش ، ونزل عن جواده ووضع رجله على الدرجة الأولى ، داس على ذيل قفطانه من شدة الدهشة فما لهما فعندما مال من ذيل القفطان جآته بندقه فقاتت راسه بدوسه على ذيله وميله ودخلت في الحائط ، وهي إلى الآن أثرها موجود في الحائط ، على يسرة الطالع للبقعد الصغير ، إنشا مولانا الملك السعيد الشهيد السلطان قايتباي سقى الله ثراه^(٣) ، والسلم المذكور (حدث)^(٤) بناء المرحوم محمود باشا بالديار المصرية كان^(٥) ، وكان ذلك سبباً لنجاته وسلامته [١٩] ولما أن كان يوم الأحد عشرين رمضان المعظم سنة تسع وألف^(٦) ، في دولة مولانا أمير الأمر أخضر باشا الوزير^(٧) ، كافل المملكة الإسلامية بالديار المصرية سابقاً ، طلع العسكر ، هم وقاضى مصر يومئذ ، وطلبوا كتخدا الوزير المشار إليه المدعو بهرام لدعاوى شرعية بسبب الشونة وبعض أمور احتجوا بها ، وكان في ذلك الوقت عند حضرة مولانا الباشا ، فنزل من باب السكلار ، وهو متوجه إلى أن وصل إلى نوبة خانة الجاوشية فتعدوا عايمه ، ووضعوا فيه السيوف وقتلوه ، وفعلوا بحسين الترجمان كذلك ، وقتلوا

(١) في الأصل « ريحا عاصفا » .

(٢) بياس بالأصل ، ولم تذكر المصادر التي رجعنا إليها اسم كتخدا العزب هذا .
انظر كشف السكرة ، ص ٣٢٠ — ٣٢٢ .

(٣) من سلاطين دولة المماليك الجراكسة تولى السلطنة ١٤٨٦ - ١٤٩٦ م .

(٤) أى مستجد في البناء .

(٥) ٩٧٣ — ٩٧٤ هـ
تولى ولاية مصر ١٥٦٥ — ١٥٦٦ م

(٦) ٢٥ مارس ١٦٠١ م .

(٧) ١٧ ذى الحجة ١٠٠٦ — ١٥ محرم ١٠١٠ هـ
تولى ولاية مصر ٢١ يوليو ١٥٩٨ — ١٦ يوليو ١٦٠١ م

المعلم يوحنا النصراني النبـلاوى المباشر ، وقطعوه قطعاً ، وطافوا برأس
الكتخدا المذكور وعلقوها بباب زويلة ، وتوجهوا إلى بولاق القاهرة وقتلوا
بها من ^(١) وجدوه من خزان الغلال ، وعاثوا وبغوا وطغوا وفعلوا فعائل خارقة
من نهب الأموال والأولاد ، والأمر إلى الله سبحانه وتعالى [٢٠] ثم ما هو
أعجب وأغرب ، ما فعلوه بعد ذلك من الداهية العظيمة ، والواقعة الدهما التي لم يسمع
في هذا الأوان بأغرب منها ولا أعجب ، ولا أبشع فعلا ولا أشنع ذرفت منها
العيون ، وتفتت القلوب ، وخابت الظنون ، في سنة ١٠١٣ في يوم الجمعة
المبارك سابع ربيع الثاني ^(٢) قيل صلاة الجمعة وذلك أن حضرة مولانا ، الجنب
العالى ، الراقى رتب المعالي أمير الأمرا ، حضرة مولانا الوزير ابراهيم باشا ^(٣) ،
بمصر المحروسة تخمده الله تعالى برحمته وأسكنه فسيح جنته ، لما توجه إلى
ناحية شبرا لقطع سد قناطر أبي المنجا ، زمن النيل السعيد ، في موكب عظيم من
القاعة المحروسة المنصورة إلى ساحل بولاق نزل في المركب وتوجه إلى الناحية
المذكورة ، وجلس في دولاب حضرة مولانا أمير الأمرا الكرام ، كبير الكبرا
الفخام ، ذو القدر والمجد والاحتشام ، المتمسك بلطف رب العباد ، مولانا
الوزير الأعظم مراد باشا أعطاه الله تعالى من العز والعظمة [٢١] والسعادة
والسيادة ماشا ، وفي هذا اليوم المذكور توجه جميع العساكر المصرية الأشقيما
المذكورين ^(٤) بمعاونة من الأمرا والمتفرقة والاسباهية والجاوشية ، إلى القرافة
الشريفة على ما قيل ، وتحالفوا على قتل مولانا الوزير ابراهيم ، وباتوا على ذلك ،
وبات مولانا الوزير في الدولاب المذكور ثم في صبيحة يوم السبت مستهل

(١) في الأصل (ما) .

(٢) ٢٤ سبتمبر ١٦٠٤ م .

(٣) ١٤ ذي الحجة ١٠١٢ — جماد أول ١٠١٣ هـ
(٣) قول ولاية مصر ١٤ مايو ١٦٠٣ — ٢٥ سبتمبر ١٦٠٤ م

(٤) في الأصل « المذكورون » .

شهر جمادى الأول من تلك السنة^(١) توجهوا بقضهم وقضيضهم ، وأتباعهم
ولفيفهم إلى ساحل بولاق ، للاقائه وهم بالسلاح الكامل ، والعدة الوافرة ،
واستمروا هنالك إلى آذان الظهر ، فبلغهم الخبر أن حضرة الوزير جالس
بالدولاب المذكور فافترقوا فرقتين ، فرقة مكثت في بولاق ، وفرقة توجهت
إلى الدولاب المذكور ، وهم بأهبتهم الكاملة غارقين في أسلحتهم ، إلى أن
وصلوا إلى الدولاب ، توصل إليه الخبر أن العسكر حضر جميعه وهو في غاية
الشدة والصلابة وطلب الشر ، وقد حضر اليه بعض الصناجق [٢٢] وقال له
يا مولانا قم واركب بنا في المركب قبل أن يتلاحق بنا العسكر ، وتوجه إلى
القاعة المنصورة خفية وإذا طلعت بسلامة الله تعالى ، افعل ما تختاره وترومه ،
فلم ياتفت إلى ذلك الكلام بل وأغلظ على قايله ، ولعمري أنه كان رأيا
صالحاً ، لو فعله ، ولكن إذا نزل القضاء عمى البصر :

ولقد صدق من قال :

إذا أراد الله أمراً بأمري وكان ذا عقل وسمع وبصر
أصم أذناه وأعمى قلبه وسلّ منه عقله سل الشعر
حتى إذا أنفذ فيه حكمه رد عليه عقله ليعتبر
فلا تقل فيما مضى كيف مضى فكل شيء بقضاء وقد

واستمر جالساً في مكانه بقصر الدولاب وعنده من أمراء الصناجق ، نحر
الأمراء الأمير عثمان بيك [٢٣] العثماني . والأمير بايزيد بيك ، والأمير محمد
بيك ابن خسرو ملازم مقاطعة الثغر السكندري والبحيرة ، والأمير درويش
محمد بن عثمان أفندي قاضي القضاء هو بمصر سابقاً ، وحضرة مولانا شيخ

مشايخ الإسلام مصطفى أفندي عزمى زاده ، والأمير الدفتردار ، وبعض صناعق آخر . ومن الجاوشية والمتفرقة ، مالا يحصى ، فطلع من الجند الأسباهية خمسة عشر نفرًا^(١) إلى القصر وهم متسلحين بسيوفهم إلى أن وقفوا عندهم في شدة الغضب والتأهب . فلما رأهم على هذه الحالة قال لهم كلاماً لطيفاً^(٢) ، أيش مرادكم يا عسكر السلطان أنا ما أعطيتكم علوفاتكم كاملة مع ترقيةاتكم وأعطي لكل شخص منكم ثلاث عتامة^(٣) أيضاً ، فقالوا له نحن ما نريد إلا روحك ، فلما رأهم مصممين على ذلك ، وأنهم لا يريدون إلا البطش به ، تشهد وقام على أقدامه فضربه شخص منهم بالسيف على وجهه فسقط إلى الأرض ، والذي ضربه أولاً أحقر الطائفة ونزلت عليه السيوف من كل جانب منهم وقطعوا [٢٤] رأسه ثم إن الأمير محمد بن خسرو المذكور لما رأى ذلك ، قام على أقدامه ، وقال حاس يا طائفة ، هذا ما هو مايج تقتلوا وزير السلطان ، فقالوا له أنت هنا يا فاعل يا ثارك ، ثم ضربوه بالسيوف أيضاً ، وألقوه به ، هذا والعسكر تحت القصر يتماوج كما يتماوج البحر ، في شدة هيجانه واضطرابه ، يكاد يأكل بعضه بعضاً ، وإذا بالرموس أخرجوها لهم من الشباك فسكن الاضطراب يسيراً ، ثم إنهم نزلوا بالرأسين إلى أسفل القصر ، وأما الأمير عثمان فإنه قد توارى وكذلك كل من كان في المجلس من الأمراء ، وقتل أيضاً من الينكجيرية ثلاثة أنفار ، وأخذوا الرأسين على رحين ، وطافوا بهما البلد وهم ينادون^(٤) عليهما هذا جزاء من أفتن من عسكر السلطان ، ثم أتوا بهما وعلقوهما في باب زويلة على أسقيفة هناك فياتا عليها إلى ثاني يوم ، بعد طلوع الشمس ، فسلموا الرأسين فدفنا مع جثتهما [٢٥] وأصبح الناس جميعاً في غاية التكدر والاضطراب ، والتشويش لعدم

(١) في الأصل « نفر » .

(٢) في الأصل « كلام لطيف » .

(٣) نوع من العملة العثمانية كانت مستعملة في ذلك الوقت مفردتها عثمانى .

(٤) في الأصل « ينادوا » .

من ينظر إلى أحوال الناس ولهول هذه الواقعة الغريبة ، وقد قيل إنهم ذهبوا
للأمير عثمان بك، وسألوه أن يكون قائم مقام فأبى ، وامتنع فأبرموا على مولانا
مصطفى أفندى وجعلوه قائم مقام ، وقالوا له أنت قاضى ذلك القطر وأنت أحتى ،
وكذلك أرباب الدولة أيضاً ، وجعلوا الأمير ناصف سوباشى ، والأمير أحمد
ابن الدمرداشى دويداراً ، والناس فى أمر مريع ، ونسأل الله تعالى العافية
واللطاف فى القضا وأن يسلمنا فى شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه كريم رحيم
ولقد قلت :

مصر لك الله لقد أصبحت	يكي عليها بالدموع العزار
عن حالها حالت وقد أصبح الـ	حال بها فى شغل قلب أحرار [٢٦]
فلا رجاء لا ولا مأمنـاً	كلا ولا جار به يستجار
ولا أمير بامرء مشفق	أعان عان راج أجار
ولا ولى يتولى إذا	كشف من الله لدفع الأصار
فمن لذى محنة أو شدة	ذو غيرة أو منقذ من عثار
إلا وزيراً كف عن ربة الـ	أسر رعاياه وعنا وجار
فالهجرة الهجرة من مصر لا	مقام فيها والفرار الفرار
ليس لها كاشفة دونه	برحة تدرك ذى الاختيار
فالغوث الغوث منك الرجا	أنت ملاذى أنت والمستجار
وصل يارب على المصطفى	وآله والصحب أهل الوقار

وتم الأمر على هذا الحال من تقلب الأحوال [٢٧] وكثرة الأهوال
وركوب الأخطار وسلب الأموال^(١) (ونما وقع فى زمن أمير الأمرا مولانا

(١) النص الموضوع بين القوسين (— —) كتب على هامش الصفحة رقم ٢٧ وأشير
إلى وضعه مكان النص التالى من الصفحة بعد شطبه ، والنص المشطوب هو « وكل من ورد
بعد ذلك من البكلاربكية إلى ديار مصر المحمية ، منهم من يأخذهم بالملاطفة ، وعدم
المجانفة ، ويهمل أمورهم ولا يفتش على ما يفعله جمهورهم ، ومنهم من يأخذهم بالسياسة ،
ويقطع رؤوس رؤوسهم ، ويخذ أنفاسه فى الحناه لا الظهور ، ويظهر أنه لم يدارضهم فى أمر
من الأمور » .

محمد باشا الخادم البكري بالديار المصرية^(١) فإنه عند وروده إلى مصر حضر إليه من الاعتبار الشريفة جاشنكير راس الجاشنكيرية ورئيسهم ومعه خطا هما يونيا وأحكاماً منيفة^(٢) فجمع الصناجق والعساكر بالديار المصرية بسبب الطلبة وأصلها وإبطالها وعن سبب قتلة مولانا الوزير إبراهيم المقتول ظناً ، ومن قتله وقد اجتمعوا كلهم في قرة ميدان ، وكذلك نخر الأفاضل مولانا محمد أفندي التي برمق فذكر مولانا محمد باشا أنه لم يعرف أصل ذلك ولا سببه فإن ذلك لم يكن في زمنه وأن الخط ليس له ، وإنما لأمر آ مصر وأغواتها وعساكرها ، وأبي أن ينزل من القلعة ، ونزل الجاشنكير بقرا ميدان ، واتفقوا على جواب ، وقفل الباب الكبير وفتح الصغير ، ووقف محمد أفندي المشار إليه هو ونخر الأكاير الأمير على الهلالى كتخدا الطائفة الجاوشية ويدهما مصحف شريف وهما ناحيتى الباب وكل من طلع من العسكر يحلفوه على أنهم على كلمة واحدة وأنهم يحضروا المطلوبين من المفسد منهم ، وأنهم لا يحصل منهم فساد لأحد من الرعايا ، ولا يخرجوا عن كلام الملك ولا نايه ، وذلك بعد مجالس وأيمانات سابقة ، لم نذكرها خوفاً من الإطالة ، ثم إن مولانا محمد باشا قطع منهم طائفة بالروية وحسن التدبير شيئاً فشيئاً ، وكل من ظفر به منهم تلفظ به وأرسله المشبك^(٣) ولم يزد^(٤) والأمر بعد ذلك (إلا شدة) فلما انتشرت هذه الأخبار الموحنة ، والأفعال المدهشة ، وطرقت سمع حضرات السلطنة الشريفة ، والسدة الخاقانية المنيفة . سلطان سلاطين الزمان ، وخاقان خواقين العصر والأوان ، وخليفة الله الأعظم في أفراد بنى الإنسان ، ثالث العمرين صرامة وحزماً من

(١) تولى ولاية مصر ٢٢ ديسمبر ١٦٠٤ — ١٦ يولي ١٦٠٥ م ، ويعرف باسم محمد باشا الكورجى .

(٢) في الأصل « وم » خط هانيون وأحكام منيفة .

(٣) المشبك = السجن .

(٤) في الأصل « يزداد » .

ملوك آل عثمان . ظل الله الممدود على كافة أهل الإيمان ، وسينته المسلول بيد
القهر على أهل البغى والعدوان ، قاتل [٢٨] الكفرة والمبتدعة وسائر حزب
الشيطان القايم بفرض الجهاد لأعلاء كلمة الله تعالى وإذلال أهل العصيان ، لم
تكتمل أعين الزمان ، بمن يوازنه أو يوازيه ولا تنظر أحداق النجوم مع
كثرة دورانها حول السماء والأرض من يساهيه أو يساهيه ، صاحب الإمامة
العظمى والسلطان الباهر ، وارث الخلافة الكبرى كبرا عن كابر ، مرغم أنوف
التراعة كاسر تيجان الأكاسرة ، قاصر قصور القياصرة ، هازم جنود الطغاة
البغاة وجيوشها ، هادم حصون الكفرة فهي خاوية عن عروشها ، اسكندر
الزمان ، الذي نصر محمداً صلى الله عليه وسلم وأكبت له عدا ، وأذل من
استطال بجهله على شريعته وعدى ، وصان الإسلام والمسلمين بجهاد الكفرة
والملاعين ، وأزال الجور عن الأمة ورد عنهم كيد الكائدين سلطان الحرمين ،
حامى القبائلين ، ملك البحرين ، ملك جهان ، ناشر علم العلم والإحسان ، [٢٩]
جامع ذيول الأقطار ، فاتح البلاد والقلاع والأحصار ، مبيد الطغاة والبغاة
والكفار ، المؤيد من السما ، المنصور على العدا ، مدبر البلاد بالعدل والإيمان ، ناصر
الشريعة المحمدية بالفضل والإيمان ، ملك البرين ، والعرب والعجم والروم والترك
والعراقين ، والشرق والغرب واليمن والحشة والخافقين ، السلطان الأعظم الغشتم
والبحر الفططمم ذي الجيش الحرمم ، واسطاة عقد ملوك آل عثمان ، ذي البذل
والإحسان ، المحفوف بمزيد عناية الملك الصمد حضرة مولانا السلطان الملك
المعظم أحمد بن مولانا السلطان الأعظم محمد خان بن المرحوم مراد خان بن
عثمان^(١) ، اللهم أدم دولة عبدك هذا الخاضع لهيئتك الشاكر لتعمتك ، سيفك
القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامي عن دينك والمدافع ، اللهم وعمر بدولته
البسيطة ، واجعل ملايكتك [٣٠] براياته الشريفة محيطة ، اللهم ابق للإسلام

١٨ رجب ١٠١٢ — ٢٣ ذى القعدة ١٠٢٦ م
(١) تولى السلطنة ٢٧ ديسمبر ١٦٠٣ — ٢٢ نوفمبر ١٦١٧ م

مهجته ، وأثّر في المشارق والمغارب دعوته ، وافتح اللهم على يديه دواني
الأرض وقواصيها ، وما لك صياصي الكفرة الليام ونواصيها ، فلا تلقاه منهم
كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها .

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجده ملء المسامع والأفواه والمقل

اللهم اشكر عن العالم وسائر البلاد الإسلامية سعيه ، وانقذ في المشارق
والمغارب أمره ونهيه ، وأصلح له أوساط الفلاة وأطرافها وأرجاء الممالك
وأكنافها .

فهو الذي دلت عليه الملاحم بالشكل والصورة والعلام

وفي المعنى

ملك إذا ضاق الزمان بأهله بخلا توسع في المكارم وانفسح
يكسو السحاب إذا تجارى كفه

فالغيث من وجناتها عرق رشح [٣١]

ويكاف الأسد الهصور بعدله في القفر أن يرعى الغزال إذا سرح

خلد الله ملكه وأعز أنصاره ، وختم بكل خير وسعد أعماله ، وقرن بالنجح
والسعد أعماله ، وأجرى أحكام سلطنته في أكناف أطراف الربع المسكون
ماتعاقبت الأعوام والسنون ، وجعل الملك كلمة باقية فيه وفي عقبه إلى يوم
القيامة ، ومنحه في الدنيا والآخرة ما يابق بجلاله من أنواع العزة والكرامة .

وهذا الدعاء لا يرد لأنه يزان به كل الورد والممالك

تراه بلا شك أجيب لآتنا إذا مدهونا أمانة المالك^(١)

(١) في كنف الكربة « الملائك » ، ص ٣٣٠ .

أنعم بآيالة مصر المحمية ، مع الوزارة العلية لحضرة مولانا وسيدنا الوزير
المعظم ، والمشير المفخم ، والدستور المكرم ، بمهد أمور جمهور الأمم ، منصف
المظلوم ممن ظلم ، نظام العالم ، رافع أثار الجور والفتن ، وقالع مآثر الظلم
والأحن ، جواد لم يمحى الهلال إلا ليكون نعلًا لحافر [٣٢] جواده ، ولا مدت
الثريا أكفها الخضيب إلا للتمسك بذيل كرمه وإمداده ، ولا سلَّ الصبح سيفه
إلا قال الله أكبر على أعدائه ، ولا احمرت الشفق من الخافقين إلا حرمة لحره
خافق لوائه ، ولا أمطرت السحب إلا بكاء من خشية جلاله ، ولا استقرت
البروق إلا خجلا من إمان سيوفه ونصاله ، ولا تحلت الخناصر بالخواتم إلا
لأنها تعقد عليه ، ولا كحلت العيون السود بسواد النور الباصر إلا لتتشرّف
بالنظر إليه ، ولا فتحت الدوى أفواها إلا لتتطق بمدحه السنة الأقاليم ، ولا حبر
الحبر يياض الطروس بسود السطور إلا لتشير أن الليالي والأيام من جملة
الخدام ، ليث عرين الوطيس بأساً وجأشاً ، حضرة سيدنا ومولانا الوزير
المعظم محمد باشا^(٢) أنعش الله تعالى به بساط البسيطة انتعاشاً ، ولا زال عمود
خيام هذا الدين القيم بعد الله الشريفة قائما ، وكلما نوت أعداؤه^(٣) فعلا مضارعا
[٣٣] كان سيفه له جازما ، وهو الذى قهر الأعداء من طوايف الأشقياء
المذكورة أخذا بالنواصي ، وبدد شمل البغاة العصاة وفرقهم إلى الأقاليم ،
وهو الذى من حل فى فناءه آمن من عوارض الفناء ، ومن استجار بحماه خلص
من بوايق البلا ، ومن استظل بظل رأفته وجده ظايلا ، وهو الذى من قصد
بابه ماخاب ، ومن لزم جنابه الشريف عاش وطاب ، وهو الذى دأبه إغاثة
الملهوف وإسدا المعروف وهو الذى اصطفاه الله وزاده بسطة فى العام والجسم ،
وهو الذى منحه من المكرمات أوفى قسم :

٧ صفر ١٠١٦ - ١٨ جمادى الثانية ١٠٢٠ هـ

(١) تولى ولاية مصر ٣ يونيو ١٦٠٧ - ٢٨ أغسطس ١٦١١ م

(٢) فى الأصل « أعداءه » .

ولو أن أشجار البلاد خلقت في أقلام خط والمداد لا كثر^(١)
وأردت حصر فضائل جمعت له دون البرية كنت فيه مقصرا

ثم أوصاه حضرة مولانا الخنكار نصره الله تعالى على أهالي مصر
والوصية التامة بهم ، ونشر [٣٤] العدل فيهم ، والشفقة والحنو عليهم ،
ومعاملتهم بالعدل والإنصاف ، ورفع الجور والإعتساف ، وكان من معظم
الوصية ، إبطال الطلبة ورفعها لاشتداد غضبه لأجلها ، وقاها بالكلية ، ومن
خالف وعاند وكابر وكايد ، قتل أشرف قتله وأستبيح ماله بغير مهلة ، وهو مصغ
لكل ما يقول ممثل لما برزت به الأوامر الخنكارية بغاية القبول ، وأعطاه
بذلك خط همايون ، الذي هو بالسعادة مقرون ، ففضى إربه من القسطنطينية
المحمية . ونزل في السفن قاصدا ثغر الإسكندرية . فأم يزالوا سايرين بسلامة
الله تعالى في ذلك البحر الفسيح ، تارة بالكورك وتارة بالريج ، إلى أن لاح له
الثغر المذكور ، وقد ازداد رفعة وجورا^(٢) فخفضت الأعناق لدى المرأى
المدهش . واثعشت النفوس بذلك المنظر الشريف المنعش - فأى صدر
ماتزحزح عند رؤيته ، وأى قدر ماتضاءل عند مشاهدة [٣٥] عظمت ، وأى
بدر ماغاب ، وأى شمس ماتوارى ضياؤها بالحجاب ، وقد تلقاه بالاستقبال
من مصر المحروسة أكابرها وأعيانها ، وأمرأؤها وأركانها وأرباب دوائها ، وهتؤه
بالسلامة وقد حفت به الكرامة وقات :

ته يا وزير البرايا منقذ الأمم وأسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك هذا القطر ملتما وهل بعدلك شمل غير ملتيم
يافاعل الخير طبعاً حيث لاكانف ومولى العرف في مصر بلا سام
قد أصبحت بك مصر بعد غربتها موصولة بكم لهما على وضم

(١) في كشف الكربة « الأبحر » ، ص ٣٣٢ .

(٢) في الأصل « حبور » .

مكفولة أبدا منكم بخير أب وخير بعل فلم تيم ولم تيم
فالليل بعد وقوف قد وفا وغدا جار كبحر نوال منك ماتطم [٣٦]
بالشكر كل لسان ناطق أبدا محمد الخلق محمود بكل فم

واستبشر كل أهالى الثغر بطاعته، ويمن غرته، ونصب سرادقه العالى،
ورواقه السامى المتعالى، بفيحاء الجزيرة الخضراء، خارج ثغر الإسكندرية الغرا
وقد حفت به جنود النصر والإقبال، وتطأطأت للثم تراب أقدامه جباه الأقيال
وأحدثت بأطناب مخيمه الحكمة والأبطال، وحصل من حضرة لهم إنعام عام
لمن حضر من العسكر الساطاني فى ذلك المقام، وزاد كل واحد من العسكر فوق
ماتايق به من الترقى من عثمانى فأزيد، ولم يحرم أحدهم من الأنعام، ونالوا
جميعاً ما أرادوه من المرام، ونظر فى أحوال الأمم، وأنصف المظلوم بمن ظلم
ومن جملته أنه خلص جملاً من شخصين جنديين أخذاه من ناحية أدكو فى طلبه،
وهرب الجنديان، وكان مولانا قاضى القضاة حسن أفندى [٣٧] القاضى
بالثغر الإسكندرى حيثئذ فحضر اليه، وقبل يديه الشريفة وسر برؤيته سروراً
كثيراً وأقبل حضرة مولانا الوزير اليه إقبالا عظيماً وتوجه حضرة الوزير من
يومه ذلك، ومولانا حسن أفندى يسايره، ويحادثه، إلى زيارة مقام مولانا
وسيدنا الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر القطب الربانى، والعارف الصمدانى،
مرنى المريدين ومقتدى السالكين ذو الكرامات الطاهرة، والأنفاس الطاهرة
والأسرار الباهرة، الاستاذ الأعظم، والمولى الأنخم الأكرم، سيدى
أبو العباس المرسى نفع الله تعالى به وبأنفاسه الطاهرة فى الدنيا والآخرة، وزار
المقام الشريف وصلى وابتهل وتركع، ودعى لحضرة مولانا الخنكار الأعظم
الإمام الأنخم تقبل الله منه ذلك، وهو فى غاية الخشوع والتواضع والخضوع
وقرب القربان الكثيرة من الأغنام وأغدق [٣٨] على أهل المقام وأحسن إلى
الفقرا والمساكين، والأرامل والمنقطعين، من خدام المقام، وغيره، وكل منهم
لاهج بالدعاء له والثناء عليه، ثم إلى مقام ثغر الأولياء، وعروس الاصفياء

ذو الرتب العالية ، والمقامات السنية ، والمواهب الدنية والنفحات المحمدية ،
 القطب الرباني ، أبو الروح سيدى ياقوت العرشى المجاور ضريحه للشيخ المشار
 إليه ، ثم منه إلى زيارة مقام الشيخ الأكبر والعلم الأشهر ، الشيخ أبو الحسن
 الشاذلى ، ثم إلى مقام سيدى أبو الفتح الواسطى ، ثم إلى مقام الشيخ نجم
 الدين السبع ، ثم إلى مقام سيدى عبد الله اليماني ، وهو في كل ذلك يتصدق
 ويغنى على الفقراء والمساكين والخدمة القاطنين بالمقامات المذكورة ، ولم
 يحرم من إحسانه ولطفه أحد^(١) ، وشمل غالب الناس بره وعطفه ، وحصل لهم
 كمال الارتفاق ، وملأوا بالدعاء له أكناف الأرض وآفاق الآفاق ، ثم [٣٩]
 توجه بقية نهاره إلى حيث الحصار الكبير الأشرفى بجزيرة الثغر المذكور ،
 إنشاء حضرة مولانا السعيد المالك المنظر الأشرف السلطان قايتباى المحمودى
 سقى الله ثراه . وهو الذى اشتهرت قطبانته فى الآنام ، وقطع بولايته وعدله
 كل خاص وعام ، وكشف بنفسه النفيسة عاياه ، وتوجه بكليته وجزيئته إليه ،
 كشفاً جلياً ، وتأملاً ملياً ، فرأى فيه بعض خلل ورث فى بنيانه ، فأمر بترميمه
 وعمارتة ، واتقانه لهيئته ، ثم إنه صعد إلى المسجد المبارك بعلمه فزاره وصلى فيه
 وتبرك به ، ودعى الله سبحانه وتعالى بذلة وخضوع ، وأنعم على جميع من بالحصار
 من الجند القاطنين به ، وأنعم وأغنى كعادته ، وفرق أغناماً كثيرة ، وانعامات
 أثيرة ، وعمر الحصار ، بعد ذلك عمارة حسنة جيدة فى غاية الأحكام ، على وجه
 المكنة والتمام ، وبما وقع فى أيام سلطنة المرحوم قايتباى المشار إليه فى بضع
 وتسعين وثمانماية خرج عاياه [٤٠] شخصان^(٢) يدعى أحدهما سوار، و(ثانيهما)
 حسن^(٣) الطويل ، ومعها عساكر كثيرة ، طمعا فى الديار المصرية ، فأرسل إليها
 تجريدة عظيمة ، ووقع الحرب الشديد والقتال العنيد ، وقتل سوار ، وحسن

(١) فى الأصل « ولم يحرم من إحسانه أحد ولطفه » ، واعتقد أن هذا سبق قلم ،
 من المؤلف ولذا أصلنا العبارة على الوجه المذكور .

(٢) فى الأصل « شخصين » .

(٣) أضفت كلمة « ثانيهما » ليتضح الأسلوب والمعنى .

الطويل المذكور أشر قتلة ، ووقعت النصره لمولانا الساطان قايتباى المشار اليه
ولمجت الشعراء بذكرهما فمن ذلك ما نظمه شمس الدين القادرى :

أيا حسن الطويل بعثت جيشاً كغنم وهن لنا غنائم
فناز الحرب قد قتات سواراً وأنت لسبكها لاشك خاتم
وقال الشهاب المنصورى :

عروس الحرب نقطها المواضى بأرواح الأعارب والأعاجم
وقد جابت وفى يدها سوار وهما حسن لكف الحرب خاتم
وقال بعضهم [٤١] :

ياحسن الطويل قصرت عمراً وفاتتك المعالى والمغانم
سوار قد سبكا ابتداء وأنت بناره للسبك خاتم

ثم عاد منه إلى زيارة سيدنا ومولانا، الولي الشهير، والعلم الخطير، من عمت
بركته أهل الغرب والشرق، سيدى عبد الله البرق، وحصل له بزيارته غاية
السرور، والبهجة والحبور، وهو على عادته من الإناعم للخاص والعام،
وخصوصاً محبته فى المجازيب والبله، لا ينكرها أحد من الأنام، ثم عاد إلى
سراجه الشريف، وهو فى غاية العزة والتشريف وفى أثناء بكرة ذلك النهار
توجه للزيارة أيضاً، ومولانا حسن أفندى يسايره ويحدثه، قاصداً زيارة سيدنا
ومولانا خلاصة الأولياء، وزبدة الأصفياء، والولي المشهور، بلا نزاع،
وساطان الأولياء بلا دفاع، الزاهد الورع، التواب المعتقد المتهجد الأبواب،
ذو الأنفاس [٤٢] الطاهرة، والكرامات الباهرة، صاحب الولاية على
الإطلاق، ولى الله تعالى، والعارف به الشيخ عبد الرازق، داخل الثغر المذكور
تقبل الله منه الأجور، وحصل له بزيارته غاية البشر والسرور، وقرب قربانا،
وأعقدى برأ وإنعاماً وإحساناً، ثم بعد أخذ حظه من الزيارة، توجه من ذلك

المكان الأنور، قاصدا زيارة الباب الأخضر بالجزيرة، فزاره وتماس به وتبرك
 وحصل له حظا عظيما، وأنعم إنعاما جسيما، ثم توجه منه إلى الجامع الأنور
 المعروف بالجامع الأخضر وزاره وصلى عنده، وتبرك به ودعى الله سبحانه
 وتعالى، وهو بغاية الخشوع والطمأنينة والخضوع، وزار المسجد اللطيف
 العمرى من داخله المنسوب لحضرة مولانا عمرو بن العاص الصحابي الكبير
 وانفرد فيه بنفسه ودعى لحضرة مولانا الخنكار الأعظم، وطالب من الله
 تعالى ما في خاطره بلغه الله تعالى غاية المراد، فان من المشهور أن الدعاء عنده
 مستجاب، كل ذلك [٤٣] وهو يواصل الإحسان والبر إلى فقر آهل الثغر
 وكان يوما معدودا، مباركا مشهودا، ثم عاد إلى مخيمه الشريف بالعظمة والتبجيل
 والتشريف، ثم بعد بلوغ أربه من ثغر اسكندرية، توجه بما حازه من الأجور
 المرضية، إلى محل إيالته بالديار المصرية، في طالع سعيد، ووقت مبارك حميد،
 فمر في مسيره على مقام مولانا وسيدنا الصحابي الكبير والعالم الشهير، العالم العابد
 الصائم القايم، الراكع الساجد، ذو المناقب الكثيرة، والبركات الاثيرة،
 المجاهد الأكبر، والكبريت الأحمر، المختص برحمة الملك الباري، سيدى
 تجار الانصارى، فعطف عليه، ودخل إليه بغاية الخضوع، وزار المقام
 الشريف، وصلى عنده وابتهل، وركع وسجد وتبطل، وحصل منه من الأنعام،
 والنعيم والأنعام، مالا مزيد عليه، ورأى المقام ضيقا^(١)، فأمر متوليه،
 والناظر عليه، وهو نخر الأماجد والأعيان الأمير محمد بن المرحوم [٤٤]
 بلال من الأمراء المتفرقة بمحروسة مصر بتوسيعه وعمارته عمارة حسنة فامثل
 ذلك، وعمره عمارة مايحة إلى الغاية، وزاد فيه زيادة كبيرة، وصار نزهة
 للناظرين، ثم إن حضرة الوزير أحسن إلى جميع من هو بالمقام من الخدمة
 والزوار، والفقراء والمعتقدين إحسانا عاما، وأرصد عليه حين وروده إلى
 القاهرة المعزية ملاحة مستجدة خارج الثغر المذكور يصرف ريعها على سباط

(١) في الأصل « ضيق » .

يعمل بالمقام في كل ليلة جمعة واثنين ويجتمع فيه المقرءون والوعاظ والمنشدون ويحيون هاتين الليلتين^(١) من العشا إلى الصباح دائما أبداً ، ويهدى ثواب ذلك لحضرة مولانا سيد المرسلين ، وآله وأصحابه (وللساطنة الشريفة) ، ثم لساكن المقام ، ومن كان سبياً في ذلك ، وسائر المسلمين تقبل الله ذلك إلى يوم القيامة^(٢) (وما حررته نقلاً من مروج الذهب للمسعودي ، رحمه الله تعالى أن بأرض اليمن مكان يعرف بالقاعة . مزار لصحابي من الأنصار [٤٥] يعرف بجابر ابن عبد الله الأنصاري ، وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله مناقب ومآثر وبركة ظاهرة ، وفيه طاهر ، وله أخبار تنقلها الأفاضل كابر عن كابر ، قدم جابر بن عبد الله هذا إلى الشام وافداً على معاوية رضي الله عنه ، فحجب عنه ، ثم اذن له فقال يا معاوية أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستلقون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني على الحوض أفلا صبرت . قال في النهاية لابن الأثير ، الأثر بفتح الهمزة ، والثاء المثناة . الاسم من أثر يؤثر إشاراً ، إذا أعطى يريد أنه يستأثر بضعكم على بعض في نصيبه في الغنيمة والفيء ، فقال جابر اذكرتني يا معاوية ما أنسانيه الدهر وخرج من عنده ، وركب راحته ، ونزل إلى المدينة ، فذكره معاوية فأرسل إليه بستمائة دينار ذهباً فردها جابر عاياه ، [٤٦] وكتب إليه .

وإني لأختار القنوع على الفنا إذا اجتمعوا والماء بالبارد الممضى
وأقضى على نفسي إذا الأمر نابى وفي الناس من يقضى عاياه ولا يقضى
وألبس أثواب الحياء وقد أرى مكان الغنى أن لا أهين به يرضى
قال وليس هذا جابر بن عبد الله الأنصاري أحد المكرمين عن رسول الله ﷺ

(١) في الأصل «ويجتمع فيه المقرئين والوعاظ والمنشدون ويحيون تلك الليلتين» .
(٢) من هنا وحتى السطر الأخير من ص ٤٦ ، استطراد وخروج عن موضوع النص ولذا وضعناه بين قوسين (٠٠٠) .

وان اشترك معه في اسمه واسم أبيه ، فإن ذلك معمرأ عاش أربعاً وتسعين سنة ، وتوفي في سنة ٧٧ من الهجرة النبوية ، في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي وهذا صحابي أنصاري آخر ، ولعله المدفون بهذا المقام ، ذكر ذلك الشيخ أبو الفتح اليعمرى في السيرة النبوية رضى الله تعالى عنه وأرضاه ، ثم إن حضرة الوزير زاده الله تعالى [٤٧] إجلالا وإقبالا ، لم يزل يجد المسير بعناية الملك الحميد ، إلى أن وصل بسلامة الله تعالى إلى ثغر رشيد ، في عيش رغيد ، فتوجه إلى الحصار الذى هناك ، وكشف بنفسه النفيسة عايه ، فوجده في غاية الإحكام والإتقان ، فحصل له بذلك حظ عظيم وانشرح صدره لذلك ، وأحسن على من بالحصار المذكور من الجند والمرابطين وأرباب شعائر مسجده ، وأبطل بعض ظلمات ، وشكت الرعايا من شخص هناك يدعى ترك محمد ، كان شقيا من الأشقياء ، فسجنه بالحصار ، وأنفذ أمر الله فيه ، وكان جباراً عنيداً ، ثم توجه مصحوباً بالسلامة ، فلما مر على كوم الأفراح زاره ، ومن به من الأولياء والشهداء ، وتسدد وأنعم وأغدق ، ولهجت الرعايا بالدعا لحضرة مولانا الخنكار الأعظم ، ولذاته الشريفة وسار والعسكر المنصور وأمرآء الآلوية ، وأكابر الدولة يسايرونه ، وكلما ورد عايه أحد من الكشاف [٤٨] والملازمين يقابله بسن ضاحك ، وبشر وإقبال ويأبسونهم الخلع والتشريف ، وكل من ألبسه قفطانا شرط عايه أن يمشى بالاستقامة مع الرعايا ، وأن لا يكتب لأحد من الجند طلبه أبداً ، ومتى بلغه عن أحد منهم أنه كتب طلبه لفرد من الأفراد ، يكون ذلك القفطان كفته ، واستمر على ذلك وكلما نزل على بلد أوقرية ، وشكى إليه أحد من فلاحها يحسن لهم ويكشف ظلماتهم إلى أن حل بشبرا المدينة وجزيرة الفيل فنصب سرادقه بها على العادة بذلك ، وقد اصطفت العساكر بين يديه صفوفاً ، وكان دخوله تاسع عشر شهر صفر المظفر سنة ١٠١٦^(١) في طالع سعيد ، وساعة مباركة والسعد يقدمه ، والإقبال يخدمه ، فأقام بها ثلاثة أيام في أرغد عيش ، وتوجه إلى دار سعادته ،

(١) ١٥ يولية ١٦٠٧ م .

ومحل إيلته ، بالديار المصرية ، والقلعة الصلاحية ، فدخل في موكب عظيم ، وعز
وجاه وتعظيم [٤٩] وطلع القلعة ، في إقبال وتفخيم ، وأنعم على ساير الجاوشية
والخدم والنوبتجية ، وسلخوا وانصرفوا بغاية الترقى والأنعام ، وبلوغ المرام وكان
جلوسه في الديوان العالى . بالعز المتالى والسعد المتوالى ، يوم السبت المبارك
حادى عشر من الشهر المذبور^(١) ، زاده الله تعالى عزاء وإجلالا وسعادة وعظمة
وإقبالا ، وبلغه أعلا مراتب الرضا حتى يقول جميع العالم هكذا هكذا ،
وإلا فلان ، فأخذ أولا فى زيارة الأولياء والصالحين والعلماء العاملين ، بالقرافتين
المنيفتين ، وما بهما من الأولياء والشهداء ، فتوجه إلى مقام سيدنا ومولانا إمام
الأيمة وناصر السنة . من مصر به محروسة محمية ، صاحب العلم النفيس ، الإمام
الأعظم ، والمقام الأنجم الإمام محمد بن ادريس الشافعى المطلبى ، تغمده الله
برحمته واسكنه بحبوحة جنته ، وأنعم على من بالمقام من الخدمة والمجاورين
انعاما زائدا ، ودعى الله سبحانه [٥٠] وتعالى وتوسل إليه ، ثم توجه من
عنده إلى مقام سيدنا ومولانا الإمام المجتهد المجيد العالم البارع المجيد ، ذو
الكرامات الظاهرة والأسرار الباهرة ، والأنفاس الطاهرة ، الترياق المجرب ،
مولانا الليث بن سعد الفهمى القلقشندى المصرى ، نفع الله بعلومهما ومددهما
كافة المسلمين بجاه سيد المرسلين ، ثم منه إلى الصحابى الجليل ، والغوث النبيل
سيدى عقبة بن عامر الجهنى ، ثم إلى مقام الولى العارف بالله تعالى سيدى فارس
قطايا بالقرافة الصغرى ، وصار كلما زار مشهدا من تلك المشاهد ، أو معبدا
من المعابد يتصدق كثيرا على عاداته ، ويقرب أغناما إبتغاء للمثوبات ، واستجلابا
للدعوات الصالحات ، ولم يزل مداوما على هذا الحال ، لا يغفل عن زيارات الأوليا
والصلحا ليلا ولا نهارا ، مع النظر لأربابيعين المعدلة والأنصاف [٥١] وخلاص
المظلومين من الظالمين^(٢) وإزالة الجور والاعتساف ، وشرع فى تعمير البلاد

(١) ١٩ يونية ١٦٠٧ م

(٢) فى الأصل « وخلاص الظالمين من المظلومين » ونعتقد أنه سبق فلم من المؤلف ؛

وتأمين العباد ، وإستجلاب خواطر الحاضر والباد ، وقطع جاذرة أهل البغى والعناد ، والطغيان والفساد ، وإكرام العلماء ، والنظر إلى الفقهاء والفقراء ، وتقوية الضعفاء من الفلاحين وعود المتسحين ، وجذب قلوب كافة البرايا ، وعامة الرعايا ، حتى عمرت مصر بعد أن كانت خرابا ، وقراها يابا ، ودب فيها ماء الحياة ، بعد موتها ، وانتعشت انتعاشا قويا بعد موتها ، ورفع من المظالم المظلمة ، والخطوب الموحشة المؤلمة ما اكتسبت الدولة كالا ، وأزالت نقصا ، ورفعت عنها محنا وغصصا ، فأحسن إلى أهل الحرمين المحترمين ، وبسط في ذلك كلنا اليدين ، طلبا للمثوبات العظيمة ، من الله البر السلام ، ومزيد الاكرام والانعام وإستجلاب القلوب بالدعا بدوام دولة [٥٢] سلطان الاسلام ، ظل الله في الأنام ، الخسكار الأعظم ، والسلطان الافحم ، مولانا السلطان أحمد لزال بمجد مؤيد ، وفي الحقيقة أن مولانا الوزير محمدى الإسم ، طاهر الذات والجسم أخلاقه من أخلاق سمييه ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، المبعوث في الالف السابع من السنين وهى الدولة المحمدية القمرية ، والروضة الازهرية العالية نبي الساعة ، وصاحب الشفاعة ، وله حظ أيضا من سمييه محمد المهدي ، الذى يظهر آخر الزمان ، ويزيل الرجس والظلم والبهتان . وكان ورود حضرة مولانا إلى مصر الامينة ، وهى مية فاحياها وحصل لها الطمأنينة من إزالة جميع ماشرخناه وقدمناه في أيام الفتن ومظاهر البغى والمحن في هذا الزمان المشثوم ، وسوء أخلاق الخلايق ونياتهم وذلك ظاهر معلوم ، ولندكر نبذة عما ذكره مولانا عبد الرحمن بن طلحة البسطامى صاحب مفتاح الحضر أعلم^(١) [٥٣] (أن خير القرون قرنه صلى الله عليه وسلم قال أنس رضى الله عنه لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء ، وقد ولد صلى الله عليه وسلم في الالف السابع

(١) من هنا وحتى نهاية القوسين (.) في منتصف ص ٥٧ ، خروج عن موضوع للنفس ولذا وضعناه بين القوسين .

عام الفيل عهد كسرى أنوشروان ، فهو فاتح كتاب الوجود ، وهو الفاتح الخاتم
 وقل صلى الله عليه وسلم أنا أول من تنشق عنه الأرض ، ولذلك خص بسورة
 الحمد التي هي فاتحة كتابه من كنز تحت العرش ، ولم يسبح إلا باسمه صلى الله
 عليه وسلم أحمد ، ألا ترى أن حروف الفاتحة ، تشير إلى اسمه صلى الله عليه
 وسلم محمد ، قال عليه الصلاة والسلام لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض
 الله الله ، فالله الله لها من العدد ١٣٢ وذلك عدد اسمه عليه الصلاة والسلام محمد
 وهو أيضا عدد ١٣٢ وهذا العدد له من الحروف قلب فهو عليه الصلاة والسلام
 قلب هذا العالم ، ويخرج من [٥٤] اسمه عليه الصلاة والسلام عدد من أرسل من
 الأنبياء . وإذا ضمنت باطن عدد هذا الاسم الذي ظاهر عدده كان الخارج من
 الجنتين ، وقت ظهور خاتم الأولياء محمد المهدي فافهم افهم وقد انقضى عصر
 من الصحابة ما بين تسعين إلى مائة رضى الله تعالى عنهم وقد أخبر صلى الله عليه
 وسلم عما وقع بعده من الفتوح وعما ظهر من الفتن التي الأمسك عن الخوض
 فيها من أحسن الحسن ، وما ورد من أحاديث الملاحم وأمثالها ، وظهور الفتن
 المتداولة وأحوالها ، ولقد أخبر عن ملاحم الروم فصلت ، وعن قتال طائفة
 فقوتلت ، وفصل ذلك صاحب الجفر على المآت ، فقال المائة الأولى على
 رأسها يظهر سيف الحق ، وإمام الخلق أقامه الله تعالى ليحيى الكتاب والسنة ،
 وعمى الضلالة والبدعة إلى أن قال ، والمائة التاسعة ، وهي أم المآت في
 الشدائد ، والتي يجرى فيها ما لم يكن في العوايد ، فإن الناس كانوا في الزمان
 الخالي ، ومامر من الأيام والليالي ، منتظرون هذا القرن التاسع ، وذكر ما فيه
 [٥٥] من الأهوال بينهم شايع حتى أن من الناس من يقول إن القيامة فيه تقوم ،
 وأنه لا يبقى إلا الحى القيوم ، ولأرباب الملاحم وأهل التيسيرات وأصحاب
 الحساب فيه مجال واسع ، وشرب جامع ، وقال في موضع آخر بعد هذا ، وأما
 القاف والنون والياء فلها من العدد ٣٦٠ فإذا أسقطنا منها ياء كان الباقي ٣٥٠ ،
 وذلك أعداد عيسى وعدد سيف ، وهو إشارة إلى ظهور سيف القرآن محمد

المهدى ، ونزول عيسى المسيح وعدد^(١) سلطان وهو إشارة إلى تجديد سلطنة الدولة المحمدية القمرية ، وقد ورد في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن صلحت أمتي فلها يوم وهو ألب سنة ، وباخنا أن عيسى عليه السلام يصلي بالناس صلاة العصر ، وهي إشارة إلى أنه ينزل على ثلاثة أرباع اليوم فإذا أخرجت من الألف ٨٤٢ كان الباقي في خمس الربع سبعة فهي مدة لبث الدجال الأعور في الأرض وينزل عيسى عليه السلام [٥٦] على ثلاثة أرباع اليوم ، ويرفع القرآن عند تمام حروفه وذلك على دائرة ٩٥٢ سنين ، ويبقى في الألف ٩٧ سنة فيها شرار الناس ، وعليهم تقوم الساعة حتى تباع أولاد العلوج بسويقة مازن ولا تقوم الساعة حتى تحسر الفرات عن جبل من ذهب ولا تقوم الساعة حتى يجتمع صايب الاسلام وصليب الكفر برج داود ولا تقوم الساعة حتى يحتاج الاختيار إلى الاشرار^(٢) ، ولا تقوم الساعة حتى تكثر الفتن والخوارج ، والأمور العوارج ، قال عايه الصلاة يأتي على أمتي زمان يأكل القضاة من الخصمين ، ولا تقوم الساعة حتى تأكل المرأة من فرج ابنتها ، ولا تقوم الساعة حتى يكون شيخهم شاطر ، وشابهم فاجر ، وأمينهم جابر ، ووزيرهم تاجر ، قال عليه الصلاة والسلام إذا أتى على أمتي مائة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزلة والغربة والترهب على رموس الجبال ، وفي تاريخ ٨٥٥ ترفع الشريعة ، وتسرق الوديعه ، وقال عايه الصلاة والسلام يكون في آخر الزمان [٥٧] عباد جهال ، وعلماء فساق ، سنة ثلاث يظهر الخراب ، وفي هذه الاشارة الشافيه ، والعبارة الكافية ، إشارة إلى الحى البساط ، ورفع السباط وتحريك الزامر ، وشق الاثواب ، وطرق الابواب ، وسفك الدماء ، وهتك النساء ، وشقاق العلماء وخلف الامراء ، وقيام السيف في الشتاء والصيف ، وسوء الحال ورفض المال ، وكل ما ترى من العبر ، لنفوذ القضاء والقدر) ، ولولا أن الله سبحانه

(١) في الأصل حرف «على» وعليه شطب ،

(٢) في الأصل « يحتاج الأشرار إلى الاختيار » ونعتقد أنه سبق قام من المؤلف ،

وتعالى أغاث عباده بهذا الوزير الماشى على سنن سميّه صلى الله عليه وسلم
البشير النذير ، ومحمد المهدي الآتي في الزمن الأخير ، لخربت البلاد
وهلكت العباد ، وصرت لا ترى إلا فيافي أوقيعان ، وبوادي وغيلان
ثم أنه نظر في أمر القلعة المنصورة وجدد بناها وعمرها عمارة حسنة إلى أن
صارت نزهة للناظرين ، ولم يزل على ما هو عليه من مزيد الإناعام والنظر بما فيه
المعدلة ، ولما أن آن أوان توزيع الأقاليم المصرية ، على العمال والملازمين ،
فوزع كل إقليم على ما يليق به من غير خدمة وكان من جملة [٥٨] من أنعم
عليه من الكشاف المعتمدين شخص من أكابر الجند الملتزمين يقال الأمير حسن
الخلوجي فأعطاه ولاية الغريّة وأخاع عليه قفطاناً عظيماً ، فتوجه الأمير حسن
المشار إليه وهو في غاية السرور ، بعد ذلك إلى بولاق لبعض مصالحه وجلس
بموضع مشهور هناك على شاطئ البحر ، يقال له سبيل البردان ، فصادفه طايفة
من الجند المذكور ، واللوند المفسدين ، وقصدوه بسيوفهم وهي مسحوبة
بأيديهم ، فهرب منهم ، وطاع إلى بعض السفن روماً للنجاة فأدركوه ، وضربوه
بالسيوف ، وسقط إلى البحر ميتاً ، وأخرج بعد ذلك ، وعرض أمره على حضرة
مولانا الوزير المشار إلى حضرته فاستشاط غضباً وغيظاً وتأججت نار حميته
وزادت لهباً ، وبرز أمره الشريف بإجهار النداء لجميع العسكر المنصور بمن يأكل
العلوفة السلطانية من عثمانى إلى ألف أن يجتمعوا في قرة ميدان ، ولم يتخلف
أحداً ، فامتلأ الأمر [٥٩] ذلك واجتمعوا أسفل القلعة المنصورة ، وأقام
سنجقاً سلطانياً ، ونادى من كان طائعاً لله سبحانه وتعالى ولرسوله وللسلطنة
الشريفة الخنكارية ، فایقف تحت هذا اللواء ، ومن خالف وخان وسعى في
الأرض بالفساد حاربناه وقتلناه ، فحضر كل أمرأه الألوية الشريفة من المستحفظان
بمصر المنيفة . بمن يأكل العلوفة وأجابوا بمزيد السمع والطاعة ، ووقفوا تحت
السنجق السلطاني وقالوا نحن عبيد مولانا السلطان ، وممثلون لأوامره الشريفة ،
وأمر مولانا الوزير صاحب السعادة ، وأن جميع ما يأمرنا به فعلناه وكل من
تخلف منا قاتلناه ، فلما كان الأمر على ذلك أظهر لهم حضرة مولانا الوزير خط

همايون المتقدم ذكره المتضمن لرفع الطالبة ، وأن كل من طلبها ، أو تسبب في أخذها أو تحصل عليها بوجه من الوجوه يكون ساقطاً مخرجاً من ديوان الجند بعد التحقير الشديد والتسكيل به [٦٠] فذكر لهم حضرة الوزير أن من بعض البلوكات عسكرياً أشقيا يصدر منهم مثل هذا الفساد في كل حين ، والتجربى على قتل الأمراء وأرباب الدولة والأكابر جرأة وعدم مبالاة ، فإن كنتم تريدون الصفح عنكم فيما صدر منكم سابقاً ، فتقبضون عليهم وتسلبوهم إلينا لنخرج من حقهم فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقبضوا على من كان معروفاً منهم بذلك فأسلموهم لحضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى ، ثم حلفوا بعد ذلك يمينا معظما على كلمة واحدة ، أشهدوا على أنفسهم أنهم من اليوم لا يمشون في أمر شيء يقال له الطالبة ، ولا يذكرونها على لسانهم ، ولا يقرون عليها ، وخرجوا على ذلك وصاروا كل من عرفوا ذلك منه يكبدون عليه ويحضرونه لحضرة مولانا صاحب الدولة وسكنت الفتنة بمقتضى ذلك ، واطمأنت العباد ، وحصل للفلاحين والرعايا غاية الاتعاش ، واتسعوا غاية الاتساع [٦١] بعد أن كان الواحد من الفلاحين لا يملك ريش دجاجة ، وصار عندهم الأوز والدجاج والأغنام والشيء الزايد ، والبركات المتزايدة آمنون مطمئنون ، في ظل الدولة الشريفة . وصار الكبير لا يقدر أن يُجبر على الصغير ، ولا يأخذ أحد من الباعة شيئاً إلا بأزيد من ثمنه ، وصار الذهب والغنم في المرتبة سواء ، ثم بعد ذلك ورد أمر أخنكاريّاً بأن يجهز من العسكر المنصور نحو ألف فارس لحضرة مولانا السردار بالديار الشامية لأجل دفع الطائفة الجلالية ، فأجابوا كلهم بالطاعة وأذعنوا للأمر ، وجهز مولانا صاحب السعادة العسكر المطلوب على أتم الوجوه ، ولم يصدر من أحدهم مخالفة ولا إيذاً لمخلوق ، فتوجهوا صحبة سردارهم المعين من جانب مولانا الوزير أدام الله تعالى نصرته ، هو الجانب العالى حاوى المفاخر والمعالي الأمير قانصوه مير اللواء الشريف السلطاني بالديار المصرية ، وتوجه بالعساكر المنصورة إلى قتال الطائفة [٦٢] الخوارج الجلالية فسار هو وهم يقطعون الفيافي والمراحل بالبشر والسرور إلى أن قدموا المملكة الشامية ، واجتمعوا بحضرة الوزير

الأعظم ، والدستور الأجد الأكرم ، حضرة مراد باشا المفخم المعظم ، وهو السردار الأعظم ، وصار في خدمته بمامعه من العساكر المنصورة المصرية ، وكذلك جميع مامعه من العساكر إلى أن التقوا بمكان يقال له «كوكسون يايلاسى»^(١) ووقع بينهم القتال، والحرب والصيال، وتجاولا وتجالداً ، وتقابلا وتقاتلا ، فنصر الله تعالى الإسلام ، وأعلى كلمة الإيمان ، وأخذ الخوارج اليام ، ببركة النبي عليه السلام ، وقتل منهم طائفة كبيرة لاتعد ولا تحصى ، ولا تحدد ولا تستقصى ، وولوا على أعقابهم مدبرين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين ، وأظهرت العساكر المصرية اليد البيضاء في ذلك وأبلوا بلاء حسناً وأظهروا [٦٣] شجاعة عظيمة عرفوا بها ، وأفرغ حضرة الوزير الأعظم على الأمير قانصوه الخلع السنية والترقيات البية ، هو ومن معه من العسكر كل منهم على حسب مرتبته وبما يابق به من المناسب المصرية ، وأذن بعد الأنعام للأمير قانصوه ومن معه بالعود إلى منازلهم ، ومحل أوطانهم ، فعادوا سالمين غانمين ، فرحين مستبشرين ، كأنهم لم يقاسوا تعباً ، ولم يعانوا وصباً ولا نصباً ، ولا مشقة ولا خطراً ، ولا ألماً ولا سقراً ، وكان دخول السردار إلى مصر المحروسة يوماً مشهوداً ، شهدته الكبير والصغير ، وجميع أكابر مصر وأمرائها وعلمائها وفضلائها ، وسائر الأمراء المستحفظين والنوبتجية ، والسنجق الشريف مفروده على رأسه ، والنوبة السلطانية تدق بين يديه ، وكان دخوله مصر المحمية في يوم «الجمعة المبارك»^(٢) وقد طامع إلى الديوان الأعلا في غاية العظمة ، وواجه حضرة مولانا صاحب الدولة [٦٤] والسعادة ، فتلقيه بغاية الإقبال والعظمة

(١) في الأصل « بياض المخطوطة » وأكملت اسم المكان من مخطوطة « كشف الكربة في رفع الطلبة » وجه ورقة ٤٣ ، من الجزء المحذوف من الطبعة المشار إليها سابقاً .

(٢) في الأصل « بياض المخطوطة » والتكلمة من مخطوطة « كشف الكربة في رفع الطلبة » ظهر ورقة ٤٣ ، من الجزء المحذوف ، من الطبعة المشار إليها .

والإجلال ، وشكر صنيعة وسعيه وكذلك جميع من معه من العساكر السلطانية
وشرف معاظفة بالخلع السنية الفاخرة ، وأنعم عليه بالنعم الجزيلة الوافرة ،
وكذلك كتحداجا ووشيتة ومن كان مشهوراً بالفروسية والشجاعة وانبطوا
غاية الانبساط ، وحصلوا مرادهم وصاروا في ألد ما يكون من النشاط ، وأنعم
عليهم بالعود إلى بلادهم التي كانوا بها سابقاً ، كل ذلك وهم في غاية الطاعة
والإذعان ، والخضوع والاستكان غير أن طائفة من الأشقياء كانوا قديماً في
أسنانهم طعم حلاوة «الطلبية» فصاروا يصابرون عليها ، ويحتالون على الكشاف في
أخذها ، ويُغري بعضهم بعضاً في القيام بطلبها ، فلم يطاوعهم أحد من الكشاف
على ذلك ، فقدر الله سبحانه وتعالى بعد مدة يسيرة أن شخصاً من الجند الذين
عادوا من السفر يدعى ()^(١) أحضر حكماً من حضرة السردار الأعظم
بمنصب [٦٥] دوادارية الغربية ، وأنعم عليه بذلك من قبل مولانا صاحب
السعادة زيد إقباله ، وأعطاه بذلك قفطاناً ، وكتب له حكماً شريفاً خطاباً لمولانا
قاضى القضاة إسماعيل أفندي الحاكم الشرعى بالغربية ، والكاشف بها هو نحر
الأكابر الأمير محمد الحلوجي بالتمكين فامثلاً ذلك ولبس الخاتمة الشريفة
ونودي له بذلك بالمحلة الكبرى ، وهو لابس القفطان على العادة ، فر على طائفة
من الجند وهم مجتمعون جالسون تجاه بيوت القهوة بوسط السوق ، فلما أن رأوه
وعاينوه وهو لابس القفطان فرعوا عليه جميعاً بأسامحتهم وأزادوا قتله وتكلموا
بكلام غير لائق ، وقالوا له إن لبست هذا القفطان ، أو تصرف في الدوادارية
قتلناك فمن خوفة على نفسه قلع القفطان ، وتوجه إلى المحكمة الشريفة ، والكاشف
مقيم بها فالتقاء إليهما ، وأعليهما بما وقع ، وإذا بطائفة من الجند هجموا على مجلس
الحكم الشريف ، وحصل منهم ما لا خير فيه ، من أنواع السب في حق الكاشف ،

(١) بياض في المخطوطة ولم يذكر اسم هذا الشخص ، ولم يذكره كذلك ابن أبي
السرور في كشف الكربة ، بل ترك مكان الاسم بياضاً في كلتا المخطوطتين ، انظر : كشف
الكربة في رفع الطلبة ، ص ٣٤٧ .

وقالوا [٦٦] من جملة ذلك إيش هذا الذى عملته داوداراً هذا ما يستحق أن يكون مشدداً فى أقل النواحي ، فقال لهم الكاشف أنا ما فعلت هذا إلا امثالاً لحضرة مولانا الوزير الذى مكنته فانه جهز أمراً مرتباً على إعطاء السردار ، ولا يمكن الإمتناع ، فحصل منهم أيضاً قلة أدب زائدة جداً ثانياً ، وتم الأمر على المنع ، وقد كانت هذه الفعلة داعية لقيامهم ، وكتابتهم لبعضهم بعضاً من من طائفة الإسماعيلية البلوكات الثلاث لسائر أقاليم مصر الاثنى عشر^(١) ، وأن يجتمع سائر الجند المكتوبين بهم يوم الجمعة المباركة فاجتمعوا كلهم فى أوائل شهر القعدة الحرام سنة سبع عشرة وألف^(٢) ، بمقام مولانا القطب الربانى والعارف الصمدانى الشيخ أحمد البدوى بطندتا بالغربية نفع الله تعالى به ، فاجتمع هناك سائر الجند من الأقاليم المذكورة ، وتحالفوا داخل المقام وتعاهدوا وتعاقدوا ، وأوثقوا الإيمان الذى ماعندها إيمان ، على أمور [٦٧] يفعلونها وأنهم فى ذلك على قلب رجل واحد فى الحالات الست ، وأن لا يتخلل أحد منهم عن الآخر موتاً ولا حياة ، ومن جملة ما تعاقدوا عليه طالب بعض جماعة من أكابر الدولة ليقتلونهم ، وأخذ الطالبة التى هى معظم الفتنة . وتواردت أخبارهم بذلك من الثقة^(٣) وغيرهم واشتهر ذلك عنهم وذاع ، وملاً الأسماع والبقاع ، ومن أعجب ما أشيع أن جند إقليم الشرقية هجموا على الكاشف بها هو نجر الأمراء)

(١) كانت مصر آنذاك مقسمة إلى الأقاليم التالية :

الشرقية ، المنوفية ، الغربية ، القليوبية ، المنصورة ، جيزة ، أطفيح ، فيوم ، البهنسا ، أشمونين ، منفوط ، جرجا .

(٢) فبراير ١٦٩٠ .

(٣) فى كشف الكربة «البغاة» ، والصحيح ما ذكره المؤلف . انظر كشف الكربة ،

ص ٣٤٩ .

(٤) يباين فى الأصل ، ويبدو أن الأمر التمس على المؤلف أنه كاشف إقليم الشرقية أم المنوفية ، وترك الأمر لتحقيقه ولكنه لم يفعل ذلك ، وقد ذكر ابن أبى السرور أنه =

في منزله وطلبوا منه كتابة وصولات بالطلبة . وقالوا له نحن كنا في السفر السلطاني : وما كان معنا نفذ بأجمعه ، وقد بعنا جميع ما عندنا في السفر من العدد والآلة ، ولم يبق بيدنا شيء ، وركبتنا الديون ، ونحن لنا ثمانية عشرة خدمة ، ولا بد أن تطابقها لنا فامهلهم ثلاثة أيام ، وأعرض هذه الواقعة على حضرة مولانا الوزير بالتفصيل ، والتمس الجواب بالاذن في ذلك أو عدمه على يد كتخابه المقيم بمصر ، فلما أطلع مولانا صاحب [٦٨] السعادة على العرض غضب غضباً شديداً ، وصمم التصميم السكلى على المنع ، وأن لا جواب في ذلك ، فلما تبين لهم حقيقة المنع اجتمعوا بامرائهم وبجميع مامعهم من اللفيف والأتباع ، وطلبوا أطلابهم وأخذوا معهم من وجدوه في طريقهم من داعية الفساد من الجماعة البطالة الذين ليس لهم علوة ، وما انضم إليهم من أهالي الفساد ، وكتبوا مكتوباً لحضرة مولانا صاحب الدولة والسعادة بما يطلبونه ويرومونه : هذا وقد أقاموا أربع سناجق ورتبوا جموعهم ونشروا أعلامهم ، وجعلوا لهم كاتباً لضبط أسمائهم وعملوا يقلبه وتجمعوا بقضهم وقضيضهم بالأت الحرب والقتال ، والعدة الكاملة والآهة الشاملة ، وصاروا لا يملكون على قرية إلا وأخربوها ودمروها من نهب جميع ما يجدونه من الغلال والسوايم والعليق والأغنام ، وأنواع المطاعم . ودهكوا الزراعات بحوافر خيولهم [٦٩] خصوصاً بما يتعلق بالأمنا ، فانهم أكبر أعدائهم ، فانهم كانوا يقولون بإباحة ما يأخذونه منهم ، وفعلوا أفعالا لا يفعلها من في قابه رقة ولاشفقة على المسلمين ، وبدت منهم أمور منكرة جداً ، فلما رأى ألا مناء ذلك على ما قيل ، طاعوا إلى الديوان العالى ، وشكوا هذه الفعال لحضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى وقالوا نحن فينا كفاءة لحربهم ، هذا والطايفة المذكورة مستمرون على فسادهم وعنادهم ونهبهم جميع ما ظفروا

الكاشف إقليم المنوفية ، حيث كتب في مؤلفه « وأعجب ما حكى أن بعض الجند المقيمين بالمنوفية ، هجموا على الكاشف بالإقليم ، هو فخر الأكبر سليمان ابن درغوث ، وطلبوا منه كتابة وصولات الطلبة » ، ص ٣٤٩ .

به ، ومن جملة العكوسات أنهم نزلوا بمكان يقال له منى جعفر^(١) بالشرقية ببايس فأقاموا به ، وهو بالقرب من مكان يقال له ، تل اليهودية وصاروا في كل يوم يمر في زيادة من داعية الفساد ، فلما أن تقرر خروجهم ، وظهر واتضح لمولانا الوزير نصره الله ، فقد أمر مناديا ينادى لجميع العساكر المصرية ، المطيعين للحضرات الخنكارية من أمراء [٧٠] الألوية الشريفة والجركسية ، والمتفرقة ، والجاوشية ، وما وجد من الاسباهية المقيمين بالديار المصرية ، والينكجيرية والعزب ، وغير ذلك ممن يأكل العلوفات السلطانية من عثمانى إلى أكثر ، وأحضر سائر الأمراء من الأقاليم أيضاً فحضروا جميعاً بآلات حربهم ، ومن يعتمد عليهم في حسن الرأي وأصابته ، ونصب ديوانا طنانا في خصوص ذلك وذكر لهم أمر العساكر الذين خرجوا عن الطاعة ، وطلبوا القتال ، واستشارهم في ذلك ، وأراهم صورة نقش ضميره في مرآة مقاله ، فإن القائل يقول :

أقرن برأيك رأى غيرك واستشر

فالحق لا يخفى على رأيين

المرء مرآة تراه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

ولابأس بالاستشارة من ذوى الرأي والمثوبة والحكمة لقوله سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، « وشاورهم في الأمر » ، وقال سبحانه وتعالى مخاطباً له ، « ولاتك في ضيق مما يمكرون »^(٢) . (وذلك لما ألب الطلوب عاياه ، وقصدوه [٧١] بالمكر والمكروه ، كما أخبر الله تعالى بقوله ، ولاتك في ضيق مما يمكرون ، وكان رؤساء قريش ، اجتمعوا في دار الندوة للتشاور في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فأتاهم إبليس لعنه الله تعالى ، في صورة شيخ أعرابي ،

(١) تعرف حالياً باسم السلمانية ، من لرى مركز شين القناطر ، محافظة القليوبية .

(٢) من هنا وحتى نهاية القوسين (. .) في منتصف س ٧٣ خروج عن

الموضوع .

فأرادوا إخراجهم عنهم ، فقال لهم إني رجل من أهل نجد . ولا غنى عليكم مني ولعالمكم لاتعدمون من محضرى خيرا ، فأخذوا في تشاورهم ، فقال عتبة أرى أن تخرجوه من بين أظهركم . فان ظفر كان ظفره حطا لكم . وان قتل كنتم قد كفيتم أمر دمه ، فقال ابليس ما هذا برأى . أما سمعتم حلاوة منطقه وأخذه بالقلوب . فلا تأمنوا أن يقع في حى من أحياء العرب فيستفسد أهواءهم ويسيرهم اليكم حتى يفرق جماعتكم . فقال آخر منهم أن يوثق فالحبس حتى يأتية أجله . وهو في حبسه فقال إبليس لعنة الله عليه . ليس هذا رأى . أما علمتم أن له أهل بيت وأتباع . لا يرضون منكم بهذا فيقع الحرب [٧٢] بينكم وبين أمركم ثم قد تكون الدائرة عليكم فقال أبو جهل أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قبائل قريش شايبا جادا . ونعطى كل منهم سيفاً ويأتونه في مضجعه . فيضربونه ضربة رجل واحد ، فلا يقدر أن يهربوا بدمه جميع القبائل إذا افترق دمه بينها ، فقال ابليس لقد أصاب ، ففرقوا على رأى أبى جهل وأوحى الله تعالى إلى رسوله عليه الصلاة والسلام يعرفه مكرهم ويأمره بالهجرة إلى طيبة ، وجاء الذين تخيروهم من القبائل - لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم - إلى منزله من أول الليل ، وأوصى النبي صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه أن يابس برده الأخضر وينام على فراشه وأعلمه أن لا يصله أحد من قريش بمكرهه ، فالتحف على كرم الله وجهه بردة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونام على فراشه ، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من بيته : والقوم على الباب . فقرأ أوائل سورة يس والقرآن الحكيم . وأخذ كفاً من التراب [٧٣] وجعل يذرية على رؤوس القوم وهم لا يرونه وانصرف صلى الله عليه وسلم متوجهاً نحو الغار ، وجعل المشركون ينظرون إلى على كرم الله وجهه في مضجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلمه برده الأخضر فيقولون هذا محمد نائم ولا يطيعون الدخول حتى أصبحوا وقام على رضى الله عنه ، فنظروا إليه فأتوه وقالوا له أين محمد فقال لا أدري أمرتموه بالخروج فخرج فخبس في المسجد ساعة ثم تركوه ، عوداً إلى ما نحن فيه ، فمنهم من أشار بأن الرأى المتين ، والمنهج المبين

وتطيب نفوسهم بما يطلبونه إلى أن تطفى هذه النائرة، فإن الأمر ربما يتسع، ولا يتجمع، ويعسر الإلتيام. ويترتب على ذلك مراتب صعبة المرام. من هلاك الأنفس والأموال، ودهك الرعايا والرجال، وإذا توجه كل منهم إلى محله، فيؤخذ المفسد بالتدبير، ولا ينبئك مثل خبير، فلم يقبل هذه الإشارة ولا التفت إلى هذه العبارة، ومنهم من قال [٧٤] بل تقاتلهم إلى أن يحكم الله بيننا وبينهم. وكان من تكلم بهذا الكلام. ونطق بهذا المرام. الناصح للسلطنة الشريفة. البازل مهيجته ونفسه في مرضاتها المنيفة حضرة نحر الأما وكنا الكبرا، زين الدين صالح، أمير اللواء الشريف، حفظه الله تعالى وأعانه على فعل الخيرات، ودفع المنكرات. فإنه قال من المحال أن نرجع عنهم إلا بالقتال، إلى أن ينفذ القضاء والقدر، فأجابه إلى هذا الرأي جميع الأمراء والعساكر المشار إليهم، وأقام حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى نحر الامرا الكرام، عمدة الكبرا الفخام، الأمير مصطفى مير اللواء الشريف السلطاني، سردارا على العساكر الشريفة لما علم أنه مستحق لذلك وفيه كفاءة تامة، وعين معه شدة لعضده، ودفعاً لمالاته حضرة مولانا نحر الأماجد والأكابر، حاوى المحامد والمفاخر، الجناب العالي، والكوكب الوضاح في أفق المعالي، الأمير مصطفى كتخدا الطائفة الجاوشية بالديار المصرية، وسائر الأمناء والملتزمين وانهقد [٧٥] الإجماع على ذلك وبرز أمره الشريف بيورلدى شريف للطائفة المذكورة على يد مولانا نحر الفضلا عمدة النبلا، محمد أفندى الشهير بالتى يرمق زيدت فضايله، وأغاة التوفى كجيان، متضمنا للوعظ والنصائح لهذه الطائفة، ويحذرهم من غضب الله عليهم، وغضب السلطان، وأن يقاتلوا عما هو في زعمهم من خيالاتهم الفاسدة الذين لا يقدر على، ولا يورثهم ذلك إلا الخذلان والبوار، وبعد الدار، وانهم يرجعون ويتوبون إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يرجعون لها صدر منهم، ويدخلون في عموم العسكر بنفس رضية، ونية مرضية

فان فعلوا ذلك ساعناهم ، وعفونا عنهم ، مع عدم الانتقام ، والتوجه الى بلادهم
 ومرتعاتهم الزائدة ، ويمتثال هذا الكلام ، فتوجهوا اليهم وقرأ آعاهم البيورلدى
 الشريف، وطرز الشيخ المشار إليه نصايح وعظات أوردها عليهم^(١)، (ومعناها،
 هو أنه ليس بخاف على العاقل اللبيب ، الفطن الارب أن الاتسام بصفة
 العصيان ، والخروج عن طاعة [٧٦] سلطان الزمان من سمات الغرور ،
 وصفات كل غبي مغرور، ومخالفة أوامر سلطان البسيطة ، الذى أوامره فى
 أطباق الآفاق مخططة ، صاحب العسكر الجرار كالجراد المنتشر ، والجنود الغالبة
 والجيوش المنصورة ، التى لا تعد ولا تنحصر ، هذا وقد كنتم غارقين فى نعم
 السلطنة بألذ العيش ، وأنعم البال ، لا تشوبكم شايبة من الوبال، وكنتم كما قال الله
 تعالى «وأضرب لهم مثلاً قرية كانت آمنة مطمئة يأتيا رزقها رغداً من كل مكان
 فكفرت بأنعم الله»^(٢) ، ومثل هذه الوقايح الصادرة عنكم لا تصدر عن عاقل ،
 ولا يتجرى عليها بالاقدام أحد ولو تحصن بالعاقل ، لكن نحن نبريكم أن يقع
 منكم شئ من هذه الوقايح ويصدر عنكم مثل هذه الشنايع البشايح ، وقد قرن الله
 تعالى فى كتابه المجيد الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ، وإطاعة ولاة
 الأمور ، فقال تعالى كما لا يخفى عنكم «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا
 رسول وأولى الأمر منكم»^(٣) وأمر الشارع صلى الله عليه وسلم [٧٧] بقتل
 من خاف ربة الطاعة ، وخالف الجماعة ، فقال عليه الصلاة والسلام وأمره لاحق
 بأمر القران ، «من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جمع فاضربوه بالسيف
 كائنا من كان ، ، وحيث كان الأمر كذلك فاللايق بكم التبرى عن هذه الفتن ،
 والتصل من صدور هذه البشايح ، ما ظهر منها وما بطن ، ومن الظاهر المعلوم أن
 هذه الفضايح لم تصدر من عاقل بل من غوغاء الأشقياء ممن استغواهم الشيطان ،

(١) من هنا حتى السطر الرابع من ص ٨١ ، خروج عن موضوع النص ولذا وضناه

بين القوسين (. . .) .

(٢) سورة النحل آية ١١٢ ، وصحة الآية « وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة

مطمئة »

(٣) سورة النساء ، آية ٥٩ .

واستخفهم البغى والطغيان ، فإذا فعلتم ذلك تفوزوا بالخط الأوفر ، والخط السلطاني الأكبر ، الذى هو أعز من الكبريت الأحمر ، وإن أيتم ونأيتم وخالفتهم وعصيتهم ، فهذا ظن واهى ورأى متناه فى الغباوة غاية التناهى ، والأمر حيثئذ عظيم ، والخطب جسيم ، ولا ينبئك مثل خبير ، والله الغفور الرحيم ، وضرب لهم مثلاً أيضاً يأتى بما هم فيه لا بأس بذكره للاعتبار والعظة ، وذلك أن الخيشوان^(١) [٧٨] ملك الهياطلة لما أسر فيروز بن يزدجرد ملك فارس وأراد إطلاقه أخذ عليه عهداً^(٢) أن لا يغزوه ولا يقصده بمكرهه ، ووضع فى أقصى أرض الهياطلة صخرة وأخذ على فيروز عهداً أن لا يتجاوز تلك الصخرة ، ولما استوثق الخيشوان من فيروز بما أخذه عليه من العهد أطلقه ، فلما رجع فيروز إلى دار مملكته داخلته الحمية والألفة والعظمة وعزم على التوجه إلى الخيشوان وأطاع وزرائه على ذلك فحذروه النكث وخوفوه عاقبة البغى وذكره العهد الذى أخذها عليه الخيشوان وقالوا له لنكل عاثر راحم إلا الباغى فإن القلوب مطبقة على الشهادة بمصرعه ، وما أعطى البغى أحدا شيئاً إلا أخذ منه أضعافه وما كثر من كثره البغى ، ولا قوى من قواه الظالم ، ولا ملك من ماله الغضب ، فقال لهم إني إنما حلفت له أن لا أتجاوز تلك [٧٩] الصخرة وأنا أمر بحملها على فيل فيكون بين يدي جنودى ، لا يتجاوزها أحد منهم ، فلما رأوا وزاره أن الهوى قد وقف به على حد الرضا بهذا القول علموا انقياد عقله لشهوته ، فأمسكوا وأقسموا أن لا يراجعوه فاخرج فيروز مرازبه وهم أربعة يتبع كل مرزبان منهم خمسون^(٣) ألف مقاتل - كان كل واحد منهم حافظاً لربع مملكته وأمرهم بالتجهيز لحرب الهياطلة ففعلوا ، وسار فيروز نحو الخيشوان ، وهو يضعف عن مقاومة مرزبان من مرازبه فيروز ، وإنما كان

(١) فى الأصل « الخيشوار » والتصحيح من « كشف الكربة » لابن أبى السرور ، الجزء المحذوف من الطبعة المشار إليها ، ظهر ورقة ٥٢ .

(٢) فى الأصل « عهد » .

(٣) فى الأصل « خمسين » .

ظهره به أولاً بمكيدة ، وقد كان مؤابن قال لفيروز حين قوى عزمه على الخيشوان لا تفعل أيها الملك فان رب العالم يمهل الملوك على الجور ما لم يأخذوا في هدم أركان الشريعة ، فلا تتعرض له بسوء ، فلم يلتفت فيروز لهذه المقالة [٨٠] وركب هواه وسار قاصداً نحو الخيشوان حتى انتهى إلى تلك الصخرة التي نصبها الخيشوان لفيروز ، واستحلفه أن لا يتجاوزها فأمر فيروز بقلعها وحملها على فيل ، وأن يكون الفيل الذي يحملها بين يدي عسكر فيروز ، ونهى أن لا يتجاوز ذلك الفيل أحد من العسكر ، فلما بعد عن ذلك الموضع الذي كانت فيه الصخرة ، وعلم الخيشوان ، قصد فيروز عليه لحربه ، حمل نفسه على التثبت ، وتوكل ووكل الأمر إلى الله تعالى وسأله أن يغضب لعهوده وموآثيقه التي لم يرفعها فيروز ، ولاخاف نكثها فحصد ثغوره ، وجمع إليه جنوده ، وأعد للقاء فيروز عدته ، وأمهل حتى وطىء فيروز كثيراً من أرضه ، وتوسط بملكته ، وعاث بلاده ، وأساء على رعيته ، فنهض إليه ففاجأه ، وصدقه الجلال ، ففر فيروز منهزماً ، وتسلم ما كان في يده وقتل ، [٨١] الخيشوان رجاله وغنم أمواله ، وأمعن في طلب فيروز حتى ظفر به فقتله وأسر إبله ، وجماعته وأصحابه ، وكانت العاقبة له ، وانقلب بغى فيروز عليه ، وهذه عاقبة البغى والتعدى) ، وضرب أمثالا كثيرة من هذا المعنى ، فلم يتعظوا ولم ينزجروا ، ولم يطرق هذا الكلام أسماعهم ، وأصروا على ما هم عليه ، ولم يلتفتوا ويتعظوا بقول الله تعالى ، ومن بغى عليه لينصرنه الله ، وبقوله تعالى يا أيها الناس إنما بخيكم على أنفسكم ، وقوله سبحانه وتعالى فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى ، والبغى شيء مشثوم ، وعند الله يجتمع الخصوم ، واستمروا على المخالفة والعصيان ، والشقاق والطغيان ، فرجع المشار إليهما من عندهم ، وفاوضا^(١) حضرة مولانا صاحب الدولة والسعادة بذلك ، وكان ذلك أيضاً بعد إجهار النداء ، بأن كل من يأكل العلوفة السلطانية في قایل أو كثير يتجهز ويبيت

(١) في الأصل « وفاوض » .

عند السردار المشار إليه [٨٢] بقراميدان بألات الحرب والقتال ، فامثلوا ذلك وأحضروا لآمة حربهم ، وعدتهم وأسلحتهم وأقاموا ليلتهم تلك وهم متقلدين بأنواع السلاح ، وأصبح السردار المشار إليه صبيحة يوم الأربعاء المبارك سابع عشرة القعدة الحرام سنة ١٠١٧^(١) . ونفر الأمراء الكرام عمدة الكبرا الفخام ، الأمير يوسف بيك ميرالوا الشريف ، وأمير عربان هواره ، وأقليم دجرجا بالوجه القبلي ، وكامل أقليم الصعيد الملقب بالغطاس ، لا زال محروساً بملايكة إله الناس ، ونخري ذوى الأقيال ، والعظمة والإجلال ، الأمير قانصوه ، والأمير محمد بيك ، وصحبهم من العساكر المنصورة ما يسد عين الشمس في كبد السماء ولم يبق بمصر إلا نفل كشيخ هرم أو طفل أو نحو ذلك ، بالعاديات ضيحاً والموريات قدحا ، والبنادق والمسكاحل ، وأثاروا من دخان البارود وسنابك الخيل نقعاً صير النهار كظلمة الليل ، ما بين فارس وراجل ومبندق ونابل ، [٨٣] وذلك غير ما صحبهم من مشايخ العربان ، من ساير البلدان ، وضيقوا عليهم المطالب ، وسائر المآرب ، وأحرموهم لذيذ المطاعم والمشارب يحطم كل منهم صم الجنادل والجبال ، عددهم ما ينوف عن عدد الحصى والرمال من كل خواض للغمرات ، نهاض بالغمرات ، رواض للحاجات على صواهل ينقلن الأطواد عن صهواتها ، ويقذفن الزبد كالحمام من لهواتها ، ويكتفن طلايع النقع بكوكب غرة جبهاتها ، ويعانقن بيض الصفاح بسود ذوائب صفحاتها ، وطيور الهام تقصد من الأحداق أوكارها ، والأوتار تطلب من الفتنة الباغية تارها ، ويشعلن نارها والحديد قد سد على النبال المناقد ، والنصل تكسرت على النصل كأنهن قنafd ، فتوجهوا إلى الريدانية بعزيمة قوية ، ونفر العربان ، قاهر ذوى الطغيان ذى الأصل الأصيل الأثير ، الأمير على ابن الخبير ، قد توجه إلى ناحية بولاق وجزيرة الفيل ، [٨٤] تجاه العسكر الشريف فينهما هم مستعدون ، وللحرب متأهبون ، إذ بلغهم أن الطائفة المخذولة المأسورة ،

(١) ١٢ فبراير ١٦٠٩ م .

قد اقترفوا ثلاث فرق ، وقصدوا أن يكبسوا على العساكر المنصورة في تلك
 الليلة ، فقال الأمير يوسف أن من رأى المتين ، والقول الرصين أن يتوجه
 إلى خان البهار ، الذي هو وراء المطبخانة ليدخل فيه الضعيف والعاجز منا ، وأما
 نحن فنبيت خارج الباب ، ونجعل أظهرنا إلى الخان ، فنكون محصنين ، حتى
 لا يأتون من ظهورنا ، فقدّر الله تعالى الذي لا راد لأمره ، ولا مرد لحكمه ،
 أن في تلك الليلة ثارت رياح عظيمة ، وبرق ورعد كنفخ الصور ، وأمطار
 غزيرة دامت إلى البكور ، ورفع لحضرة مولانا الوزير أدام الله تعالى أيامه أن
 الجند الأشقياء قد تجمعت بما انضم إليهم من اللقيف ، وأرادوا الهجوم على
 المدينة ونهبها ، وقتل أكابرها [٨٥] واستباحة أموالهم ، فوعظهم ثانياً ، وحذرهم سطوة
 الخنكار أعز الله تعالى أنصاره ، وضاعف اقتداره ، فلم يمتثلوا ذلك ، ولم
 يزدادوا إلا تمرداً وعصياناً وطغياناً ، وشقاوة ، فضاق صدره لذلك وجرح
 جرحاً شديداً ، واهتم لذلك جداً ، ودعى الله سبحانه وتعالى وفوض أمره
 إليه ، وأن الأمر في ذلك كله راجع لما يقتضيه ، وقد بالغ النبي صلى الله عليه
 وسلم في التصريح به والنص عليه بقوله لعبد الله بن مسعود « ليقُلْ همك ما قدر
 يأتيك ، وما لم يقدر لم يأتك ، وأعلم أن الخلق لو جهدوا أن ينفعوك بشيء
 لم يكتبه الله عز وجل لك لم يقدرُوا على ذلك » ، « بقوله عليه الصلاة والسلام
 « ليقُلْ همك أمر بالتفويض » ، وقوله « ما قدر يأتك » ، بيان العلة ، التي من
 أجلها فوض العقلاء ، وسلموا إلى الله عز وجل ، ونحو ذلك كما روى في مسند
 مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي هريرة [٨٦] في كلام قاله له
 « فان أصابك شيء فلا تقل ، لو فعلت كذا كان كذا كذا ، ولكن قل قدر الله
 وما شاء فعل ، فان « لو » تفتح عمل الشيطان ، فدلّه على التفويض إلى الله ،
 والتسليم لأمر الله ، ونهى عن قول « لو » لما كانت تنافي التفويض إلى الله ،
 وثقتضى الاعتراض على قدرته ، والتوطى لدفع مشيئته ، قيل كان الحجاج
 ابن يوسف الثقفي إذا تعارضت أراؤه في خطب من الخطوب .

أنشد :

دعها سماوية تجري على قدر لا تفسدها برأى منك منكوس .

هذا وقد عدوا أيام الحجاج من الفتن العظام على ما ذكره إمام المحدثين ،
سلطان العلماء المجتهدين الشيخ جلال الدين بن المرحوم كمال الدين السيوطي
الشافعي في كتابه تاريخ الخلفاء ، قال قال ابن أبي حاتم في تفسيره ، حدثنا يحيى
ابن عبدك القزويني ، حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا [٨٧] المبارك بن فضالة
عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن العريان بن الهيثم عن عبد الله
ابن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ، قال ما كان منذ كانت الدنيا رأس
ماية سنة إلا كان عند رأس الماية الأولى أمر قلت كان عند رأس الماية في
هذه الملة فتنة الحجاج ، وما أدراك ما الحجاج ، وفي المائة الثانية فتنة المأمون
وحروبه مع أخيه ، حتى درست محاسن بغداد ، وباد أهلها ، ثم إقتل أخاه أشر
قتله ثم امتحانه الناس بخلق القرآن ، وهي أعظم الفتن في هذه الأمة . وأولها
بالنسبة إلى الدعا إلى البدعة ، ولم يدع خليفة قبله إلى شيء من البدع ، وفي المائة
الثالثة ، خروج القرمطي ، وناهيك به ثم فتنة المقتدر ، ولما خلع وبويع لابن
المعز ، وأعيد المقتدر ثاني يوم ، وذبح القاضي وخلقا من العلماء ، ولم يقتل
قاضي مثله في الإسلام . ثم فتنة تفرق الكلمة ، وتغلب المتغلبين على [٨٨]
البلاد واستمر ذلك إلى الآن ، ومن جملة ذلك ابتداء دولة العبيدية ، وناهيك بهم
إفساداً وكفراً وقتلاً للعلماء والصلحاء ، وفي المائة الرابعة كانت فتنة الحاكم بأمر
أبليس لا بأمر الله ، وناهيك بما فعل ، وفي المائة الخامسة أخذ الفرنج الشام وبيت
المقدس ، وفي المائة السادسة كان الغلا الذي لم يسمع بمثله منذ زمن يوسف عليه
السلام ، وكان ابتداء أمر التتار وفي المائة السابعة كانت فتنة العظمى التي أسالت من
دماء أهل الإسلام بحاراً ، وفي الثامنة كانت تمرلنك التي استصغرت بالنسبة إلى
فتنة التتار على عظمها ، قال الشيخ رحمه الله تعالى ، وأنا أسأل الله أن يقبضنا

إلى رحمته ، قبل وقوع الفتنة التاسعة ، وأنا أقول أيضاً وأسأل الله سبحانه وتعالى ، وأتوسل إليه بنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقبضنا إلى رحمته وغفرانه قبل وقوع الفتنة العاشرة ، فتأسى بذلك [٨٩] مولانا صاحب السعادة ، وقام في تلك الليلة ، فأحياها بالصلاة والقراءة والدعاء ودموعه تجري على خده ، كما أخبر عنه بعض الثقة تواضعاً وابتهالاً لله سبحانه وتعالى ، وأخذ المصحف الشريف وقبله ، وفتح له يأخذ منه فالأ مباركا ، فصادف قوله تعالى « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم »^(١) الآية ، فحصل له بذلك سروراً عظيماً ، وسرى عنه ما كان به وأخذ في إجهار النداء في تلك الليلة أنه من كان طاعياً للسلطنة الشريفة فليخرج في بقية ليلته ويبيت في الطبخانة عند العسكر الذي هو مقيم بها ، فتوجه الجمع الكبير من الجاوشية وغيرهم إلى الطبخانة ثم أثناء تلك الليلة خرج الأمير مصطفى السردار المشار إليه ، ومن معه من العساكر السلطانية وهو في موكب عظيم زائد الانبهار لا يعد ولا يحصى إلى الطبخانة المذكورة ، ظاهر القاهرة يوم الجمعة من الشهر المذكور ، وأمامه عشرة مدافع [٩٠] وضربانات كبار هائلة زائدة الاعتبار ، والعساكر محدقة به من كل جانب ، وهم غارقون في الأسلحة وآلات الحرب كما شرح ذلك ، ومعه سائر أمراء الألوية الشريفة ، وأمراء البلوكات الثلاث ، والألوية السلطانية منشورة على رؤوسهم ، والنوبة الخنكارية والطبول والزمور ، وكان يوم خروجه يوماً مشهوداً ، ولم يعهد مثله في العظمة والآية ، وجميع أهالي مصر قد ملوا الحوانيت والشوارع ، مزدحمين بعضهم على بعض لمشاهدة ذلك الجمع العظيم والعسكر الفخم ، وكل منهم مبتهل بالدعاء للحضرات الشريفة بالنصر والتأييد ، وأن الله سبحانه وتعالى يخذل هذه الطائفة ويعاملهم بالنكال الشديد ، وتوجه إلى الريدانية ، وخيم بظاهرها فلما سمع الأمير يوسف ، ومن معه من العساكر

(١) سورة التوبة ، آية ١٤ .

حسَّ صهيل الخيل وحركات العسكر وهي جانهم في بعضهم ، ظنوا أنهم قد كبسوا ، فأرموا البنادق [٩١] عليهم وهم لا يعرفونهم ، وقد حصل الرعب في قلوب الفريقين ، ولولا أن لطف الله تعالى بالمسلمين ، وبعساكر الإسلام لقتل في تلك الليلة من الطائفتين ما لا يعد كثرة ، ولكن الله تعالى سلم بسمع أصواتهم فسك كل منهم يده ، واجتمعوا في محالهم ، وتولى الحرس في تلك الليلة الأمر الصناجق التي بالريدانية إلى الصباح ، وقد نودي ثانی يوم خروج السردار أن جميع السوق والمتسبين والخبازين والزياتين ، وأرباب البضائع والقهوجية أن يتوجهوا ببضائعهم ، ويبيعوا ، على العساكر المنصور ، ويسيرون معهم حيث ساروا فامتلأوا ذلك وخرجوا بجميع بضائعهم إلى حيث العسكر المذكور ، هذا وقد ورد سائر أكابر مشايخ العربان حتى العصاة المؤمنين من حضرة الوزير ، وكان في السابق أرسل إليهم وأمنهم ، وحلفهم ، واستتبهم عما كانوا يفعلونه من سلب المسلمين ، وألبس مشايخهم [٩٢] خلعا عظيمة ، وقد ربطوا الطرقات من جهاتها الأربع ، وهم كالجراد المنتشر ، فلما رأت الطائفة الشقية هول ذلك الجمع العظيم ، وهم قد سدوا الآفاق ، وفزعوا وتحيروا وارتعبوا وارتعدوا ، وأخذوا في الحيرة والإنهار ، وعميت منهم الأبصار ، وانحل برمهم ، وهبطت^(١) قواهم ، وحاروا وخاروا ، كما تخور الأثوار ، وصاروا ولهاذين حيارى ، دهشانيين سكارى ، وتيقنوا أنهم مأخذون لا محالة ، وإنما يشجعون أنفسهم ويتعللون بالمحالة ، فخيب الله سبحانه وتعالى ظنهم وشتت جمعهم ، والعسكر المنصور يحاولهم ويحاولهم ، وقلت :

ولازموهم ثم طافوا بهم	وأحدقوا كالسيف لا كالسوار
وانهزم الأعداء إذا بصروا	بحر وغى تغرق فيه البحار
وعذرهم إذ هربوا واضح	هل يثبت الليل أمام [٩٣] النهار

(١) في الأصل « هبط » .

وقلت :

ولما أبى الأعداء إلا تمرداً أبى الله إلا أن يكون لنا النصر
فكم زجرتهم من سلطان^(١) مواعظ فما نفع الوعظ المنية والزجر
أبى الله إلا أن يكونوا أذلة ففروا وشتان المذلة والفر

وفي أثنائه توجه حضرة السردار إلى أن نزل في ساحة بركة الحاج الشريف
تجاه الطائفة المخدولة ، وكانوا قد انتقلوا من مكانهم الأول ونزلوا خلف البركة
من ذلك الجانب ، وقد تحصن كل من الطائفتين والأشقياء على ما هم عليه ، من
الرعب والخوف ، فأرسل إليهم السردار يقول لهم إن البلاء واقع بكم لا محالة
وقد رأيتم ما رأيتم من هول العسكر وقوتهم ، ولو كنتم أمثالهم أو أمثال أمثالهم
لم تقاوموهم [٩٣] لأنكم باغون خائنون ، ناكثون العهود والمواثيق ولعاسكم
أن تسمعوا وتطيعوا ، وتنزجروا وتتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى وتقلعوا عما
أنتم عليه ، فاتى والله ناصح لكم ، وأنتم شرذمة قليلة ضعيفة بالنسبة إلى قوتنا
وكثرتنا وتعرفوا أيضاً عاقبة الظلم والبغض ، وما ضربناه لكم من الأمثال ، فلما
سمعوا ذلك أجابوا تشجعاً لا شجاعة ، إن أردتم رجوعنا عن قتالكم ومحاربتكم
فيكون ذلك يا حدى شيئين ، إما بالخدم القديمة وهى الثمانية عشر خدمة المذكورة ،
أو القتال بيننا وبينكم ، وأبى السردار ، وأقدم بمن معه من العساكر إلى قتالهم
والتنكيل بهم ، بل وقتل منهم طائفة ، فلما نظروا إلى تلك العساكر المصرية
وما معهم من العدد والأسلحة والبندق والنار ، ونظروا إلى تلك المدافع الكبار
المقدمة نحوهم ، وإلى كثرة العربان ، وقد صاروا بينهم كالكرة فى البسيطة ،
وأنهم مأخوذون لا محالة حاروا [٩٥] ودهشوا ، وصار البندق يتساقط من
أيديهم من الدهش ، واصفرت ألوانهم واحتالت أكوانهم ورغمت أنوفهم ،

(١) فى الأصل « سلطانا » .

وفأت صفوفهم ، وقرعوا باب الصلح وتعاقوا بأسبابه ، وأرسلوا إلى حضرة
السردار يطالبون منه أن يأخذ لهم من حضرة مولانا الوزير المعظم محمد باشا ،
أعطاه الله تعالى من العظمة والإقبال ما شأنه الأمان ، وأنهم تائبون إلى الله سبحانه
وتعالى من جميع ما صدر منهم ، وأن يشفع لهم عنده في الصفح عنهم ، ويعاملهم
بما فيه العفو عن جرائمهم ، وأن تذهب كل طائفة منهم إلى محلها ، فأجاب
سؤالهم وجهر مولانا السردار المشار إليه نحر الأكاير الأمير مصطفى كتحدا
جاوشيان المشار إليه ، لحضرة مولانا الوزير لعرض ما طلبوه وسألوا فيه ، كان
جوابه الشريف هيات ، هيات ، كان هذا من الأول ، وأما الآن فلا يمكن ذلك
إلا بشرط أن يقبضوا على جميع من كان سبياً لهذه الفتنة ويحضروهم [٩٩]
إلى الديوان الشريف ، وإلا فما هناك إلا السيف ، فعاد الكتحدا من ليلته وأخبر
حضرة السردار بذلك ، فلما دعا داعي الصباح ونادى المنادى حتى على الفلاح ،
وجرد الفجر صارمه الأبيض ، ولبس الصبح المشرق نوره المبيض ، وانهمز
جيش الظلام وانتشر في بياض الصبح الرايات والأعلام ، وكبت كمة المصاع ،
وحماة الصراع ، ورماة الحندق من كل سرحان لا ينظر إلا من جلد أرقم ،
وشيطان لا يقتحم من نيران الحرب إلا جهنم ، وهم ثايرون للهباء ، غارقون في
دأماء الدماء ، مثابرون على اللقاء ، وبرزوا بمامعهم من المدافع والبنادق ، وأكثروا
من رفع الألوية والبوارق ، وزلزلوا الأرض والرمال ، ونسفوا التلال
والجبال ، وأشعلوا نار الحرب وأقدموا على الطعن والضرب بما يصم الأذان
بأصوات إذا أطلقت كالصواعق تهلك بالصعق وكصيب من السماء فيه ظلمات
ورعد [٩٧] ذلك فلما استوثقوا بالأمان صاروا يأتون أفواجا ، خاضعون
ذليلون يقبلون أقدام مولانا السردار ، ومن معه من الأمراء ذوي الاقتدار
وقد صار كل واحد منهم يتوجه إلى بلوكة ويقف تحت سنجقه ، وهو في
في غاية الذلة والخذلان ، وقد ضحك عليهم الشيطان حتى أحلهم محل البوار

والبهتان هذا وقد ظفر بعض العسكر السلطاني بطائفة من العزيمية (١) فقطعوا
 رؤوسهم ووضعوا السيوف في رقابهم ، إلى أن لم يبق منهم أحد ، سوى ما تسحب
 منهم طريداً شريداً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وتوجه الأمير السردار بمن
 معه من العساكر المنصورة ، إلى الخانقاه السرياقوسية وجمع من هناك رؤوس
 العسكر ، وقد اطمأن المسلمون بذلك وسروا سروراً عظيماً ، وآمنت الرعايا
 ونامت البرايا ، في أكناف ظلال السلطنة الشريفة ، ودعوا بدوام دولتها المنيفة
 لازالت ظلال عظمتها في سائر الأقطار سايفة وريفة ، وجهر بنجر ذلك [٩٨]
 كله إلى حضرة مولانا الوزير المشير لذاته وهبه الله تعالى العزة والاقبال ،
 والهيبة والعظمة والاجلال ، فسر بذلك سروراً كبيراً ، وحمد الله سبحانه وتعالى
 وشكره شكراً غزيراً ، وازداد فرحاً وغبطة وسروراً وانبساطاً وحبوراً ،
 وأنعم بالخلع الفاخرة على أصحاب البشائر بذلك ، وكذلك على الأمير الكبير
 علي بن الخير ، والأمير محمد جلبي بك وكل من حضر إليه مبشراً بحيث وصلت
 الخلع الشريفة إلى نين وعشرين خلعة فاخرة في يوم واحد خلا بقية الأيام ،
 وقدمت العساكر السلطانية الخنكارية والنصر يقدمهم ، والعز والسعد يخدمهم
 ودخل نفر الأمراء الكرام الأمير مصطفى كتحداً المشار إليه ، بعد ذلك ، وهو
 في غاية العزة والعظمة وبين يديه ثلاثة رؤوس وتسعة أنفار مثقلون بالحديد
 يساقون بين يديه في وقت الضحى من ذلك اليوم ، ثم وصل حضرة السردار ،
 في وقت العصر من ذلك اليوم والرؤوس أمامه والبلوكات موضوعون في الحديد
 مشاة [٩٩] أقدامه ، وهم بالحالة المذكورة في غاية الذلة والاهانة والحقارة والمهانة
 وكان يوم دخوله يوماً شهوداً ، وأهالي مصر من كبير وصغير ، وغنى وفقير ،
 كل ذلك مسروراً ومحبوراً ، رافعين أصواتهم بالدعا وحسن الثناء ، وطلع إلى
 القلعة الشريفة وأمراء الألوية بين يديه ، والسنجق الشريف مظلل عليه ، ومثل
 بين يدي مولانا الوزير ، وذكر له ما وقع من أول الحادثة وآخرها على وجه

(١) هكذا في النص .

التمام ، فشكر الله تعالى الوزير على ما منحه من النصر التام ، وقطع رؤوس طائفة كثيرة من الأشقياء في ذلك اليوم في ساعة واحدة ، وكان ذلك بمحض من حضرة مولانا قاضى مصر جبار زاده وقت آذان العصر ، وبمحضر من فخر العلماء عمدة الأماجد والفضلاء أحمد أفندى باشا زاده ، وجماعة من الأكابر والأعيان ، ثم صار مولانا الوزير كلما يجاء إليه بأحد من الأشقياء يفعل به كذلك إلى أن استوفى في يومه ذلك نيافاً وأربعين نفرأ سببهم سبباً في ساعة واحدة ، وذلك خلا ما كان [١٠٠] على الأرماع وهم عشرون رأساً وصار لا يغفل عن تتبعهم وكل من أتوا به إليه يفعل معه السياسة حتى خلت أراضى مصر من المعتدين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، وقد عرف هذا الوزير الكريم نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وتواتر فضله وإحسانه لديه ، محترفاً بتتابع الآء الله تالياً قوله سبحانه وتعالى « وما النصر إلا من عند الله » (١) متحققاً عجزه عن ذلك ، وعدم قدرته لولا نصره مولاه علماً بعجزه وقصوره ، مفوضاً إلى جناب الحق غاية أموره ، قابلاً بلسان حاله منشدًا بصريح مقاله :

سلم إلى الله الأمور مفوضاً فالعبد أحسن حالة التسليم

ومن خصائص هذا الوزير المشير ، حسن نظره إلى الرعايا ، ومعدلته لآرايا ، خصوصاً فلاحى البلاد والتاطف بهم على وجه السداد ، وإجرائهم على هوايدهم القديمة من عدم معارضة الملتزمين في [١٠١] أطيانهم وزراعتهم وآثارهم ، وعدم إخراج ذلك عن يده من الفلاحين والملتزمين إلا بحجة ماضية ، وسياسة الأمور ، وموافية النفع للجمهور ، ومن خصائص هذا الوزير حسن نظره إلى أهالى الحرمين الشريفين ، وعدم معارضتهم فيما هو بأيديهم مع الزيادة منه أيضاً ، والإحسان والتفضل عليهم وطلب الدعاء منهم ، ومواساتهم

(١) سورة الأأنال، آية ١٠ .

لكونهم جيران الله سبحانه وتعالى ، بواد غير ذى زرع ، ونمو صرتهم وماييدهم من بيت المال المعمور ، ضاعف الله تعالى له الأجور ، ومن خصائص هذا الوزير أيضاً النظر فى أمر الزوايا والأضرحة والمساجد وزيارتها فى كل حين ، وعمارة ماينبغى عمارته منها العارة الحسنة المتقنة ، وزيارة مقامات الأولياء والصالحين ، والعلماء العاملين كمقام مولانا الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، ومقام سيدى عقبة بن عامر الجهنى الصحابى ، والليث بن سعد القلقشندى المصرى ، ومقام ولى الله تعالى والعارف به سيدى فارس قطاه ، وعمارة مقام ولى الله تعالى والعارف [١٠٢] به سيدى على أبو النور ، واتقان عمارته جداً إلى أن صار كاحسن ما يكون ، وكثير من المدارس والمساجد والزوايا ، وغالباً من ماله الشريف ابتغاء لوجه الله تعالى ، وطالباً لمزيد مرضاته ، وعمارة القلعة المعمورة . العمارة الجيدة واقتلع مدارس منها وعمره عارة متقنة ، وأنشأ بها طباقاً عديدة وآثار حميدة ، ومن خصائص هذا الوزير اعتقاده فى الصالحا والعلماء والأولياء بالقرافتين الشريفتين ، وطلب الدعاء منهم والإحسان إليهم خصوصاً طائفة المجاذيب فإن له ميل كلئى من الدنومهم والإحسان إليهم والتبرك بهم وجلوسه بين يديهم كأخدمهم ، وقد رأى ولأد مؤلف هذه العجالة هو أحمد الرفاعى رؤيا عظيمة تدل على ذلك لا بأس بإيرادها وتبيجتها صدق المقال إن شاء الله تعالى ، وذلك فى الليلة المسفر صباحها عن يوم الثلاثاء ثانى عشرين جمادى الثانى من شهر سنة ١٠١٨^(١) رأى أنه كتب لحضرة مولانا [١٠٣] الوزير عرض حال بخط والده المذكور فى نصف الفرخ الرومى وكمل ما كتبه فى عرض الحال فى الهامش فبقى مقدار سطرين كتبهما على طرة القصة من فوق ، ثم رفعها إلى حضرة الوزير المومى إلى ذاته الشريفة وكان جالسا^(٢) بالمشهد فأخذها الوزير منه وقرأها فأعجم عليه بعض حروفها لكونها باللغة العربية ، فقال للولد تقدم وادن منا فتقدم جداً إلى أن قرب منه وجعل يقرأها عليه حرفاً حرفاً وكذلك

(١) ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩

(٢) فى الأصل « جالس » .

قرأ ما بهامشها، ولم يقرأ ما على طرفتها، فقال له حضرة مولانا الوزير، إقرأ هذا وأشار إليه فقرأه، فلما انتهى من قراءته مد يده الشريفة فأخذها وكتب عليها بخطه الشريف، فأقيمت الصلاة، وهو عمال يكتب، فلما سمع الإقامة وضع القلم بالدواة، وقام إلى الصلاة، ولم يكن الولد حين ذاك متوض قذهب وتوضاً وأتى فوجد الصلاة قد انتهت، فصلى منفرداً وجلس الوزير نصره الله تعالى وأخذ في اتمام الكتابة على القصة، وإذا بأربعة أشخاص من المجاذيب [١٠٤] المستغرقين جلوس على مائدة وضعت لمولانا الوزير فجلس الولد بينهم، وقال لهم من أى حرفة أنتم فقالوا نحن من فقرا بردين، فقال لهم أنتم من فقراينا فقالوا له من أنت فقال لهم رفاعى، فقالوا نعم أنتم ساداتنا ثم التفت كبيرهم وقال لحضرة الوزير نصره الله يا مولانا اقض حاجة هذا فإنه من ساداتنا ثم رفعت المائدة فجعل حضرة مولانا صاحب السعادة يتبسط معهم ويجاذبهم ويسألهم الدعا، وهو جالس معهم بأدب وخضوع، ثم وقت بعد ذلك على أقدامه الشريفة، وإذا بجانبه الأيمن كرسى وتحتة قفطانين أحدهما بغدادى مضرب كل كلى، والآخر أخضر فأخذ القفطان الكل كلى فقال كبير المجاذيب تحياتى عليك نلبس هذا فأفرغه عايه، ثم عهد الى الأخضر وألبسه للثانى وجلس وأخرج ختمه الشريف ووضع عايه شىء من الخبر ودفعه للولد وهو مشتبك بعقد حرير معه، ودفع له القصة أيضاً، وقال اختم عليها بيدك فلا تخالف ما كتبت [١٠٥] لك أخذ، فختمها الولد ثم اتبته والقصة بيده فوجد المؤذن يؤذن لصلاة الصبح فتوضاً وصلى، وهذا المقام يدل على تعلق قلب مولانا الوزير نصره الله تعالى بمحبته المجاذيب والاعتقاد فيهم، وهو بموجب ذلك ملحوظ باحظهم، ومن خصائص مولانا الوزير أيضاً ما وقع فى هذه الحادثة الشديدة فى زمنه الشريف ودفعها بسياسته ووفور عقله، وفراسته على أحسن حال وأتمه وأنجح وأعمه، هذا وقد عجز عنها من تقدمه من الوزراء والبكر بكية عجزاً كلياً، مع ما حصل لهم من الأمور المشروحة، وذلك لحسن نيته ومحبته للمجاذيب والفقرا، وتصرفه

بعقله الوافر ورأيه الثاقب ، ونظره الصايب ، بلغه الله تعالى غاية المراد والمرام ببركة النبي عاياه السلام ، ومن خصايص هذا الوزير المشير ، قلع جاذرة أهل العناد ، والبغى والفساد ، أولياء الشيطان بمعونة الرحيم الرحمن ، فان ذلك لم يسطر نظيره في ديوان ، وكف أكف الظلم عن الرعية ، وما فيه الأمن والانبساط للبرية ومشى [١٠٦] الغنم مع الذياب لا تجسر الذياب عليها وكأنها الولد بين يديها من الحنو والشفقة اليها ، والناس آمنون في ظلال السلطنة المنيفة في زمن إيلاته ووزارته الشريفة ، ومن خصايص هذا الوزير المشير إلقاء الرعب في قلوب جميع الأعداء والمفسدين والفسقة المعتدين حتى أنه صار أكبرهم أصغرهم ، وأعزهم أذلهم وأمثلهم أحقرهم وصاروا هباء منثورا ، وأمرهم مبتورا ، ومن خصايص هذا الوزير أن مصر صارت في زمنه تحلا كالعروس بتالد من الحلل والتزين كثيرة الأرزاق نابذة الأغصان والأعراق نزهة للناظرين في غاية الأمن والتوطين ، وقد دب فيها ماء الحياة بعد موتها سنين بسعادة هذا الوزير العظيم المشير ، وعلى كل الأحوال في الحال والمآل ، فهذا الوزير المفخم ، والدستور المعظم ، عمر مصر بعد دثورها ، ودبر مصالحها وأمورها ، وأذهب شرورها ، وأدام سرورها ، ودان له كبيرها وصغيرها ، ونظرت اليه بالمهابة الاحداق ، وخضعت له طوال [١٠٧] الأعناق خلد الله تعالى على التخت اليوسفي وزارته وإيلاته وأدام سعده وسيادته وسعادته ، وعمر به البلاد وأنعش به العباد ، ونصره على الأعداء والحساد ، بحاه سيد العباد وزين العباد أمين .

ومن الأمر العجيب المطرب الغريب أن حضرة مولانا الوزير نصره الله تعالى بعد هذه الواقعة بيسير ، أمر بقطع ما علامن الأرض بالأسواق والخوانيت ومساواتها ، فلما شرعوا في ذلك مر شخص من الناس ، وقال لرفيقه ما هذا فقال إن حضرة مولانا الوزير أمر بقطع ما مشى عاياه الجند المفسدين من الأرض ، فقال الفقير في ذلك مؤرخاً :

في وقعة الأجناد قد حارت قلوب وفكر
والحق عم لطفه على الوزير فانتصر
وقطع الأرض التي^(١) مشوا عليها وعفر
وأبدل الله العلى بالصفاء غث الكدر
قد جاء في تاريخهم يقطع الله الأثر

سنة ١٠١٧ [١٠٨] ١٦٠٩ م

في التاريخ حرف مشدد، والمشدد عندهم بحرفين في اصطلاح الأوقافية
وقال الشيخ على الملاح مؤرخاً .

أجناد مصر قد طغوا وبجملهم قد باهوا
طلبوا يبغي طلبة عنها نهانا الله
وخالفوا مايمكهم وبخلفهم قد تاهوا
فأتى الوزير محمد بالنصر من مولاة
ليردهم عن غيهم فأبوا اتباع رضاه
وتجمعه — وا لقتاله أرخت هدأ بغاه

سنة ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م

ولسكاتبه :

أتى جمع من الأجناد د جمعاً ذل لقياه
فكل منهم الشيطان باله — اريخ أعناه

سنة ١٠١٧ / ١٦٠٩ م

(١) كتب البيت في الأصل :

« وقطع الأرض الذي مشوا عليها في الأثر »

ثم شطب في الأثر ، ولم يضع التصويب ، كما أنه استعمل الاسم الموصول « الذي » بدل التي
ولذا أثبتنا البيت كما جاء في كشف الكربة ، انظر كشف الكربة العظيمة المشار اليها ص ٣٧٤ .

وقلت مؤرخا :

قال لي صاحبي وقد ثارت ألف
والذي قلت قلت أرخ
ساق للحرب طالين النزالا
فزالوا وكفى الله المؤمنين القتالا.
سنة ١٠١٧ / ١٦٠٩ م

وقلت : [١٠٩]

جاشت جيوش الترك يوم غرورهم
أوردت أطراف الرماح صدورهم
فهنالك لم تر غير نجمة مقبل
فمن الذي من جيشهم لم ينهزم
لا يعد منك المسلمون فكريدا
أمنت مصرهم وصنت حريمهم
ما أن أراك الله إلا آمرا
يتضامرون على متون الضمر
فولغن في علق النجيع الأحمر
في أثر عفريت رجيم مدبر
ومن الذي من جمعهم لم يقهر
أوليتهم معروفا لم تنكر
وزرات عنهم قاصمات الاظهر
فيهم بمعروف ومُنكر منكر

وقلت :

ما رأينا فيما تقدم يوما
مثل يوم الأجناد جنى عايهم
بعد جمع لهم عديد فصاروا
هكذا هكذا هلاك الأعادي
فلقوا منهم بما كان فيهم
لا حمى الله شملهم من شتات
فجزا المفسدين قتل وأسر
ولرب العباد حمد وشكر
كامل الحسن غاية في البهاء
ذلة القهر والبلا والفنا [١١٠]
بين ذل وحسرة وعنا
عند متن الاغارة الشعواء
من فساد بجهلهم وإعتداء
بمواض تفوق حد المضاء
وجزا الشكور خير الجزاء
دايم مع تواصل النعاه

وقال كاتبه أيضاً :

ان جس عوداً رأيت الخيل راقصة
أو حركت يده اليمنى له وترأ
وساق كل عصاة المصّر خاضعة
فالخيل والليل والبيدا تعرفه
وقال أيضاً :

أبى الله أن يموتوا أذلة
وغرّتهم الأحلام في ساعة فكا
طووا مكرهم تحت الضلوع خيانة
نبت بهم أوطانهم فتسكروا
لقد ركضت خيل المنايا فارجفت
وفروا وشتان المذلة والفر
د يقرعهم خوفا إذا استيقظوا الفجر
فحاق بهم خبث الطوية والمسكر
وحق الأوطان إلى أهلها النسكر
بهم ولهم فيمن بقى منهم ذكر

ومما قلته في هذه الواقعة متمدحا لحضرة الوزير نصره الله وتعالى :

لك الحمد يا مولاي في السر والجهر
وتدبير مولانا الوزير ومن له
وزير عظيم الشأن ثاقب رأيه
يقوم بأعباء الوزارة قومة
بكل جديد الطرف اسمران رما
ومن أبيض لا يعرف الصبح إنما
فما اضطربت في نحر قلب سيوفه
فكم حاز من أجر وأولى من النداء
فيا حافظ الإسلام من طعن طاعن
على قتلة الأجناد [١١٢] والعز والنصر
أياد كموج البحر والنيل في مصر
يجهز في آن جيوشا من الفسكر
يشد جيوش الملك بالأيدي والذكر
إلى جحفل أحياه بالنظر الشرر
يقاتلهم بالحد في لبة النحر
ولا اختلجت أوداجه في سوى صدر
ويسر من عسر وأنقذ من أمر
فيا حبيب ولا يدرى [١١٣]

بأفقي علاه قاعة الجبل ازدهت
فهزت صباحا فوق قادمة النسر

وحفظ بلى ذات البروج به وقد
 حمى حوزة الإسلام بالباس والندا
 أيدله بالباس كاسرة العدا
 محمد مولانا الوزير عزيزنا
 حمى أرض مصر من طغاة أذلة
 وشتت شمل الأشقياء وردهم
 وقطع رؤوسا من كبار رؤوسهم
 وكان عصى موسى تلقف كلما
 منكسة أعلامهم ورؤوسهم
 وأبدت في فن الحروب معاني الـ
 خدمت سبحاياه العلا بعجالة
 ومن بحرب العجاج صنعت قصيدة
 وجهزتها فيه إليه هدية
 ياف حياء وجهها طيب نثرها
 نخذها عروسا من سميك وهو من
 وفي النفس حاجات وفيكم مكارم
 فقير ومن أهل العيال وماله
 ومن نيلك الفياض يرجو مكارما
 وحش وأبق واسلم وأغن وأغنم وجد وسد

ودم وأرق وأسعد في هناء مدى العمر
 ونل فوق هام الأنجم الغر رفعة
 ويارب فاحرسه بجاه محمد
 لتروى حديث الجود منك عن الزهر
 غزا بجمد جاء تاريخ وقعها
 وأيده يارباه من حادث الدهر
 وانشاها والنظم يا ملك العصر
 سنة ١٦٠٩/١٠١٧

والحمد لله أولا وأخرا، وباطنا وظاهرا وحسبنا الله ونعم الوكيل .

29. Varille, op. cit., p. 65 ; aussi Drioton—Vandier, op. cit., p.
30. Vandier, Manuel d'archéologie II, p. 689 ; Varille, op. cit., p. 65—66 fig. 7.
31. Drioton—Vandier, op. cit., p. 385.
32. Weigall, Hist. de l'Égypte ancienne, p. 133.
33. Id., op. cit., p. 133 ; aussi Varille, op. cit., p. 65 — 74.
C'est un décret relatif au personnel de la fondation funéraire d'Amenhotep (Brit. Mus. no. 138). l'origine du monument est inconnue ainsi que la date de son entrée au musée.
34. Habachi, CdE 29 (1954). p. 211—215.
35. Gaballa, BIFAO 71 (1972), p. 130 -137 ; Sauneron, BIFAO 53 (1953). p. 57—63.
36. Habachi, op. cit. p. 219.
37. Gaballa, op. cit., p. 132.
38. Habachi, op. cit., p. 220.
39. Vercontter, op. cit., p. 88—91.
40. Posener, le Première domination Perse, p. 90 n. f.
41. Daumas, la civil. de l'Égypte pharaonique, p. 163, 606 ; aussi Gunn, The Instruction of Kagemni London 1938.
42. Sethe, Imhotep der Asklepios der Aegypter (Unter. II), p. 4 ; aussi Gardiner, Egypt of Pharaohs, p. 73 ; Daumas, op. cit., p. 73 : Gilbert, l'histoire et la légende d'Imhotep, dans Kon. Bel. Acad. 35 Brussel 1949, p. 200—202 ; J. Turnure, A statuette of Imhotep dans Record of the Art Mus. Princeton Univ. vol. XI no. 2 (1952), p. 25—28.
43. Lefebvre, op. cit., 41—70 , Wilson, dans ANET (1958), p. 5 : Daumes; op. cit., p. 400.

et p. 285 n 40 et dans ASAE 55 (1958), p. 110 (13)=de Meulenaere, BIFAO 62 (1944), p. 162 (13)=Herodotos, p. 61 n 54 = Daumas, BIFAO 56 (1957), p. 50 = Gardiner, JEA 24 (1938) p. 157-8 (1) = Lefebvre, Essai sur la médecine, p. 19 = Otto, Die biogr. Inschr., p. 127 (30) = Jonckheere, les medecine de l'Egypte, p. 32-33 (20) et p. 94 (20) = Michailidis, ASAE 43 (1948), p. 101-102 = Klasens, JEOL 10, p. 339-49.

12. Drioton-Vandier, l'Egypte, p. 601.

13. Posener; Dict. de la civil. Egypt. p. 161—161 ; Rowton, JEA 34 (1948), p. 57—74 ; Manetho, with an English translation by W.G. Waddell, London 1948 ; Helck, Untersuchungen zu Manetho und den agyptischen königslisten, Berlin 1953.

14. Posener, op. cit., P. 161 ; Mayani, les Hyksos et le monde de la Bible, p. 108.

15. Aldred, les Egyptiens, p. 9.

16. Id., op. cit., p. 10.

17. Posener, op. cit., p. 161.

18. Elgood, les Ptolemeés d'Egypte, p. 97.

19. Bresciani, Studi Classici e Orientali Vol. 16 (1967), p. 275—278 cité par de Meulenaere, le surnom Egyptien, p. 20 (64).

20. Vercontter, op. cit., p. 33.

21. Id., op. cit., p. 28.

22. Posener, littérature et Politique dans l'Egypte de la XII dynastie, p. 3. 16—19, 20 21, 33—36, 60—65, 76—80, 87, 96—108 115, 124—138, 145—157 : voir aussi Posener, RdE 8 (1951), p. 174 n. (1) ; Gardiner, JEA 1 (1914), p. 20 ; Golenis cheff, Pap. hieratiques 1116 B.

23. Lefebvre, Romains et contes Egyptiens, p. 91—94.

24. Habachi, Tell Basta, p. 9, 97, 100—103 112.

25. Gauthier, ASAE 28 (1928), p. 131.

26. Aldred, op. cit., p. 199.

27. A. Varille, Amenhotep fils de Hapou, dans Bibl. d'Etude 44 (1968), p. 125—142 ; aussi Aldred, op. cit., p. 203.

28. Drioton-Vandier, l'Egypte, p. 342.

10 Voir Id., op. cit., p. 228-230 = (a) Statue Caire CG. 679 = Borchardt, Stat. und Statuett. III p. 23 — 24 = Gauthier, ASAE 22 (1922), p. 92—93 = Jelinkova, op. cit., p. III (c) = PM, IV, p. 47 (b) Statue Caire JE. 34043 = Gauthier, op. cit., p. 88 = Jelinkova, op. cit., p. III (d) - PM, IV, p. 47 (c) ; (c) Statue Caire JE. 34044 = Gauthier, op. cit., p. 89 = Jelinkova, op. cit., p. III (e) = PM, IV, p. 47 (e) ; (d) Statue Caire JE. 34045 = Gauthier, op. cit., p. 90 = Jelinkova, op. cit., p. III (f) = PM, IV, p. 47 (c) : (e) Statue Caire sans no = Gauthier, op. cit., p. 90 ; (f) Fragment de sarcophage Caire = Gauthier, op. cit., p. 84-85 = Jelinkova, op. cit., p. 112 (m,n) = Mariette, Mon. divers, p. 30 pl. 106 D = Brugsch, Dict. geogr., p. 1288 = PM, IV, p. 47-48 ; (g) Statue Coll. privée à Londres = Gauthier, op. cit., p. 93-94 = Sharpe, Egypt. Inscr. 11, pl. 65 = Jelinkova, op. cit., p. III (a) = PM, IV, p. 47 (d) : (h) Statue Louvre A 91 = Gauthier, op. cit., 95 = Jelinkova, op. cit., p. III (j) = PM, IV, p. 47 (e) ; (i) Fragment de naophore sans no au Caire = Gauthier, op. cit., p. 93 (3) = Jelinkova, op. cit., p. III (i) = PM, IV, p. 47 (f) ; (j) Statue Caire CG. 677 = Borchardt, op. cit., p. 22-23 = Gauthier, op. cit., p. 91-92 = Jelinkova, op. cit., p. III (g) = PM, IV, p. 5 ; (k) Statue Brit. Mus. 818 (III) = Gauthier, op. cit., p. 86-88 = Jelinkova, op. cit., p. III (b) = PM, IV, p. 6 ; (L) Statue de Bologne 1820 = Kminek-Szedlo, Cat. Mus. Civ. Bologna, ; p. 154-155 = Jelinkova, op. cit., p. 112 (1) ; (m) Statue Florence 1522 (5420) = Schiaparelli, Mus. Firenze, p. 222-223 = Jelinkova, op. cit., p. III k.

Malheureusement les documents ci-dessus ne portent aucune indication quant à la date ; Gauthier propose le règne d'Apries (op. cit., p. 8) voir aussi Jelinkova, op. cit., p. III (15).

11. Posener, la Première domination Perse, p. 2-26 ; ajouter Botti-Romanelli, le Sculture del Museo Gregoriano, p. 32-39, pl. 27-32 (40) = R. El-Sayed, op. cit., p. 235-236 (15) = Tulli, Misc. Gregor., p. 211-280 = Jelinkova, ASAE 54 (1957), p. 252 n. 2

Un autre personnage eut un rôle important dans le Delta et à l'étranger mais là aussi il est impossible de retrouver une biographie authentique nous voulons évoquer le très célèbre Sinouhé qui vécut dans l'entourage d'Amenemhat I sous la XII^e dynastie (2000—1970) pourquoi s'enfuit-il en terre étrangère et y resta-t-il longtemps en exil ? pourquoi sa vie fut-elle romancée et adaptée pour être racontée au peuple comme une belle histoire ? pourquoi put-il se fixer dans une tribu bedouine dont il devint le chef-on a beaucoup épilogué sur cette belle vie aventureuse qui se termine si bien puisqu'il revient mourir en paix dans sa terre natale. (43)

S'il plaît à Dieu nous comptons évoquer dans un prochain article les vies célèbres des hommes de Moyenne Egypte et de Haute Egypte.

Notes

1. Nous projetons de ne pas nous limiter au Delta et de continuer ultérieurement cette recherche pour la moyenne et la Haute Egypte.

2. Voir de Meulenaere, BIFAO 60 (1960), p. 117-119, pl. 12 ; voir aussi R. El Sayed, Documents relatifs à Sais, p. 239-240.

3. Borchardt, Stat. und Statuett III, p. 10-11 Jelinkova, ASAE 55 (1958), p. 116-117 (37-39=R. El Sayed, op cit. p. 238-239 (18) = PM IV, p. 47 (c).

4. R. El-Sayed, op cit., p. 145-152 pl. 24-26.

5. Id., op. cit., p. 153-159, pl. 27-29.

6. Vercoutter. Textes biographiques du Serapeum de Memphis, p. 105-108 pl. 16.

7. Vercoutter, op cit., p. 33.

8. Ranke, MDIAK 12 (1943), p. 112-133 pl. 24-25 = R. El-Sayed, op. cit., p. 255-256.

9. Ranke, op. cit., p. 114.

lieu d'origine des gens célèbres, en la circonstance les gens qui sont originaires de Delta. Pour beaucoup d'autres célébrités dont on retrace une trace du leur vivant ou après leur mort en Basse Egypte, le doute subsiste sur le lieu d'origine—pour d'autres encore le culte qu'ils reçurent peu de temps après leur mort ou plusieurs siècles après voilent en partie les actions authentiques de ces héros, c'est pourquoi, toutes restrictions faites nous citerons — parce qu'ils ont oeuvré, ou ont laissé leur trace dans le Delta :

Kagemni, ⁽⁴¹⁾ vizir de l'Ancien Empire dont le souvenir est conservé à Saqqara grâce à une chapelle et aux stèles près de son mastaba.

Toujours à saqqara on ne peut omettre de citer le plus célèbre bien sûr, il s'agit du sage Imhotep ⁽⁴²⁾ architecte de Djoser (III dynastie) vers 2800 avant J C. auquel on attribue les admirables constructions de pierres qui subsistent toujours sur le plateau et auxquelles l'architecte moderne lui a redonné son éclat-On ne sait rien sur sa vie et peu sur son oeuvre mais les nombreuses statues de bronze le représentant sont restées et le sage est là, assis, déroulant les rouleaux de papyrus s'il fut sage, il l'est devenu plus encore dans la tradition, plusieurs millénaires après, à l'époque persane et ptolémaïque, non seulement un sage, un architecte de génie sachant utiliser la pierre qui dure au lieu du bois ou de la terre, un médecin dont les guérisons sont connues partout, Imouthes fait des miracles non seulement dans l'Asklepeion des Grecs à Saqqarah, dans sa chapelle devenue sonatorium, mais dans divers temples à Karnak, à Deir el Bahari, à Deir el Medineh, à Philae dans une chapelle commandée par un Ptolémée.

Imouthes est un dieu, la ferveur populaire lui rend un culte. On retrouve pour Imhotep une tradition populaire semblable à celle que nous avons évoquée pour Amenhotep.

naïssons par une stèle du Serapeum (39) sur la quelle on peut lire ses titres et connaître sa famille :

“Père divin et connu du roi, directeur des châteaux de Nt, prêtre Oun-ro, Hery Pe, khnemibrê” mais aussi “feâl auprès de Ptah-Sokaris-Osiris et de Apis-Atoum Horus de Sépa” le souci de dévotion de l’Horus de Sepa, ville proche de Tourah permet de penser qu’il était originaire de la ville ou de ses environs.

Ensuite le fils de Psammetique-sa-neith, notre khnemibrê, entreprend de citer ses proches sans doute pour leur permettre de rester sous la protection du divin taureau et c’est ainsi que nous connaissons :

— Son père, prêtre-lecteur-son grand-père Henat-sa mère la dame setairêbenet-son fils aîné également père divin, connu du roi, directeur des châteaux de Nt, prêtre Oun-ro, Hery-Pe (son nom) est Oudjaharresné,-Sa femme Oudjatemhat.

Son frère Henat qui a les mêmes titres que lui, deux autres frères dont il ne donne pas les titres (Psammetique-sa-neith et Amasis-sa-neith) sa soeur (Setairet-benet).

La généalogie est compliquée du fait de la similitude des noms des personnages qui, selon une coutume toujours observée et aujourd’hui encore portent par dévotion, le nom d’un des membres de la famille, qui le précède. C’est pourquoi on avait admis que deux khnemibrê n’étaient qu’un même personnage alors qu’il s’agit sans doute de deux personnages apparentes (40) de la même région (Tourah).

Il serait possible d’allonger cette liste de célébrités mais rappelons que notre point de vue a été ici de prêter attention au

une bonne partie de son activité dans cette ville. C'est là, d'ailleurs, qu'il épousa Taterkeia originaire de la ville—Mais, comme beaucoup de fonctionnaires de l'époque ramesside, May parcourt l'Égypte du Nord au Sud, chargé par son maître de divers travaux à Memphis, à Thebes et l'on trouve sa trace jusqu'à Assouan (36).

Des stèles parlent d "un chef des travaux, commandant des troupes dans tous les monuments de sa Majesté dans le temple de Rê, Hay J.V." et encore "d'un chef des travaux, commandant de troupes dans le monument appelé Brillant-est-Ramsès Meiamon, dans la Maison du Prince, May, a trouvé une place dans le temple de Rê" (37). Il ne faut pas se méprendre sur ce titre de chef des troupes et comme le dit Habachi, (38) il ne faut pas y voir une fonction militaire à proprement parler, même si May avait des soldats sous ses ordres.

Assouan, encore aujourd'hui nous semble loin d'Héliopolis, on peut envisager combien de temps il était nécessaire, sous Ramses II pour qu'un groupe important d'ouvriers puisse travailler dans les carrières d'Assouan et revenir avec son chargement de pierres sur les grandes felouques du Nil. la sécurité de tous demandait des soldats et tout ce monde était sous la responsabilité de May.

Tourah

Khnemibrêde même que May ne fut peut-être pas une étoile de première grandeur mais il eut la chance d'appartenir à une famille fort importante par plusieurs de ses membres et il put suivre le chemin tout tracé dans l'honorabilité. Il vécut à la fin de l'époque saïte ou sous la 1ère domination perse et nous le con-

l'hérésie amarnienne il semble que le Sage Am'nhotep ait joué un rôle en considérant comme "impurs" les partisans d'Aton et en conseillant au roi de débarrasser d'eux le pays (32). Il mourut au début de la 31 ou de la 35^e année du règne d'Amenophis III vers 137 avant J.C. et le pharaon lui aurait fait construire une chapelle mortuaire dont les ruines subsistent et pour conjurer les violations de ce sanctuaire le roi y fit inscrire une terrible malédiction contre les mal intentionnés (33).

Son temple reste honoré, son souvenir reste si vif qu'à l'époque ptolémaïque, à l'exemple d'Imhotep, on le divinise, il devient dieu guérisseur, on lui attribue des miracles, on installe son sanatorium dans une des chapelles de Dair el Bahari.

Héliopolis

La célébrité de *May* n'est peut être pas aussi brillante que celle des personnages précédents, du moins à notre point de vue mais la vie de May ne manque pas de relief. Il fut un des grands serviteurs de sa Majesté Ramses II. Nous le savons par deux inscriptions de Guizeh car au Nord et à l'Ouest de la pyramide de chephren ³⁴, sur la paroi rocheuse entaillé verticalement, il est question du "chef des travaux May . . . dans le temple de Rê" "un chef des travaux May . . . dans l'édifice Brillant-est-Ramses-Memoun, dans le Grand-château du-Prince, May, fils du chef des travaux Baken amon J.V." ³⁵

Pourquoi ces inscriptions à Guizeh du chef des travaux May qui travailla pour les châteaux de Ramsès à Héliopolis ? c'est que May, originaire d'Héliopolis était chargé de prendre des revêtements de la pyramide de chephren pour construire un ou plusieurs temples au nom de Ramsès à Héliopolis. Il semble avoir consacré

pour le dieu invisible qui l'inspire (Caire CG. 42127). Mais soit que ce poste militaire n'ait pas suffi à son activité, soit plutôt qu'on appréciait son esprit d'organisation et son génie naissant d'architecte, voici qu'il devient celui qui déplaçait des montagnes de quartzite pour construire des monuments colossaux à la gloire de son roi. Sa gloire est, pour les générations qui suivirent, surtout née de son génie d'architecte et en même temps c'est vizir d'Amenophis III. le roi qui appréciait fort les talents d'Amenhotep lui confia la construction "d'un somptueux palais non loin de la Vallée des Reines, dans le désert occidental de Thèbes le temple funéraire aujourd'hui disparu était le plus vaste de monuments analogues ; il était précédé des colonnes majestueuses qui dominent aujourd'hui encore la fertile plaine de Thèbes (colosses de Memnon). A Louxor, le roi avait fait élever sur les plans d'Amenhotep un temple dont on peut encore admirer l'élégance harmonieuse" (28).

' Fouillé par Varille et Robichon en 1936 les dimensions inusitées du temple funéraire prouvent le rôle de premier plan joué dans l'histoire de l'Egypte par Amenhotep" (29).

C'est pourquoi sans doute, il lui fut accordé un honneur sans précédent : un peu en retrait du temple d'Amenophis III le roi lui accorda de construire son propre temple funéraire, de son vivant (30.) Mais outre ce talent indiscutable d'architecte on a prêté plus encore à Amenhotep : ce fut un sage à qui on a pu attribuer un Enseignement qui ne nous est pas parvenu. Mais l'expression de concentration intérieure, de gravité, qui caractérise ses statues permettent d'accepter volontiers l'idée qu'il fut un sage. Certains disent un inspiré qui rendait des oracles et faisait des prophéties ? Ses avis en tous cas étaient respectés puis qu'il était chargé de la question des biens de la reine Tiye (31). Au moment de

(d) des deux célèbres fils royaux de Kush *Hori I*, *Hori II* sont originaires de Boubastis également et y furent enterés. ⁽²⁴⁾ le père vivait sous Setnakht et Ramses III, le fils sous Ramses III et Ramses IV leurs tombes furent découvertes au Nord du Grand temple de Tell Basta, la 2eme (celle d Hori II) en 1925.

Auparavant on avait trouvé dans le même site un sarcophage de granit rouge sur le couvercle duquel on peut lire ⁽²⁵⁾ :

“L’Osiris fils royal de Kouch, préposé aux pays étrangers du Sud, flabellifère à la droite du roi, scribe royal, Hori, jus ifié, fils du fils royal de Kouch, Hori, justifié”.

On sait que sous le Nouvel Empire cette charge de vice-roi avait été créée ⁽²⁶⁾ d’une importance peut être encore plus grande que celle des vizirs. le vice-roi représentait le pharaon dans une région s’étendant d’ El Kab à Napata. Il recevait le sceau royal la charge sans doute devint rapidement héréditaire; ce qui semble le cas ici.

(d) La ville d’Athribis (Banha) a donné naissance à un des plus célèbres personnages : *Amenhotep fils de Hapou* (ou Amenophis) qui a vécu au temps d’Amenophis III et est né, pense-t-on d’une famille modeste puisqu’il n’est pas fait mention des titres de ses parents sur les statues du fils. Sans doute fut-il d’abord un scribe dont l’intelligence lui permit de degré en degré d’atteindre aux plus hautes fonctions. Il semble qu’on n’exigeait pas, comme on le fait à outrance aujourd’hui des spécialisations pour les jeunes gens. Un scribe instruit pouvait devenir un commis principal ⁽²⁷⁾ aux armées-puis avec un peu de persévérance et de chance scribe des recrues, poste qui occupa un moment Amenhotep et lui permettait d’affecter les jeunes soldats à l’un ou l’autre service. C’est dans cette fonction qu’une de ses statues le représente assis en tailleur, prêt à écrire sur le papyrus et la tête penchée par respect

peut être ce roi qui lui commande d'oeuvre - du moins fut elle écrite sous son règne. Mais au lieu de composer directement le panégyrique en l'honneur du roi, l'auteur va utiliser un procédé littéraire qui n'était pas neuf et consistait ici à mettre en scène un roi ancien de la IV 'dynastie' Snefrou. Snefrou s'adresse à ses courtisans pour qu'on lui amène un homme capable de le divertir par de "paroles et des phrases choisies" (23). Les courtisans désignent un prêtre de Bastet 'enfant du nome héliopolite'. Habilete de Neferti qui demande au roi "Veux-tu que je te parle du passé ou de l'avenir". Le roi optant pour "l'avenir" le "voyant" va donc lui faire le tableau des 4 siècles écoulés représentant la fin de l'Ancien Empire et la 1ère période intermédiaire, des dernières années de Pépi II jusque vers la fin de la XI dynastie avec les troubles et les invasions. Neferti expose "la vision" des Asiatiques dans le Delta, des Bédouins nomades avec leurs troupeaux partout en Egypte . . . des Egyptiens dépouillés de leurs richesses, des violences, des désordres, de la joie de vivre qui a disparu et même du Nil à sec, du soleil astre mort comme la lune . . . En réalité ces malheurs n'affectent pas le nome héliopolite et ils cesseront grâce à l'intervention d'un roi sauveur né dans l'extrême Sud de l'Egypte, appelé Ameny fondateur de la XII dynastie. Il rétablira l'ordre dans le pays et construira le Mur du prince mettant l'Egypte à l'abri des invasions asiatiques (ils'agit d'Amenemhat I bien entendu).

En fait nous ne pouvons lire ce précieux document qui est perdu mais il subsiste par chance le manuscrit 1116 B de lenin-grad qui en est une adaptation, environ 5 siècles après à la XVIII dynastie sous Thoutmosis III. On sait que le rouleau de papyrus en question fut "découvert" par Golenischeff que en 1876 se vit confier ce rouleau trouvé dans une armoire du musée, par le conservateurs de l'Ermitage.

de Saïs m'a convié pour ériger le temple de sa mère Neith, en grès, parce que je suis sage de visage et efficace de mains, auprès de sa Majesté plus qu'aucun de mes pairs" . . . plus loin il répète que . . . "Sa Majesté (lui a demandé) d'achever les travaux dans le temple de Neith) dans la salle du silex".

La fonction d'architecte ne fut pas suffisante pour le personnage car la même statue le présente comme un homme de guerre et l'on comprend qu'il avait dans ces activités là besoin d'être ce efficace de ses mains". Il se targue donc d'être a chef de la cavalerie, chef à la porte des pays étrangers de libye, chef des pays étrangers de l'Asie. Sans doute dut-il donc parcourir le Delta de l'Ouest à l'Est.

(b) Un certain *Ouahibré-oun-nefer* était peut être originaire de Pharbaitos (Behbet el Haggar) ou des environs ⁽²⁰⁾, mais le doute subsiste à ce sujet puisqu'il porte des titres memphites, il est possible qu'il ait résidé, au moins, à Hebyt. ⁽²¹⁾

En tous cas ce haut fonctionnaire, contemporain d'Amasis "chancelier royal, connu du roi, père divin de Ptah" avait en l'honneur d'être choisi pour participer à l'entrrement de l'Apis et remettre les cadeaux au clegé d'Apis. C'est donc qu'il jouissait d'un grand renom et pour cette occasion solennelle il laissa, selon le coutume, une stèle érigée à cette intention dans les grands souterrains du Serapeum.

(c) Pour la ville de Boubastis nous avons par chance, un personnage célèbre qui date d'un lointain passé. Il s'agit de *Neferti* et de ses Prophéties ⁽²²⁾, une des richesses de la littérature Egyptienne.

Ce Neferti était un prêtre rituel de Bastet à Boubastis et contemporain d'Amenemhat I qui fonda la XII dynastie. C'est

interprété par leur auteurs ainsi Jules l'Africian cite 9 rois pour la XXII^e dynastie et Eusèbe 3, Manéthon ne donne pas leurs noms. De même pour la VII la XII, la XX^e dipastie.

Quoi qu'il en soit des erreurs possibles de Manéthon et des interprétations erronées de son oeuvre, lorsque, après les découvertes de Champillion les savants modernes durent inévitablement attaquer la question de l'ordre des rois, seul Manéthon leur permit un départ sur des bases vastes et solides, même si des discussions restent ouvertes.

Le Delta Oriental

(a) Les personnages élabrés brillent peut être d'un éclat aussi vif dans le Delta Oriental.

Si nous pensons que *Ouahibre-men* (surnommé ainsi) contemporain d'Amasis appartenait à une famille de Delta Oriental. C'est à cause du titre de son père Hori que était prêtre Aou-haou ; lui même eut ce titre, de même que sa mère Shepen-Soped, prêtresse Aou-haou. Mais par ailleurs, selon la Statue Caire 27/11/58/8 c'est à Sais que notre personnage concentra son activité. Sa Majesté du nome de Sais l'ayant convié dans la ville et de même que nous l'avons constaté pour certains, précédemment, les talents de ce Ouahibre, en fait Sentaou-Tefnakht étaient variés.

Fut-il en compétition avec Prammétique-sa-neith dans ses fonction d'artichecte ? Tous deux semblent contemporains et exercèrent à Sais. (19)

Sentaou-Tefnakht a beaucoup de respect pour lui même : en l'an 39, le 3^e me mois de la saison akhet sous la Majesté du Roi de Haute et Basse Egypte [khnemibré] Sa Majeste du Nome

Basse Egypte, une pierre de de Palerme qui était peut être encore intacte à l'époque. (16)

A l'aide de ces éléments Manéthon devait retrouver, mettre en ordre, les événements qui, sur plusieurs millénaires, constituaient l'histoire de son pays.

En fait son oeuvre est géniale et les grecs et les romains purent connaître l'histoire complète et relativement authentique de l'Egypte. Après l'histoire des dieux et des demi—dieux, il divisa en 34 dynasties les familles royales en commençant par Ménès et en finissant par Alexandre le grand. De la Ière à la XI dynastie il comptait 2300 ans.

de la XII à la XIX 2121 ans.

de la XX ' à la mort de Darius 1050.

Cette histoire "Aegyptiaca" n'était pas la seule des ses oeuvres. On lui prête d'ouvrages "divers manuels sur les doctrines religieuses, le rituel, les fêtes et même un traité de la fabrication de l'encens ; un exposé chronologique—le livre de Sothis — lui a été également attribué, surement à tort" (17).

Il fut peut-être poète et versa dans l'astrologie, on dit qu'"il dédia à Philadelphie une dissertation en hexamètres sur les corps célestes" (18).

Mais hélas peu nous est parvenu de tout cela !

En ce qui concerne l'essentiel pour nous : Aegyptiaca. quelques extraits seulement furent préservés par l'historien juif Josèphe (aux environs de 70 après J.C.) et un abrégé dans les travaux des chroniqueurs chrétiens Jules l'Africain vers 217 et Eusèbe vers 327 ainsi que dans Georges le Syncelle vers 800, abrégé plus ou moins

de Sarapés qui n'apparut pas aux Egyptiens comme une innovation malheureuse bien que Macrobe prétend le contraire. Sarapis avait certains aspects égyptiens qui l'apparentent à Osiris et certains aspects hellénistiques l'apparentant à Dionysos ou à Asklépios (il fut comme lui dieu guerisseur) (14).

Toutefois ce n'est pas là que réside pour nous aujourd'hui l'importance incomparable de Menéthon. Il suffit de consulter les livres des plus grands égyptologues depuis Champollion avec les tableaux dynastiques pour être conscient du rôle de Menéthon. Comment concevoir une histoire pharaonique sans l'usage des dynasties instaurees par lui !.

Les Grecs se contentaient sans doute d'utiliser leur propre langue en s'installant, par la conquête, en Egypte mais les plus lettrés des Egyptiens durent vite comprendre la nécessité de s'exprimer en grec pour entrer en contact avec le vainqueur ce fut le cas du pêtre Menéthon ; peut être sur la demande de Ptolemée II fut-il chargé d'écrire l'histoire de son propre pays en langue grecque. Il fut sans doute mêlé à la controverse (15) opposant ce roi et Antiochus de Syrie au sujet de l'ancienneté des deux pays. Bien entendu Menéthon opta en faveur de l'Egypte. De quoi disposait-il pour réaliser ce travail ? D'abord de sa connaissance des hiéroglyphes expliquant une grande partie du passé sur les murs des temples et sur tous les monuments de pierre, sur les papyrus. Ensuite il devait avoir connaissance des récits qui se transmettaient verbalement ainsi que des contes et des légendes qui circulaient.

Probablement qu'il eut accès à des archives mutilées aujourd'hui comme les listes rois d'Abydos et la Karnak pour la Haute Egypte, les listes de Saqqarah et le papyrus de Turin pour la

commettre services sur services en Egypte, à Sais en particulier; alors profitant de son influence notre personnage convainc cambyse de lui permettre de rétablir l'ordre, de réintroduire la décence dans les temples, de rendre au clergé de Neith ses pouvoirs et il réussit, ce dont il se flatte sans mettre l'accent bien entendu, sur un passé plus inquietant !

“En bon courtisans su, il idéalise l'attitude de cambyse à l'égard de l'Egypte” (12). Il est toujours en vue au temps de Darius qui l'appela sans doute en Perse et à son retour il fait rebâtir l'école de Sais, ce qui prouve son attachement pour sa ville.

Darius est en Egypte vers 518 mais sans doute Oudjahorresné était-il mort à ce moment car il n'est plus question de lui.

Sebennytos

On appelle le plus souvent le grand historien Manéthon,

Menethon de Sebennytos. même si l'on ne peut donner de preuves de sa naissance en cette ville du Delta (actuellement Samanoud), La tradition en est bien établie et plus largement accréditée que celle le rattachant à Mendes pour laquelle on n'a d'ailleurs pas de preuves non plus. De Sebennytos, on le sait, il ne subsiste que des blocs de granit rose, gravés, dispersés ça et là dans les champs et absolument rien de ce qui fut le temple (13).

A l'époque ptolémaïque, sous Ptolémée Soter et Ptolémée Philadelphe (325—245) on pense que les rois eurent l'idée d'instaurer une nouvelle religion ou de développer un aspect de l'ancienne cimentant les liens entre Grecs et Egyptiens. les conseillers royaux furent Timothée l'Athenien et le prêtre égyptien—peut-être prêtre à Héliopolis : Menéthon dont on ignore à peu près tout de la biographie mais dont le renom d'homme de science ne fait pas de doute. c'est sur ses conseils, croit-on, que se développe le culte

"chef des grands scribes de prison". Il a encore d'autres fonctions civiles importantes comme "directeur du palais et chancelier royal".

Mais où sa biographie prend un aspect très complexe c'est dans son rôle de chef militaire, exactement de "chef de la marine royale sous le roi de Haute et de Basse Egypte Psammetique III". Suit alors un long panégyrique qui laisse le lecteur quelque peu perplexe :

" . . . Je fais que sa Majesté connut la grandeur de Sais, c'est la résidence de la grande Neith " qu'il connut l'aspect de la grandeur du château du roi de Basse Egypte je me suis plaint auprès de sa Majesté le roi de la Haute et de la Basse Egypte, Cambyse, au sujet de tous les étrangers qui s'étaient installés dans le temple de Neith pour qu'ils soient chassés de là, afin que le temple de Neith soit dans toute sa splendeur comme; il était auparavant. Sa Majesté ordonna de chasser tous les étrangers qui s'étaient établis dans le temple. Sa Majesté ordonna de restituer les revenus des biens à la Grande Neith Sa Majesté ordonna de purifier le temple de Neith et d'y replacer tous ses membres et les prêtres horaires du temple Sa Majesté se rendit en personne au temple de Neith. Elle se prosterna très grandement devant Sa Majesté Neith comme le faisait chaque roi".

Faut-il louer Oudjahorresné d'avoir su retablir ainsi les lieux saints dans leur pureté et d'avoir réussi à convaincre cambyse d'observer une telle attitude de respect ? Oui peut être mais pourquoi ne se glorifie -t-il pas plus tôt d'avoir chassé l'ennemi d'abrod et avant tout ? Que fait ce chef de la flotte face à l'ennemi ? Il n'y a guère de doute. Oudjahorresné a livré sa flotte à cambyse et de ce fait il a été fort apprécié à la cour perse mais les armées ennemies, comme cela a toujours lieu dû

sés pairs pour faire tous les monuments qui sont à Saïs parce que sa Majesté reconnaît en moi un serviteur du dieu". Un serviteur dont le roi reconnaît la main habile; sans doute, puisqu'il se déclare. "Confident du roi et . . . celui qui transmet les sappings des concitoyens de sa ville dans le palais et qui éloigne le mal d'eux; chaque jour". Sans doute était il préférable pour un saïte d'être en bons termes avec un intermédiaire si puissant qui approchait aisément le roi.

(d) On est célèbre quand on participe à la défense de son pays, ou qu'on prévient les attaques ennemies. Cet honneur dut être réservé à :

— Ouahibrê qui est peut être né sous Apries et a suivi sa carrière sous Amasis. Il est connu par 14 documents ⁽¹⁰⁾. Bien sûr il était aussi directeur des châteaux de Neith, le hery-Oudjeb, fils d'un prophète de Neith-la vache nommé Peftaouneith et d'une prêtresse horaire de château de Selkit nommée Ta-cheben neith, c'est à dire un personnage saïte d'origine, mais nous distinguerons ici ses titres militaires : "directeur des pays étrangers du Sud . . . , chef des troupes . . . préposé à la porte des pays étrangers".

(e) Un autre personnage contemporain du précédent a fait beaucoup parler de lui . . . mais participe-t-il lui aussi à la défense de son pays ? Il s'agit du célèbre.

— Oudjaharresne ⁽¹¹⁾ qui, sous la XXVII 'dynastie—perse (525-405) se fit faire une statue connue aujourd'hui au Vatican sous le no. 196. Il était de noble famille saïte et il nous apprend que son père Peftaouneith était "directeur des châteaux de Neith, le hery-Pe, le Renp, le hept-Oudjat, prophète de Neith qui est en tête du nome saïte". les talents du fils devaient être variés et il ne se contente pas de suivre la voie saïte sacerdotale. Il se targue d'être "scribe et inspecteur des scribes du tribunal" ainsi que

son fils qu'il aime qui a fait pour lui cette statue alors qu'il était déjà dans la nécropole" ; le quel fils digne successeur de son père était aussi " directeur des châteaux de Neith, initié aux secrets du ciel, le grand pur connaissant ses devoirs celui qui connaissait son rang dans les places sacrées"—ce fils appelé Amasis avait pour mère, de même que dans le cas précédent, "une joueuse de sistre de Neith, dame de Sais" appelé khedk—neith—ert—bent"

Enfin, toujours, dans le même ordre d'esprit, nous citerons :

—Amasis connu par la Stele no. 4129 du Serapeum (6) et qui vécut sous la 1^{re} domination perse.

ses titres et ceux de son père permettent de penser qu'il appartenait lui aussi à une famille saïte. Il était :

"Père divin et directeur des châteaux de Neith, le ouu—ro le hery—Pe d'Ouadjit maîtresse d'Imet". Ces deux derniers titres sembleraient indiquer qu'il était un fonctionnaire provincial de Sais. Il possédait encore le titre de "chanteur du temple de Neith" et était fils de "l'imakhou auprès de Neith, prêtre lecteur en chef Psâmmétique—sa—neith".

Il n'est pas impossible que la Stèle du Serapeum s'explique par la venue de notre saïte lors de l'enterrement de l'un des Apis (7).

(c) D'autres célébrités saïtes eurent peut-être des talents plus précis. N'était-il pas architecte cet autre :

—Psâmmétique—Sa—Neith contemporain d'Amasis (8) ?

Sur sa statue du Musée de Philadelphie no. 4091 on apprend (9) que ce "chancelier royal [était] directeur de tous les travaux de Sais" et plus loin il se vante que "sa Majesté m'a choisi parmi

“ directeur des châteaux de Nieth, initié aux secrets du ciel, le hery-Pe, l'initié secrets dans les places secrées dans le château de Neith”

Digne fils de son père Padeg—ahet qui était avant lui :

“ Directeur des châteaux, prophète d'Hathor d-me de l'Imaou, qui est dans le temple de Neith, prophète des vêtements de lin de Neith”.

Ce sont de grands serviteurs des temples entre la fin de la XXVI dynastie et la début de la domination perse ou encore :

—Psammétique-sa-neith

Contemporain d'un des deux Psammétique royaux et d'Apries. sur sa statue de l'Ashmolean Museum no. 1131 on lit : (4)

“ Psammetique sa—neith prophète d'Isis, issu de la tissense du sanctuaire de Rs—Nt, sheryt—ent—Asat”, son père est le prophète d'Horus, fils de Neith, Ouahihre—mer—neith c'est une famille bien assise et le fils suit la trace des parents—lui aussi est “directeur des châteaux de Neith, prophète d'Isis” —C'est Oudjahorresne ‘ issu de la dame de la maison, joueuse de sistre de Neith, dame de Sais’. Elle s'appelle Ta-net-resne.

Nettement toute la famille est vouée aux occupations sacerdotale et ne pouvait manquer d'être respectée à Sais. De même encore :

—Djed — Thoth — iouef ankh que a vécu entre Psammétique II et Amasis. Sur sa statue n° 71 (289) du Musée Rodin (5) on apprend que ce prêtre était “directeur des châteaux de Neith et fils de Psammétique—men—er—nehh”. On lit encore : “C'est

On lit sur le socle de la statue :

“ (Statue) qu'a faite leur fils, pour renouveler leur noms dans le temples de Neith dame de Sais—chef des chanteurs d'Osiris, le souverain—chef des chanteurs de Neith de la couronne blanche et de la couronne rouge — chef des chanteurs de temple de dieu bon Néchao—chef des chanteurs de la Meret de la Haute—Egypte et de la Meret de la Basse Egypte—chef des chanteurs du temple de Selkit dans le nome de kedem.

Ouahibrè—mer neith, fils de Pen-hout bit — qu'a enfanté Sitman, fille du chef des chanteurs du Pieu sacré, Amasis Plus loin il est précisé que Pen-hout-bit et le grand-père Ire-faa-neith étaient aussi au service des temples de Sais comme chefs des chanteurs.

Toute une famille de musiciens donc, originaire de Sais et ayant servi leur ville. On verra que des fonctions ne seront pas toujours aussi étroitement limitées, Beaucoup multiplieront des fonctions diverses, incompatibles de nos jours, beaucoup auront des parents chanteurs et chanteuses mais eux-mêmes n'auront pas de titres de musiciens ou ce sera un titre parmi d'autres comme Amasis.

(b) Quel degré de célébrités eurent des personnages dont l'abondance des titres religieux peut surprendre ? Nous ne saurons jamais si la multiplicité de leurs titres était le fait de leur habileté politico—religieuse ou celui du renom de leur sainteté mais, en un sens, ils étaient célèbres à Sais au moins. Citons par exemple.

— Tefnakht

connu par la statue CG. 662 du Caire lui aussi est membre d'une famille importante à Sais (3). Il est :

mes justement célèbres sont originaires de Basse Egypte ; selon leurs dons, leur intelligence, ils ont pu servir tel ou tel monarque.

Dans notre société ils seraient des ministres, des Professeurs, des généraux, des médecins, plusieurs fois académiciens : ils furent vizirs, prêtres, juges, écrivains Nous partirons d'abord de l'Ouest de Delta avec Sais qui nous tient particulièrement à coeur, nous limitant d'ailleurs toujours aux personnages dont l'origine est peu contestable.

— au centre nous aurons à citer Sebennytos.

— à l'Est Pharbaitos, Boubastis, Athribis.

— au Sud Heliopolis, Toura.

Sais

Il est à remarquer que les personnages cités sont de la XXVI dynastie ou d'une époque plus tardive.

(a) Ouahibrê—mer—neith

Il ne semble pas que l'on connaissait à l'époque pharaonique d' "artistes à renommée mondiale" mais il y avait des familles de musiciens dont plusieurs membres honoraient les dieux qu'ils servaient dans les temples en jouant de la harpe, des sistres ou des tambourins, en chantant des hymnes. Ce fut le cas de Ouahibrê—mer—neith et de sa famille. Nous le savons par sa statue en possession du comte de Beaumont—Bonelli à Naples ⁽²⁾.

Ce fut une famille originaire de Sais et attachée aux dieux des temples de la ville au temps de Néchao.

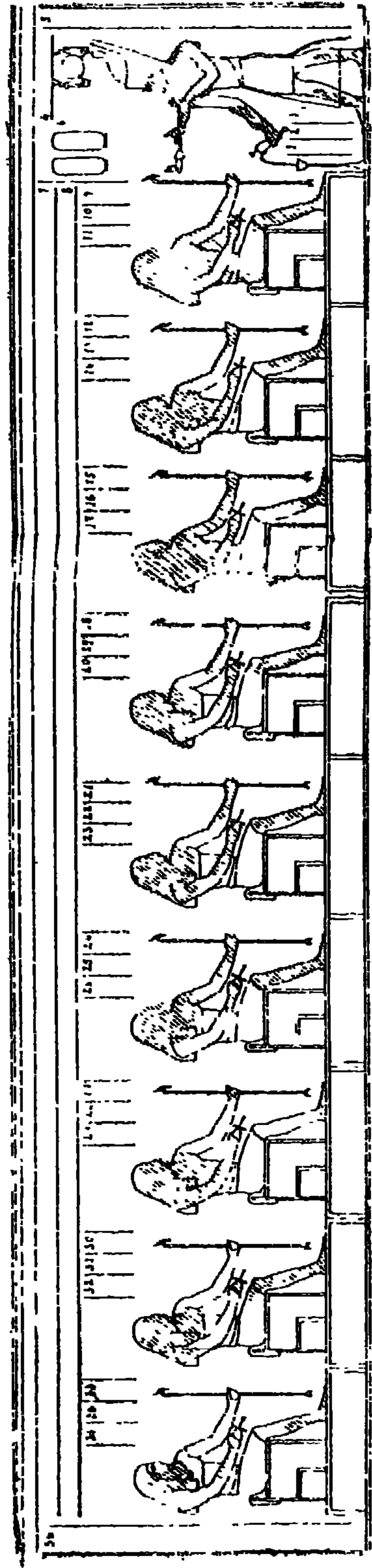
Quelques personnages célèbres au temps pharaonique dans les provinces de Basse Egypte

PAR

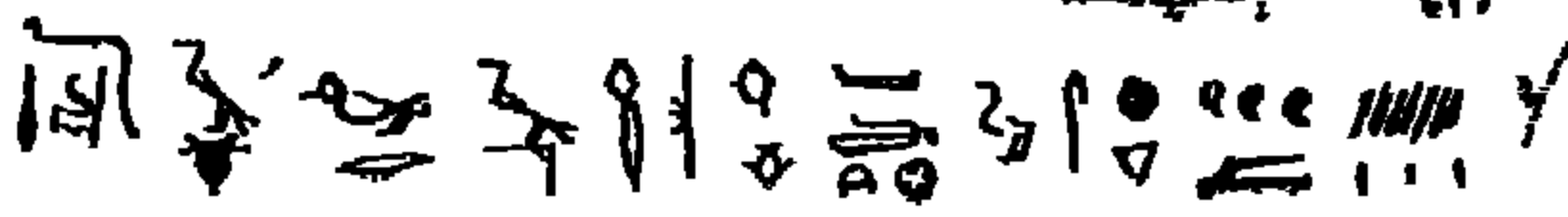
Ramadan el Sayed Minieh


L'idée de cette recherche est née d'une conversation avec le professeur Yoyotte en novembre 1976. C'est lui qui a fait de nous un fervent égyptologue et ses suggestions sont toujours riches de développement éventuel. Pourquoi suivre uniquement l'éclairage le mineux fixe sur les rois ? De toute évidence l'importance des rois est au-dessus de toute comparaison mais le comportement royal, autrefois comme aujourd'hui, pour les chefs d'état, est inspiré par les ministres clairvoyants qu'ils savent attirer, par leurs juges intègres, leurs philosophes pleins de sagesse, leurs écrivains astucieux. Beaucoup des personnages de l'Egypte ancienne ont disparu à jamais dans les ruines, dans les sables du désert, dans les limons du Nil mais certains vivent encore dans le souvenir grâce à une stèle, à une tombe, à un texte où leurs hauts faits sont relatés. C'est pourquoi sans prétendre à une recherche exhaustive qui serait un défi au bon sens nous nous sommes intéressés à certaines biographies des contemporains de pharaons. (1)

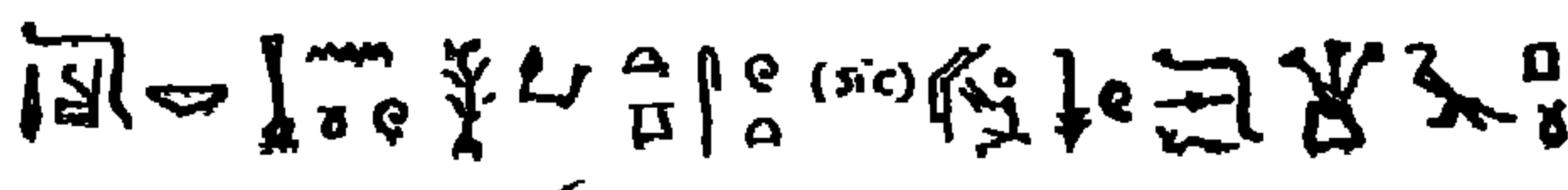

Nous avons voulu commencer notre travail par le Delta. Un souci d'ordre peut-être, en utilisant notre logique qui va du Nord au Sud mais aussi un signe de notre regret. Hélas ! — la Basse Egypte a conservé bien peu des monuments qui durent l'orner à un moment ou l'autre de l'histoire pharaonique, les sables ont avalé jusqu'aux ruines mais on ne peut ignorer l'importance, l'existence de Sais, de Tanis, de Boubastis, d'Héliopolis Et certains hom-





From Chassinat, *Edfu*, X, pl. LXXXV

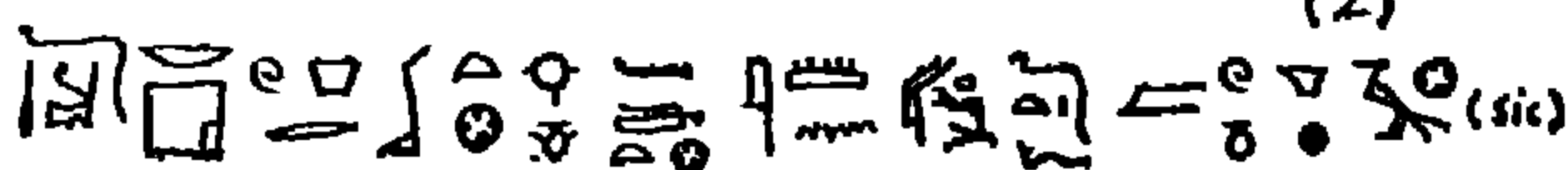
4. Harshedy :  (1)

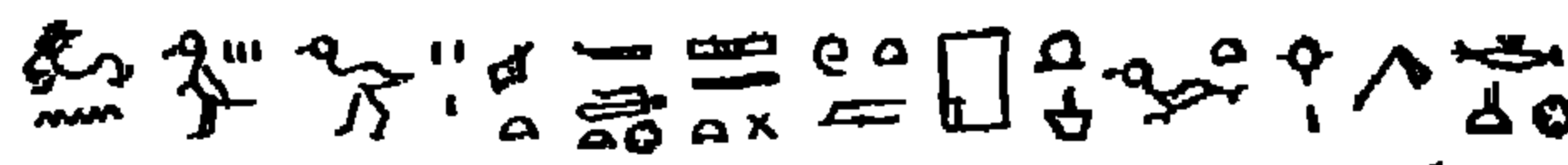
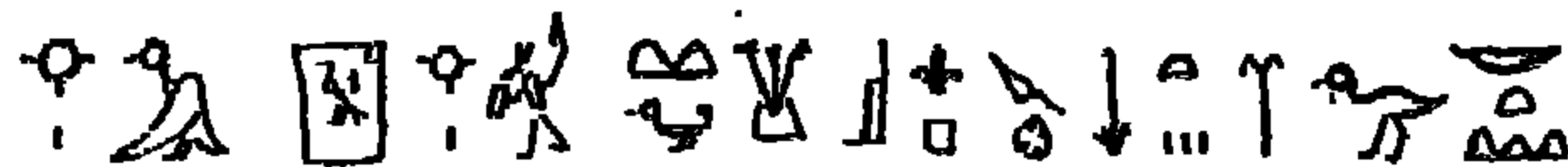

5. Neter-AA-Em-Spat-ef : 

6. Neb-Shenw : 


7. Ba-Netry : 

8. Khenty-Behdet : 

9. Neb-Hwt-W^cret :  (2)

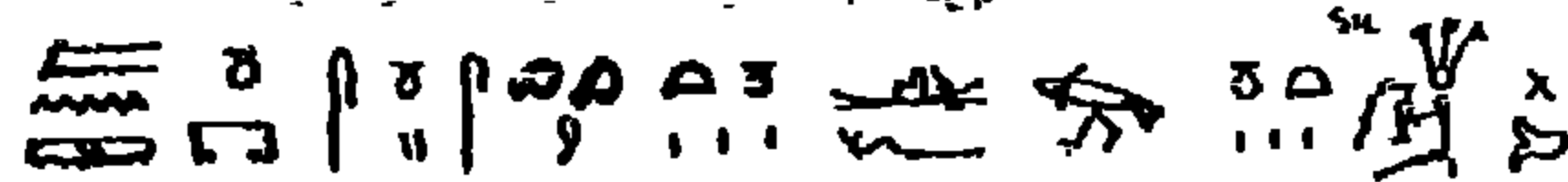
(1) Read

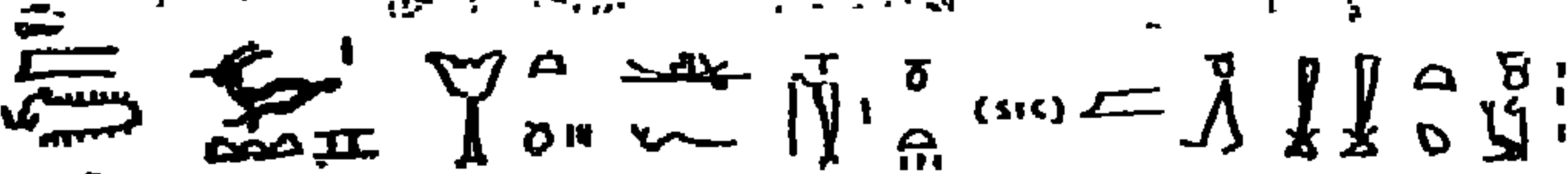
 (collated) >

(2) It is a mistake for  See E. IV, 85, note 2

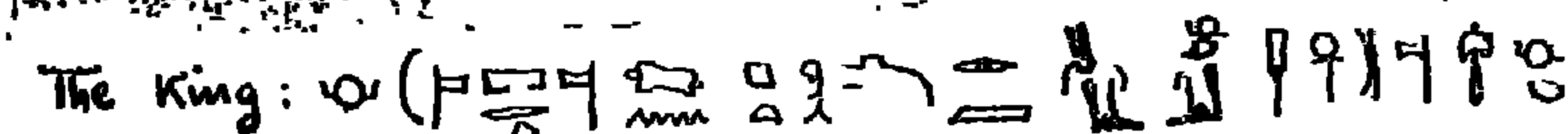
Exterior of Naos
(E. IV, 83, 4 - 85, 8)

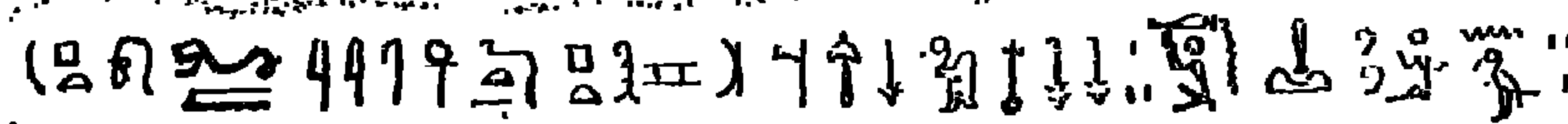
Title and Formula: 





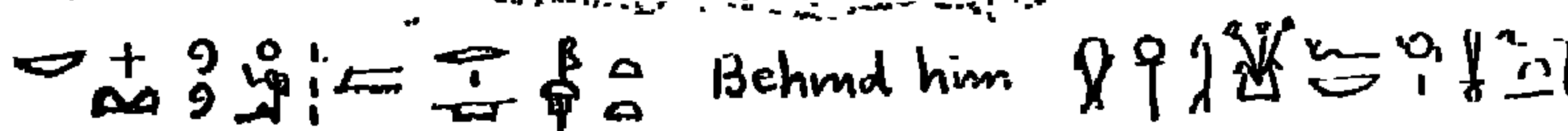


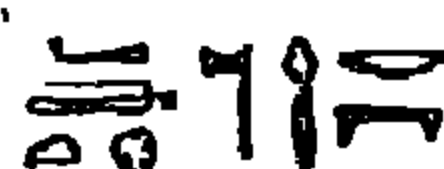
The King: 




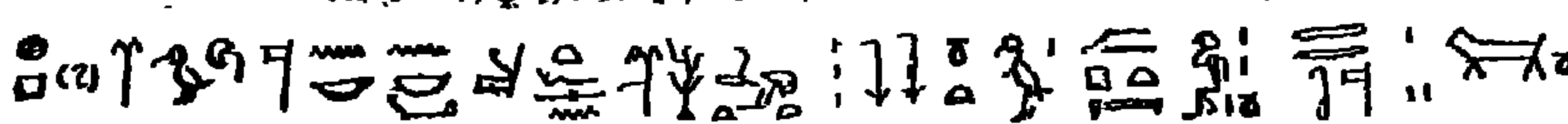





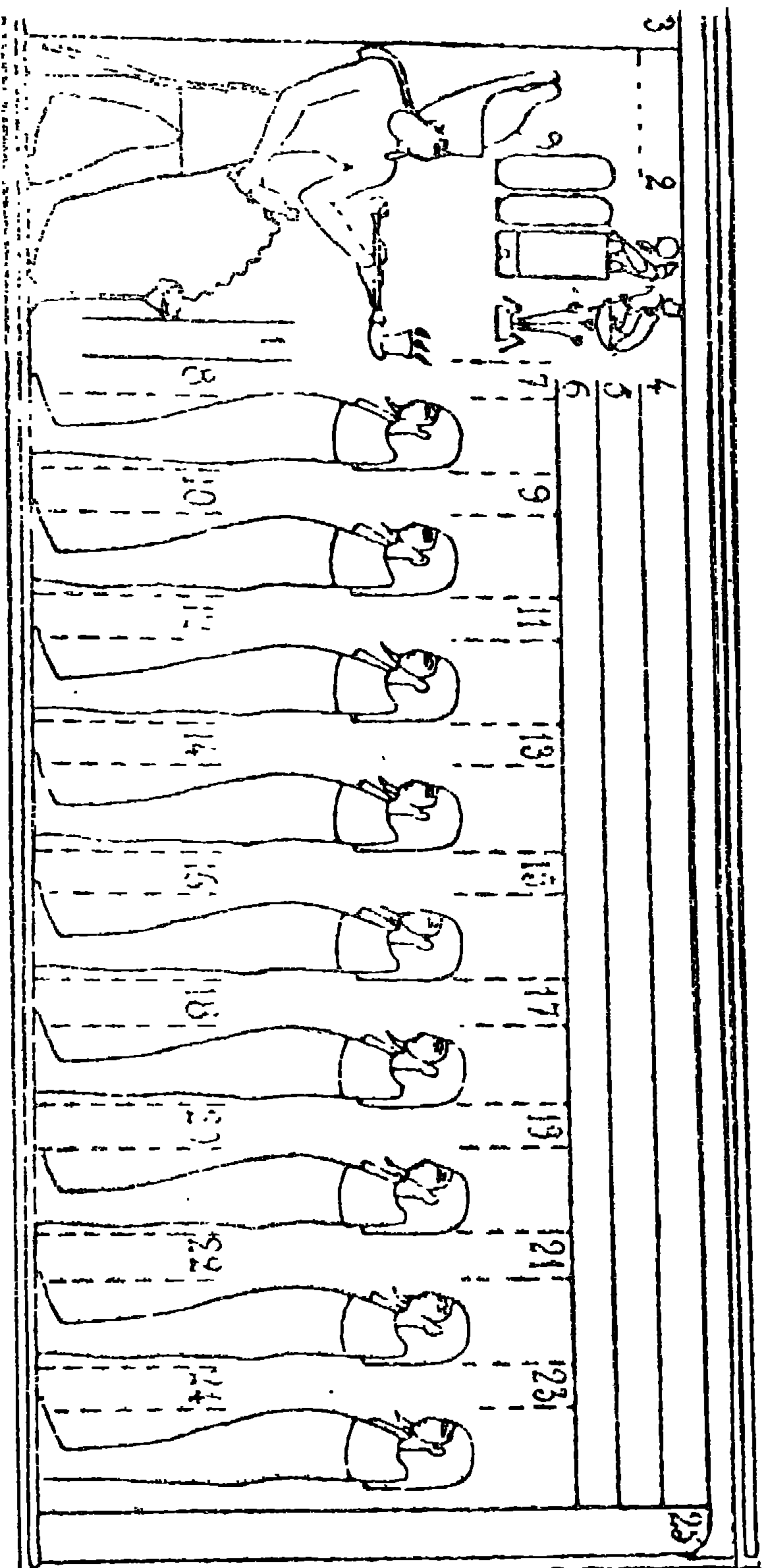
 Behind him

above him is the solar disk 

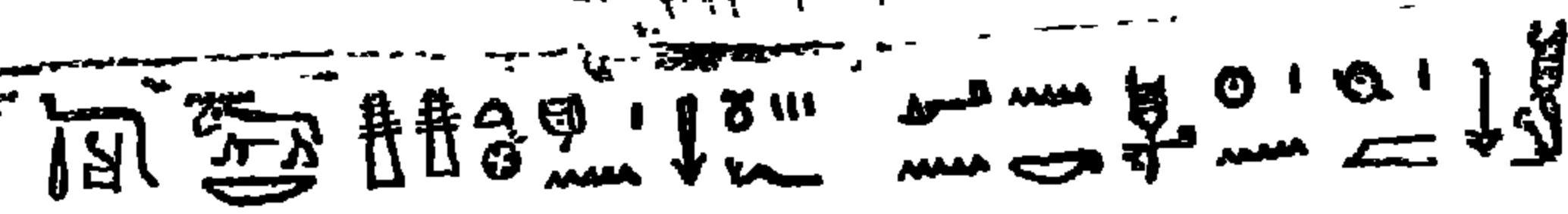
Divinities: 

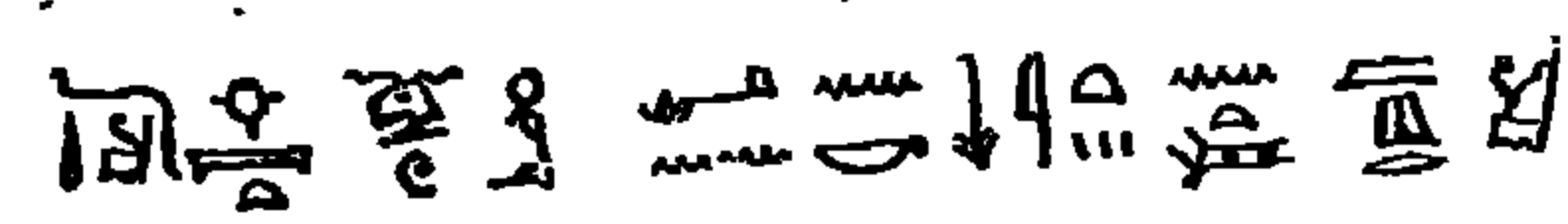




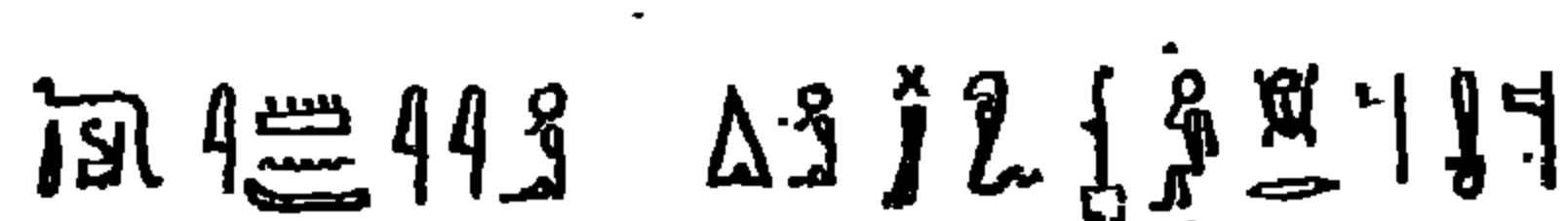


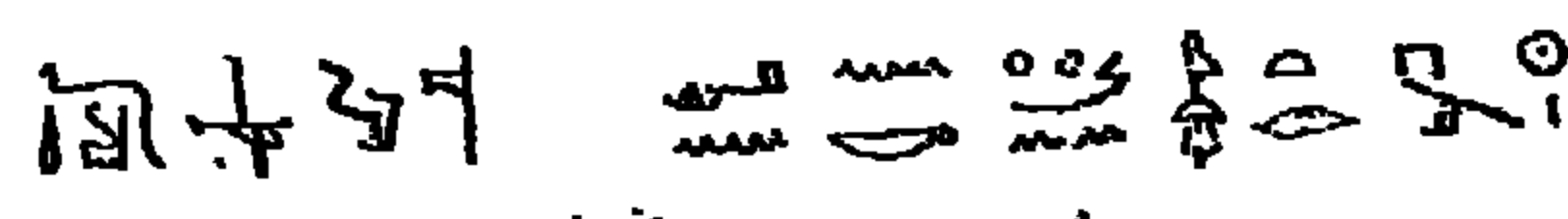
From Chassinat, *Edfu*, IX, pl. XL d

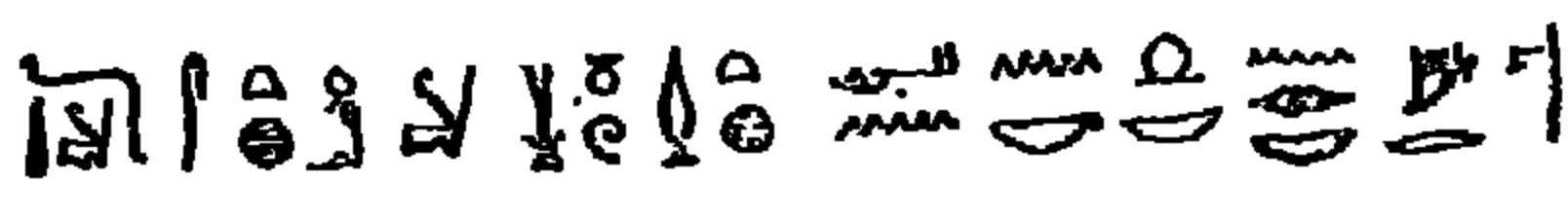
1. Banebbed: 

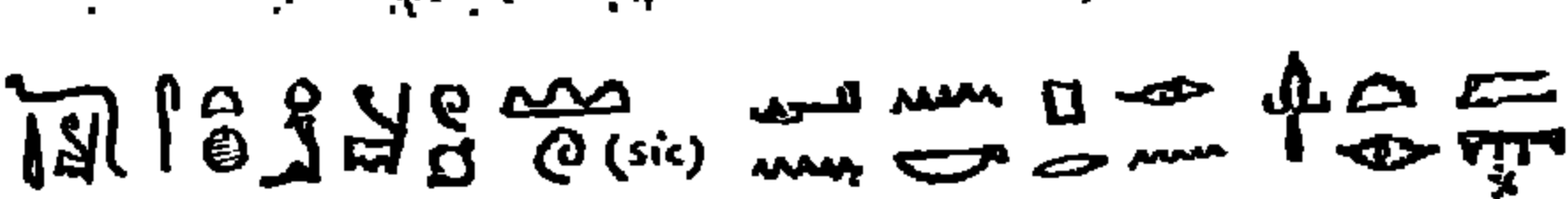
2. Harshaphes: 

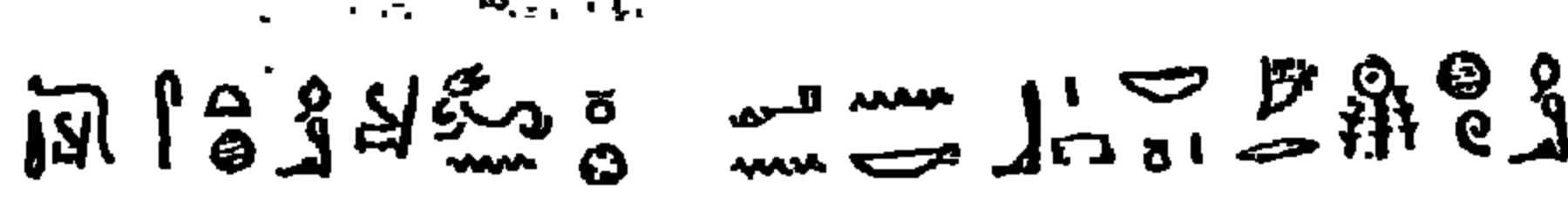
3. Benenu: 

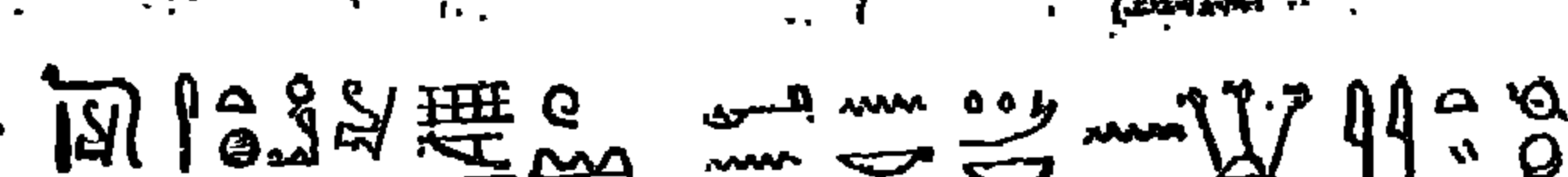
4. Imenhy: 

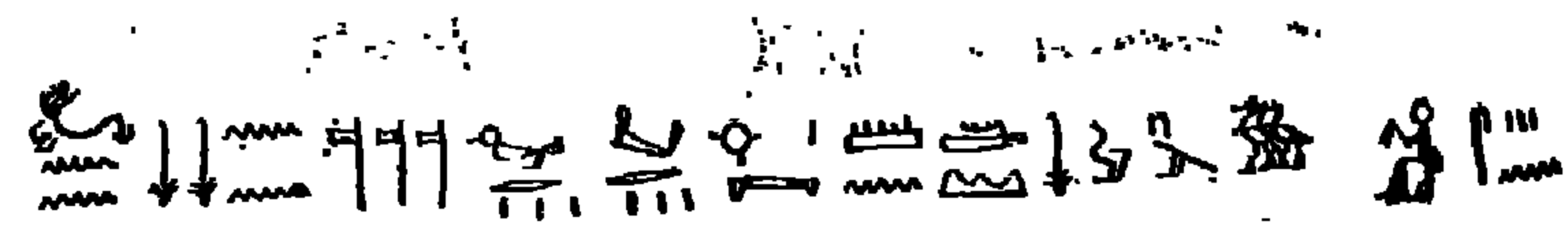
5. Antywy: 

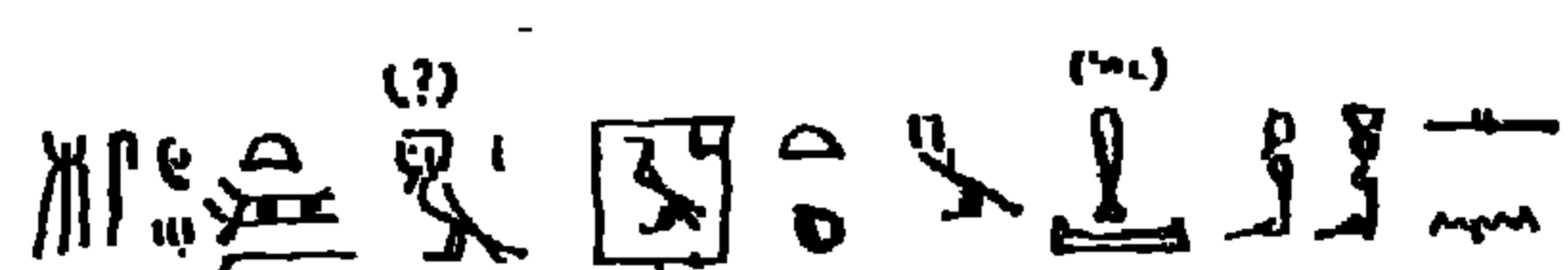
6. Seth: 

7. Seth:  (sic)

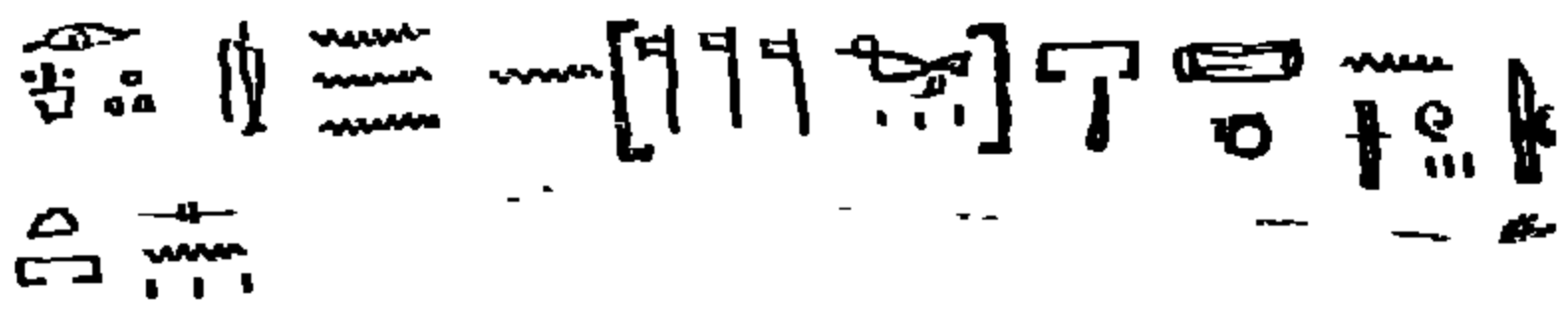
8. Seth: 

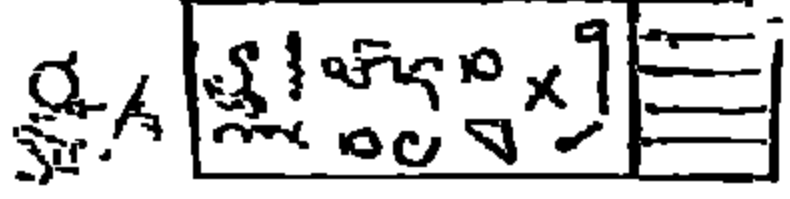
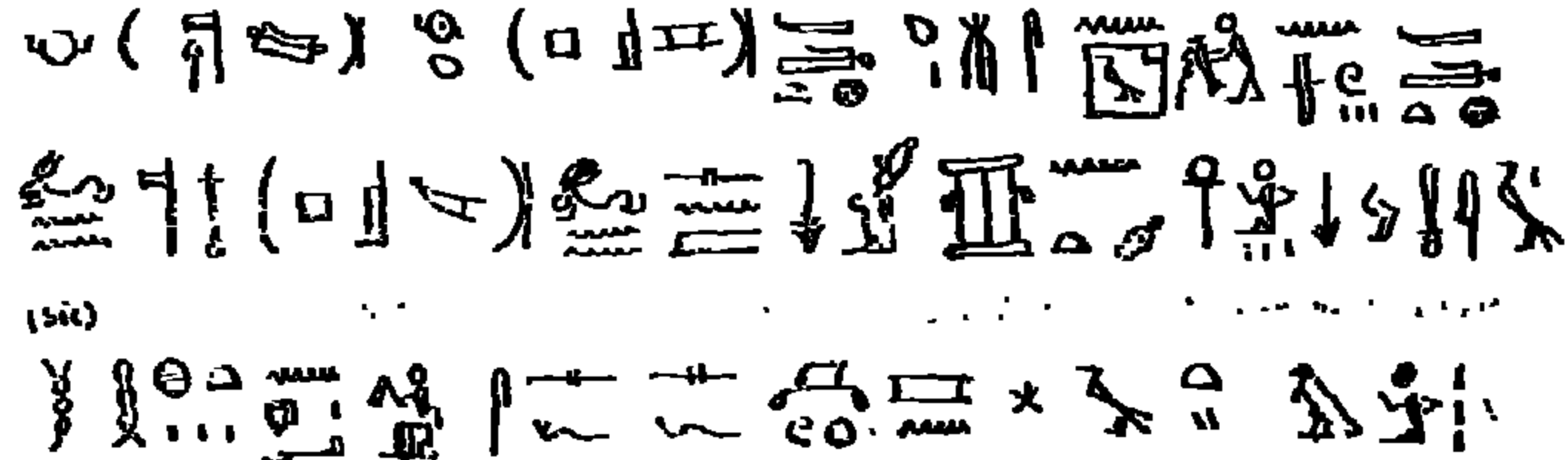
9. Seth: 

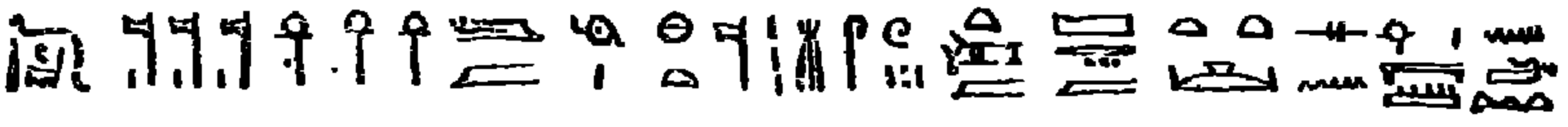
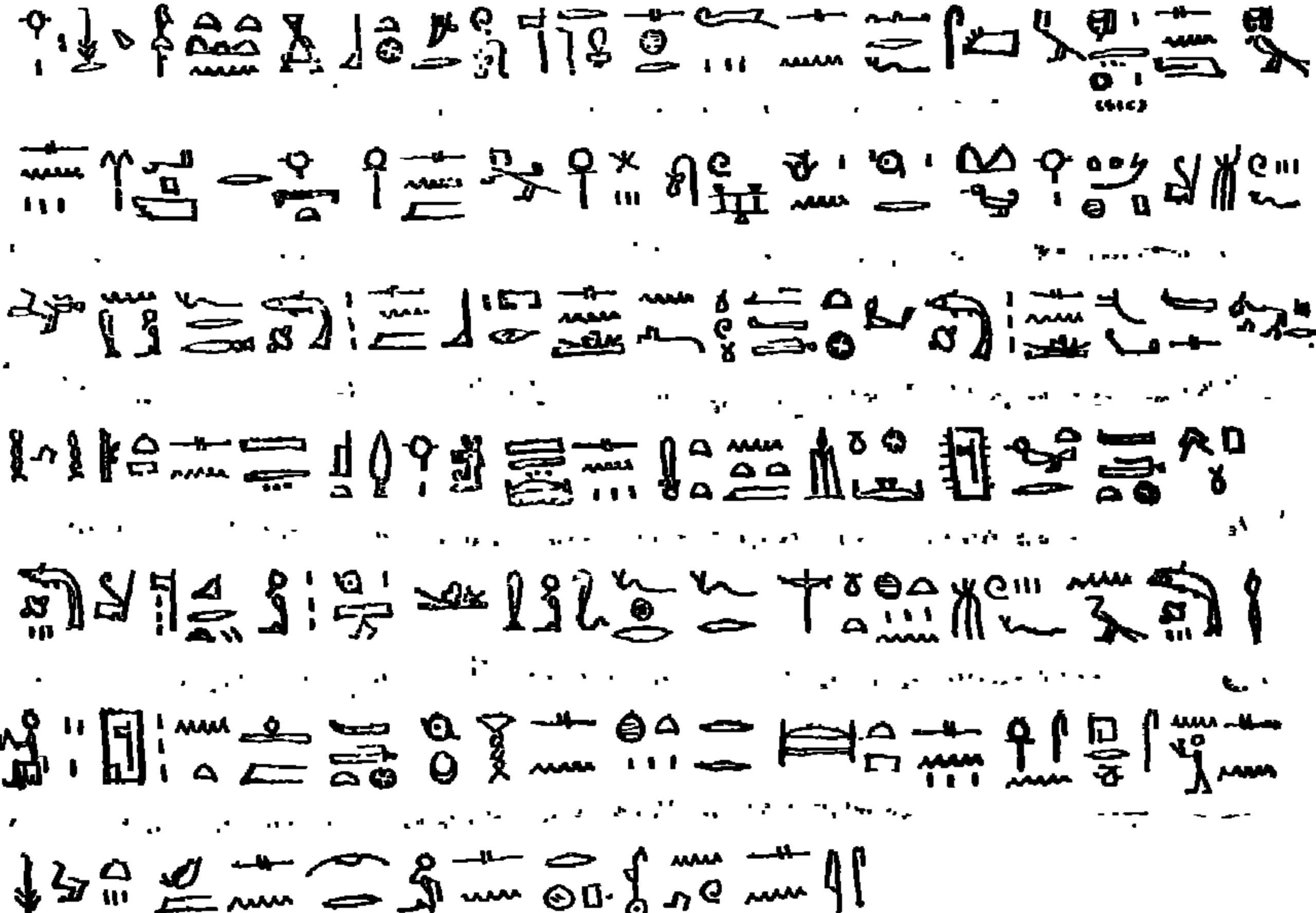


 (?)

Second Hypostyle Hall
(E. II, 51, 3 - 52, 9)

Title: 

The King: 


Divinities: 


: The signs placed between the square brackets are traced in the reversed order of the rest of the inscription

12. For the significance of the driving of the calves see A.M. Blackman and H.W. Fairman, "The significance of the ceremony of 'Hwt-Bhs.' in the Temple of Horus at Edfu" in *J E A.* 35, 98-112; 36, 63-81.

13. Very important witness that a sacred grove was in Helio-
polis as in Edfu and Philae too. This shows that the cult of the
ancestors was spreading throughout Egypt, see Mohiy Ibrahim,
"Festival of the Sacred Marriage" in *Magazine of the Faculty of
Archaeology. II.*

14. For *wnw* see below p.

15. For *spr-mrw* see below p.

16. *N* is for *m*.

17. To be read *hnk* = mortuary priest, see Cardiner, *Wilbour
Papyrus*, II, 111-113, esp. 112.

It happened also in Shoshenk stela as *hnkw* = endowments, see
Blackman, *J.E.A.* 27, pl. 10 (No. 4d); P. 48 (No. 24).

18. For *nswtj* priest, see Blackman, *J.E.A.* 11, 214. The *nswtj*
priest was the priest of *Hry-s.f.* See also *wb.* II, 334 (9).

19. Lit. means "of prominent position in the presence of him
who is upon his bier" i.e. 'Osiris'.

20. Cf. *E.* II, 51, 3-52, 9.

21. For *wnsy* see *Onomastica*, II, p. 111.

22. This text will be discussed in a forthcoming paper.

23. Either '*ntywy*' or '*Hr-sdiy*'.

24. For the Battle of Raphis see No. 8 above.

FOOTNOTES

1. See Mohiy Ibrahim, "King makes offering to his ancestors" in *Société Égyptienne d'Etudss Historique*, No. 23 (1976), pp. 3-10
2. See Mohiy Ibrahim, "The Festival of the Secred Marriage in Edfu" (in Arabic) in *Magazine of the Faculty of arrchaeology*, II. (1977), pp.
3. See above nos. 1,2 ; sce also Mohiy Ibrahim, "An oblation offered to reigning king king and queen" in First International Congress of Egyptology (Cairo 1976).
4. See the review on pp.
5. S.K. Eddy, *The King is dead : Studies. in the Near Eastern Resistance to Hellenism 334-31 B C.* (Nebraska 1981), 260 ; 302 ff ; H.I. Bell, *Egypt from Ate Alexander the Great to the Arab Conquest : A Study in the Diffusion and Decay of Hellenism* (Oxford 1956), 36-37.
6. Eddy, *op. cit.*, 306
7. Bell, *Egypt*, 35.
8. For the Battle of Raphia see Eddy, *op. cit.*, 297 ; Bell, *Egypt*, 57-58 ; Bell, *Cults and Creeds in Craaco Roman Egypt* (Livrpool 1957), 53-54.
9. See below on pp.
10. See *E.* II,51,3-52,9 ; *E.* IV, 83,4-85,8 ; See our pls. I-VII.
11. It might be also *sty m.w.*

kbhw n s'hw sn ikr(w) ikh nb(t) 'Iwnt r bw hr
hm ntr.sn hr sfsf-3w n b3 (w) sn dsr (w) mn. tw m Bhdt
[hm] sky dt tp-t3 m drw ntrw.

- (19) di.n n k 'h'w ir.n hnt imnt mi R' hr st Hr
dd mdw in B3 nb ddw wr hnty Bhdt s'h.f m mh 36.
- (20) dd mdw in Hry-s.f ntr '3 '3 sfyh hry-ib Bhdt wsh dt. f
m mh 9.
- (21) dd mdw in ('I) mthy mnh m 3ht-hh wr-'3 inm n ' 'n.
- (22) dd mdw in Hr-sdty wr ntr '3 hry-ib Bhdt wsh h'w. f
m [mh 13].
- (23) dd mdw in Ntr-'3-m sp3t.f hk3 nb mh 31.
- (24) dd mdw in Nb snw dsr sdg.sw ds.f h3p h3t f m Bhdt rsy.
- (25) dd mdw in B3 ntry hpr ds.f '3 phty thn im3w.
- (26) dd mdw (i)n Hnty-Bhdt hry-ib 3ht-hh ntrw hnty psdt wrt.
- (27) dd mdw in Nb Hwt-w'rt hry-ib Bhdt imm dt.f m Wbn-Hr.
- (28) wn b3w ikrw hnt Bhdt st3 .tw m hwt-snbty hr hw Msn
hr mk hwt-bik hr shr dw h3 st-wnp swt m nb (w) igr
hk3w n hrt sma3 smyt m s'h (w). sn ikr(w).

- (9) dd mdw in Sth n snw
di.n. i n.k sn nb n irt nb n irt nb- r -dr.
- (10) dd mdw in Sth n wh3t
di.n. i n.k ptr n i3bt m grh.
- (11) dd mdw in Sth n wnw
di.n. i n.k bw nb n dr 3hw.
- (12) ddw in Sth n spr-mrw
di.n. i n.k m33 nb n h3yty.
- (13) wnn nn ntrw dsrw hry mnt sw m b3w spsw m msw 'Itm
Hr Hwt-Hr m hnk. sn.
- (14) irt sntr kbh w dd mdw iw sti nfr r. tn m Nhn sns n hnty.
tn im.f bs. i n. tn hp'y wr m krt b'h.i h3wt (or wdhw).
tn im.f kbh.i n.tn m in snty sntr kbh mrw.
- (15) nsw bit (iw' n ntrwy stp n Pth ir m3't R' shm 'nh n
'lman) ntr mnh s3 R' (Ptolemy 'nh dt mry Pth) ntr mnh
nswty nfr n nnyw w'b hnk n b3w 'nhw s3 R' (Ptolemy
'nh dt mry Pth) hr p.f h'' .tw m-hnt P Msn hr ssp hkrw f
hr itt rnpwt hr sty mw n nty m ihks sw mi Hr sm3-t3
n htptyw nb wndwt m r-'3 imntt.
- (16) s3 'nh w3s h3 .f nb mi R' dt.
- (17) Bhdty ntr '3 nb pt.
- (18) dd mdw n Bhd msw Hr-3hty dsr-st. sn m i3t ntry pri
m R' hpr m nbab in it.sn m-ht wtyw nn nt b3
m pt msw n Tty (or 3hty) rtrw hn hrt nbhw nt psd-t3
i3w wtt Hr pry im f sns (m) h't. sn m Bhdw n R' hpt
rst m 3ht-hh sm r imnt m Wbn-Hr imn st sn m st-hh
sm3-t3 im.sn m imnt [w'bt]. sn m w'bt w'bw b3w ikrw
wn m t3 pn wsh st hr hry nmyt.f wd n.R' r st3 sty sn
sikr t3 dr thn. sn spr Bhdty r Bhd hr k3(w) sn sty n.f

TRANSL TRATON*

(1) ixt sntr kbhw n [ntrw wrw] pr-hrw n imyw ist. sn

(2) Hr bwnw kn.

nsw bit (iw' ntr manh) s3 R' (p(3) mr 3st) s3 Bhdt ms n
Hwt-Hr kb n imyw Bhdt wnn ntr nfr (p(3) mr 3st) wnn. sn m
nsw hnty 'nhw sw mî Hr w3h ht n tpyw-' sfsf-3w n dw3tyw.

(3) dd mdw in ntrw 'nhw pri m R' psdt msw Itm st3 m styt.
sn hry mnt hr rsy imnt n Db3 dr ntr r db' shrw.sn n rf skm
tp-t3 .sn pr b3 .sn m 'pv r hrt 'nh sn m-' 'nhw w3 ib sn R' r
dw hr m33 hpr n nsw.f wd n hm.f r hts h3t.sn m bw ir.sn im nwdt
m Bhdt dsr h3t sa im hwt blsw r hhy ist sn st3 -st hr st3 styt.sn
mitt ntt m Iwn i3t ntry wrt Bhdt h3p h3t n ntrw krtyw R' sm
im hry.tp.f hr f r nd ht n msw f n3 h3t 'j(w) spsw ntry nty htp
m Bhdt r'-nb w3h.sn ht r rw styt sn 'nh-sn hr.sn dw3.sn swt sdm sn
spr.sn r hpr tr n iw.sn is.

(4) dd mdw in B3 nb ddw typ n snw.f

di.n. i n.k 'h'w n R' m nsw.

(5) dd mdw in Hry-s.f

di.n. i n.k nsyt n 'ltm hr shmtty.

(6) dd mdw in Bnnw hpr ds.f

di.n. i n.k rnpwt n nb r-dr m 'hk3.

(7) dd mdw in 'Imnhy

di.i whm.k rnpy mi hpri.

(8) dd mdw in 'ntywy

di.n. i n.k m33 n wmnt m hrw.

* Because of the shortage of italicized script, we have been obliged to use the normal characters in printing this transliteration.

But one feels, nevertheless, the very thin relation between some of them and the god Seth himself; such as "Seth of the trees" in the earlier versions and "Lord of the trees" in the later versions, and Moreover the lord of *hwt-w'rt* (i.e. Avaris) was indeed Seth.

The reason of this replacement seems very historical more than dogmatic, because under Ptolemy IV the four forms of Seth were mentioned, while under Ptolemy VI only two short texts referred to these four forms, then these four forms were replaced by the other four gods just mentioned above.

The historical reason for this change was the reaction of the Battle of Raphia²⁴ (217 B.C. under the reign of king Ptolemy IV) when attempts of Antiochus III to invade Palestine were decisively defeated at this battle (on the 22nd June 217 B. C.), in which for the first time native Egyptian troops served in the Ptolemaic army, this was a great stimulus to Egyptian nationalism and sparked off the first of the long series of native feeling, especially in the Thebaide, always the breeding-ground of Egyptian nationalism. The Egyptians, for the first time, were treated as the military equals of the Greeks, had acquired a new conceit of themselves, and thus one cannot notice any direct mention to Seth, that god of evil after the reign of Ptolemy VI.

Thus, after reviewing these texts, it is an extraordinary fact, as I have mentioned before, that in the earlier versions no less than four of these nine gods are forms of Seth; which indeed seems remarkable in the Ptolemaic Period when Seth cult was particularly unpopular, and above all at Edfu where the main emphasis was always violent enmity towards Seth-

This paradox was apparently appreciated, for the latter versions showed that the Seth forms were replaced by others, though in a very thinly disguised way.

The four forms of Seth as mentioned in the above review are :

1. Seth of the trees (near or at Kasr as Sayyad, see *Onomastica*, 11, pp 31, 32 (344)).

2. Seth of the oasis.

3. Seth of *Wnw* (one of the cult places of Seth, see *Onomastica*, 11, p. 31 (343 D)).

4. Seth of *Spr-mrw* (*spr-mrw* was first mentioned in Ramesside times, and from then onwards evidently the most important town in the region given by earlier and later nome-lists as the XIXth nome. The deity of both town and nome was Seth. See *Onomastica*, II, p. 110 (388)).

These were the four forms of Seth which were mentioned in the earlier versions, in at least four of the texts of the ancestors, but in the later versions we find instead of them the following four gods :

1 *Ntr '3 m sp3t f* (The great god in his nome).

2. *Nb snw* (Lord of the trees)

3. *Hnty-Bhdt* (Pre-eminent in Behdet).

4. *Nb hwt w'rt* (Lord of Avaris).

their place of burial) ” (E. IV, 103, 11)

“Who has his being in the ancestors” (E. IV. 10, 13)

E. IV, 239,13 – 241, 14 B3 nb ddw Hry-s·f (‘I)mnhy

Ptolemy VI, Philometor offers *Hr-sdty ntr ‘3 m sp 3t.f Nb snw* incense and libation to the senior *Bnnw Hnty Bhdt nb hwt-w’rt* ones. The nine divinities seated on thrones, each throne standing on its own podium.

E. V; 61, 17 – 63, 16 [B3] nb ddw Hry-s·f ‘Imnhy

A king (cartouches blank) offers [*Hr-sdty*] *Ntr ‘3 m sp3t f Nb* incense and libation to the great *snw Bnnw Hnty Bhdt Nb* and senior gods of Behdet. *hwt-w’rt*

E. V, 160, 12 – 162,6 B3 nb ddw Hry-s·f ‘Imnhy

A king (cartouches blank) offers ‘*ntywy ntr‘3 m sp3t f Nb snw* incense and libation to the great, *Bnnw Hnty Bhdt Nb hwt-w’rt* and beneficent gods of Behdet.

E. VII, 118,4 – 119,8 B3 nb ddw Hry s f (‘I)mnhy

Ptolemy, Soter. 11 *Hr-sdty Ntr ‘3 m sp3t f*
presents incense and libation *Nb snw Bnnw [Hnty] Bhdt Nb*
to the gods of Behdet. *hwt w’rt*

E. VII, 279, 16 – 281,2 B3 nb ddw Hry s f (‘I)mnhy

Ptolemy Alexander offers [23.] *Ntr ‘3 m sp3t f* incense and libation to the nine dead *Nb snw Bnnw Hnty-Bhdt Nb* gods of Edfu (=souls of Behdet). *hwt-w’rt*

Philopator offers incense and
libation to nine mummiform divinities.

E. 11, 51, 3 - 52, 9 B3 nb ddw Hry-s f Bnw 'Imnhy 'ntywy

Sth n snw

King Ptolemy IV,

Sth n wh3t

Philopator offers incense and

Sth n wnw

libation to nine mummiform divinities.

Sth n spr-mrw

E. 111, 301, 8—16 B3 nb ddw Hry-s'f Bnw ('I) mnhy Hr-Sdty

[Sth n snw]

King Ptolemy VI

Sth n wh3t

presents incense and libation to

[Sth] n wns²¹

the excellent souls (=the nine divinities).

Sth n spr-mrw

E. 111, {2}, 5—12 B3 nb ddw Hry-s'f Bnw ('I) mnhy Hr-Sdty

Sth n snw

King Ptolemy VI

Sth n wh3t

presents incense and libation to

Sth n wns

the gods of Behdet.

Sth n spr-mrw

E. IV, 83, 4 - 85, 8 B3 nb ddw Hry-s'f ('I) mnhy Hr-sdty

King Ptolemy VI, Philometor *ntr '3 m spat f Nb snw B3*
offers incense and libation to the *ntry Hnty Bhdt Nb hwt w'rt*
nine gods (not mummiform) each
seated on a throne set on a podium.

E. IV, 102, 17-103, 13²² P3 ntr n hwt ntr wr n Bhdt

Ptolemy VI, Philometor offers "Who has his being in
incense and libation to the god of *T3 tm* before the ancestors"
the great temple of Edfu, a human- (E. IV, 103, 10)
headed divinity,

"The burier of the souls
(or who buried the souls) in

8. *Hnty-Bhdt* " (26) Words to be said by *Hnty-Bhdt*, who resides in *3ht-hh* of the gods, who is at the head of the great ennead." (E. IV, 85,4)

9. *Nb-hwt-w'rt* " (27) Words to be said by the lord of Avaris (*Hwt-w'rt*), residing in Behdet, who conceals his body in *Wbn-Hr*" (E. IV, 85,5)

A vertical line behind the nine ancestors :

" (28) The excellent souls are in Behdet, being concealed in the mansion of *snbty*, protecting Mesen, guarding the mansion of the falcon, driving away evil from the place of piercing. They are the lord(s) of the necropolis, the rulers of the desert plateau, whose honoured mummies are buried in the desert (lit. 'the desert is joined with their excellent mummi(es) ' (E. IV, 85, 7--8)

REVIEW OF THE TWELVE TEXTS DEALING WITH THE MYTHICAL ANCESTORS

NAMES OF THE DIVINITIES

E. 1, 173,3 - 174.7 *B3 nb ddw Hry-ss f Bnnw 'Imnhy [ntywy]* ²⁰

Sth n wh3t

King Ptolemy IV,

Sth n n3 snw

Philopator presents two adzes of Anubis to Osiris accompanied by Isis, both seated enthroned upon a podium, behind them stand nine mummiiform gods.

Sth n wnw

Sth m spr-mrw

E. 1, 382, 4-15

King Ptolemy IV,

They abiding in Behdet [without] perishing forever upon earth and for the duration of the gods (or in the boundaries of the gods)" (E. IV, 83, 13—84,6)

1. *B3 nb ddw* " (19) We give thee the span of life which we spend in the otherworld like Re upon the seat of Horus.

Words to be said by Banebdeh, the great in Behdet, his mummy is of 86 cubits" (E. IV, 84, 7—8)

2. *Hry-s. f* " (20) Words to be said by Harshaphes, the great god, of great dignity, residing in Behdet, the width of his body is 9 cubits" (E. IV, 84, 9—10)

3. *Imnhy* " (21) Words to be said by the skillful buche-god, in *3ht-hh* of the strong arm, with the skin of baboon," (E. IV, 84, 11—12)

4. *Hr-sdty* " (22) Words to be said by Harshedit, the great, the great god, residing in Behdet, the width of his body is [13 cubits] " (E. IV, 84, 13)

5. *Nir-'3-m-sp3t f* " (23) For recitation by the great god in his nome, who loves his father, the ruler, the possessor (owner or lord) of 31 cubits" (E. IV, 84, 14)

6. *Nb smw* " (24) Words to be said by the lord of the trees, the holly one, who conceals himself and who hides his corpse in the southern Behdet" (E. IV, 85; 1—2)

7. *B3-ntry* " (25) Words to be said by the *B3-ntry*, the self created, great of power, with shining radiance" (E. IV. 85,3)

Who have their being in?

Whom their father protected afterwards.

These are the offsprings of the soul which is in the sky.

The youths of the Table god *tty* (or of the horizon god *3hty*).

The gods who cross the sky.

The aged ones of the shining one (or of the illuminator of the land *psd-t3*).

Who have become old

The offspring(s) of Horus

Who came forth from him.

Who visits their tomb in the Throne of Re, and whom the burial ground embraces in *3ht-hh*.

Who have gone to the underworld in *Wbn-Hr*.

Whose abode is hidden in the abode of eternity.

Who are buried in them in the underworld.

Whose [embalming booth] is in the pure mountain.

Pure are the excellent souls who are in this land.

Of the prominent position in the presence of Osiris 19.

Re commanded to conceal their crypt (or Re commanded that their crypt has to be concealed).

The land was blessed from the very time of their concealment.

The Behdetite reaches Behdet to their Ka(s) that he may pour out libation for their excellent corpses, and the mistress of Dendera visits the place where their majesties are, in order to make offerings to their divine soul(s).

For recitation : The pleasant perfume comes to you from Nekhen in order that your nostrils may inhale it. I cause a high inundation to issue for you from the source. I flood your altars with it. I make libation for you with what the two sisters bring (namely) the desired incense and libation. (*E. IV, 83, 4—7*).

B. The king : “ (15) King of Upper and Lower Egypt (heir of the two shining gods, chosen of Ptah, justiciar of Re, living image of Amun) (the beneficent god, son of Re (Ptolemy, may he live forever; beloved of Ptah). The beneficent god. The good *nswty*-¹⁸ priest of the tired ones, the *w'ḥ*-priest and the mortuary priest of the living (or divine) souls. The son of Re (Ptolemy, may he live forever, beloved of Ptah) is upon his throne, rejoicing in Pe and Mesen, taking his insignia, acquiring years, pouring out libation to those who are in the netherworld. He is like Horus, the burier of those who are at rest, lord of the inhabitants in the entry of the west.”

Behind him : “ (16) May all protection, life, dominion surround him like Re forever”.

Above him is the solar disk :

“ (17) The Behdetite, the great god, lord of heaven”.

(*E. IV, 83, 8—12*)

C, Divinities : “ (18) For recitation :

The gods of Bahdet.

The Children of H-rakhty, sacred in their abode in the divine mound.

Who came forth from Re.

6. *Sth* " (9) (Words to be said by Seth of the trees. I give thee the whole circuit of what the lord of all has made". (E. 11, 52, 4).

7. *Sth* " (10) Words to be said by Seth of the Oasis. I give thee what the left eye beholds at night". (E. 11, 52, 5).

8. *Sih* " (11) Words to be said by Seth of *Wnw*.¹⁴ I give thee every place to the limit of the sun shine". (E. 11, 52, 6)

9. *Sth* " (12) For recitation by Seth of *spr-mrw* ¹⁵. I give thee all what the Two Shining Ones see". (E. 11, 52, 7).

A vertical line behind the divinities :

" (13) These are the great and holy gods, who are upon the hill side, they are the august souls, ¹⁶ namely the children of Atum, Horus and Hather being their ¹⁷ funerary priests". (E. II, 52, 8—9)

The second scene is represented on the exterior of the Naos, west wall, second register. In this scene we find that the king is represented on the right, standing, facing left, wearing the Double Crown, presenting incense and pouring libation to the nine divinities (=the ancestors) who sit in front of him, facing right, each one of them seizes in his right hand the *'nh*-sign and holds in the left hand the *w3s*-sceptre. (E. IV. 83, 4 — 85, 8); pls. IV—VII.

The scene is entitled in this way :

A. Title and formula : " (14) Presenting incense and libation.

concealed in their crypt on the hill side to the south west of *D63*. When the god set his seal to their (destiny)? before their earthly span had been completed, their souls winged their way to heaven, so that they might live among the stars. The heart of Re became sad at seeing what had happened to his children, and his majesty ordered that their corpses should be adorned in the place where they (=nen) treat them, to bandage (them) in Behdet, to conceal their corpses there, and to drive calves ¹² to tread upon their tomb. The sacred grove concealing their crypt like that which is in Heliopolis ¹³, namely the great divine mound of Behdet which hides the (corpses of the) caverns. Re goes there, his diadem goddess being with him in order to salute his children the great august and holy corpses that rest in Behdet always. When their offering has been made at the entrance to their crypt they live (again), they are happy and praise them and shey (Re and Hathor) hear their (i.e. the ancestors) petition the time of their return occurs". (*E. II, 51, 9 - 15*).

1. *B3 nb ddw* " (4) Words to be said by Banebdeh. The first of his brothers. I give thee the length of life of Re as king". (*E. II, 51, 16*).

2. *Hry-s f* " (5) Words to be said by Harshaphes. I give thee the kingship of Atum while wearing the Double Crown". (*E. II, 51, 17*).

3. *Bnnw* " (6) Words to be said by Benenw (=the phoenix), the self-created. I give thee the years of the lord of all as a ruler". (*E. II, 52, 1*).

4. *'Imnhy* " (7) Words to be said by Imenhy (=the butcher-god). I cause thee to renew thy youth like Khepry". (*E. II, 52, 2*).

5. *'ntywy* " (8) Words to be said by Antywy. I give thee what the right eye sees by day". (*E. II, 52, 3*).

seems very difficult, because neither the time nor the space allows us to make it. But a quick review ⁹ concerning the twelve texts of these ancestors seems, also, very useful; taking two ¹⁰ of them as examples: the first one belongs to the earlier versions, while the second belongs to the later versions to support this theory from one side and to throw more light on their aspect from the other side

The first text is located in the second Hypostyle Hall of Edfu Temple, south well, 4th register (*E*, II, 51, 3-52, 9). See pls. I-III.

The king is represented on the left of the scene, standing, facing right, wearing the Double Crown, burning incense and pouring libation to the nine ancestor gods of Edfu, who are standing in front of him and facing left in a mummiform.

The scene is entitled in this way:

A. Title: "(1) Presenting incense and libation to [the great gods], and offerings to those who are in their tomb". (*E*. II, 51, 3-4)

B. The King: "(2) Horus, the strong youth"

King of Upper and Lower Egypt (heir of the beneficent god) son of Re (the beloved of Isis). Son of the Behdetite, born of Hather, who pours ⁽¹¹⁾ libation to those who are in Behdet. As long as the good god (the beloved of Isis) exists they will exist as kings at the head of the living. He is like Horus, who makes offerings to the dwellers of the underworld". (*E*. II, 51. 5-8).

C. Divinities: "(3) Words to be said by the living gods, who came forth from Re, the Ennead, the children of Atum,

The reason for this change seems to be that the Egyptians were, of course, well aware that their ruler was a foreigner. They shared the hatred of the priesthood for foreign rule, but they have been conquered, and were waiting for the due moment to overthrow the foreigners and their rule.

Apart from the religious motive the Egyptians were treated badly: there was discrimination between the Greeks and the Egyptians in many ways, in social life, and in military service too⁵. Life was hard in Ptolemaic Egypt as Edly⁶ said and "at no time since their days of imperial greatness in the second millennium B.C. have the Egyptians made first rate soldiers?", until the Battle of Raphia 217 B.C. proved that Egyptian troops, as well as Greeks, could acquit themselves bravely and honourably in war and make a major contribution to the victory. The Egyptians returned to Egypt with new confidence in their military abilities. They also returned in a dangerous frame of mind. Polybios says that they were looking for a ruler, a leader who would bring about their independence, and soon revolts began to break out⁸.

The Battle of Raphia not only restored the confidence and pride of the Egyptians in their military ability, it also led to an even more pronounced rejection of the Seth cult. This is well brought out in our texts of the ancestor gods of Edfu, where as I have mentioned above that it is an extraordinary fact that in the earlier versions at Edfu no less than four of these nine gods are forms of Seth. It is undoubtedly significant that all versions after the middle of the reign of Ptolemy VI, i.e. after the Battle of Raphia, eliminate those forms of Seth and replace them by other names.

To deal with the whole lot of these texts at the present time

called the ancestors. They were nine in number and were of more than normal size, the senior one for instance, the god Banebbed, having a mummy of 36 cubits, i.e. approximately 75 feet. They are named to us as well.

These ancestor gods were none of them of local origin, but it is of the utmost interest, particularly for the history of the kingship, to note that they were all Upper Egyptian and that not one of them was from the Delta.

We are told also that they died in Edfu and they were embalmed and buried there at the express orders of Re in order to prosper Egypt.

There was a procession to an upper temple, sacred mounds and sacred grove associated with them, all these lay on the desert edge to the west or south west of the ancient town and temple of Edfu.

The procession to the upper temple was to enable Horus and Hathor to visit a necropolis, not a necropolis of ordinary mortals but one in which were buried the divine souls to whom special offerings were made. Horus and Hathor visited them, the texts tell us, because they were the mortuary priests of these divine souls.

These Mythical Ancestors, as we have just mentioned, were nine in number and they were named for us too, but it is an extraordinary fact that in the earlier versions no less than four of them are forms of Seth. This is indeed remarkable in the Ptolemaic Period when the Seth cult was particularly unpopular, and above all at Edfu where the main emphasis is always violent enmity towards Seth. This paradox was apparently appreciated, for the later versions show that the Seth forms are replaced by others, though in a very disguised way.

In the same time, it is not inappropriate that this essay, as well as the previous ones³, should close the discussion of these ancestors. In the preparation of it I have been increasingly impressed by immense part played by the ancestors and the ancestor cult in the institution of kingship in Pharaonic Egypt. So, it is only a preliminary study to introduce these Mythical Ancestors to the reader, waiting for the due time to present a complete study to cover both of them i.e. the Royal Ancestors ; and the Mythical Ones.

To introduce the Mythical Ancestors, we are lucky enough to find a series of no less than twelve special texts from Edfu Temple which throw abundant light on them⁴.

Who were these beings ?

Why were there processions to visit them ?

What was their role ?

Where was their burial place ?

Our special group of texts leave us in no doubt as to the answer to all these questions.

Most of these texts are in scenes of burning incense and pouring libation, the incense symbolising the offering of food to the gods, and the libations that they had been given life and strength.

Fortunately it is not hard to find an answer to our questions. The divine souls, we are told repeatedly were the children of Re, who came forth from Atum, sometimes they are simply

Two texts dealing with the mythical ancestors*

By

Mohiy Eldin Ibrahim

I have divided the ancestors, before, ¹ into two groups :

1. The Royal Ancestors i.e. the kingly ancestors or in other words the dead kings, or still much better the divine corporation of which the kings on dying, became a member.

The evidence that has been discussed before, in a brief way, suggests that the kingship of the reigning king resided in his predecessor. In other words, his kingly office is derived from and inherent in his ancestors, and it was in the establishment and preservation of the direct link with the ancestors that his claim to rule resided

2. The Mythical Ancestors or as they sometimes were called the "Divine Souls" or the "Children of Re" or simply the "Ancestors", the subject of our present study.

I should like to remind the reader that these are the ancestors whom we have met before in the Festival of Behdet within the framework of the Festival of the Sacred Marriage ².

* E. Refers to Edfu, the numbers without brackets refer to the Footnotes while those in brackets refer to the transliteration.

EGYPTIAN HISTORICAL SOCIETY

EGYPTIAN HISTORICAL REVIEW

Vol. 24

Library of the
Bibliothèque de l'Institut
1977

Cairo (A. R. E.)

